يوسف زيدان

متاهات الوهم

متاهات الوهم

متاهات الوهم

يوسف زيدان

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: تاريخ / فكر / مقالات

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٣١٦٢/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3213-1

يوسف زيدان

متاهات الوهم

دار الشروق

ترنيمةٌ

الحرفُ حمَّالُ احتمالاتٍ،

وأحوالُهُ محيِّرةٌ

.. حين نحبو إليه، يحنو

فيمنحُ المحرومَ،

ويُفرحُ المحزونَ،

ويحوطُ الوحيدَ،

ويحتضنُ الحائرَ

ثم يحلِّق نحو الأحلام المستحيلةِ، حيث تُمحى الحدودُ المحذِّرةُ

.. وحين نحيدُ عنه، يمحو

يمحقُ أرواحنا

يحتُّ أحجارنا

يُحيل الحياةَ حُفَرَ جحيمٍ، حِمَمها مُحجِّرة

.. الحروفُ للأرواح حبسٌ ساحقٌ ومِلحٌ حارقٌ، أحيانًا

وأحيانًا، حلاوةٌ

وحريةٌ، وحُبٌّ، بَحرٌ، وارتحالاتٌ متحرِّرة

مقدمـة

في زمن البدايات، كنتُ شغوفًا بكتابة «المقالات» لكونها السبيل الأنسب للبوح المباشر بشوارد الأفكار والشواغل، وكانت أولى مقالاتي قد نُشرت بجريدة الأهرام بعنوان «تراثنا بين المحققين والبيروقراطيين» أيام كنت في العشرينيات من عمري، وبثثتُ فيها بعضًا من مظاهر العنت والويلات التي يلقاها الباحثون في مجال المخطوطات، على يد العاملين في المكتبات العريقة وفي دار الكتب المصرية على وجه الخصوص. ولسنواتٍ طوالٍ تالية، اقتصر نشر مقالاتي على الجريدة المذكورة (الأهرام) التي كانت تحظى آنذاك بكثير من الرصانة والوقار والاحترام، مما حدا بي للاحتذاء بهذه الصفات في كتاباتي. بقدر المستطاع بالطبع، وبحسب ما رأيته أيامها صوابًا. وفي بداية العقد الأخير من القرن العشرين، الحزين، كتبتُ لفترةٍ مقالات أسبوعية في عدةِ جرائد خليجية، وأسعدني أنهم كانوا يدفعون مكافآت مالية كنت أراها كبيرة، وكنتُ أُسلسل المقالات لتصدر لاحقًا في كتاب، مثلما هو الحال في كتابي «التراث المجهول».

وجرى أمرٌ لا مجال الآن لذكره، دعاني إلى قطع الكتابة في غير الصحف المصرية، والاقتصار على قليلٍ من المقالات التي أكتبها بين حينٍ وحين، لإفساح أوقاتي للصناعات الثقافية الثقيلة (تأليف الكتب، تحقيق النصوص التراثية، عمل الدراسات المتخصصة، إقامة المؤتمرات والندوات الدولية في المجالات التراثية، بناء المحتوى الفكري لمكتبة الإسكندرية.. وغير ذلك) ومع انشغالي التام وانهماكي الذي ندمتُ عليه لاحقًا، من أجل «مكتبة الإسكندرية» التي كانت أملًا واسعًا ثم صارت ألمًا

موجعًا عقب ثورة يناير ٢٠١١؛ كنتُ قد توقفت تمامًا عن كتابة المقالات الصحفية خلال السنوات الخمس الأولى من الألفية الجديدة، وبعد إلحاحٍ من جريدة «الوفد» كتبتُ لمدة عامين مجموعة المقالات التي أصدرتُ المجموعة الأولى منها في كتابي (كلمات: التقاط الألماس من كلام الناس) الذي صدر عام ٢٠٠٨، وهي السنة ذاتها التي ابتدأت فيها كتابة مقالاتي الأسبوعية بجريدة «المصري اليوم» وجعلتها في موضوعات مترابطة، كنتُ أكتبها متسلسلةً على هيئة «سُباعيات» هي أصولُ فصولِ هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، الذي هو الكتاب الأول من ثلاثة كتب، كل منها يحتوي على سبعة فصول.

وبطبيعة الحال، فقد اقتضى نشر «السُّباعيات» في هذه الكتب الثلاثة، معاودة النظر في بعض الأفكار المنشورة بالمقالات وإعادة بناء كثير منها، على النحو المناسب للنشر في كتاب. بما يتضمنه ذلك من كتابةٍ جديدة وتعديلات عديدة، لكثير من المواضع. مع حرصي على استبقاء الفقرات (التوثيقية) كما هي من دون تعديل، لتكون بمثابة شهادة مباشرة على مجريات أمورٍ حدثت بمصر والمنطقة العربية، أثناء كتابتي هذه المقالة أو تلك. وكنتُ أرنو من خلال الكتابة الأسبوعية إلى إضاءة منطقة معتمة في الوعي العام، أو إعادة بناء بعض التصورات المغلوطة لعديد من الوقائع.

وخلال إعدادي لهذه الكتب الثلاثة، كانت ترنُّ في أذني عبارة «العماد الأصفهاني» وتتردَّد أصداؤها في أعماق ذاتي، حيث يقول هذا الرجل النَّابه: «إنه لم يَرَ أحدٌ كتب كتابًا، وعاد إليه (بعد فترة) إلا وقال: لو غيرتُ هذا لكان أحسن، ولو عدَّلتُ ذاك لكان يُستحسن. وهذا دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر».. وهذا معنى عميق، لو كان كاتبه أفصح لجعلَ ختام عبارته: «وهذا دليلٌ على طلب الكاتب للكمال المستحيل».

وقد تزامن إعداد هذه الكتب وإعادة النظر فيما سبق لي كتابته؛ مع وقوع تداعياتٍ عديدةٍ وآثارٍ مريعة لثورة يناير ٢٠١١ معظمها لم يكن متوقعًا، ومعظمها كان متطرفَ النتائج والتأثيرات العامة العميقة. فمن ابتهاجٍ مفاجئ بذلك (الورد اللي فتَّح في جناين

مصر) فأزاح النظام الفاسد المستبد الذي كان يأمل في توريث الحكم، إلى الانهيار المريع في الحالة الأمنية وشراسة ذيول النظام الساقط في معاداة الثورة، يعاونهم في ذلك السفلةُ والجهلةُ والغوغاء الذين راحوا يمرحون كما يشاءون بأنحاء البلاد.. ومن أحلامٍ محلِّقة في سماوات الاستبشار، إلى انكساراتٍ صادمة وانحرافاتٍ في مسار الثورة التي تفرقت مياهُ نهرها، فصارت فورة. ومن تطلُّعاتٍ عالية طموح انقلبت إلى ارتداداتٍ للوراء يصحبها نشيج أمهاتٍ تنوح.. ومرَّتِ الأيامُ مريرةَ التواتر ومرهقةً، فعبرتُ بالفواجع على العموم وعليَّ (بطبيعة الحال) فكان ما كان، مما سأذكر منه طرفًا في فصول هذه الكتب الثلاثة، سباعية الفصول.

وفي هذا الكتابُ الأول من «السباعيات» الثلاثة، نستعرض بعض المدارات التي تأخذ بالعقل الجمعي، الغربي والمصري، إلى التيه الجماعي المؤدي بالضرورة إلى حالة (الخَبل العام) بسبب دوران أفكارنا حول محاور وهمية واعتقادات خيالية لا يؤكدها إلا التاريخُ الرسمي، المغلوط.. والفصول السبعة لهذا الكتاب، تسعى لتبديد هذه «التوهُّمات» وتثير شغف القارئ إلى إعادة النظر في خرافاتٍ تخايل الأذهان، ويؤسِّس عليها وعيٌ مغلوط يتوسَّل بالمغالطات إلى تحقيق الطموحات المرادة من هؤلاء الساعين إلى تجهيل الناس لإحكام القياد حول رقابهم، ومن ثمَّ إلى السيطرة التامة عليهم. وفي الكتاب الثاني «دوَّامات التدين» سبعة فصول أخرى، تعكس جميعها حقيقة المفارقة بين جوهر الدين ومظهر التدين، وهما أمران كثيرًا ما يتناقضان. وفي الكتاب الثالث الأخير «فقه الثورة» تبيانٌ عبر فصولٍ سبعة للمعنى العميق للثورة، واستشراف لمسار الثورات العربية التي صارت فورة، وتأملٌ لما جرى ويجري من حولنا من صحوةٍ مجيدة كانت شرارة ثورةٍ اندلعت على يد الأحرار تحت شمس الضحى، ثم آلت بالليل إلى أصحاب اللحى.

ولأن الإسهاب يستوجب الإغراب، والتطويل يستجلب التهويل، فسوف أختمُ هذه التوطئة بإشاراتٍ موجزةٍ إلى أن الفصول السبعة للكتب الثلاثة لم تلتزم بالترتيب

الزمني للمقالات الأصلية، لا سيما وأن هناك مقالات مفردة كانت كثيرًا ما تأتي «بين سُباعيتين» وقد أدمجتُ بعضها مع سُباعيات أخرى، ورتَّبتُ الفصول بحسب اتساق موضوعاتها، وليس تسلسل نشرها. وبالطبع، قمتُ بعمل التعديلات الأسلوبية اللازمة، وصحَّحتُ ما كان قد وقع عند نشر المقالات من هناتٍ وسقطات، وزوَّدت الصفحات بالهوامش الشارحة كلما دعت الحاجة، من دون تزيُّد في ذلك أو زيادات غير لازمة.

د. يوسف زيدان

الإسكندرية في منتصف صيف العام ٢٠١٢

الفصل الأول

أوهامُ المصريين

للمصريين أوهامٌ يختصون بها، وأخرى يشاركون فيها غيرهم. وبدايةً، فإن مقصودي بالوهم هو باختصار: الاعتقادُ الخياليُّ بصحة أمرٍ ما، والإيمانُ به، ثم المبالغة في تأكيده، من دون أن يكون له إثباتٌ في الواقع الفعلي. ولذلك، فإذا قلنا مثلًا إن «الحبيب الوفي» و«العنقاء» و«الغول» أوهامٌ، فمرادنا من ذلك أنها أشياء يتمناها الناسُ أو يؤمنون بها على نطاق واسع، مع أنها ليست موجودةً في الواقع. فقد كان القدماءُ من العرب، ومن غيرهم، يعتقدون في وجود طائر أسطوري يعيش مئات السنين. وبحسب ما كانوا يتوهَّمون، هو كائنٌ هائلُ الحجم، حتى أنه يخطف بمخالبه الأفيال! وإذا انتهت حياته يحترق ويبقى زمنًا كالرماد، ثم يقوم من رماده ثانيةً ويحلِّق في السماء. هذا الطائر الأسطورى يُسَمَّى في العربية «العنقاء» ويُسمى أيضًا «طائر الفينيق» واسمه في الفارسية «سِيمُرْغ» وله أسماءٌ أخرى في لغاتٍ أخرى.. أما الغول فهو اعتقادٌ قديم عند العرب منذ زمن ما قبل الإسلام، يزعم وجود كائنٍ ضخمٍ يشبه الإنسان لكنه لا يتكلم، وهو مخيفٌ خطيرٌ يظهر في الليل ولا يدخل المدن، وإنما يفتك في الصحاري بالتائهين والمنفردين، وقد روى كثيرون ممن صاروا يُسَمَّون بعد الإسلام «أهل الجاهلية» حكايات خرافية عن لقائهم في البيداء بالغول، وانفلاتهم منه بضربة حظٌ لا تتيسَّر دومًا لكثيرين.. وأما الحبيب أو «الخِلّ» الوفي، فقد أُدخل ضمن المستحيلات الثلاثة، باعتباره وهمًا يتمناه الأصفياء في الأصدقاء، والمحبُّ في المحبوب، لكنه يظلُّ دومًا حلمًا بعيد المنال، وليس له من الواقع الفعلي نصيب.

وبصرف النظر عن المستحيل الثالث «الوفاء» فإن العنقاء والغول، هي من نوع الأوهام الوجودية ذات الطابع الخيالي، كالعماليق عند العرب، والطيطان عند اليونان،

وكزواج الإنس بالجن، وسُكْنَى الآلهة فوق جبل الأوليمب، وتفاعل بعض المهووسين مع العفاريت، وعديد من الاعتقادات التي طالما ملأت النفوس.. وما هي في واقع الأمر إلا أوهام.

وهناك لفظة مهذبة تُطلق على بعض هذه الاعتقادات الوهمية، هي كلمة «الأساطير» التي أشار إليها القرآنُ الكريم، وجعلها مرتبطة بالأولين بحيث يصير المراد من التعبير القرآني (أساطير الأولين) هو تلك الأوهام المسيطرة على عقول الناس، مع أنها ليست حقيقية.. وفي هذا الفصل الافتتاحي، الذي هو في الأصل سباعيةٌ نُشرت تحت عنوانه(١)، نضع تحت الضوء أوهامًا مصرية. منها ما يختصُّ به بعضُ المصريين من أهلنا، كاعتقاد بعض (الأقباط) بأن جبل المقطم لم يكن في مكانه الحالي، وإنما تزحزح عن موضعه منذ زمن الفاطميين استجابةً لدعاء أحد (الصالحين) الذين أرادوا أن يثبتوا للخليفة الفاطمي، أنهم أصحاب الدين الحق. وهي خرافةٌ يرددها (الآباء) دومًا، ولا يوجد لها أي مستند في التاريخ أو في العقل والمنطق.. ومن أوهام المصريين ما لا يختصّ بهم، وإنما يشاركون فيها غيرهم، مثل وهم المخلِّص.

المخلِّص الذي لا يخلِّص

«مجيء المخلِّص، انتظار المخلِّص، عودة المخلِّص».. تعبيراتٌ دالة على أُمنيةٍ مستحيلةٍ كانت الجماعاتُ الإنسانية تلجأ إليها في فترات الشعور الجماعي بالقهر والضيق، لتُضفي على الحاضر أملًا يجعل الحياة محتمَلةً، مهما كان ذلك الأمل وهميًّا. وقد أشرتُ في كتابي «اللاهوت العربي» إلى أن (المخلِّص) فكرة يهودية الأصل، إذ ظل اليهود خلال القرنين السابقين على مجيء المسيح، ينتظرون المخلِّص المسمَّى عندهم (المسيًّا، الماشيح) وهو الذي سوف يحقق وعد الرب لأبنائه بامتلاك الأرض، وهو الوعد الذي بذله الله من دون مبرر، لأبرام «إبراهيم» التوراتي. حين قال بحسب ما جاء في سِفر «التكوين» الذي هو أول الأجزاء الخمسة للتوراة (وهي أعجب

(١) في أواخر صيف العام ٢٠١٠ نُشرت المقالات السبعة، أسبوعيًّا، ابتداءً من اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر.

وأشنع الكتب في تاريخ الإنسانية) ما نصُّه: «لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرضَ، من نيل مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

ولم يفكِّر اليهود في أن هذا (الوعد) هو من الجهة المقابلة (وعيد) للشعوب المستقرة في تلك الأرض الموعودة. فالإله التوراتي يحدِّد هذه الأرض ويَعِدُ بها اليهود، كأنها خاليةٌ من سكانها. ومن هنا صار اليهود في مأزقٍ شديدٍ ما بين رغبتهم في التعلُّق بالوعد الإلهي (الوهمي) وظروفهم التاريخية والمعاصرة (الفعلية) وفقًا للظروف والمتغيرات الدولية التي انسحق فيها اليهود أيام السَّبي البابلي، وأيام تدمير الرومان لعاصمتهم «أورشليم» التي اسمها المسيحي «إيليا» ثم صارت عند المسلمين «القدس». وأيام الفتك المسيحي المريع باليهود في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي عقابًا لهم على مساعدتهم للفرس، فضلًا عن غزو المسلمين لهم في ابتداء شأن الإسلام. غير أن المسلمين كانوا أرحم باليهود من المسيحيين، فلم يعرف تاريخ الإسلام قرارًا إمبراطوريًا كهذا الذي أصدره «هرقل» ليُلزم فيه اليهود باعتناق المسيحية وترك ديانتهم اليهودية، وإلا أحلَّ المسيحيون دماءهم[1]. ولم يقم المسلمون خلال تاريخهم الطويل، بمذبحةٍ عامة (مَقْتَلة) كتلك التي فتك فيها المسيحيون باليهود، في غمرة الابتهاج بعودة الصليب المقدس (صليب الصلبوت) إلى مكانه بإيلياء (القدس) بعدما كان الفرسُ قد انتزعوه زمنًا، ثم أعاده الإمبراطور هرقل بعدما انتصر في حربه ضد الفرس.. وليس المراد بصليب الصلبوت، إلا قطعة من الخشب كان يُعتقد أنها بقيت من الصليب الذي عَلَّق عليه الرومانُ السيدَ المسيح، وقد عثرت عليه «هيلانة» أم الإمبراطور قسطنطين الكبير، بعدما دلَّها عليه بعض العامة في إيلياء (أورشليم، القدس) فأقامت فوقه كنيسة القيامة في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، ووضعت قطعة الخشب في صندوق ظل محفوظًا هناك، حتى انتزعه الفرسُ في بداية القرن السابع الميلادي، ثم أعاده هرقل، ثم ضاع بعد ذلك. العجيبُ هنا، أن المعروف تاريخيًا والثابت من الروايات، أن الرومان كانوا يضعون قتلاهم على الأعمدة، لا الصُّلبان.

---

(١) قاعدة «إهدار دم المخالفين» لم تكن في واقع الأمر فكرةً إسلاميةً حسبما يظنُّ كثيرون، وإنما أصلها يهوديٌّ صرَّحت به التوراة بوضوح، في سياق ما يُعرف بحروب الرَّبّ، ثم بالغ المسيحيون في تطبيق هذه القاعدة الوحشية، حسبما سنذكر لاحقًا.

المهم الآن، أن اليهودية سطعت فيها بقوةٍ فكرةٌ وهمية ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد، تقول إن «وعد الربِّ» لن يتحقَّق، إلا مع ظهور بطلٍ يهودي أو نبيّ أو مهديٍّ منتظر أو ماشيح، وهو الذي سيكون ملكًا لليهود، سوف يعيد مجد المملكة اليهودية المندثرة (مملكة داود وسليمان) التي بالغ المتأخرون في تصوير عظمتها واتساعها، مع أن هذه «المملكة» لم تكن بحسب المصادر العبرانية المبكرة، تزيد في مساحتها عن أي مدينة صغيرة في ذاك الزمان.

وقد ذكرتُ في كتابي «اللاهوت العربي» كثيرًا من النصوص الدينية المقدسة، الواردة في أواخر العهد القديم. وكلها تدل على هذا «الانتظار» اليهودي للمخلِّص، وذكرتُ عديدًا من الذين ادَّعوا أنهم ذلك (المخلِّص) منهم «ثوداس» و«النبي المصري» و«ميناندر» و«سيمون الساحر» وغيرهم ممن زعموا أنهم مخلِّصون، لكنهم لم يخلِّصوا، وإنما بطش بهم الرومان مثلما بطشوا بالسيد المسيح وصلبوه، بحسب الاعتقاد المسيحي العام، أو شُبِّه لهم بحسب ما يؤكده الإسلام.

وهكذا كان السيدُ المسيحُ، هو أحد تجلِّيات «المخلِّص» اليهودي. وقد صوَّرته الأناجيل على تلك الصورة، وأكَّدت عليها بتأكيداتٍ لا تطيق الشك، ولا تحتمل الترجيح، فالمسيح «يسوع» يهوديٌّ صريحٌ، وهو الذي قال بحسب إنجيل متى: «لم أرسل إلا لخراف إسرائيل الضالة». وقال لتلاميذه المعروفين في التراث المسيحي باسم «الرسل» وفي التراث الإسلامي بوصفهم القرآني «الحواريين» ما نصُّه: إلى طريق الأمم لا تمضوا.. والمقصود بالأمم هنا، غير اليهود.

ثم تطوَّرت المسيحية فصارت خلاصًا لكل البشر، وليس لليهود فحسب، بمعنى أن المسيح صار «الفداء» للإنسانية كلها، لأن المجتمعات الإنسانية كانت كلها تحتاج إلى هذا الخلاص، وليس اليهود وحدهم، نظرًا إلى قتامة العالم آنذاك وفساد الحكم الروماني وتردِّي الأوضاع في أنحاء الإمبراطورية.. وانتشرت المسيحية باعتبارها «بشارة» من السماء للإنسان، لكن الواقع الإنساني لم يكفَّ اضطرابه وظلمه للمساكين والضعفاء والمغلوبين، فكان على هؤلاء لكي يحتملوا واقعهم المرير، أن ينتظروا مرةً

أخرى «عودة المسيح» وهو الاعتقاد الذي اتخذ أشكالًا كثيرة، قديمة ومعاصرة، منها ما تعتقده جماعة «شهود يَهْوَه» الحالية، وهي جماعة تمزج بين اليهودية والمسيحية، وتدعو الناس إلى العمل من أجل التعجيل بعودة المسيح، وتجعل ذلك مشروطًا بإقامة هيكل سليمان من جديد، وهو ما يقتضي إزالة المسجد الأقصى من مكانه[1]. وبالطبع، فإن هذا الأمر من شأنه تأجيج أوار الحرب بين المسلمين وغير المسلمين، باعتبار أن هذا «المخلِّص» الذي ينتظره غير المسلمين، لا ينتظره المسلمون المقدِّسون للمسجد الأقصى (أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين).

غير أن التراث الإسلامي عرف أيضًا منذ زمن قديم، فكرة المخلِّص. ولكنه جعلها تحت عنوان (المهديِّ المنتظَر) الذي بحسب التعبير العربي الإسلامي، الشيعي خصوصًا: سوف يملأ الأرض عدلًا بعدما مُلئت جورًا وظُلمًا.. ولم يختصّ الشيعة بالاعتقاد في المهديِّ المنتظَر، وإنما ظهر أيضًا ولكن بدرجة أقل وضوحًا، في المعتقدات الإسلامية السُّنِّية. لكن الشيعة عبر تاريخهم الطويل، عانوا من الاضطهاد ومن مرارة الشعور بالظلم، بأكثر من السُّنَّة. ولذلك ازدهرت فكرة المخلِّص (المهدي المنتظر) عند الشيعة، بأكثر مما عليه الحال عند السُّنة.

إذن، لا تأتي فكرة المخلِّص من فراغ، وإنما تأتي من الفراغ السلطوي لجماعة مقهورة تتأسَّى (من الأسى) بالتعلُّق بالأمل الذي يمتد في أذهان الناس قرونًا، ثم يتوارثونه جيلًا بعد جيل، فيشيع في النفوس ذلك الأمل (الخلاصي) المخفِّف لوطأة الواقع. ويبدو لي، وقد أكون مخطئًا، أن فكرة «المخلِّص» ليست قاصرة على أتباع اليهودية والمسيحية والإسلام، فحسب، بل هي أملٌ إنساني عام. نجده أيضًا عند غير هؤلاء، تحت مسميات غير تلك، منها مثلًا «المنقذ» وهو اللقب الذي أُعطي لأول

---

(١) شهود يهوه، طائفةٌ مسيحيةٌ ظهرت سنة ١٨٧٠ في ولاية بنسلفانيا الأمريكية، مع جهود وأفكار «تشارلز راسل» الداعية إلى نبذ فكرة التثليث (الثالوث) ورفض عديد من الاعتقادات المسيحية، مثل شفاعة القديسين وإحراق العصاة في الجحيم وأفضلية شخص على آخر.. وعلى الرغم من الصورة القاتمة التي رسمها الإعلام العربي، فإن جماعة «شهود يهوه» مسالمة، ولا تهدف إلا لغاية واحدة، هي التعريف بالإله «يهوه» والتبشير بملكوت السماء في الأرض.

ملوك البطالمة «بطليموس بن لاجوس» الذي أنقذ مصر والإسكندرية من الفوضى التي كان يمكن أن تُحدثها وفاة «الإسكندر» المفاجئة، حيث قام بطليموس الأول الملقب باليونانية «سوتير» بجهد هائل في تثبيت أركان «الدولة» ولذلك عُرف بهذا اللقب، الذي يعني باللغة العربية: المنقذ أو المخلِّص.

وهناك نماذج كثيرة من تاريخ البشر، تدل على أن فكرة المنقذ (المخلِّص) هي أملٌ إنساني يراود معظم الجماعات المقهورة أو المعرَّضة للخطر أو التي تعاني من مشكلات كبرى، إذا طال عليها الزمان وهي تعاني من ذلك، من دون أملٍ (فعليٍّ) في إصلاح الأحوال. غير أن خطورة هذا الأمر لا تكمن في كونه أملًا مريحًا للنفوس، وإنما لأنه يقعد بالناس عن العمل اللازم لخروجهم مما يعانون، على اعتبار أن «المخلِّص» هو الذي سوف يقوم بذلك.. لكن المخلِّص لا يخلِّص، ويبقى دومًا مثل وهمٍ لا يفعل في الواقع، إلا تبرير القعود عن العمل.

وهناك من يعتقد أن «التاريخ» هو ترفٌ فكري أو معرفة نظرية مجردة، مع أن التاريخ في واقع الأمر هو الخطوة الأولى لفهم الواقع المعيش، في جملته وتفصيلاته. ولسوف أعطي على ذلك مثلًا واحدًا، يتصل بفكرة المخلِّص:

لن تجد في المجتمعات الأوروبية الحالية، أو الغربية المتقدمة عمومًا، حضورًا في أذهان الناس لفكرة المخلِّص. وذلك لسببٍ بسيطٍ هو أن هذه الجماعات عرفت أن (الحلَّ) لا يأتي إلا مع حركة الجماعة نفسها. وفي المقابل من ذلك، نرى الناس في بلادنا لا يزالون ينتظرون الحلول التي تأتي من خارجهم، فمن ذلك النظر إلى «حسن نصر الله» باعتباره المخلِّص العربي من الظلم الإسرائيلي، ومن ذلك ظهور العذراء كلَّما ساءت الأحوال العامة وتدهورت، ومن ذلك هذا الإهاب الوهمي الذي اتخذه «محمد البرادعي» فور إعلان نيته الترشُّح للرئاسة (قبل الثورة المصرية في يناير ٢٠١١) أعني إهاب «المخلِّص» الذي يأتي من بعيدٍ لتخليص الناس مما يعانونه. فقد فوجئتُ بكمٍّ هائل من التأييد الشعبي، والاستجابات السريعة التي ظهرت على الإنترنت (فيس بوك تحديدًا) لخطوة البرادعي، وكأنه المخلِّص الذي أتى من بعيد على حصان «نوبل»

محمولًا بأجنحة سمعته الدولية الطيبة، لينقذ مصر من شبح التوريث ومن مشكلاتها الكثيرة السياسية.

وللوهلة الأولى، لم يسأل المؤيِّدون للبرادعي عن خبرته السياسية، وعن برنامجه، وعن إمكانية ترشُّحه القانونية، وعن رؤيته الاجتماعية والفكرية والسياسية لمستقبل البلاد. وإنما انتبهوا إلى ذلك، بعد فترة من «الفرحة» المفاجئة بخبر الترشُّح. ولا أعلم صراحةً، إن كان البرادعي سوف يترشَّح بالفعل أم لا، وسوف ينجح إذا ترشَّح أم لا، وسوف ينقذ الناس إذا نجح أم لا؛ وإنما ما يشغلني هو خطورة الاستجابة (الفورية) التي حدثت عقب تردُّد الأنباء عن نيته الترشُّح، فتطابقت صورته في الأذهان مع وهم المخلِّص(1).

وبالطبع، فإن الوهم المصري العام الداعي إلى انتظار المخلِّص، لم يُولد به المصريون المعاصرون، وإنما تم تغذيتهم بهذه الفكرة شيئًا فشيئًا، وعبر طرقٍ كثيرة موحية لهم بأن كل ما عليهم هو الانتظار.. والأمل.. والسكون.. والفرحة بالمخلِّص حين سيأتي، لا محالة، خصوصًا أن الضجة الكبيرة التي ثارت في السنوات الماضية تحت مسمَّى (الإصلاح) انتهت إلى لا شيء. وفيما يلي، سوف أستعرض بعض الطرق، أو بالأحرى «الحيل» التي خيَّلت للناس أن المخلِّص آتٍ لا محالة، وكرَّست في وعينا العام وهمًا عميقًا يدعونا إلى الصبر على المعاناة وانتظار المخلص، بدلًا من العمل لتخليص أنفسنا.

الناصر أحمد مظهر

منذ سنواتٍ بعيدةٍ قال لي واحدٌ من أساتذة الفلسفة المصريين، مازحًا، إنه اشتغل في شبابه بفن التمثيل. ولما استفهمت منه، مستغربًا أنني لم أره في أيِّ مشهد سينمائي، قال وهو يبتسم: ألا تذكر الجموع التي ظهرت في فيلم «الناصر صلاح الدين» لقد كنتُ

(1) بعد نشر المقالة بأيام، أكد د. محمد البرادعي لعديد من الصحف المصرية، أنه ليس (المخلِّص) أو المهدي المنتظر، وأن الواجب على المصريين أن يتحركوا بأنفسهم لدفع الظلم عنهم، بالعصيان المدني مثلًا. لكنه لم يكن يتخيَّل آنذاك أن ساعة (الثورة) باتت وشيكة، ولسوف تندلع بعد أيام معدودات.

واحدًا من هؤلاء الجنود، فأيامها كنتُ مجنَّدًا في الجيش وكانوا يأخذون الآلاف منا للاشتراك في تصوير المشاهد الحربية.

أدهشني يومها أن الجيش المصري يهتم بالتصوير السينمائي، واستغربتُ عند انتباهي إلى أن هذا الفيلم تم إنتاجه سنة ١٩٦٣ أي إن الجنود الذين ساقوهم ليكونوا (كومبارس) هم أنفسهم الجنود الذين سيق بهم قبل ذلك إلى اليمن لخوض حربٍ لا ناقةَ لنا فيها ولا جمل، وهم الذين بعد ذلك انهزموا في فضيحة ١٩٦٧ المسماة تخفيفًا وتلطيفًا، وكذبًا وتلفيقًا «النكسة». لأن المجندين آنذاك، كان الجيش يحتفظ بهم بعد انتهاء فترة تجنيدهم، فيما كان يعرف بنظام (الاستبقاء) وكان الجندي منهم يقضي في «الخدمة العسكرية» فترة قد تقارب العشر سنوات، بينما بقيةُ المصريين مخمورون بكأس البطولات العسكرية (السينمائية) التي تمجِّد الجندية.. ومجدَّدًا، تذكرت أمل دنقل حين قال في قصيدته:

قلتُ لكم في السنة البعيدة،
عن خطر الجندي، عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة.
يحرس مَنْ يمنحه راتبه الشهريّ
وزيَّه الرسمي،
ليُرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء، وبالقعقعة الشديدة.
لكنه إن يَحِنِ الموتُ فداءَ الوطن المقهور والعقيدة
فرَّ من الميدان، وحاصر السلطان، واغتصب الكرسيّ،
وأعلن الثورة في المذياع والجريدة
قلتُ لكم، لكنكم لم تسمعوا هذا العبث
ففاضت النار على المخيمات، وفاضت.. الجثث(١).

ومثل غيري من المصريين والعرب، شاهدتُ في طفولتي فيلم «الناصر» مرارًا، لأنه كان أشبه بالمقرر الدراسي الذي يعرض دوريًّا في المناسبات «القومية» أيام كانت

(١) لطالما تردَّدت في نفسي هذه الأبيات، وذكرتها في كتاباتي، لا سيما بعد اندلاع ثورة يناير وما جرى بعدها، حسبما سيأتي بيانه في الكتاب الثالث من هذه السباعيات.

هناك قناة تلفزيونية واحدة، ثم قنوات قلائل، تواظب على عرض الفيلم بانتظام، حتى ارتبطت فكرةُ «القومية» في الأذهان بفيلم «الناصر» المرتبط بدوره بشخصية الرئيس «عبد الناصر» المرتبط بالحلم العربي العريض «تحرير القدس».

والتجارةُ في الأحلام من أربح التجارات، وأكثرها خسةً. ولذلك فقد احتشد لهذا الفيلم «الحلم» أو حُشد له، كبار صناع السينما آنذاك. فمع المخرج العبقري يوسف شاهين، قام بالديكور وعمل المناظر، العبقري: شادي عبد السلام. أما القصة والسيناريو والحوار، فقد قام بها ثلاثة من الكُتَّاب الكبار «محمد عبد الجواد، ونجيب محفوظ، وعبد الرحمن الشرقاوي» وكان الممثلون «النجوم» كُثرًا، منهم: صلاح ذو الفقار، ونادية لطفي، وحسين رياض، وعمر الحريري، وزكي طليمات، وحمدي غيث.. وعلى رأسهم الفارس: أحمد مظهر (صلاح الدين الأيوبي).

وقد كان أحمد مظهر في الأصل، أي قبل احترافه التمثيل، ضابطًا في سلاح الفرسان المصري. فلا غرابة في أن يُجيد مع مخرج مثل يوسف شاهين، تمثيل دور الناصر صلاح الدين، ويجسِّد صورته في الأوهام على نحوٍ مثير. ولذلك، فلا يكاد أحدنا يسمع اسم «صلاح الدين الأيوبي» إلا ويتذكر على الفور، وبشكل لا إرادي، مشهد أحمد مظهر وهو يصيح من فوق فرسه وقد ارتدى الملابس التاريخية، داعيًا لتحرير أورشليم القدس.

ومضت بنا الأيامُ فادحةً، حتى جاء اليوم الذي كففتُ فيه عن رؤية ذلك الفيلم، بعدما رأيتُ أحمد مظهر في لقاءٍ تلفزيوني يبكي بمرارة، لأنهم سوف يخرِّبون فيلَّته التي بأطراف القاهرة، لأنها تعترض طريق الكوبري الواصل بين القاهرة ومدينة أكتوبر عبر الطريق الصحراوي، وهي الوصلة التي نعرفها اليوم باسم «المحور».. ومات أحمد مظهر (الناصر) كَمَدًا.

وقد حقق هذا الفيلم (الحلم) نجاحًا جماهيريًا ودعائيًا ساحقًا، في زمن الإعلام الموجَّه، لكنه واجه فشلًا فنيًا ذريعًا وخسارة مالية فادحة، لأن المساندة (الحكومية) في إنتاجه لم تستطع أن تخفِّف من عبء التكلفة المالية «الباهظة» التي أدَّت إلى

إفلاس منتجة الفيلم، اسمها آسيا، لأن الميزانية الإجمالية بلغت ثلاثة وسبعين ألف جنيه مصري، أيام كان للجنيه المصري احترام، وهي ميزانية كانت تكفي لإنتاج خمسة أفلام بحسب المعمول به في ذلك الزمان البائس، المسمَّى اصطلاحًا الستينيات.

وبطبيعة الحال، حرصت الحكومة المصرية آنذاك على تعويض المنتجة (آسيا) عن خسارتها المالية، بإسناد أعمال أخرى «مضمونة الربح» إليها، وتسويق أعمالها الأخرى لتعويض خسارتها. ولكن أحدًا لم يفكر في الخسارة الكبرى التي لحقت بالوعي المصري والعربي العام، بسبب مخيالية هذا الفيلم ومخايلاته وأكاذيبه الكثيرة تالية الذكر. وأرجو من القارئ ألا يفزع مما سيأتي، فيُبادر بالإنكار.

بدايةً.. لم يكن «صلاح الدين» هو ذلك «البطل» الذي تم الترويج له في زمن حكم العسكر، لأنه كان مثلهم عسكريًّا، فالتاريخ يخبرنا بحقائق مغايرة عما عرفناه من فيلم «الناصر».. فمن ذلك، أن صلاح الدين الأيوبي، كان قائدًا خائنًا للسلطان «نور الدين» وهو مولاه الذي أرسله على رأس الجيش من دمشق إلى مصر، لتأمين حدودها ضد هجمات الصليبيين. فترك صلاح الدين ذلك الأمر ومهَّد لنفسه السلطة، ولأقاربه، وأهمل المهمة التي جاء من أجلها. حتى أن السلطان نور الدين جهَّز جيشًا لمحاربة صلاح الدين (المنشق) ولكنه مات ليلة خروج هذا الجيش، فسنحت الفرصة لصلاح الدين كي يستولي على عرش السلطان، واستطاع استمالة بعض القواد وحارب الآخرين، حتى استقام له السلطان. ومن العجيب الدال على شخصية صلاح الدين أنه كان في الوقت ذاته، قائدًا من قواد السلطان نور الدين «السُّني» ووزيرًا للحاكم الفاطمي لمصر «الشيعي»، مع أن الدولتين كانت بينهما خلافات لا تقل عمقًا عما كان سائدًا آنذاك بين المسلمين (أصحاب البلد) والمسيحيين الغزاة الذين اشتهروا باسم الصليبيين.

ثانيًا: بعد مناورات كثيرة ومداورات اضطر صلاح الدين الأيوبي مدفوعًا بالغضب العربي العارم، إلى محاولة اقتحام القدس وإخراج المحتلِّين منها. لكنه لم يفلح في انتزاعها من قبضة الصليبيين، إلا صُلحًا (سنة ٥٨٣ هجرية) ثم أعادها الأيوبيون ثانيةً إلى الصليبيين كهدية، سنة ٦٢٨ هجرية. ولم تكن القدس تُعرف بهذا الاسم الذي

تردَّد في الفيلم كثيرًا، فالمسلمون الأوائل والمسيحيون، لم يعرفوا لهذه المدينة اسمًا إلا (إيليا) أما أورشليم فهي التسمية العبرية للمدينة التي كانت موجودةً قديمًا بهذا الموضع، وهدمها «إيليوس هادريان» وبنى على مقربة من أنقاضها مدينةً أخرى هي «إيليا» أو «إيلياء» نسبةً إليه.. وتم استعادة الاسم العبري على يد المسيحيين، بعد قرون، لإضفاء القداسة على المدينة. أما القدس وبيت المقدس، فهي أيضًا تسمية عربية إسلامية أطلقت على المدينة استنادًا إلى تسميتها العبرية القديمة «بيت هاميقداش».

ثالثًا: احتوى الفيلم الذي كتبه كبار الكاتبين آنذاك، على مغالطات لا يمكن أن يكونوا قد سهوا عنها، ولا بُدَّ (فيما أرجِّح) أن تكون قد أُمليت عليهم. فمن ذلك شخصية «عيسى العوَّام» التي قدَّمها صُنَّاع الفيلم على أنه رجلٌ مصريٌّ مسيحي (يعقوبي) وجعلوه قائدًا عسكريًّا، في وقت كان المسيحيون في مصر والشام يدفعون الجزية مقابل إعفائهم من الالتحاق بالجيش (وهي ميزة لو أتيحت اليوم، لاستفاد منها كثيرٌ من المسلمين والمسيحيين، بل سارعوا إليها).. ثم يصل الإفك السينمائي إلى مداه، حين يقترن عيسى العوام (صلاح ذو الفقار) براهبةٍ فاتنة من الكاثوليك (نادية لطفي) في وقتٍ كان فيه الأرثوذكس، وما زالوا، يرون أن الكاثوليك كُفار. فضلًا عن أن الراهبات لا يرتبطن أصلًا بالرجال، أيا كانت ديانتهم. والأعجب من ذلك والأكثر فكاهةً، أن عيسى العوام الذي عاصر الحروب الصليبية، هو رجل (مسلم) بحسب ما أخبرتنا به المصادر التاريخية، كان ينقل المؤن للقلاع الساحلية المحاصرة، عائمًا، ثم مات في ليلةٍ غريقًا. وإذا بالحمولة التي كان عليه إيصالها، تطفو حتى ترسو في المكان الذي كان من المقرر أن يوصِّلها إليه، فقال معاصروه إن هذا الرجل (المسلم) المسمَّى عيسى العوام، أدَّى الأمانة حيًّا وميتًا.

ومن أجل إرضاء المسيحيين في مصر المعاصرة، المعصورة، بل المهصورة في زمن الستينيات على يد الضباط الأحرار «جدًّا» صار هذا الرجل على يد صُنَّاع الفيلم مسيحيًّا لا مسلمًا، وتم استغلال اسمه «عيسى» لتزييف شخصيته. ولا يفوتنا هنا، أن هذه «الترضية الحكومية» في الفيلم الذي تكلَّف قرابة السبعين ألف جنيه، ارتبطت

آنذاك برغبة الحكومة المصرية (الرشيدة) في إقامة كيان سياسي كنسي مصري، بإعلاء شأن كنيسة الإسكندرية (في القاهرة) ولذلك قدَّمت الحكومة سبعين ألف جنيه مصري أخرى، وقطعة أرض كبيرة بالعباسية، لإقامة «البطرخانة» الحالية. كان ذلك في زمن البطرك الهادئ المسالم الوديع «كيرلس السادس» ولم تكن الحكومة المصرية تدري أن الأمر سوف يتفاقم ليصل إلى ما وصل إليه هذه الأيام، ويتطوَّر إلى ما نشهده مؤخرًا من كلام الجهلة والسفهاء الذين صاروا في غفلةٍ من الزمان يتصدرون وسائل الإعلام.

نعود إلى الناصر أحمد مظهر، للتأكيد على أنه يختلف عن الناصر صلاح الدين، الذي تختلف حقيقته التاريخية عن صورته (السينمائية) في أذهاننا، وهي تختلف بدورها عن صورة الرئيس عبد الناصر بكل ما فيه من فضائل ومثالب؛ لنقول من بعد ذلك كله، إن وهم «المخلِّص الذي لا يخلِّص» كان وهمًا يتم توجيهه تلاعُبًا بالعقول، وتضييعًا لعقل هذه الأمة. وللأسف، فمن أراد أن يرى صورة سينمائية أقرب إلى الواقع التاريخي، وفيها كثير من الفن، فعليه بأن يشاهد فيلم «مملكة السماء» وهو الفيلم الذي لم تنجح الكنيسة المصرية الحالية في إجبار الحكومة المصرية الحالية على منعه، مثلما حدث مؤخرًا مع الفيلم البديع «أجورا» الذي يحكي عن مقتل العالمة «هيباتيا» ويحكي مرحلة مهمة في تاريخ مصر.

وبعد، فلنختتم هذا الكلام بنكتةٍ(١) سمعتها مؤخرًا، تقول: ظلَّ إمامُ مسجدٍ كبيرٍ يدعو الله في صلاة الجمعة قائلًا «اللهم أرسل لنا صلاح الدين لتحرير القدس» فاستجاب الله له، وخرج الناسُ من المسجد فوجدوا صلاح الدين على حصانه، يدعوهم لتحرير «أورشليم القدس» لكنَّ المصلِّين اعتذروا تباعًا عن عدم اللحاق به، لأن أحدهم عنده موعد مع طبيب الأسنان، وآخر مرتبط بحفل عيد ميلاد زوجته، وآخر عليه أن يأخذ أولاده إلى الدروس الخصوصية.. إلخ، فلم يجد صلاح الدين من حوله أحدًا، فصعد ثانيةً إلى السماء. وفي الجمعة التالية، دعا الإمام بعد الصلاة من جديد، قائلًا: «اللهم أرسل لنا صلاح الدين لتحرير القدس، هو والناس الذين كانوا معه».

---

(١) النكتة، في فصيح اللغة، هي: الدقيق من القول.

ومراعاةً لحقوق الملكية الفكرية، فهذه النكتة قالها لي مؤخرًا صديقي المخرج خالد يوسف، الذي أرجو ألا يُضطر يومًا لإتحافنا بفيلم (حلم) عن الظاهر بيبرس أو قطز أو أي «بطل» من هؤلاء العسكريين الذين تؤكِّد حياتهم الحقيقية أنهم كانوا أبطالًا من «البُطلان» وليس من «البطولة».. فالبطولةُ لا تكون فرديةً، وهي لا تتم ولا تؤتي ثمارها إلا بعد خروج «الناس» من الباطل، وبقائهم بعيدًا عن حيل المتلاعبين بالعقول، والزاعقين كذبًا في آذان الناس بالأوهام، والمتهتكين الهاتكين للحقائق المؤسِّسة للوعي العام.. فلعلَّ الله يرحمنا منهم، ولا يتحفنا بجديدٍ منهم ينادي في أهل زماننا بالباطل، قائلًا: «اللهم أرسلْ لنا رمسيس الثاني لتحرير قادش».

الخلافة والبابوية

على الرغم من (الغاغة) التي يثيرها اليوم في مصر، نفرٌ من «الرجال» المتحدِّثين باسم الإله في الأرض، فإن الأمور التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين في هذا البلد، لا تزال أكثر بكثير من الأمور التي تفرِّقهم. ليس على مستوى الواقع المعيش فحسب، وإنما أيضًا على مستوى التاريخ الطويل المشترك الذي صاغ عبر مئات السنين واقعنا المعاصر. وقد أشرتُ إلى ذلك بالتفصيل، في محاضرةٍ عامةٍ عُقدت قبل سنوات قليلة في مكتبة الإسكندرية، جمعت بين البابا شنودة وكاتب هذه السطور، وتحدث فيها «البابا» عن تاريخ كنيسته ومسيرته الرهبانية، بينما تحدثتُ عن حضور المسيحية في التراث العربي الإسلامي. وقد وضعتُ فيديو المحاضرة على صفحتي بالفيس بوك وموقعي على الإنترنت، ليعلم الناس ما كنا نقوله لإخواننا المسيحيين من كلام المحبة، قبل بضعة أعوام.

وقبل بضعة شهور، هاجت النفوسُ بسبب التصريحات التي أدلى بها واحدٌ من هؤلاء الذين يظنون في أنفسهم أنهم (لسان الإله) الناطقون بالحقيقة المطلقة، وما هم في واقع الأمر إلا كائناتٌ فكاهيةٌ تحبُّ إحداثَ «الهوسة» كل حين. وبمناسبة «فكاهي، وهوسة» فإنه في فصيح اللغة العربية، يقال عن الرجل أنه (فَكِهٌ) و(فَاكِهٌ) إذا كان يأكل الفاكهة كثيرًا، وإذا كان ينال من أعراض الناس. وصاحبنا الفكاهي يفعل

هذين الأمرين بإمعان، وليته يكتفي بالأمر الأول منهما، ويرحم الناس من (البُمب) الذي يطلقه في وجوههم كل حين. حتى أنه لم يتورَّع عن وصف المسيحيين المصريين الإنجيليين (البروتستانت) وهم قرابة مليون إنسان مصري، بأنهم والعياذ بالله، أولاد زنا، لأنهم لم يتزوَّجوا بالطريقة التي يراها هو شرعية: مع أن إخواننا «الإنجيليين» الذين وصفهم صاحبنا بهذه الصفة البشعة، هم في واقع الأمر أناسٌ طيبون عقلاء، ولم ير الناس منهم إلا خيرًا. وخيرًا يفعلون حين يتعاملون مع مثل هذه البذاءات التي تُقال في حقهم، بحسب ما أوصاهم به السيد المسيح، ولأنهم فيما أعلم، يراعون وصايا المسيح وتعاليمه الداعية إلى المحبة (حتى للأعداء) فقد ترفَّعوا عن الردِّ على هذا الكلام الوضيع.. أما كلمة «الهوسة» فمرادي منها ليس المعنى الفصيح المشتق من الهوس، وإنما المعنى العاميّ الذي يذكِّرني بلغة (الهوسا) وهي إحدى اللغات غير المفهومة لنا، التي يستعملها بعض سكان المنطقة الواقعة غرب الصحراء الإفريقية. وأعتقد أن وسائل الإعلام المصرية، إذا كَفَّتْ عن توجيه الأنظار نحو أقاويل هذا الشخص الفكاهي، أو عرضتها باعتبارها نوعًا من «الهوسا» الفكاهية أو النُّكات ثقيلة الظل، أو «الفذلكات» الفلسفية لشخصٍ لم يدرس الفلسفة، أو «نفسنة» سخيفة لرجل دين مسكين يظن في نفسه الظنون ويتوهَّم الأوهام. فإننا إذا نظرنا لأقواله من هذه الزاوية، كان ذلك أوفق لنا. لكن الأنسب لأقاويله الجوفاء هذه (الإنجيليون أولاد زنا غير شرعي، المسلمون اليوم ضيوفٌ في مصر.. إلخ) هو أن تُهمل تمامًا حتى لا ينشغل الناسُ بها، ويظنَّ بعض الحمقى والمساكين ذهنيًّا أنها كلام جاد، جاد به أحد المجتهدين السابحين في أوهام القرن الخامس الميلادي.

في القرن الخامس الميلادي، ظهرت في مصر بقوةٍ مسألة البابوية، كقضية مصيرية يموت بسببها البسطاء. وفي القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) ظهرت مسألة الخلافة الإسلامية، التي أثَّرت بدورها في تطور فكرة البابوية، وتأثرت بها. وفيما يلي سوف أستعرض لمحات تتصل بموضوع «الخلافة» وتطورها، وارتباطها بالبابوية، ثم أشير بعد ذلك إلى مسألة «البابوية» وارتباطها بالخلافة. لنرى معًا كيف نتجت أوهامٌ مصرية عديدة، معاصرة، من هاتين الفكرتين القديمتين:

الأصل في «الخلافة» أنها مفهومٌ سياسيٌّ إسلاميٌّ ذو طابع ديني، وأعتقدُ أن اللفظة استُعملت منذ نشأة الدولة الإسلامية، للإشارة إلى نمطٍ من الحكم يختلف عن النظام الملكي. وقد ورد في الحديث الشريف، أن رجلًا دخل على النبي فأخذته الهيبة وراحت ركبتاه ترتعدان (في نص الحديث: أخذ تُرعد فرائصه) فطمأنه النبي بأن قال له: «هوِّن عليك، فلستُ بملكٍ ولا جبار، أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد».

وفي السيرة النبوية والقرآن الكريم، وردَ أن زوجات النبي هُنَّ «أمهاتُ المؤمنين» وهو ما يدلُّ بشكل غير مباشر، على أن النبيَّ هو «أبو المؤمنين» وإلا لما صارت زوجاته أمهاتٍ لهم. وقد استقر في الأذهان هذا المفهوم (الأبوي) للنبي، مع الممارسة العملية للسلطة؛ مع أن القرآن الكريم يقول صراحةً ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ إلا أن الانتماء الأبوي والقَبَلي في العقلية العربية، وضع النبي في مرتبة «الأب» للمؤمنين، وجعل زوجات كلِّ حاكم عربي حتى يومنا هذا بمنـزلة أمهات لمعاصريه، ولذلك لا يتزوَّج أيُّ شخصٍ من أيِّ زوجةٍ تركها الحاكم العربي بالوفاة أو بالطلاق، مهما كانت صغيرة السن.. وبمناسبة الإشارة إلى «أمهاتِ المؤمنين» لا بد هنا من لفت الأنظار إلى فجاجة انتقاد الجهلة للنبي محمد ﷺ، بسبب كثرة زوجاته، ففي واقع الأمر لم يكن نبي الإسلام متفرِّدًا بذلك في ذاك الزمان، ولا منفردًا به عن بقية معاصريه، الذين كانوا يتزوَّجون كثيرًا حسبما كان الحال يسمح آنذاك. بل إن زوجات النبي محمد، أقل عددًا بكثير من زوجات أنبياء وشخصيات العهد القديم المقدس عند اليهود والمسيحيين، خاصةً داود وسليمان، وأقل عددًا بكثيرٍ من «المحظيات» اللواتي حظي بهن ملوك مسيحيون أتقياء، أسهموا في نشر الديانة المسيحية بأنحاء الأرض، ومنهم «هرقل» الذي لم يقنع بزوجته وحريمه، وإنما (تزوَّج) أيضًا ابنة أخته «مرتينة» تحت سمع وبصر أساقفة زمانه ومباركة كثيرٍ منهم. مع أن ذلك كان دومًا ممنوعًا ومحظورًا، في الديانات الرسالية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام).. لكن الكلام شيء، ورغبات الحاكم شيءٌ أشدُّ وأَوْلى بالطاعة والمباركة، وعلى المتضرِّر أن ينتظر الإنصاف يوم القيامة.

نعود إلى مفهوم «الخلافة» الذي ورد لفظه في القرآن الكريم كصفةٍ لعموم الإنسان، فقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ والخلافة هنا مفهومٌ عامٌّ في الإنسان المستخلَف في الأرض، ولا يُقصد بها

تحديدًا المعنى السياسي، ولا اللقب الذي اتخذه الحكام المسلمون من بعد وفاة النبي.. وربما يرجع اختيار المسلمين لهذا اللقب (الخليفة) إلى كونه لفظة قرآنية ترتبط بمفهومٍ للحكم القائم على متابعة سيرة النبي، وليبتعدوا قدر الإمكان عن مفردات «الملك، الإمبراطور، القيصر، الشاه، كسرى» وهي تسميات سلطوية ارتبطت في أذهان المسلمين الأوائل، بالعنجهية المؤدية إلى فساد أهل السلطة. ومن هنا، خطب أول الخلفاء المسلمين «أبو بكر الصديق» في الناس بعد تولِّيه الأمر قائلًا: «لقد وُلِّيت عليكم (لاحظ هنا أن الفعل مبني للمجهول) ولستُ بخيركم، فأطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعةَ لي عليكم».. وهي عبارة معروفة، تدل على أن فكرة (العقد الاجتماعي) بين الحاكم والمحكوم، كانت واضحةً في أذهان المسلمين الأوائل بشكلٍ تلقائيٍّ ومباشر، كما تدل على أن المسلمين الأوائل تحاشوا متابعة النسق السلطوي العالمي السائد آنذاك، وهو المتمثل في دولتيْ الفرس والروم. وهما الدولتان اللتان نَخَرَ سوسُ السلطة عظامَهما، ومهَّد لتهاوي كل دولةٍ منهما بمجرد أن مسَّتها يدُ المسلمين العسكرية. ولهذا اعتَبر الحكامُ المسلمون الأوائل (أي أخذوا العبرة) بسابقيهم ومعاصريهم، واختاروا لرأس الدولة الوليدة اسم «الخليفة» الذي يُحيل ضمنًا إلى امتداد الأبوية النبوية في شخص المتولِّي أمر المسلمين، على اعتبار أنه (يخلف) النبي في الأمر. وبهذا المعنى، كان الخلفاءُ الأربعة المشهورون خلفاءَ للنبي في الأرض ومنْ ثَمَّ حكامًا للمسلمين، ولذلك كانوا يتحاشون في حُكمهم البهرجة السلطوية التزامًا بالسيرة النبوية التي منها يستمدون شرعية حكمهم للمسلمين. ثم تطور الأمر حتى صار بحسب التعبير العربي القديم، والحديث الشريف (مُلكًا عضوضًا) أي ملكية يُعَضُّ عليها بالنواجذ[1]. وهو ما ظهر واضحًا في زمن الخلافة الأموية، ومن بعدها الخلافة العباسية، ومن بعدها المحاولة البائسة التي قام بها المماليك في مصر والشام لإحياء الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية، كي يكتسب المماليك (أولاد الناس) الذين لم يَعرف الواحد منهم أبًا، الشرعيةَ السلطويةَ على اعتبار أنهم يمثلون الخليفة (الشكلي) الحبيس في قلعة الجبل بالقاهرة، المسماة اليوم «قلعة محمد علي».

(١) الحديث النبوي: الخلافة بعدي ثلاثون عامًا، ثم تصير مُلكًا عضوضًا.

وكانت آخر «خلافة» إسلامية هي الدولة العثمانية، التي عضَّت بالنواجذ على السلطة، حتى أن الخليفة العثماني كان ليلة جلوسه على العرش يقتل كل إخوته، ليضمن أنهم لن ينازعوه في سلطانه أو ينتزعوه منه. وقد قتل أحد سلاطين العثمانيين ثلاثة وعشرين أخًا له، في ليلةٍ واحدةٍ، كي ينام قريرَ العين مُطمئنًا إلى أن أحدًا من مستحقي «الخلافة» لن ينازعه في أمر السلطة.

وقد انتهت دولة العثمانيين «الخلافة الإسلامية الأخيرة» بعدما تطرَّق إليها الفساد، وفقًا للقاعدة التي ذكرها «ابن خلدون» حين أكَّد أن البذخَ والترفَ، من المقدمات الممهِّدة لانهيار الدول. وقد قام «كمال أتاتورك» بإسقاط الخلافة، ثم أمعن في طمس معالمها باسم (العلمانية) التي أنقذ بها تركيا من براثن التخلف العثماني. وبينما كانتِ دولُ العالم تستفيق من آثار الحرب العالمية الأولى، وتستعد للحرب العالمية الثانية؛ كانت أمام الدول العربية مهامٌّ ضخام للخروج من مأزق التخلُّف العربي، واللحاق بطفرة التقدم الأوروبي. ولكن بدلًا من توجيه الأنظار إلى هذه (المهمة الحضارية) انهمك الملوك المصريون والسعوديون في الخلاف حول أحقية الملك فؤاد أو الملك سعود بالخلافة، وانقسم (العلماء) في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، ما بين مناصرٍ لهذا (الملك) أو ذاك، ثم ما لبث هؤلاء العلماء أن انهمكوا في (النضال) حول أحقية كُلٍّ منهما بالخلافة المنحلَّة. وعُقدت المؤتمرات في القاهرة وفي الرياض، وثارت الخلافات، وتنازع الناس حتى فشلوا وذهبت ريحُهم.

ومع صدور كتاب «علي عبد الرازق» الشهير (الإسلام وأصول الحكم) وهو الكتاب الذي أكَّد أن الخلافة ليست شرطًا لقيام دولة الإسلام، هاجت ضد مؤلِّفه نفوسُ المعارضين والمغرضين، وتعقَّبوا الرجل حتى جعلوا حياته جحيمًا. لكنه في المقابل جعل حلمهم مستحيلًا، لأن الأوهام لا تستطيع الصمود طويلًا، إذا توجَّهت نحوها أنوارُ العقل والمنطق.

ومع انتصاف القرن العشرين خرج معظم المسلمين من وهم (الخلافة) المؤيَّدة من السماء، وأسهمت الحكوماتُ العسكريةُ التي حكمت معظم البلاد العربية والإسلامية،

في القضاء على وَهْم (حُلم) إحياء الخلافة.. ونسي معظمُ الناس هذا الأمر، ولم يعد يحلم به أو يتوهَّمه إلا جماعاتٌ محدودة العدد، تهرب بوعيها من مشكلات الواقع بالتحليق في سماء التوهُّمات. من غير اعتبارٍ لحقيقةٍ بدهيةٍ، هي أن إقامة الخلافة الإسلامية اليوم يقتضي أولاً تغيير نظام العالم أجمع، كي يمكن قبول مثل ذلك النظام السياسي.. ولا أظن أن أيَّ جماعةٍ من جماعات الحالمين اليوم بالخلافة، قادرةٌ على تغيير العالم. والله سبحانه أخبرنا بأنه لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ولم يقل تعالى: حتى يحلموا أو يحلِّقوا في الأوهام.

وقد أراد الرئيسُ الراحل «أنور السادات» أن يجمع بين السلطتين العسكرية والروحية، فراح يعتكف بسيناء في «وادي الراحة» ويُطلق على نفسه اسم «الرئيس المؤمن» متناسيًا أنه رجل عسكريٌّ في الأساس، وأنه بهذه «العسكرية» حَكَمَ البلاد. ولتأكيد أنه (مؤمن) أطلق من دون وعي، ماردَ الجماعات الدينية المتطرفة التي استوحت لنفسها من فكرة «الخلافة» فكرةَ «الإمارة» فصار لكل جماعة (إسلامية) أميرُ (جماعة) ترى في نفسها أنها فقط الإسلامية، وبقية المسلمين هراطقة. وما لبث الناسُ الذين أحسنوا الظن في البداية بالجماعات الإسلامية (المتأسلمة) المتطرفة، أن اكتشفوا الحقيقة البسيطة القائلة إن هؤلاء المتأسلمين هم مجرد جماعة ساعية إلى السلطة، وإن هؤلاء «الأمراء» ليسوا «خلفاء» وإنما رءوسُ إرهابٍ نسوا أن الدعوة الإلهية (القرآنية) كانت لإعداد العُدَّة لإرهاب ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ فإذا بهم يرهبون المسلمين والمسيحيين وعموم المصريين، فيفرح بإرهابهم لنا: عدو الله، وعدونا، وآخرون من دونهم لا نعلمهم.

البابوية والخلافة

شهد النصف الثاني من القرن العشرين عمليةً عكسيةً لافتةً للنظر، فما كاد المسلمون يستفيقون من وَهْم «الخلافة» ومن الظن بأنها شرط لقيام الدولة التي يعيش الناس فيها تحت (ظلّ) الحاكم الذي هو (ظلّ) الإله في الأرض، حتى دخل المسيحيون في وَهْمٍ مطابقٍ من الجهة العكسية، بظنهم أن حياة الفرد المسيحي لا تستقيم إلا مع وجود

البابوية. ومراعاةً لحساسية الموضوع الذي سنطرحه عبر السطور الآتية، فمن المهم أن نورد قبل الخوض فيه، بعض المقدمات الضرورية الممهِّدة له، وهي ما نوجزه في النقاط الأربع الآتية:

أولًا: إن مرادي بالخلافة والبابوية هنا، هو الصورة السلطوية التي تستند إلى الحكم الدنيوي، وفقًا للحق الإلهي. وليس المراد من المفردتين، المعنى المجازي للرعاة والدعاة الذين يدعون إلى الله ويرعون هذه الجماعة (المؤمنة) أو تلك.

ثانيًا: إن كلامي عن المسلمين والمسيحيين لا ينطوي بالضرورة على عموم أهل الديانتين، فالتنوع داخل كل جماعة مصرية قد يمتد حتى يصل أحيانًا إلى حد التناقض، داخل الجماعة الواحدة. وعلى ذلك، فمقصودي هو «بعض» أولئك وهؤلاء، وليس جميعهم.

ثالثًا: إن تناول مثل هذه الظنون والأوهام، لا أقصد به الخوض في الاعتقاد الإيماني وصُلب الديانة المسيحية أو الإسلامية. ولذلك، فلن أتعرَّض للأحوال الدينية المتمثلة في الكتب المقدسة (الإنجيل والقرآن) وإنما أستعرض فحسب، صور الوعي العام الناتج عن مواقف تفسيرية وتأويلية، وعن اجتهادات فردية وطرق مختلفة في فَهْم الدين.

رابعًا: إن حديثي التالي ينطلق من قاعدة «المحبة» الواجبة على المسيحي والمسلم معًا، ومن ضرورة المناقشة العميقة (الهادئة) لتلك الموضوعات، بدلًا من إهمالها الذي يقود إلى استفحالها (في الظلام) وانتشارها في اللاوعي العام، ثم تصير مثل قنابل موقوتة يفجِّرها أصحاب المصالح الدنيوية، وقتما يريدون وحسبما يرون الوقت مناسبًا.. وبعد هذه «التمهيدات» أقولُ وبالله التوفيق:

البابويةُ والخلافةُ فكرتان تعودانَ إلى ما قبل المسيحية والإسلام، وترتبطان في جذورهما التاريخية بالدنيا، وليس الدين. وقد ذكرتُ فيما سبق، بعض اللمحات التاريخية التي تطورت خلالها فكرة «الخلافة» منذ فجر الإسلام حتى أيامنا الحالية التي تحوَّرت فيها الفكرة إلى صيغة «أمير الجماعة». ويبقى أن نشير فيما يلي بإشارةٍ موجزة، إلى أن الأصل العربي القديم في مسألة الخلافة هو أصلٌ سابقٌ على ظهور

الإسلام، يرتبط بالنظام السلطوي العربي الذي يقوم على أساس القبيلة التي يحكمها (شيخ القبيلة) ويدير شئونها وفقًا للقواعد العرقية التي تعتدُّ بالنَّسَبِ والقرابة. وقد ارتبط هذا المفهوم السلطوي القديم، بنظام السلطة في الإسلام من خلال مفهوم (الإمام) الذي هو المعادلُ الموضوعي لشيخ القبيلة، ولذلك قالوا في بداية «الدولة الإسلامية» بقاعدةٍ جمعت بين الإمامة والقَبَلية، انطلاقًا من حديثٍ شريفٍ رواه أحمد والطبراني، هو: الأئمة من قريش.

ثم تحوَّرت فكرةُ «شيخ القبيلة» لاحقًا إلى صيغة «شيخ الإسلام» التي انفصل من خلالها الحكم الديني للجماعة، عن الحكم السياسي الذي صار مخصوصًا بالخليفة (الخلفاء الأربعة، الخلفاء من بني أمية، الخلفاء من بني العباس، الخلفاء من العثمانيين..) فلم يعد من مهام الخليفة الأساسية، إمامة المصلِّين بالمسجد الجامع في عاصمة الخلافة، مثلما كان الحال في فجر الإسلام وفي زمن الفتوحات، وإنما توزَّعت المهام على نحوٍ يختصُّ فيه «شيخ الإسلام» بأمور الدين، ويختصُّ «الخليفة» بأمور الدنيا. مع الحفاظ على الصلة الخفية (القوية) بين هذا وذاك، والاحتفاظ بأولوية الخلافة على المشيخة، بمعنى أن الخليفة لا بُدَّ أن يكون راضيًا عن شيخ الشيوخ. ومع الاحتفاظ أيضًا بالسِّمة الأساسية لكل سلطة منهما، أعني صفة «الوراثة» في الخلافة، وصفة «الصلاح» في شيخ الشيوخ. ومن ثم فالحكم السياسي يورَّث بالضرورة، وليس من الضروري أن يتم توريث المنصب الديني. لأن الله بحسب الاعتقاد الشعبي العام، قد يخلق من (ظهر) العالم فاسد.

أما مفردة «البابوية» فهي الصيغة العربية التي تُرجمت إليها الكلمة اليونانية «بطريركية» فالبابا هو البطرك، وهو البطريق، وهو البطريرك. وقد ظهرت هذه الكلمة وتحدَّد هذا المفهوم، في وقتٍ سابقٍ على ظهور الديانة المسيحية. حيث أُطلقت صفة «البطرك» على كل عضو في مجلس الشيوخ الروماني «السناتو» الذي اشتق اسمه من كلمة (سناكس) اللاتينية، التي تعني الرجل المسن أو الأب. وعلى هذا النحو، تم استعمال المعنى المجازي لكلمة «بطرك» أو «أب» بما يفيد أن أعضاء السناتو هم

بمنـزلة آباء للشعب ورعاة للجمهور. وقد ظل هذا المعنى القديم باقيًا حتى وقت قريب، فكان أعضاء المجلس البلدي في الإسكندرية حتى النصف الأول من القرن العشرين، يُسمَّون: آباء المدينة (بالمعنى الإداري والسياسي للأُبوة).

وعندما انتشرت المسيحية في القرنين الثاني والثالث للميلاد، أحسَّ الناسُ المؤمنون بالدين الجديد آنذاك، بضرورة أن يكون لهم آباء روحيون يرأسهم «بطرك» بالمعنى الديني للكلمة، وليس بالمعنى الإداري والسياسي. وقد جاءت الديانةُ المسيحيةُ أصلًا كحركة إصلاحٍ للديانة اليهودية، وثورة روحية على المادية التي انتهى إليها اليهود في ذاك الزمان. كما جاءت من الجهة المقابلة، كحركة رفضٍ اجتماعيٍّ وتمرُّدٍ هادئ على الظلم السياسي لأباطرة الرومان، وعَنَتِ الحكام المحليين التابعين لروما «عاصمة العالم القديم».

بدأت المسيحيةُ من فلسطين والشام ومصر، وهي أطراف العالم اليوناني الروماني القديم، ثم غزت قلب الإمبراطورية (روما) حيث ظهر للمرة الأولى منصب «البابوية، البطريركية» كرئيسٍ لرجال الدين، ورأسٍ للإكليروس، وقمةٍ للتسلسل الهرمي للقساوسة. وظل لفظ «البابا» لزمن طويل يختص تحديدًا برأس الكنيسة في العاصمة الإمبراطورية، بحيث لا يحق لأيِّ رجلِ دينٍ آخر في أيِّ مكانٍ آخر، أن يوصف بالبابوية. ورويدًا، صار كل رجل دين «أبًا» لجماعته التي يتولى رعايتها، أو هو بحسب التعبير المصري المعاصر (أبونا) وصار «بابا روما» هو أبو الآباء. ورويدًا، اضمحلَّ سلطان روما السياسي وتأسست عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية هي «بيزنطة» ذات الأسماء العديدة: القسطنطينية، إسلامبول، إسطنبول، الآستانة، إستانبول. ورويدًا شعرتْ المدن الكبرى أنها الأحق بصفة «مدينة الله العظمى» فتنافس رءوس الكنائس في بيزنطة والإسكندرية وأنطاكية وأثينا، للوصول إلى مرتبة «البابوية» لجميع المؤمنين في العالم. وما لبث هذا التنافس الكنسي أن ظهر في الاجتماع العالمي (المسكوني) لرجال الدين المسيحي، وهو المعروف اصطلاحًا باسم: مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية. ثم صار خلافًا حادًا بين الكنائس الكبرى في مجمع أفسوس الأول (سنة ٤٣١ ميلادية)، ثم أصبح صراعًا مريرًا

في مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ ميلادية)، وهو الاجتماع الذي انشقت فيه الكنائس، وأُهين الأسقف العام للإسكندرية الأنبا[١] ديسقوروس.

وأدى الصراعُ الكنسيُّ المريرُ إلى كوارث إنسانيةٍ أدَّت إلى سقوط مئات الآلاف من البسطاء، ضحايا للعقيدة (شهداء) لأنهم اعتقدوا أنهم جنودُ الحق وأهل الفرقة «الناجية» التي سنتحدث عنها بعد حين.. ترنُّ الآن في أُذني، قصيدة محمود درويش الختامية «لاعب النرد» حيث يقول:

ومصادفةً،
صار منحدر الحقل في بلدٍ، متحفًا للهباء
لأن ألوفًا من الجند ماتت هناك، من الجانبين،
دفاعًا عن القائدين اللذين يقولان: هيًّا
وينتظران الغنائم في خيمتين حريريتين، من الجهتين
يموت الجنودُ مرارًا، ولا يعلمون إلى الآن مَنْ كان منتصرًا
ومصادفةً،
عاش بعضُ الرواة وقالوا: لو انتصر الآخرون على الآخرين،
لصارت لتاريخنا البشري، عناوينُ أخرى.

وقد استقر حالُ المسيحيين بعد حينٍ من الدهر، على قاعدة الخلافِ المذهبيِّ المريع وعلى رئاسة عدة بابوات «بطاركة» في روما (الكاثوليك) وأثينا (الأرثوذكس اليونان) وأنطاكية (الأرثوذكس السريان) والإسكندرية (الأرثوذكس المصريين) والقسطنطينية (الأرثوذكس الملكانيين) مع وجود سلطة سياسية واحدة في تلك النواحي، هي الإمبراطورية البيزنطية التي انهزمت لاحقًا أمام المسلمين الفاتحين.

ولأن حياة الإنسان مزيجٌ من الدين والدنيا، وجدلية دائمة بين ما هو دنيوي وما هو ديني (وكلاهما لا غنى له عن الآخر) فقد شهد تاريخ المسيحية تقلُّبات كثيرة بين السلطتين الدنيوية «السياسية» والدينية «البابوية»، ودلَّت الشواهد على أن ضعف

---

(١) أنبا وأمبا، تعني حرفيًا: الأب المعلِّم.

السلطة السياسية يؤدي إلى ازدياد السلطة البابوية وهيمنتها، لأن الاهتراء السياسي (الدنيوي) يؤدي بالضرورة إلى بؤسٍ اقتصادي واجتماعي، يدفع الناس البسطاء إلى التعلُّق بالأمل (الديني) لإدراك النعيم الأخروي، عوضًا عن فقدانهم السعادة في هذا العالم. وهو ما يظهر واضحًا في العصور الوسطى الأوروبية المسماة «عصور الظلام»، حيث كان «البابا» في روما هو المهيمن على الملوك والأمراء. بل كان هو الذي يعيِّن هؤلاء الملوك، وكأنه الرئيس الفعلي للعالم الأوروبي وملك الملوك جميعهم، باعتبار أنه الصورة المعاصرة (المتجدِّدة) للمسيح في الأرض، ومن ثم فهو ظلُّ الإله وخليفة المسيحيين كلهم. مع أن السيد المسيح، قال في صريح الإنجيل: «مملكتي ليست من هذا العالم».

وفي مصر كان الأرثوذكس المصريون يعانون الويلات من الأُرثوذكس الملكانيين، الذين كانوا آنذاك: أصحاب البلد. فلما جاء المسلمون، رأى الفاتح البديع «عمرو بن العاص» أن من مصلحته ومصلحة البلاد، أن يستدعي الأنبا «بنيامين» بطرك الأرثوذكس المصريين، من المخبأ الذي كان قد اختفى فيه.. وبعد قرونٍ من انتظام حال المسيحيين المصريين، مع العرب الكثيرين المقيمين بمصر من قبل الفتح، ومع المسلمين الكثيرين الذين جاءوا بعد الفتح، ومع اليهود الذين سكنوا مصر قبل الفتح وبعده؛ ظهرت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) اتجاهاتٌ مسيحيةٌ مصريةٌ تطوَّرت في إطار الدولة الإسلامية المصرية، تزعم أن لمصر تاريخًا دينيًّا (مسيحيًّا) خاصًّا، يتمثل في سلسلة الخلفاء الروحيين للسيد المسيح. وكان أشهر «إعلان» لذلك آنذاك، هو كتاب أسقف الأشمونين «ساويرس بن المقفَّع» الذي وضعه باللغة العربية (لأن أغلب أهل مِلَّته، كما يقول: ما عادوا يعرفون غيرها) وجعله بعنوان: «تاريخ الآباء البطاركة».. وبالمناسبة، فإن كلمة «المقفع» تعني صانع السِّلال التي تسمَّى بالعامية القُفف، ويسمَّى صانعها المقفّع.

يستهلُّ ساويرس بن المقفَّع كتابه الذي طُبع مؤخرًا عدة طبعات، بديباجةٍ يقول فيها ما نصُّه: «وأنا ممن لا يجب أن يكتب بخط يده البالية الفانية، شيئًا من أخبارهم (يقصد:

الآباء البطاركة) فاستعنتُ بِمَنْ أعلم استحقاقهم (مكانتهم) من الأخوة المسيحيين، وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه من أخبارهم، بالقلم (اللغة) القبطي، إلى القلم العربي الذي هو معروفٌ عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر، لعـدم (لانعدام) اللسان القبطي من أكثرهم».. ونلاحظ في النص السابق، المنقول بتمامه، أن المؤلف لم يستعمل كلمة «الأقباط» للإشارة إلى المسيحيين المصريين، وأنه استعمل كلمة «القبطية» بالمعنى المتعلق فقط باللغة، وليس بالدين.

ثم يبدأ الأسقف ساويرس بن المقفع كتابَه ببيانٍ أن سلسلة الخلافة الروحية للمسيح في مصر، تبدأ بأول البطاركة «الرسول العظيم المعلِّم بولس المصطفى».بحسب تعبيراته الدالة على تأثُره الواضح بالمفاهيم الإسلامية السائدة في عصره، حيث نلمح الصفات الإسلامية الشهيرة (الرسول، المصطفى) وقد أُضيفت في النص إلى الحواريِّ «بولس» تلميذ السيد المسيح، الذي كتب الإنجيل المعروف باسمه. ثم ينتقل المؤلف إلى الحلقة الثانية في سلسلة الخلفاء (البطاركة) وهو بحسب نص الكتاب «رئيس أساقفة الإسكندرية، مرقس اليهودي» وقد استوقفني وصفه له باليهودي وبرئيس أساقفة الإسكندرية، في وقتٍ لم يكن فيه بالإسكندرية أساقفة مسيحيون. وعلى كل حال، فإن «مرقس» المذكور، هو ذاته «سان ماركو» الذي نقل الإيطاليون منذ قرونٍ طوالٍ جثمانه الذي كان مدفونًا بالإسكندرية، ودفنوه في الكنيسة البديعة الموجودة اليوم في مدينة «فينسيا» أو «البندقية» التي تعدُّ واحدة من روائع العمائر المبهرة منذ قرون.

ويمرُّ الكتاب على فتراتٍ زمنيةٍ لا يذكر فيها أي «بطرك» مما يعني أن سلسلة الآباء البطاركة، انقطعت في سنوات عديدة. كما يمرُّ على آباء بطاركة من أمثال ديمتريوس الكَرَّام (١٨٩ - ٢٣١ ميلادية) الذي كان متزوِّجًا. لكن الأسقف السابق عليه، رأى في منامٍ أن الذي سيدخل عليه ومعه عنقود عنب (كَرْم) سوف يصير أسقفا، فدخل هذا المزارع البسيط وفي يده عنقود من بواكير ثمار العنب، فعرضوا عليه الأمر فأشفق على نفسه من هذه المهمة: «فأخذوه قهرًا وقيَّدوه بقيدٍ حديد» ولما اعترض المعترضون عليه بأنه متزوِّج، رَدَّ عليهم المؤمنون حسبما ورد بالنصِّ في كتاب (الآباء البطاركة)

لي: «قال تلاميذ المسيح في قوانينهم، إن الأسقف إذا كان متزوجًا بامرأةٍ واحدةٍ، يُمنع من ذلك، لأن الزوجة المؤمنة طاهرة وفراشها طاهر ولا ذنب عليها».

وفي النص السابق الذي نقلته بحروفه، تتجلَّى عدة أمورٍ أهمها أنه لا مانع من أسقفية المتزوِّج، وأن المسيحية كانت تسمح بتعدُّد الزوجات (وإلا لما قال: بامرأةٍ واحدةٍ) وأن تلاميذ المسيح كانت لهم قوانين. لكن الأهم من ذلك كله، أن المؤلف لم يستعمل كلمة «البابا» وإنما كان يقول دائمًا «البطرك» الذي بحسب التعريف الذي قدَّمه له في الكتاب: هو أسقف مدينة الإسكندرية، وله الرياسة على أساقفة أعمالها. أي المناطق التابعة لها. مما يعني أن البطرك مفهومٌ مكانيٌّ يرتبط بموضعٍ محددٍ هو الإسكندرية، وليس حسبما يتوهَّم اليوم كثيرون، ممن يردِّدون أن البطريركية هي المكان الذي يكون فيه البطرك، أيًّا كان هذا المكان.

ومع تراكم الموروث «البطريركي» ومداومة تأكيد رجال الدين المسيحي ضرورة الطاعة للبطرك والمحبة لها، على اعتبار أن البطرك الذي صار يسمى مؤخرًا «البابا» بيده مفاتيح الملكوت الأعلى «ملكوت السماء» فضلًا عن أن التحلُّق حول البطرك، يعطي شعورًا بالأمان للجماعات المؤمنة التي تشعر في قرارة نفسها بالتوجُّس والخوف المقيم والقلق، وغير ذلك من المشاعر التي طالما غمرت قلوب الأقليات على مَرِّ العصور. ومن هنا حرص الآباء دومًا على عدم اندماج الشعب (الأقلية) مع بقية الجمهور (الأغلبية) كي يضمنوا دومًا طاعة هؤلاء المساكين، المحتاجين دومًا إلى الأمان الروحي والاجتماعي.

وفي عديد من المراجع والمصادر التاريخية، تقابلنا النصوص الدالة على وجوب طاعة المسيحيين (الشعب) للآباء، وعلى رأسهم البطرك. وهو الأمر الذي امتد بفعل التغذية المستمرة، حتى مطلع العصر الحديث وصولًا إلى واقعنا المعاصر. ففي نصٍّ مهم من كتاب يُفترض فيه الحيدة والوصف المجرد، هو كتاب (وصف مصر) الذي أنجزه علماء الحملة الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر، نقرأ في الجزء المعنون «المصريون المحدثون» بحسب الترجمة العربية التي قام بها «زهير الشايب» في صفحة ٢٧ وما بعدها، الآتي:

«تتخذ أمة الأقباط (في مصر) كرئيس أعلى لها وكزعيم دينيٍّ ودنيوي، حبرًا هو الشخصية الأولى في الكنيسة، ويلقب بالبطريرك.. ولا تُعرف لسلطته حدود، إلا ما تفرضه العادات المستقرة وإرادة حكام البلاد. وهو يفصل في كل الخلافات التي تقع بين كل رعيته.. ويثق القبطي ثقة عمياء في قساوسة طائفته، ولهؤلاء القسس (القسوس) تأثير كبير على النفوس، وبمقدورهم بقليل من الحيلة أن يسيئوا استغلال ذلك، لكنهم في غالب الأحيان جهلةٌ مثل بقية أبناء الشعب. وليس ثمة بينهم إلا عددٌ ضئيل للغاية، قد وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون معها أن يقرأوا كتب الطقوس الدينية.. وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين، فإن القبطي لا يسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها أمامهم، بل إن البطريرك لا يمكنه أن يرى سيدة سافرة، إلا إذا كان زوجها هو الذي سمح بذلك، وعن طيب خاطر»...انتهى النصُّ.

إشارةٌ: الفقرة الأخيرة تدل على أن المسيحيات في مصر أيام الحملة الفرنسية، لم يكنَّ سافرات.. إشارةٌ أخرى: سافرات هي عكس محجبات.. إشارةٌ أخيرة: الحجاب اختراع يهودي في الأساس أخذه المسيحيون من اليهودية، وأخذه المسلمون عن أولئك وهؤلاء.. فتدبَّر. وختامًا للكلام عن الخلافة والبابوية (البابوية والخلافة) لا بد من الإشارة إلى نقطة يجتمع عندها هذان المفهومان، هي تأكيد كل منهما لرعاياه أنهم تحديدًا «الفرقة الناجية» وهذه نقطة محورية، تستحق أن نتوقف عندها.

الفرقةُ الناجية

عاد من العمرة أحدُ الفلاحين فجاءه شقيقه مهنِّئًا بسلامة الوصول، ومستخبرًا منه عما رآه هناك، فقال له الذي اعتمر: واللهِ يا أخي، لقد تأملت هناك في أحوال المعتمرين من حولي، فلم أجدهم مستمسكين بالدين مثلنا، فتأكَّدتُ من أن الإيمان الصحيح لا يوجد إلا بمصر فقط، لكنني بعد عودتي تأملتُ في أحوال أهل المدن المصرية فوجدتهم لا يعرفون صحيح الإيمان أيضًا، فعرفتُ أنه موجود في القرى والريف فقط؛ ثم رأيتُ معظم هؤلاء القرويين يخالفون الشريعة الحقَّة ولا يعرفون صحيح الإيمان، فعرفت أنه موجود في قريتنا فقط؛ ثم رأيتُ معظم أهل قريتنا لا يلتزمون ولا يعرفون صحيح الإيمان. فعرفتُ أنه موجود في أسرتنا فقط؛ ولكن معظم أفراد أسرتنا لا يحافظون على الحدود الشرعية بدقة،

ولا يعرفون صحيح الإيمان؛ فعرفتُ أن الإيمان الصحيح والالتزام الدقيق بالشريعة موجودٌ عندي وعندك فقط، ولكني أشكُّ كثيرًا في إيمانك.. تلك هي «النكتة» التي سمعتُها من صديق، وعدَّلتُها هنا لتناسب النشر والإشارة إلى «النقطة» الدقيقة التي سوف نعرض لها فيما يلي، كي نرى كيف نشأت وتطورت خُرافةُ الفرقة الناجية، وكيف يقوم هذا المفهوم الديني (المأزوم) على قاعدة الاستبعاد للآخرين:

الفرقةُ الناجية، مفهومٌ دينيٌّ قد يبدو للوهلة الأولى إسلاميًّا. لكننا سنرى أن الإطار العام في هذا المفهوم هو فقط الإسلامي. أما (المحتوى) فهو قديمٌ عتيق، يقتضي فهمه أن نعود إلى زمنٍ سحيق سابق، لنرى كيف نشأ ثم تطور حتى صار صفةً غالبة، وخرافة مسيطرة على عديد من الناس في زماننا المعاصر.

في الحضارات الأولى التي أعطت للإنسانية أصول ومبادئ المعرفة والفن والأدب، أعني في مصر القديمة واليونان واليمن وشمال الجزيرة، كان الناس يعبدون لآلاف السنين آلهةً متعدِّدة، ويدينون بأديان مختلفة فيما بينها. وهي الديانات التي سوف تُسمَّى لاحقًا، باسمٍ جامعٍ يتضمَّن الإدانة لها، هو «الوثنية» ويطلق على أهلها اسمٌ عامٌّ طافحٌ بالرفض، هو: الكفار. وفي تلك الأزمنة القديمة قامت حروبٌ كثيرةٌ بين الدول والجماعات، بعضها كان خاطفًا وبعضها الآخر كان يمتد لسنوات طوال، لكنها في نهاية الأمر كانت حروبًا محدودة بحدود الأهداف الكامنة وراءها، والدافعة لها، وهي بشكل عام تتمثل في أهدافٍ محددة من نوع: توسيع النفوذ السياسي، والبحث عن مزيد من الثروات، وردِّ الإهانات، وحماقات الحكام ومؤامرات الحروب.. ومثل ذلك من أمور.

ولم تشهد الحضارات القديمة فيما نعرف، حربًا واحدة شُنَّت أساسًا لسببٍ دينيٍّ، بمعنى أنه لم تحارب جماعةٌ أو دولةٌ من أجل نُصرة الإله أو تأكيد الدين والعقيدة. فلا مصر القديمة حاربت الحيثيين لإجبارهم على الإيمان بآمون أو «رع» أو «تاسوع طيبة»، ولا اليونان غزت العالم لبسط سلطان الإله زيوس، ولا الفرس بسطوا سلطانهم على الأرض المجاورة باسم المجوسية والثنوية (أي عبادة الإلهين: النور المسمَّى يزدان،

والظلام المسمَّى أهرمن).. وكأن أهل الأزمنة القديمة، كانوا على نحوٍ ما يطبقون القاعدة الإلهية التي جاءت بعدهم بقرون من الزمان، في قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ وكأنهم كانوا على نحوٍ ما يدركون أن للإله تجليات مختلفة، لا يصحُّ الخلاف والجدال حول صحة بعضها وضلال بعضها الآخر. وهو الإدراك الواعي الذي نلمحه في تلك الترنيمة الدينية البديعة، المنسوبة إلى الإلهة المصرية إيزيس: «أنا الطبيعةُ، أنا الأمُّ الكونية، سيدةُ العناصر كلها. عُبِدتُ بطرقٍ شتى، وأُطلِقتْ عليَّ أسماءٌ كثيرة، لأن جميع أهل الأرض يقدِّسونني»..

وفي التراث اليهودي، تشكَّل منذ وقت مبكر اعتقادٌ يقول إن اليهود وحدهم هم أبناء الربِّ، والآخرين من الناس هم «الأمم». وجعل اليهود الانتساب لدائرتهم المتميِّزة خياليًا، يتم على أساسٍ عرقي لا إيماني. فاليهودي (النقي) هو من كانت أمُّه يهودية، والذي يؤمن بدياناتهم من دون أن يولد لأمٍّ يهودية، فهو لا يسمَّى يهوديًّا وإنما هو «هودي» أو «متهوِّد» بمعنى أنه أقلُّ درجةً وأخفض منزلةً. إذن، في اليهودية تصوُّر قائم على أن «النسل الإبراهيمي» من الزوجة الأولى «سارة» هو فقط (شعب الله المختار) من دون تبيانٍ لسبب ذلك الاختيار، أو تعليلٍ لذلك الاحتقار الذي ينظر به اليهود إلى الآخرين. وأظنه في حقيقة الحال، ردًّا على الاحتقار بالاحتقار! المهم هنا، أن هذه الفكرة نبتت أولًا مع اليهودية على أساسٍ عرقي.

ومع صراع المذاهب والكنائس المسيحية، تولَّدت في النفوس فكرة مستقاة من التراث اليهودي السابق على المسيحية، مفادها أن أهل هذه الكنيسة بالذات هم فقط المؤمنون، وسائر المعارضين «هراطقة» لا يستحقون صفة أبناء الربِّ. بمعنى أن كل جماعةٍ ترى لنفسها فقط، فضلَ الإيمان الذي يجعلهم الناجين من نار الكفر وجحيم الهرطقة، سواءٌ في الدنيا أو في الآخرة. ومن هنا ظهرت في التراث المسيحي المكتوب باللغة اليونانية، وهي اللغة الرسمية للكنائس الكبرى آنذاك، نصوصٌ تسمى باليونانية «أناثيما» وهي الكلمة الخطيرة التي تعني بالعربية «اللعنات» أو «الحرومات» وما هي إلا إقراراتٌ إيمانيةٌ تُعرض على الشخص المسيحي. فإن قَبِلَهَا صار من المؤمنين

الناجين وإن أنكرها أو اعترض على شيء فيها. فهو هرطوقي (ذاته) لا ينتسب للجماعة التي اختارها الربُّ.

وفي الإسلام، وفي غمرة صراع المذاهب العقائدية (الكلامية) الكثيرة، والتيارات الدينية المتعدِّدة المختلفة «أهل السنة، المعتزلة، الأشاعرة، الخوارج، الشيعة.. إلخ» اشتهر حديثٌ نبوي خطيرُ المعنى، يقول ما نصُّه: «تفترق أمتي على بضعٍ وسبعين فرقةً، كلُّها في النار، إلا واحدة». وقد عُرفت هذه الفرقة «الواحدة» في التراث الإسلامي باسم «الفرقة الناجية» وتأسَّس على ذلك مع مَرِّ الأيام واحتدام الخلافات المذهبية، ما يُشبه الإجماع على هذا المفهوم، مع أن كثيرين من المحدِّثين (علماء الحديث النبوي) نقدوا سند هذا الحديث ومتنه، أي روايته ومضمونه؛ إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار فكرة الفرقة الناجية، خاصةً في أزمنة التخلف الحضاري وضعف دولة الإسلام.

ومع أن كثيرًا من المؤرِّخين المسلمين تحاشوا النظر في اعتقادات الجماعات الإسلامية المختلفة من زاوية «الفرقة الناجية» ومع أن عديدًا من علماء السَّلَف جعلوا جميع الفرق والمذاهب داخلةً في إطار الإسلام بمعناه العام، وهو ما يظهر من عنوان كتاب الإمام أبي الحسن الأشعري: «مقالات الإسلاميين». إلا أن القرون الأخيرة (والسنوات الأخيرة، والأيام الأخيرة) شهدت نزوعًا عجيبًا نحو تأكيد مفهوم الفرقة الناجية، وهو ما أدى إلى انقسامات شديدة بين الجماعات التي تقوم على أساس عقائدي، سواء كانت جماعاتٍ كبرى لها تاريخ وتراث كالسُّنة والشيعة، أو جماعاتٍ فرعية مثل تلك التي سُمِّيت مؤخرًا (الجماعات الإسلامية) وهي تسمية تُخرج غيرهم من الدائرة (الإسلامية) التي يزعمون. ثم أمعنوا في تطبيق مفهوم الفرقة الناجية على بعضهم البعض، فكانت الانشقاقات الكثيرة بين الجماعات الكثيرة (الإسلامية) فضلًا عن الصراع المرير بين المذاهب، الذي وصل في القرن السابع الهجري (في الشام) إلى تقاتل الأحناف والشافعية، ورَفْض كل منهما التزاوج والمصاهرة مع الآخر. ووصل في يومنا هذا إلى تكفير أولئك لهؤلاء، وكلهم أصلًا مسلمون، وردّ هؤلاء على أولئك بالتكفير.

ومهما يكن من صحة الحديث النبوي المذكور سابقًا، الذي لم ينصّ صراحةً على لفظ (الفرقة الناجية) فإن الإمعان في إشاعة هذا المفهوم والترويج له على مَرِّ تاريخنا، ومُرِّه، يعود في تقديري إلى «أزمة» نفسية تعصف بأصحاب هذه الاتجاهات التي تسلب الجميع صفةَ الإيمان، ومن ثم صفة النجاة من عذاب الآخرة، ومن ثم وجوب التنكيل بهم في الدنيا.. وهو مدخلٌ خطير، ووَهمٌ عظيم، يخالف أبسط المعاني التي دعت إليها الديانات عمومًا، ويهدر الفكرة الأساسية في أي دين: أعني فكرة أن الإله، هو إله الجميع.

سوف أكتفي بهذا القدر، ليس لأن الموضوع انتهى (فالموضوعات الكبرى لا تنتهي أبدًا) وإنما لأنني لستُ إلا صانعَ أسئلة، وداعيًا إلى التفكير والتأمُّل. ولا أطمح إلا لإثارة نهم العقول إلى النظر والمعرفة، آملًا الخروج من معتقل الأهواء والأوهام.

مصرُ المحروسة

حتى وقتٍ قريب، ولزمنٍ طويل سابق، كان الذين يذكرون اسم مصر أو القاهرة يُلحقون بكل اسم منهما صفة «المحروسة» فيقولون: مصر المحروسة، القاهرة المحروسة. وكان بعضهم يستغني أحيانًا بالصفة عن الاسم، على اعتبار أنه إذا قال «المحروسة» فقط، فمراده الإشارة إلى مصر أو القاهرة. وكنتُ في الصِّغر أعتقد أن هذه الصفة تخصُّ بلدنا وعاصمتنا، لكنني رأيتُ لاحقًا في نصوصٍ تراثيةٍ كثيرة، أنهم كانوا يقولون أيضًا (دمشق المحروسة، حلب المحروسة، حماة المحروسة) فهو إذن تقليدٌ مصري/ شامي قديم، لا يختص بالضرورة بمدينة معينة. وقد تفنَّن أهل الأدب السابقون في (تلوين) هذا المعنى بضروب البلاغة وبدائع العبارات التي منها مثلًا قولهم «سور حَماة بربها محروس» وهي العبارة التي إذا انعكست حروفها وقُرئت من آخرها إلى أولها أعطت القول نفسه، وبتعبيرٍ تراثي، فإن العبارة واحدةٌ إذا قُرئت طَرْدًا وإذا قُرئت عَكْسًا. ولكن ما علينا الآن من تفانين البلاغيين، ومن اعتيادنا وصف (الحراسة) وتكراره على المسامع حتى صار راسخًا في الأذهان. فالسؤال

الآن: إذا كانت مصر والقاهرة وغيرهما (محروسة) فمن الذي يحرسها؟ أم أن تلك (الحراسة) وَهْمٌ في الأذهان؟

في قصيدةٍ غير مشهورة لمحمود درويش، كتبها تعليقًا على اتهام الفلسطيني «سرحان بشارة سرحان» بقتل الرئيس الأمريكي كيندي، وجعلها بعنوانٍ حداثيٍّ غريب هو (سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا). يستهلُّ الشاعر نصَّه الشعري بقوله:

يجيئون،
أبوابنا البحرُ، فاجأنا مطرٌ
لا إله سوى الله، فاجأنا مطرٌ
ورَصَاصٌ
هنا الأرضُ سجادةٌ، والحقائب غربةٌ.

وفي قلب القصيدة يقول محمود درويش، بعدما توغَّل في رسم صورٍ شعرية (سريالية) مستقاة من شخصية «سرحان بشارة» ومن تجربة الشاعر نفسه، ما نصُّه:

وما شرَّدوكَ، وما قتلوكَ
أبوك احتمى بالنصوص، وجاء اللصوص
ولستَ شريدًا، ولستَ شهيدًا
وأُمُّك باعتْ ضفائرها للسنابلِ
والأمنيات

كنتُ قد قرأت هذه القصيدة أولَ مرةٍ أيام كنتُ تلميذًا بالمرحلة الإعدادية، فلم أفهمها تمامًا آنذاك، ولكن علقت بذهني منها أجزاءٌ. وقبل سنوات كنتُ أُلقي محاضرة في جامعة الدول العربية عنوانها «الخروج بالتراث من النصِّ إلى الخطاب» وفي أثناء كلامي، ومن غير تدبيرٍ مسبق، أردتُ التدليل على ضرورة التخلُّص من حالة الانبهار بالتراث، سعيًا لإعادة بنائه وتطويره، فاستشهدتُ بما قاله محمود درويش: أبوك احتمى بالنصوص وجاء اللصوص.. وثار الحاضرون بسبب ما قلته، وصخب عليَّ الدكتور «محمود الطناحي» وصاح بحنقٍ في القاعة تعليقًا على قول الشاعر «أبوك احتمى

بالنصوص وجاء اللصوص» وزعق بما معناه أنه لا يجوز الاستشهادُ بهؤلاء الشعراء، فإن المقصود بالنصوص في كلامهم هو القرآنُ الكريم، ولا يصحُّ الكلامُ بهذا الشكل عن القرآن ووصفه بأنه نصٌّ أو نصوص.

في ذاك الوقت، كانت أزمة الدكتور «نصر حامد أبو زيد» قد ابتدأت بسبب كتابه (مفهوم النص) وكان بالشارع المصري صخبٌ آخر عنيف، انتهى إلى ما نعرفه من الختام الحزين المهين، الذي لحق بنا كبلدٍ يزعم أنه متحضِّر وبالدكتور نصر أبو زيد الذي آل أمره إلى الهجرة عن مصر[1]. ولأنني أيامها كنتُ أصغر سنًّا من المشاركين في المؤتمر، بعشرات الأعوام، فقد ألزمني الأدبُ بالسكوت. فلم أردّ على ما قاله د. محمود الطناحي، وخصوصًا أنني رأيتُ صديقي د. فيصل الحفَيان (منسِّق المؤتمر) وقد امتقع وجهُه خشية انفلات النقاش الأكاديمي، وتحوُّله إلى جدال سجالي. لكنني بقيتُ من بعدها أفكِّر طويلًا في أمورٍ من مثل: ما الضيرُ في وصف القرآن الكريم بأنه «نصٌّ» لا سيما أن مشايخنا القدماء كانوا يقولون من غير حرج، عبارات من نوع: وقد نصَّ القرآنُ الكريم على ذلك.. وفي نصِّ الحديث النبوي أن.. لا اجتهاد فيما نزل فيه نصٌّ (لا اجتهاد مع النصّ) ولم يؤثَرَ عن واحدٍ من مشايخنا التراثيين أو مشاهير أعلام الإسلام، أنه قال إن النصوص تحرس من اللصوص.

وثارت في باطني منذ ذلك الحين، تساؤلات عن السرِّ الذي يدعونا للاحتفاظ بنسخةٍ من المصحف الشريف في السيارات، وهو التقليد الذي صار عامًّا عند سائقي التاكسي المسلمين. بل وجدتُ مؤخرًا بعض طائرات مصر للطيران، تضع في مدخلها إطارًا زجاجيًّا مغلقًا، بداخله مصحف (قرآن) ليس للقراءة.

هل يحرس المصحفُ الشريف؟ وإذا كان كذلك، فهل حراسته مخصوصة بالمسلمين، أم هو يحرس الإنسان بعامة؟ وهل تفعل آيات القرآن بذاتها، أم بصدق التلفظ بها؟.. معروفٌ أن الإمام «عليَّ بن أبي طالب» عندما احتالوا عليه برفع المصاحف

(١) لم يكن الصديق الدكتور «نصر أبو زيد» حين نُشرت هذه المقالة قد مات في الغربة، ميتَه الغريبة بعد سنوات طوال قضاها طريدًا، لا يقر له في بلاده قرار.. سأعود لاحقًا لتلك النقطة.

فوق أسنَّة الرماح، قال عبارته المشهورة: «هذا الكتاب لا ينطق وإنما ينطق به الرجال». ومعروفٌ أن طائفة الشيعة الإسماعيلية المعروفين باسم «الحشَّاشين» كان من تقاليدهم أن يمزق الواحدُ منهم المصحف في مرحلةٍ معينة من مراحل دخوله في هذه الجماعة (أو هكذا قيل عنهم) ومعروفٌ أن أعداء المسلمين، قديمًا وحديثًا، كثيرًا ما مزَّقوا المصاحف غيظًا من قوة المسلمين.

إذن، لم يتأثَّر القرآن الكريم بهذه الأفعال، ولم يزل المصحف بآياته محفوظًا في صدور المسلمين، وفي آذانهم.. فما هو سرُّ الحراسة؟.. الذي أميل إليه، وقد أكون مخطئًا، أن المؤمن بالمصحف الشريف هو الذي يحفظه، لا العكس. ومن ثَمَّ، فلا معنى للوهم العام والظنِّ الشائع بأن وجود نسخة المصحف، غير المقروء، في وسائل الانتقال يحفظ المتنقِّلين. ولربما يقول قائلٌ: الذي «يحرس» هو الله تعالى وليس الكتاب العزيز، وبالتالي فإن الواجب على الإنسان المسلم، أن يبقى في حراسة الله وليس في حراسة المصحف. ولهذا القائل نقول: لكن الله تعالى قال في قرآنه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل إنه تعالى سيعمل لنا، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ولم يقل إنه تعالى سوف يبدأ بالتغيير والإصلاح والحراسة.. وربما يعترض معترضٌ، بأن الله قال في قرآنه إنه تعالى ﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وفي الحديث القدسي «مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب». ومن ثم فإن الله هو الحارس وكتابه تعالى يحرس أيضًا. وهذا المعترض نُحيله إلى بابٍ واسعٍ من كلام الأئمة، في الفرق بين التوكُّل والتواكل؛ وإلى تأكيد الفقهاء وعلماء أصول الدين أن الإنسان لا غنى له عن العمل أولًا، ثم من بعد ذلك يرجو من الله التوفيق في عمله. وإلا صار الإنسان مثل ذلك الرجل الذي ظل أعوامًا يدعو الله أن يفوز بورقة يانصيب رابحة، ولم يستجب الله له، ولكنه مع ذلك ظل يدعو ويبتهل حتى تجلَّى له في المنام واحدٌ من كبار الأولياء، وصاح فيه: «قد يستجيب الله لك، ولكن عليك أولًا أن تشتري ورقة يانصيب».

وعلى أي حال، فلنترك جانبًا ذلك الجدال (النظري) حول حقيقة «الحراسة» ومصدرها، لننظر في التجارب الفعلية التي مرَّت بها هذه الأمة في تاريخها الطويل، ومن ذلك واقعةٌ هائلة حدثت في القرن السابع الهجري. ففي بداية ذاك (القرن) من الزمان، كان في وسط آسيا مملكة إسلامية كبيرة تُعرف تاريخيًّا باسم «الدولة الخوارزمية» نسبةً إلى إقليم خوارَزم الموجود حاليًا في دولة أوزبكستان. وكانت هذه الدولة قد بلغت من القوة قدرًا كبيرًا جعل حاكمها «محمد خوارزمشاه» يستسلم لأطماعه التوسُّعية التي دفعته إلى التفكير في إسقاط الخلافة العباسية في بغداد، ليكون هو الحاكم الإسلامي (الخليفة) على عموم الأرض الممتدة من حدود الصين إلى شواطئ المحيط الأعظم (الأطلنطي).. وقد أرسل خوارزمشاه جيشًا إلى بغداد، ليحقِّق له أطماعه، ولكن العواصف الثلجية فتكتْ بالجيش الجرَّار، في جبال فارس الشمالية وتخطَّف الأكراد ما بقي منه. ولم يرجع إلى الديار الخوارزمية إلا بضعةٌ من الناجين الذين قصُّوا على (خوارزمشاه) الويلات التي قابلتهم وعصفت بهم.

وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامي، وفي عاصمة الخلافة «بغداد» كان الناس يتخوَّفون من وصول الجيش الخوارزمي الذي اعتقد الجميعُ آنذاك، أنه لا يُقهر ولا ينهزم. فلما وقعتْ الوقائعُ وخيَّبتْ المساعي التوسعية الخوارزمية، راح الأدباء والشعراء في بغداد يتغنَّون بأن الخلافة مبارَكة، وبأن بغداد محروسة، وبأن الذي يريد دولة العباسيين بسوءٍ فسوف تعوقه السماء من الإضرار بها. وسادت هذه الفكرة في الأذهان وعَمَّ الوهمُ، فارتاح الناس في بغداد إلى حكاية (الحراسة) الموهومة، التي دعت الحاكمين والمحكومين إلى إهمال ما يجب عليهم، للدفاع عن عاصمة الدنيا آنذاك.

غير أن «خوارزمشاه» تواصلت حماقاته وأحلامه التوسُّعية، فتوجَّهت أطماعه إلى ناحية الشرق، وناجز الحاكم المغولي العظيم «جنكيز خان» واستفزَّه بشكلٍ لا يمكن السكوت عنه. فاندفع الجيشُ المغولي واجتاح أرض الدولة الخوارزمية، ثم واصل تقدُّمه غربًا حتى وصل بعد عقود (سنة ٦٥٦ هجرية) إلى أسوار بغداد المحروسة، التي ثبت

تاريخيًّا أنها غير محروسة. فقد جرت أحداثٌ مهولة، يضيق المقام هنا عن بيان فظاعتها، حتى أن بغداد لم تقم لها قائمة من بعد ذلك بقرونٍ طوال، ولم يعد بعدها الناسُ يصفون بغداد بالمحروسة. وبالطبع، لم تكن فكرة (وهم) الحراسة هي السبب الوحيد للكارثة، فقد كانت هناك عدة أسباب لسقوط بغداد بيدِ المغول. منها فساد الحكم، وصراع الشيعة مع السُّنَّة في بلاط الخليفة، وعدم تقدير خطورة الوضع العسكري المتدهور في دول الإسلام. لكن الاعتقاد بأن البلد (محروس) يظل من أهم هذه الأسباب المسبِّبات لسقوط بغداد.

وفي زماننا المعاصر (سنة ١٩٦٧ تحديدًا) وقف الجيشُ الإسرائيلي على مسافةٍ قريبة من القاهرة، ولم يفكر في دخولها لأسبابٍ إستراتيجية بحتة. لكن بعض المصريين اعتقدوا آنذاك أن المانع من ذلك، هو أن القاهرة «محروسة» بالمعنى الغيبـي، وليس الإستراتيجي. فامتلأت المساجد بالعاكفين والرُّكَّع السجود، وظهرتْ العذراء فوق قباب الكنائس، وروَّجت الحكومة (المهزومة) لهذه الأمور (الوهْمية) ليستعيد الناس التوازن بعد الهزيمة «النكسة» التي جرت على أرض الواقع، بما هو فوق الواقع وخارج حدود العقل. وهنا مكمن الخطر في وَهْم الحراسة، الذي يدفع الناس لا شعوريًّا إلى إهمال التدبير اللازم للحماية، اتكالًا منهم على أن البلاد تحرسها قوى فوقية (ميتافيزيقية) مع أن وقائع التاريخ، وقواعد المنطق، يدلان على أن المكان الذي لا يحرسه أهله، غير محروس. والنصوص لا تحمي من اللصوص.

ولو كانت بلادنا محروسة، لما تَعَاقَبَ عليها كلُّ مَنْ استطاع إليها سبيلًا. فالفُرس احتلوا البلاد مرتين، وألحقها الرومان بسلطانهم مراتٍ امتدت لمئات السنين، وظل أولئك وهؤلاء يحكمون البلاد ويسومون أهلها سوء العذاب. وفي زمانها الإسلامي استولى على حكمها ما لا حصر له من أشكال الحاكمين، فمن سُنَّةٍ إلى شيعةٍ، ومن أفاضل الرجال إلى العبيد من أمثال كافور، ومن العقلاء إلى المهووسين.. نخرج من ذلك (إذا أردنا الخروج) بحقيقةٍ بسيطةٍ تصيح في وجوهنا كطفلٍ وليد، مفادها أنه لا معنى لوهم (البلد المحروس) ما لم يقم أهل هذا البلد بحراسته.

مصرُ المستهدَفة

في المقابل من وَهْم «مصر المحروسة» يقوم وَهْمٌ مقابل هو «مصر المستهَدفة». وقد يبدو لنا للوهلة الأولى، أن هذين الوهمين متناقضان متنافران، ويدفع أحدهما الآخر. لأن الاعتقاد الظنِّي العام في الحراسة بمعناها الغيبي، يخالف الظنَّ الاعتقاديَّ العام في (الاستهداف) أو بالإحساس بأن خطرًا غامضًا يَحيقُ بالواقع ويُحدق بالناس من حيث لا يعلمون.. وبدايةً، فإن مقصودي بوَهْم (مصر المستهدفة) هو ذلك الظنُّ المخايل الذي يوحي همسًا بأن بلادنا في حالة استهدافٍ، وتُحاك ضدها في الخفاء المؤامرات، وهو ما يعبِّر عنه البعضُ اصطلاحًا بقولهم «نظرية المؤامرة». ولسوف نرى أن هذا الشعور الخفيَّ بالمؤامرة يرتبط بالإحساس الغامض بالحراسة، وأن هذين الوهمين المتقابلين متفاعلان دومًا، ودائمًا ما يستدعي أحدهما الآخر، فالبلد (محروس) لأنه مستهدف ولولا أنه (مستهدف) لما صار محروسًا. ولسوف نرى أن «الإعلام العام» أو ما صار يسمى مؤخرًا «الميديا» كان عادةً ما يؤدي دورًا مهمًّا في إشاعة الوهمين، معًا، وفي ترسيخ هذين الظنَّين في اللاشعور الجماعي. حتى اعتاد العامةُ، (ولا أقولُ الجهلة والدهماء) على قبوله لمناسبته لحالة «العامية» وغلبة الغيبية، وهو الأمر الذي تمتد جذوره عميقةً في تاريخنا على النحو الآتي بيانه:

في زماننا القديم، وقعت أهوالٌ جِسامٌ في طول البلاد وعرضها بسبب التَّفانين اللاهوتية التي اخترعها «إخناتون» وبطش بناءً عليها بأهمِّ علماء العالم في ذلك الزمان البعيد، وهم «كهنة آمون»، وقام بنفيهم وإجبارهم على العمل مثل (الفواعلية) في الصحراء. وتمادى إخناتون في غيِّه حتى اضطرب حال مصر واهترأت حدودها[1]، ثم خلفه على العرش «توت عنخ آمون» الذي مات في التاسعة عشرة من عمره (أو أُغتيل) فأرسلتْ زوجته إلى ملك الحيثيين (أعداءِ البلاد) تطلب منه أن يزوِّجها ابنه، لأنها لا تجد في مصر رجلًا يستحقها. ولكن الضابط «حور محب» سحق حلمها، وقتل

---

(١) سوف نعود للكلام عن «إخناتون» في الفصل السابع، الأخير، من الكتاب الثالث (فقه الثورة) وعنوانه: الحكمة المؤنثة.

الأمير القادم من أطراف الشام (دولة الحيثيين) ليركب البلاد والعباد. وكان من الطبيعي في غمرة هذا الاضطراب، أن يسود الاعتقاد بأن مصر التي كان اسمها آنذاك «كيمي» مستهدفة، لكن الآلهة سوف تحرسها. فلما استقرت البلاد بيدِ الضابط «سيتي الأول» مؤسس عصر الرعامسة (الذي هو خليفة الضابط «حور محب» الذي كان بدوره خليفة الضابط رمسيس الأول) وبعدما هدأت الأحوال في زمن الفرعون العظيم رمسيس الثاني، أراد هذا الفرعون أن يخرج بجيشه لتأمين الحدود وتدمير مملكة خيتا (دولة الحيثيين) لكنه حوصر عند حدود بلادهم بمنطقة مستنقعات وكاد يهلك هناك على أيديهم، حتى أنقذه طلابُ المدرسة العسكرية المصرية الحدودية التي كانت آنذاك بقرب مدينة (حلب) الحالية.. فكيف تمت صياغة هذه الوقائع في الأذهان؟

الشاعر المصري القديم «بنتاؤر» كتب سيرة رمسيس الثاني، وأرَّخ لما وقع في «قادش» قائلًا: إن الفرعون حين حوصر، ناجى الربَّ (آمون) وجهر أمامه بشكواه من المصير المحدق به، فأنقذه آمون. وقد تناقشتُ في تلك المسألة مع واحدٍ من علماء المصريَّات المعدودين في بلادنا، الصديق الدكتور محمد صالح، مستغربًا من إعادة بناء الواقعة في الوعي المصري القديم، على اعتبار أن «آمون» كان هو الذي حرس المحروس رمسيس. وقد فوجئتُ بصديقي بعدما انهمكنا في ذكر التفاصيل، يقول ما نصُّه: «ربنا حمى مصر يومها وحرسها من أعدائها، على الرغم من أخطاء رمسيس الثاني العسكرية».. قال ذلك، وهو الذي يعلم أن طلاب المدرسة العسكرية كانوا هم المنقذين.

وعلى مستوى الشعور الجمعي العام، كانت هناك عقائد عظيمة للمصريين، في ذاك الزمان بعضها ممتدٌ فيهم إلى اليوم، منها أن الإنسان يتألف من سبعة أشياء لا غنى له عن واحدٍ منها، هي: الكا (القرين، الحاسة السادسة)، البا (الروح، النفس)، الآخ (الفطرة السليمة)، الرِّن (الاسم، الهوية)، الشوت (الظل)، الغِت (البدن، الجثة)، إيب (القلب، اللب).. و«الكا» هو الروح الحارس الذي هو بمنـزلة الأخت للإنسان، ولذلك ما زال كثيرون منَّا حين يجزعون على طفلٍ يقع أو يتعرض للحسد، يصيحون

(يا ختي عليك) لاستجلاب هذا الروح الحافظ الحارس. وهكذا يظهر لنا أن فكرة الحراسة «الميتافيزيقية» قديمة جدًّا في تراثنا، مثلها مثل فكرة الاستهداف وكُمون الأخطار في الظلام، وهو ما يجعل من المنطقي والمقبول لدى الناس أن يحكم البلاد العسكريون، لأنهم هم الحماة من الاستهداف والخطر.

وفي زماننا الوسيط، وقعت أهوالٌ جِسامٌ في طول البلاد وعرضها بسبب اضطراب حكم المماليك وفتك بعضهم ببعض، مع بدء خروج المغول على مشارف دولة الإسلام، بسبب حماقات «محمد خوارزمشاه» التي أشرنا إليها سابقًا. وفي غمرة الاضطراب العام وتدهور الأحوال، قفز على العرش مملوكٌ من أولئك المجلوبين من خارج البلاد، ولا يُعرف للواحد منهم أبٌ ولا جدٌّ ولا أقارب (ولذلك أسماهم المصريون: أولاد الناس) وكان اسم هذا المملوك «قُطُز» فقط، من دون ذِكْر لمن كان أبوه.

وبعضُ المؤرِّخين المعاصرين يعتبر «قطز» بطلًا، لأنه حسبما يتوهمون انتصر على الجيش المغولي في عين جالوت. لكن حقيقة الأمر، أن الجيش المغولي الذي دَمَّر بغداد سنة ٦٥٦ هجرية، كان قوامه مائة وعشرين ألف مقاتل، يقودهم السَّفَّاح هولاكو (حفيد القائد العظيم: جنكيز خان) وهو الجيش الذي انهزم لاحقًا وعلى رأسه هولاكو، على يد «بركة خان» حفيد «جنكيز خان» الذي كان متعاطفًا مع الإسلام والمسلمين، وكان يحذر هولاكو من تدمير بغداد، لكن الأخير لم يستمع لتحذيراته وتهديداته القوية. فلما فعل هولاكو أفعاله الشنعاء، قطع عليه بركة خان (زعيم القبيلة الذهبية للمغول) كل الإمدادات، وخلعه، فعاد هولاكو إلى قلب آسيا وانهزم هناك أمام بركة خان.

أما الذين انهزموا في «عين جالوت» فقد كانوا في حقيقة الأمر، شراذم جيش هولاكو وبقاياه في الشام، وكان تعدادهم ثمانية عشر ألف مقاتل فقط، ولم يكن هولاكو على رأسهم. ولذلك، فمع أن بعضَ المؤرِّخين المعاصرين يعتبر «قطز» بطلًا، فإنني أراه غير ذلك. بل أراه صاحب أكبر (جناية) على تاريخنا السياسي الوسيط، لأنه بعدما قفز على العرش، قال بمبدأ: الحُكمُ لمن غَلَب. وقد اكتوى هو بنارِ المبدأ العسكري (الفُتوَّاتي)

عقب انتهاء موقعة عين جالوت، وقبل عودة المماليك إلى مصر. فقد قتله جماعة منهم لنيل منصبه، فتجمَّع المماليك حول أكبرهم سنًّا (سنقر الأشقر) الذي سألهم: مَنْ الذي فعلها؟.. يقول مؤرِّخونا القدامى: فتقدَّم بيبرس لأنه كان أكثرهم رعونةً، وقال «أنا فعلتها» فقال له سنقر الأشقر: اجلسْ مكانه، فإنه قال: «الحكمُ لمن غَلَب».

ومن يومها ظل الحكم في بلادنا لمن غلب، بمشروعيةٍ صريحة لا تستتر خلف (الخلافة) فقفز كثيرون على العروش بسطوة الجيوش. وحتى الذين لم يقفزوا، استدعاهم المصريون ورفعوهم على كرسي العرش، مثلما حدث مع «محمد علي» الذي كان قد جاء إلى مصر كواحدٍ من المرتزقة سنة ١٨٠١ ميلادية، فإذا به بعد أربعة أعوام، وبناءً على رغبة المصريين الذين صاحوا في وجه قنابل نابليون «يا خفيَّ الألطاف نجِّنا مما نَخاف» فلما أنجاهم خفيُّ الألطاف، وانصرف جيش نابليون عن مصر لأسبابٍ لا علاقة لها بمصر أصلًا، سعى هؤلاء المشايخ إلى محمد علي «العسكري» وجعلوه هو وسُلالته من بعده «أصحاب البلد». وبقي المصريُّ في زمانهم، فلاح.. خرسيس.. نرسيس.

وفي أيامنا الحالية، ألقى الرئيس حسني مبارك في بدء حُكمه المديد[1]، خطابًا لأهل مصر قال فيه عبارة «إن مصر مستهدفة» بشكل عارض. ولا شك في أن الرئيس يوم قال ذلك، كان يُشير إلى شيء لم يصرِّح به؛ ولكن بمجرد أن تلفَّظ بذلك انطلق إعلامنا من بعدها لفترة طويلة، مؤكدًا أن (مصر مستهدفة) وصار هذا التعبير متداوَلًا، حتى أننا لو راجعنا الجرائد والمطبوعات ووسائل (الميديا) آنذاك، سوف نجد العبارة التي ذُكرت عَرَضًا، مذكورة مئات المرات ومشفوعة بالتحليلات والتأكيدات والتهويلات والتهويمات والخزعبلات.. لماذا؟ لأن مصر مستهدفة مع أنها محروسة! ولا بد لها من حاكم (بطل) لديه خلفية عسكرية، لينقذ البلاد وقت اللزوم!

.. طيب، ما الذي يمكن أن نخرج به من هذه الوقائع، التي قد تبدو متباعدة تاريخيًّا؟ نخرج بأن أوهام المصريين عريقة، لها أصالة سبعة آلاف سنة. فكلَّما اضطربت

---

(١) نُشرت هذه السباعية في سبتمبر ٢٠١٠ قبل قيام ثورة يناير، وخلع الرئيس.

الأحوال العامة وسادت الجهالة، ساد التفكيرُ الخرافيُّ والمناخُ المناسب لأوهام الحراسة والاستهداف، وانطلقت (الميديا) في تأكيد الأمر بين الناس وإشاعته، وهو ما فعلته وسائل إعلامنا المعاصرة مع عبارة مبارك (العَرَضية) وفعلته قبل قرون «السيرة الظاهرية» التي تغنَّت بأمجاد الأرعن القاتل «بيبرس» وفعلته قبل ذلك بقرونٍ، نقوشُ المسلات وجدرانِ المعابد التي صوَّرت رمسيس الثاني كما لو كان هو المنتصر الوحيد في معركة «قادش» ولم تصوِّر معه على العجلة الحربية، أيَّ مصريٍّ آخر يحارب. فهو يرمي بسهامه من القوس (من دون أن يناوله السهام أحد) وتحته يتساقط الأعداءُ صَرْعَى.. فهو المنقذُ الوحيد، وابنُ الشمس، وابن الشعب، والرئيسُ المؤمن، والحاكمُ لأنه غلب، والناصرُ، وحارسُ منجزات الثورة المباركة، والملهمُ، وبطلُ الحرب والسلام.. قال الشاعر ساخرًا:

ولا جديد لدى العروبة،
بعد شهرٍ يلتقي كُلُّ الملوك، بكل أنواع الملوك
من العقيد إلى الشهيد، ليبحثوا
خَطَرَ اليهودِ على وجود الله(١)

ونخرج من ذلك، بأن التأسيس لوهم (مصر المستهدفة) ينطلق من آلياتٍ محددة وشروطٍ بعينها. منها إذكاءُ حالة الغباء العام والجهالة العمومية، لأن الناس إن فهموا سيدركون أن أيَّ أرضٍ فيها خيرات لا بد أن تكون مستهدفة، وأي شعبٍ تغمره الجهالة والأوهام يكون مستهدفًا. ومنها أن وسائل الإعلام تجعل من الحاكم أيًا مَنْ كان، هو «المعادل الموضوعي» للبلد، ولذلك تُنصب له التماثيل في كل مكان أو تملأ سيرته الأسماع ويتلوها المنشدون أو تعلَّق صوره الكبيرة وراء كل كبير، ليستمدَّ منه الجالس (الحراسة) ويدفع عنه (الاستهداف) ويستجلب الحماية من الطامعين في كرسيِّه.

ومن آليات إشاعة هذين الوهمين المتفاعلين فيما بينهما (الحراسة، والاستهداف) قمعُ المعارض لأيِّ وَهْمٍ منهما، فالذي يتشكَّك في أن مصر محروسةٌ والذي لا يؤمن

---

(١) من قصيدة محمود درويش «مديح الظل العالي» التي كتبها أيام حصار بيروت.

بأن مصر مستهدفةٌ، هو هرطوقيٌ يهدِّد الاستقرار، ومأجورٌ يريد أن يجور. أو هو على أقل تقدير، شخص لا يحب هذا البلد (الحنون) ويخدم أغراض الأعداء والعياذ بالله.. نعوذ بالله العليِّ العظيم، من كل فكرة تخالف المألوف، أو تؤكد المكشوف، أو تفكُّ الملفوف.. فدعونا ندعو من قلوبنا ونبتهل، كي يديم الله علينا الأوهام ويمنَّ علينا بالأحلام، ويهبنا الكسل الذهني كي نقاوم التفكير المنطقي والجادَّ من الكلام.. اللهم احفظْ لنا مصرنا المحروسة فأنت تعالَى تعلم أنها مستهدفة، ولن ينقذها إلا العسكريون.. والطُفْ بنا، واصرفْ عنا أذهان المؤهَّلين للفهم.. وادفعْ بفضلك خوفَ الطغاةِ من الأغنيات، وخوفَ الغزاةِ من الذكريات(١).

---

(١) اندلعت الثورة المصرية، التي أجهضها لاحقًا العسكريون، بعد مرور أيامٍ قلائل على نشر هذه المقالة، بخاتمتها الساخرة.

الفصل الثاني

بشاعةُ المقوقس

الخرافاتُ المرتبطة بفتح مصر

أَصلُ البلاوي الحواديتُ والحكاوي(١)

لو جعلتُ عنوان هذه المقالة فصيحًا، لكان «سببُ البلايا، الخرافات والحكايا» غير أن العنوانَ العاميَّ كما سنرى بعد قليل، أقرب دلالةً على المسألة التي نطرحها في هذه السباعية، لأن (فتح مصر) التفَّتْ حوله في أذهاننا، كثيرٌ من الحواديت والحكاوي التي راجت عند العامَّة من الناس، أو تمَّ الترويج لها عن عمد، حتى صارت ملمحًا أساسيًّا من ملامح ثقافتنا المصرية المعاصرة، المعصورة.

وكنتُ أولًا قد نويتُ أن أُنهي السباعية السابقة (الفصل السابق) بمقالةٍ ختاميةٍ عن فتح مصر، الذي يصرُّ بعضنا على تسميته (غزو مصر) لاعتبارات خاصة سوف نتعرَّض لها لاحقًا. لكنني حين شرعتُ في كتابة المقالة، وجدتها قد استطالت حتى خرجت من الحيز المتاح، نظرًا إلى كثرة «الأوهام» المرتبطة في أذهاننا بهذه المسألة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لمحاولة البعض منَّا استغلال هذا الموضوع المترع بالتوهُّمات (الحواديت والحكاوي) في صياغة وعيٍ تاريخيٍّ كاذبٍ، مغلوطٍ، من شأنه أن يكون سببًا مباشرًا أو غير مباشرٍ، لعديدٍ من البلايا (البلاوي) في واقعنا المعاصر.

---

(١) بدأتُ نشرَ هذه السباعية في شهر نوفمبر ٢٠١٠ في الوقت الذي بدأ فيه د. محمد سليم العوّا، المفكر الإسلامي المعروف، سلسلة محاضرات (أسبوعية أيضًا) تتناول الموضوع ذاته، من وجهة نظره المعتمدة على الأخذ بما يسمى عند علماء الحديث النبوي (السند) بينما كنتُ أكتب مقالاتي انطلاقًا من القاعدة الخلدونية «ينبغي إعمال العقل في الخبر».. وكان المقرر أن نلتقي معًا في صالوني الشهري الذي ينعقد في القاهرة بساقية الصاوي، بجلسة الأربعاء الأول من شهر فبراير ٢٠١١ لعرض وجهتيْ النظر، والوصول إلى قناعات عامة مشتركة.. غير أن الثورة المصرية اندلعت شرارتها في آخر شهر يناير، فأذهلتنا عن ذلك وشغلتنا عنه بالشواغل المشهورة.

ولكي نتصوَّر كمَّ الغرابة والسذاجة في الأخبار التاريخية المتعلقة بفتح مصر، يكفي أن نورد ثلاثة أمثلة مما احتوت عليه كتب التاريخ، القديمة والمعاصرة، وهي أمثلة لحواديت وحكاوي لا يستطيع أي عقل أن يقبلها.

المثالُ الأول، ما جاء في الكتب من أن عمرو بن العاص افتتح مصر، أو غزاها، فاستقرت بيدِه في أقل من عامين. وهذا مما يصعب فهمه، لأننا لو تصوَّرنا جيشًا تعداده بضعة آلاف، معظمهم من المشاة (الراجلين لا الفرسان) يدخل من بوابة مصر الشرقية «العريش» ثم يقطع شمال سيناء حتى يصل إلى حوافِّ الدلتا الشرقية، ثم يسير بحذاء فرع النيل الذي كان يسمَّى «الفرع البيلوزي» نسبةً إلى البلدة المسمَّاة باليونانية بيلوز (وبالعربية الفرما، وباللغة المصرية القديمة البَرَمون) وقد كان لنهر النيل آنذاك، خمسة أفرع في الدلتا.. ثم من بعد ذلك يتجه الجيش جنوبًا، إلى حيث الوادي الواسع الذي أُقيمت فيه بعد عدة قرون مدينة القاهرة، وكان اسمه آنذاك وادي الكاهيرا (كاهي رع) وهو الاسم الذي صار يُنطق لاحقًا بشكل معدَّل عربيًا (القاهرة) ومنه قولنا قاهرة المعز، تمييزًا لها عن اسمها الذي كانت تعرف به المنطقة سابقًا.. وهذا الموضع كان يقف على طرفه المحاذي لمجرى النيل، بلدة كبيرة بناها الفرس وأسماها المصريون «القصر» وهي المعروفة اليوم بمنطقة «حصن بابليون».. المهم، وفقًا لما تحكيه لنا الكتبُ التاريخية، القديمة والجديدة، فإن هذا الجيش استكمل سيره بمصر على غير هدى، حتى وصل إلى الفيوم وخاض عدة وقائع، ثم عاد إلى ناحية الحصن وأقام هناك «الفسطاط» أيْ مجمع خيَام العسكر، ثم سار بحذاء فرع النيل الغربي، المسمَّى اليوم «فرع رشيد» حتى وصل إلى عاصمة البلاد آنذاك (الإسكندرية) وملك زمامَها بعد حصارها. وإذا عرفنا أن هذا الجيش السحري، حاصر قبل الإسكندرية المدنَ التالية: الفيوم، والقصر (حصن بابليون) والفرما، ودفاشير! لَصَار لدينا سؤال منطقيٌّ لا جواب له: كيف استطاع هذا الجيش، من دون طائرات ومركبات فضائية وموتوسيكلات (وغير ذلك مما لم يكن قد تم اختراعه) أن يقطع هذه المسافات سيرًا على الأقدام، ويحاصر الحصون، ويعبر الأنهار، ويقطع المسافات التي تعد اليوم بمئات الكيلومترات، وينتصر.. كل ذلك في أقل من عامين؟

والمثالُ الثاني، المدهش، أن عمرو بن العاص دخل مصر ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقيل أربعة آلاف، كلهم من قبيلة «عَكّ» اليمنية التي كان المسلمون الأوائل يسمونها (قبيلة الأخابث) ويسمون الوادي المؤدي إليها (طريق الأخابث) لأنهم كانوا أول القبائل التي ارتدَّت عن الإسلام بعد وفاة النبي. فإذا بهذا الجيش الغازي، ويا للعجب، يحاصر الحصن الشهير (الفرما) ويدخله، ويأسر منه ثلاثة آلاف مقاتل من جيش الروم، ويرسلهم إلى «المدينة المنورة» مقيَّدين في السلاسل، حسبما يؤكد المؤرِّخون المسلمون[1]، لكن الخليفة (عمر بن الخطاب) يأمر بإطلاق سراح هؤلاء الأسرى «لعهدٍ كان قد سَبَقَ لهم!»، فكيف غلب هؤلاء أولئك، وكيف أسروهم، ومن أين جاء عدد هؤلاء الأسرى «الثلاثة آلاف» وما هو ذلك «العهد» الذي كان قد سبق؟

والمثالُ الثالث، الأدهش، أن كل الكتب القديمة والجديدة التي تحكي لنا الحكاوي والحواديت عن فتح أو غزو مصر، تتحدث عما تسميه «حصار الإسكندرية» بل تفصِّل الأمر وتتحدث عن حصار الإسكندرية الأول، وحصارها الثاني بعد ثورتها على (الاحتلال الإسلامي) حيث قام جيشُ الروم بقيادة «منويل» بطرد المسلمين، فعاد عمرو بن العاص وافتتح المدينة (عاصمة البلاد) ثانيةً، بعدما حاصرها. وأقسم متوعِّدًا أثناء حصارها، قائلًا: «والله لئن مَلَكْتُها لأجعلنَّها مثل بيت الزانية».. (يقصد، أنه سوف ينزع أبوابها ويحطم أسوارها).. والسؤالُ المنطقيُّ الذي لا جواب له هنا، هو: كيف يمكن للمسلمين أصلًا، محاصرة الإسكندرية؟ فهذه المدينة من يوم بنائها حتى يوم كتابتي هذه المقالة، تنام كالعروس على شاطئ البحر. ولم يكن للعرب المسلمين في زمن الفتح (الغزو) خبرةٌ بركوب البحار أو عبور الأنهار، حتى إن الخليفة «عمر بن الخطاب» اشترط على «عمرو بن العاص» ألا يعبر أيَّ مجرى مائي، قائلًا له بحسب ما ورد في كتب التاريخ: «لا تجعل بيني وبين جند الإسلام ماءً، فحيثما أردتُ ركبتُ دابتي وجئت إليهم».. فكيف يكون الحصارُ بدون سفن ومراكب؟ وكيف يتم الحصارُ، والإسكندريةُ تحميها من خلفها بحيراتٌ ومستنقعاتٌ كثيرة (هي التي يتم تجفيفها اليوم،

---

(١) راجع ما ذكره عن ذلك مؤرِّخون مشهورون من أمثال: ابن عبد الحكم، ابن زولاق، البلاذري.

لإقامة ما يسمى: داون تاون) وقد ذكر المؤرخون القدامى، من اليونان السابقين والعرب الفاتحين، أن أسوار المدينة كانت ضخمة جدًّا وتحميها آلات الحرب الهائلة، ومنصوبًا عليها ما لا حصر له من المنجنيق (آلة قذف النار والأحجار) وكان بها من جيش الروم قرابة أربعين ألف جندي.. فكيف حاصرها عمرو بن العاص، وكيف فتحها مرَّتين؟

ثم يصير سؤالنا السابق أكثر إدهاشًا، حين نعرف من أقدم مؤرِّخٍ لفتح مصر «ابن عبد الحكم» أن مجموع قتلى جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، من حين ابتدأ الفتحُ والحصارُ حتى دخل المسلمون الإسكندرية «مدينة الله العظمى» حسبما كانت تسمَّى قديمًا، هو واحد وعشرون شهيدًا.. أي حمولة سيارة ميكروباص.

إذن، إن ما نعتقدُ أنه «تاريخ» فتح مصر، هو مجردُ حكاوي وحواديت (بالمعنى العامّي) لن يقبلها أيُّ عقل، ولن يقتنع بها إلا السفهاءُ والعوامُّ من الناس. والأخطرُ من ذلك، أن بعض معاصرينا من دعاة العودة إلى ما يسمونه «مجد مصر الفرعونية» ومن أصحاب الاتجاهات العجيبة الداعية إلى سخافة (مصر فرعونية لا عربية) ومن ذوي الأحلام الخزعبلية الرامية إلى إخلاء بلادنا من محتواها العربي (مع أنهم يدعون إلى ما يتوهَّمونه، ويكتبون عنه باللغة العربية) ومن أصحاب الزعم المعتاد بأنهم وحدهم أصحاب البلد (مع أن الدين لله والوطن لمن يحكمون).. هؤلاء جميعًا وأشباهُهم، يقيمون على حكاوي وحواديت «فتح مصر» اتجاهات إستراتيجية ومواقف تكتيكية، وهي في واقع الأمر اتجاهاتٌ ومواقفُ بائسةٌ، وغير مؤسَّسة على معرفةٍ حقيقية بالماضي والحاضر.. ولا المستقبل بالطبع.

وهؤلاء المتوهِّمون والموهومون، ومَنْ لَفَّ لَفَّهُم، لا ينتبهون إلى أن الوعي الزائف لن يُعطي إلا اتجاهات ومواقف زائفة، وأن ما يقوم على الأوهام سرعان ما سوف ينهار. فضلًا عن أن تلك التصورات الساذجة عن الماضي، سوف تقود إلى تصورات مستقبلية أكثر سذاجة.. ولذلك، فعندما أرسل إليَّ صديق (عزيز) رسالةً تقول إن واحدًا من جبابرة العباقرة المعاصرين، صرَّح بأن المسلمين في مصر ضيوف! رددت عليه برسالة تقول بالعامية: طيب، اشرب الشاي بسرعة لنغادر، فيا بخت من زار وخفِّف.

وفي روايتي (النبطي) عرضتُ بحسب ما سمح به السياقُ الروائيُّ، لطبيعة الحياة في مصر خلال العشرين عامًا التي سبقت مجيء عمرو بن العاص إليها بهذا الجيش الذي «كلُّه من عَكّ»[1] وكنتُ أنوي من بعدها تأليف كتابٍ بعنوان (المقوقس) أعرضُ فيه بشكل مباشر، غير روائي، لما يمكن أن يكون تطبيقًا للقاعدة التي ذكرها ابنُ خلدون حين قال في مقدمة (المقدمة) ما نصه: «ينبغي علينا إعمال العقل في الخبر».. لكنني سوف أبدأ بعد أيامٍ في كتابة روايتي القادمة (حاكم) التي تدور أحداثها في الزمن الفاطمي، وتعرض لأشياء أراها مهمة، تتعلق بهذا الرجل العجيب المسمَّى «الحاكم بأمر الله».. ومن هنا، فقد رأيتُ أن أوجز فيما يلي، ما كنت أنوي ذكره في كتاب (المقوقس) الذي لن يصدر لأنني سأصرفُ عنه النظر[2].

حكاياتُ حاطب

من أوائل الشخصيات التي ارتبطت أسماؤها بعملية (دخول) العرب المسلمين إلى مصر، قبل عمرو بن العاص بسنواتٍ طوال، شخصيةُ «حاطب بن أبي بلتعة» الذي سنروي فما يلي بعضًا من حكاياته، ونتأملها.. من أهم هذه الحكايات، وأشهرها، تلك الحكايةُ العجيبةُ التي تناقلتها كتبُ التاريخ القديمة والمعاصرة، من دون أن يتروَّى أحد من المؤرخين ويفكر فيها بشكل منطقي. فحسبما قالوا، فإن «حاطب» كان مبعوث النبي ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر سنة (ستٍّ) من الهجرة، وهي السنة الموافقة للعام ٦٢٧ الميلادي. وحسبما قالوا، فإن النبي ﷺ بعث معه برسالة إلى المقوقس، سوف نورد نصَّها لاحقًا، ونورد ما يقدح في صحتها وصحة بقية هذه الرسائل النبوية المزعومة. وحسبما قالوا، فإن «حاطب» قد تحادث مع المقوقس حديثًا طويلًا، ثم عاد من عنده بهديةٍ إلى النبي ﷺ عبارة عن جاريتين وبغلة. الجارية الأولى هي (مارية القبطية) التي تزوَّج بها النبيُّ وأنجبت له «إبراهيم» الذي مات بعدما بلغ من عمره

(١) العبارة من كتاب ابن عبد الحكم، وهو أقدم مصدر عربي عن فتح مصر.

(٢) وقد اضطرتني الحوادث الثورية، إلى تأجيل كتابة الرواية المشار إليها (حاكم) لأنها كانت تُفصح عن طبيعة الاستبداد السياسي، فإذا بالثورات العربية المتعاقبة تفضح ما كان مستترًا من هذا الأمر.

عامين، وبكاه النبي. والجارية الأخرى، هي أختها الصغرى (شيرين، سيرين) التي قيل إن النبي أهداها لواحدٍ من صحابته، من المرجَّح أنه الشاعر «حسَّان بن ثابت» وقيل إنها أنجبت منه. وحسبما قالوا، فإن لحاطب بن أبي بلتعة (حكايات) أخرى سوف نورد بعضها أولًا، ثم نتوقَّف من بعدها عند حكايته المرتبطة بمصر.

من حكايات حاطب التي رواها المؤرِّخون، أنه حين بدأ النبي ﷺ التجهيز العسكري لاقتحام مكة، وهو الأمر الذي سوف يُعرف لاحقًا بفتح مكة، أرسل «حاطب» إلى أهل مكة تحذيرًا مكتوبًا. بعث به مع امرأة خرجت سرًّا من المدينة (يثرب) إلى مكة، غير أن النبي أدرك الأمر وطلب من الإمام عليّ بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، والزبير بن العوام، أن يخرجوا إلى الصحراء بحثًا عن تلك (الإخبارية) المرسَلة سِرًّا، فخرجوا حتى أدركوا المرأة (الجاسوسة) بموضعٍ في الصحراء اسمه «روضة خاخ» وهدَّدوها حتى انتزعوا منها الرسالة التحذيرية، وعادوا بها إلى النبي فاستدعى (حاطب) وقام في حضور جمعٍ من الصحابة بمواجهته بالأمر، فلم ينكر حاطب فعلته. واعتذر عنها بأن له أقارب في مكة، فأراد أن يكسب مودة الناس هناك بتحذيرهم، خشيةً منه على أهله الذين يعيشون بينهم.

وبالطبع، ومثلما هو معتاد في مثل تلك الوقائع، فقد أراد «عمر بن الخطاب» أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة، بعدما اعترف بفعلته الشنعاء. لكن النبي ﷺ منعه لأن «حاطب» شهد موقعة بدر، وأهل بدر لهم مكانة خاصة عبَّر عنها الحديث النبوي: «لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فإني غافر لكم».. (حديث صحيح، أورده البخاري ومسلم وغيرهما).. وهكذا، نجا «حاطب» من عقوبة الخيانة العظمى! ثم نزلت آية قرآنية بسبب هذه الواقعة، تشهد لحاطب بالإيمان، هي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾.

وفي تلك الحكاية أمورٌ لافتة للنظر، وقد تقدح في صحتها، مع أن معظم المصادر التاريخية (التراثية) وكتب السيرة تذكرها. فمن ذلك، أن المسافة بين مكة والمدينة طويلة جدًّا، تعد بمئات الكيلومترات، فكيف لامرأةٍ أن تخرج منفردةً لتقطع وحدها

هذا الطريق الموحش، الذي لا يخلو من وحوش الليل وهجير النهار؟ ومن ذلك أن المسالك من المدينة إلى مكة متعدِّدة، وليس من المنطقي أن يخرج ثلاثة من الرجال، معًا، للبحث عن شيء في هذه الصحراوات الشاسعة، متعددة المسالك. ومن ذلك أن (حاطب) ليس قرشيًّا أصلًا، حتى يكون له بمكة أقارب أو أولاد، فهو في الأصل من أهل اليمن، وتحالف مع الزبير بن العوَّام (وقيل: بل كان عبدًا لرجلٍ من قريش، ثم نال حريته) وقد هاجر حاطب مع النبي إلى يثرب وهجر مكة، فكان من أوائل المهاجرين الذين رحلوا عنها، من قبل بدر. وما بين موقعة بدر وفتح مكة سنواتٌ طوال، فكيف بقي أقاربه هناك طيلة هذه السنوات، وهل كانوا كُفارًا مثل أهل مكة، ومن ثَمَّ فلا يوجد أي داعٍ للخوف عليهم من بطش قريش، لو استعصت مكة على الفتح؟ أم كانوا مسلمين، وبالتالي فقد سنحت الفرص مرارًا لخروجهم من مكة، من قبل (الفتح) بفترة طويلة؟

ومن حكايات «حاطب» ما يفيد أنه كان غليظ القلب وقاسيًا على عبيده، مع أنه كان في الأصل عبدًا أو مولى لبعض رجال قريش. وهناك واقعتان مشهورتان تتعلقان بقسوته على العبيد، الأولى أن واحدًا من عبيد حاطب، اشتكى للنبي ﷺ من القسوة التي يلقاها على يد سيده، وأنهى شكواه بأن قال «يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار» فردَّ عليه النبي: «كذبت، لا يدخل النار رجلٌ شَهِدَ بدرًا والحديبية».. والواقعة الأخرى جرت بعد وفاة النبي بسنوات، ففي خلافة عمر بن الخطاب سرق عبيدُ «حاطب» ناقةَ رجل من قبيلة مزينة، وذبحوها سرًّا من شدة جوعهم ليأكلوا، فانكشف الأمر فاستدعاه الخليفة وعاقبه لأنه يجوِّع عبيده، بأن ألزمه بدفع ضعف ثمن الناقة (ثمانمائة درهم) لصاحبها، وهو ثمنٌ مبالغٌ فيه بحسب المعمول في ذاك الزمان، أو هو بالأحرى: غرامة.. والمراد هنا، تبيان أن «حاطب» الذي صار فيما يبدو من الأغنياء (لأنه كان يتاجر في القمح) اشتهر بشدَّته على العبيد، وهو الأمر الذي دعا الدين الإسلامي إلى نقيضه.

ومن حكايات حاطب المرتبطة بمصر تحديدًا، حكايتان. الأولى مشهورةٌ وعندي عليها شكوك، والأخرى مهملةٌ مع أنني أراها مهمة. الحكايةُ الأولى ملخصها أن (حاطب) جاء للمقوقس برسالة من النبي (ﷺ) يدعوه فيها للإسلام، فأقام حاطب زمنًا بالإسكندرية حتى عرف أن المقوقس يجلس في شُرفةٍ مطلَّة على البحر، فركب

حاطب سفينةً واقترب بها من مجلس المقوقس، وراح يلوِّح له بالرسالة حتى انتبه له ودعاه إليه، فجاء إلى مجلس المقوقس وقد اجتمع حوله البطاركة (الآباء) وبعدما قرأ المقوقس الرسالة جرى الحوار التالي الذي ذكرته معظم المصادر التاريخية، أو بالأحرى تناقلته عن بعضها البعض:

المقوقس: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيًّا؟

حاطب: بلى، هو رسول الله.

المقوقس: فلماذا لم يدعُ على قومه ليهلكهم الله، لأنهم أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟

حاطب: وعيسى ابن مريم، ألا تشهد أنت أنه رسول الله؟

المقوقس: بلى.

حاطب: فما باله حين أخذه قومه وأرادوا صلبه، لا يدعو عليهم بأن يهلكهم الله، حتى رفعه الله إليه؟

المقوقس: أحسنت، أنت حكيمٌ جاء من عند حكيم. هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، جاريتان وبغلة ليركبها.

وهكذا (حسبما قالوا) عاد حاطب إلى النبي من عند المقوقس، محملًا بالهدايا والعطايا. ولكننا إذا طبَّقنا القاعدة البديعة التي وضعها ابن خلدون حين قال «ينبغي علينا إعمال العقل في الخبر» ونظرنا برويةٍ في هذه الحكاية، فسوف تظهر لنا عدةُ أمورٍ. أولها: أن البعثات السياسية في ذاك الزمان، بل في كل الأزمنة، لم تكن تجري على هذا النحو المسرحي (الفكاهي) الذي يجعل المبعوث يلوِّح بالرسالة من مركبٍ يعوم في البحر، حتى يراه المقصود بالرسالة أو لا يراه. وثانيها: أن المقوقس كان «أرثوذكسي» المذهب، أي إنه كان يعتقد بأن المسيح «إله» وليس رسولًا من الله مثلما يعتقد المسلمون، ومن ثم فلا معنى للحُجَّة التي ساقها حاطب وأفحمت المقوقس. وثالثها: أن المقوقس ما كان ليوافق بهذه البساطة على كلام «حاطب» لأن هذا المقوقس لا يعرف (عيسى ابن مريم)

الذي أخبر به القرآن الكريم، وإنما المسيح بحسب معتقده الأرثوذكسي (الملكاني) هو الله، وأمه مريم هي «ثيوتوكوس» أي والدة الإله، وهو في عقيدة المقوقس لم يُرفع إلى السماء حسبما يعتقد المسلمون، وإنما تعذَّب وصُلِبَ ومات وعاد إلى الحياة ثم ذهب عند أبيه (الله) وهذا ما يعتقده المسيحيون الأرثوذكس. ورابعها: أن المقوقس كان أسقفًا، ولم يكن حوله (بطاركة) ولم يكن من تقاليد الحكام المسيحيين آنذاك إرسال هدايا من الجواري (الإماء) ولم تكن الإسكندرية موطنًا للبغال، حتى يهدي المقوقس للنبي بغلةً من هناك، تظل سائرة في الصحراء هذه المسافة الطويلة (جدًّا) وكان بالإمكان، إذا صَحَّ الخبر وصدْقت هذه الحكاية، أن يهدي المقوقس شيئًا مما اشتهرت به الإسكندرية (مدينة الله العظمى) في ذاك الزمان. وخامسها: أن المقوقس لم يكن بالضرورة، متابعًا لما يجري في قلب الجزيرة العربية من اضطهاد أهل قريش للنبي، لأن أمورًا كبرى كانت تجري في العالم (المتقدم) آنذاك، وكانت أهم عنده بكثيرٍ مما يجري في قلب صحراء العرب، ولو كان المقوقس (افتراضًا) يعرف بما يجري هناك، وكان حسبما جاء في هذه الحكاية، قد اقتنع بأن نبي الإسلام (حكيم) ورسوله حاطب (حكيمٌ جاء من عند حكيم) لكان المقوقس كافرًا بالمسيحية، وهو الأسقف، لأن إنجيله يقول على لسان المسيح: سيأتي بعدي أنبياء كَذَبة.. والأهم مما سبق، كله، أن المقوقس لم يكن قد وصل أصلًا إلى مصر سنة «ستٍّ» من الهجرة، وإنما كان آنذاك لا يزال أسقفًا في بلدته القوقازية «فاسيس».. وهو ما سوف نتحدث عنه بعد قليل.

والحكاية الأخرى، المهملة مع أنها الأهم، تأتي موجزة في مصادرنا التاريخية القديمة، ونصُّها ما يلي: «في خلافة أبي بكر الصديق، بعد وفاة النبي، بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، فمرَّ على ناحية الشرقية فهادنهم وأعطوه، فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص».

إذن، كانت هناك عهود سرية بين المسلمين والمقوقس في زمن خلافة أبي بكر وهو الأمر الذي يفسِّر قول المؤرِّخ المبكر ابن عبد الحكم، إن «عمرو بن العاص» ظل يُلِحُّ على الخليفة «عمر بن الخطاب» في دخول مصر: «فأذن له، فخرج إليها بثلاثة آلاف

وخمسمائة، كلهم من عَكّ، فنقض الصلح وفتحها».. وقوله في موضعٍ آخر إن الخليفة عمر بن الخطاب، حين أرسل له عمرو بن العاص بثلاثة آلاف أسير من مصر، ردَّهم الخليفة إلى بلادهم: «لعهدٍ كان قد سبق لهم».. فتأمل[1].

رسالةُ النبيّ

«وأما الأخبارُ التي بأيدينا الآن، فإنما نتَّبعُ فيها غالبَ الظنِّ، لا العلمَ المحقَّق».. كانت تلك هي عبارة العلامة ابن النفيس (رئيس أطباء مصر، علاء الدين بن أبي الحرم القَرَشي، المتوفى سنة ٦٨٧ هجرية) التي ابتدأتُ بها روايتي الجديدة «محال» صارفًا معناها إلى السطوة الوهمية للإعلام المعاصر. مع أن صاحبها كان يعبِّر فيها بوضوحٍ باهر، عن حقيقةٍ بسيطة «وخطيرة» تقول إن الأحاديث النبوية والأخبار الشريفة وروايات السيرة، ليست تامة اليقين مهما بلغ علوُّ إسنادها وانتقالها من هذا الراوي إلى ذاك، وهو ما يعرف باسم (العنعنة) حيث يروي الحديث والخبر فلان عن فلان عن فلان، سابقًا عن سابق. لكن العبارة تعني أيضًا معاني أخرى يحتملها ظاهرُ الكلمات، منها ما يتعلق بالسند التاريخي ومصداقية الوقائع المروية في كتب الإخباريين والمؤرخين. وقد أورد ابنُ النفيس، الذي كان من دون شكٍّ عبقريًّا، عبارته اللامعة هذه في واحدٍ من مؤلفاته البديعة التي قال عنها: «لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة، ما وضعتُها».

وهذه العبارةُ تبدأ بها فقرةٌ مهمةٌ في كتابٍ للعلامة علاء الدين، عنوانه (المختصر في علم أصول الحديث) وهو الكتاب الذي نشرتُه مُحققًا قبل عشرين عامًا، وأُعيدَ طبعُه مؤخرًا. والفقرة كاملةً تقول: «وأما الأخبارُ التي بأيدينا الآن، فإنما نتَّبع فيها غالب الظنِّ لا العلم المحقق، خلافًا لقوم». وقال قومٌ (من العلماء) إن جميع ما اتفق

(١) بخصوص «حاطب» وحكاياته، وبقية الحكايات التاريخية القديمة المتعلقة بفتح مصر، راجع: ابن عبد الحكم (فتوح مصر) ابن سعد (الطبقات) الذهبي (سير أعلام النبلاء) الذهبي (تاريخ الإسلام) ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ابن حجر (الإصابة في تمييز الصحابة) المقريزي (المقفّى الكبير) ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب).

عليه مسلم والبخاري، فهو مقطوعٌ به (بصحته) لأن العلماء اتفقوا على صحة هذين الكتابين. والحق أنه ليس كذلك! إذ الاتفاق إنما وقع على جواز العمل بما فيهما، وذلك لا ينافي أن يكون مظنونًا بصحته، فإن الله تعالى لم يكلِّفنا الوقوف عند العلم، ولذلك يجب الحكمُ بموجب البيِّنة، وإن كانت قد أفادت الظن..

قد ينصدم البعضُ من هذه (الحقيقة) وقد يخفِّف من صدمتهم أن الرأي الذي يقرِّره ابن النفيس يطابق ما قرَّره غيرُ واحدٍ من علماء الحديث النبوي في تاريخ الإسلام، تعليقًا على ما أكَّده ابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية) الذي يقرِّر بحزمٍ في كتابه «معرفة أنواع علم الحديث» الذي اشتهر عند الناس بعنوان (مقدمة ابن الصلاح) ما نصُّه: وإذا انتهى الأمرُ في معرفة الصحيح، إلى ما أخرجه الأئمة.. فهذا القسم (الذي اتفق عليه البخاري ومسلم) مقطوعٌ بصحته، والعلمُ اليقيني النظري واقع به، خلافًا لقول مَنْ نفى ذلك، محتجًّا بأنه لا يفيد إلا الظن.. وقد علَّق المحدِّث الشهير، الحافظ العراقي، على قول ابن الصلاح بما يلي: إن ما ادَّعاه ابنُ الصلاح من أن ما أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) مقطوعٌ بصحته، قد سبقه إليه الحافظُ محمدُ بن طاهر المقدسي، وأبو نصر بن يوسف، فقالا إنه مقطوعٌ به. وقد عاب الشيخ عزُّ الدين بن عبد السلام، على ابن الصلاح، هذا.. وقال الشيخ محيي الدين النووي في كتابه (التقريب والتيسير): خالف ابنَ الصلاح المحققون والأكثرون، فقالوا: يفيد الظنَّ ما لم يتواتر.. وقد اشتدَّ إنكارُ ابن برهان الإمام، على من قال بما قاله الشيخُ (ابن الصلاح) وبالغ في تغليظه.

إشارة: أرجو من القارئ أن يصبر معي قليلًا. ولسوف يعرف بعد قليل، أهمية الوقوف عند تلك المسألة، وضرورة إيراد هذه التمهيدات السابقة.

إذن، هناك خلافٌ بين علماء الحديث النبوي في «يقينية» الأخبار والأحاديث الشريفة، مهما بلغت من صحة السند أو الرواية سابقًا عن سابق عن النبيِّ ﷺ. لأن العنصر البشري يتدخل في السند والعنعنة، وما دام الأمر كذلك فإن (غالب الظن) لا (اليقين المطلق) هو الأساس الذي يقوم عليه هذا الحديث النبوي أو ذاك، حتى إن كان الحديثُ أو الخبر النبوي قد ورد عند الإمامين البخاري ومسلم، وهو ما يسمَّى اصطلاحًا «الحديث المتفَّق عليه».

ولأن الذين كتبوا تاريخنا الإسلامي، كانوا في الأغلب من المحدِّثين (علماء الحديث) وكانوا في كثير من الأحيان يؤكِّدون الطريقة التي يروي بها أهلُ الحديث الأخبار والأقوال النبوية (السنن القولية، السنن الفعلية) فقد تبادر إلى الأذهان مع مرور القرون، ومع الميل الفطري إلى تبجيل السابقين؛ أن الروايات التاريخية والأخبار المروية لها المصداقية ذاتها التي تمتاز بها نصوصُ الأحاديث النبوية. وكان بعض مشايخنا المعاصرين، مثل أستاذنا الدكتور بشَّار عوَّاد معروف (المحقِّق الشهير في التاريخ وعلم الحديث النبوي) يقول بأنه يجب علينا تطبيق قواعد علم الحديث على علم التاريخ، بحيث نظفر بالصحيح من وقائع التاريخ، بعد تمحيص وضبط السند والرواية. بمعنى أن ننظر مثلًا في رواة هذا الخبر التاريخي، وفي اتصالهم الفعلي من عدمه، وفي صحة السند والمتن (الرواية والدراية) أو غير ذلك مما يفعله أهل الحديث، ثم نطبِّق ذلك على ما يرويه المؤرخون من وقائع وما يذكرونه من أحداث، فنعرف صحيحها من باطلها بمعرفة صدق الرواة وبطلانهم.. وهو النهج الذي اختاره أستاذنا الدكتور محمد سليم العوَّا، عندما تناول موضوع «فتح مصر» حسبما أشرنا سابقًا.

وقبل عامين، وبالتحديد في منتصف صيف العام ٢٠٠٨ استضفتُ د. بشَّار عوَّاد معروف، ليكون محاضرًا في مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية ضمن برنامج (الباحث المقيم) الذي نُحيي فيه تقاليد مكتبة الإسكندرية القديمة، حيث كان حكام مصر (البطالمة) يستقدمون كبار علماء زمانهم من أنحاء العالم، للإقامة في الإسكندرية للتدريس والتفاعل مع زملائهم وطلابهم من مختلف التخصصات. وخلال فترة إقامته البحثية، نوقشتْ في محاضرةٍ مفتوحةٍ فكرة تطبيق قواعد الحديث الشريف على التاريخ، فقال د. بشَّار عوَّاد معروف بالحرف الواحد: «كنا ندعو لذلك، ولكن ظهر لنا لاحقًا أنه خطأ، فالحديثُ الشريف يختلف عن التاريخ».

نعود من بعد هذا التطواف التمهيدي، إلى موضوعنا الأساسي، فنقول إن رسالة النبي إلى المقوقس، وبقية الرسائل النبوية التي وضعنا بآخر هذا الفصل صورةً طبق الأصل منها، هي وثائق تقع في المنطقة الوسطى بين الحديث الشريف والتاريخ.

ولسوف نناقش صحة نصِّها ومخطوطاتها بعد قليل، بعد تأكيد ما ذكرناه سابقًا من كلام ابن النفيس. أعني أن هذه الرسائل سواء كانت تاريخًا أو حديثًا شريفًا، فإنما نتَّبع فيها غالب الظن لا العلمَ المحقَّق، لا سيما أن نصَّها لم يرد أصلًا عند الإمامين البخاري ومسلم، ومن ثم فهي ليست مما يسمى اصطلاحًا «متفقٌ عليه».

ورد نص رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عند عدة مؤرخين، منهم القزويني والمقريزي والسيوطي والبيهقي والقلقشندي (وغيرهم) وليس فيهم مؤرخٌ واحد، عاش في القرن الأول الهجري أو حتى الثاني. بل إن جميع من كتبوا تاريخ الإسلام، بعامة، لا يرجع واحد منهم إلى هذين القرنين. بعبارةٍ أخرى: بدأت كتابة «تاريخ الإسلام» في القرن الثالث الهجري، بعدما استقرت الأمور بأيدي الخلفاء العباسيين، ومن ثم فتاريخ الإسلام كتبه المنتصرون المستقرون. ومن عادة المنتصرين المستقرين، إقرار البدايات التي انطلقوا منها، وتهميش ما قبلها. ولذلك من العسير أن نجد في كتب التاريخ (الإسلامي) أخبارًا مؤكدة عن زمن «الجاهلية» بل إن هذه التسمية ذاتها (الجاهلية) تدل بشكل غير مباشر، على الإلغاء الذي جرى قديمًا لكل ما كان قبل زمن الإسلام.

وحسبما ذكر «محمد حميد الله» في كتابه المهم (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) فإن النسخة الأصلية من رسالة النبي إلى المقوقس، المنشورة صورتها بعد حين[1]، تم اكتشافها في كنيسةٍ قرب أخميم بصعيد مصر (محافظة سوهاج) وهي محفوظة اليوم في متحف توبقابي سراي، بإستانبول. أما الرسائل الثلاثة الأخرى فقد تمَّ اكتشافها وحفظها في أماكن أخرى، ولا يمكن الكلام على رسالة منها، من دون النظر إلى مجموع هذه الرسائل الأربعة.

والملاحظة الأولى التي تبدو لنا عند النظر في الرسائل الأربعة، هي أنها تبدو من حيث الشكل، مزوَّرة. صحيحٌ أن سمات الخط الذي كُتبت به هذه الرسائل، تعود إلى

(١) من لطائف السخائف، ما وقع عند نشر هذا الجزء بالجريدة في مقالةٍ تكررت فيها الإشارة إلى «صورة الرسائل المرفقة» لتكون معينًا للقارئ على متابعة النظر فيما نقول، غير أن المسئول عن تجهيز صفحة الجريدة حذف صور الرسائل، لضيق المساحة!

فترة مبكرة من تاريخ الإسلام، لكنه خطٌّ مختلف ما بين رسالة وأخرى. وقد يقول قائل: إن ذلك يرجع إلى اختلاف الكاتبين، لأن رسول الله لم يكتب الرسائل بيده، ولم يكن له كاتب واحد. فإذا قبلنا هذه الحجة، قامت بعدها شكوكٌ أخرى لا توجد حُججٌ لدفعها، منها أن (الختم النبوي) مختلف من رسالة إلى أخرى، والمفترض أن هذه الرسائل كُتبت جميعًا في وقت واحد، والمفترض أن (الأختام) نبويةً كانت أم غير نبوية، لا يجوز أن تكون أكثر من ختم وحيدٍ معروف، لخطورة وأهمية «الختم» في الزمن القديم، بل وفي كل زمان. وإلا، فهل يمكن أن نتخيل وجود أكثر من شكل، لما نسميه اليوم: ختم النسر؟ وهل يمكن قبول اختلافٍ في استدارة إطاره أو هيئة حروفه؟

ومن حيث النصوص الواردة في الرسائل الأربعة، فإن فيها رسالتين يُخاطب فيهما المرسل إليه (كسرى، النجاشي) بصفته، ورسالتين لشخص المرسل إليه (هرقل، المقوقس) باسمه، لا صفته. ولكن الرسائل الأربعة تصف المرسل إليهم بصفة «العظيم» أي الحاكم أو الملك أو الإمبراطور، فهرقل (عظيم الروم)، وكسرى (عظيم فارس)، والنجاشي (عظيم الحبشة)، والمقوقس (عظيم مصر)، مع أن المقوقس تابعٌ لهرقل ومصر تابعة لبيزنطة، وليس للمقوقس أن يقطع برأيٍ من دون الرجوع إلى هرقل، وليس يخفى على النبي محمد ﷺ مثل هذا الأمر. وقد عرفنا من سيرته، ومن القرآن الكريم، أنه كان يتابع ما يجري على الساحة الدولية في زمانه، وقد تعرضت سورة الروم[1] لهزيمة البيزنطيين على يد الفرس، وتنبأت بأن الروم (جيش هرقل) سوف يعيدون الكَرَّة، ويغلبون الفرس (جيش كسرى).. فكيف خوطب المقوقس باعتباره حاكمًا مستقلًا، وهو غير مستقل؟

ورعايا العظماء الأربعة، تصفهم الرسائل بأنهم على الترتيب: المجوس (الفرس)، القبط (المصريون)، الأَرَس (البيزنطيون، الروم) وهو أمرٌ غير دقيق تاريخيًّا، وهناك اختلاف حول دلالته. فالفرس لم يكونوا كلهم من المجوس، وكان حولهم مسيحيون كثيرون من كنيسةٍ عظيمة الاتساع في العراق، هي الكنيسة النسطورية التي كان بعض

---

(١) في فصيح اللغة العربية، وفي القرآن، هناك تفرقةٌ دقيقة بين الرومان والروم، فالرومان هم حكام «روما» عاصمة الدنيا في زمانها، أما الروم الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، فهم ورثة الحضارة الرومانية الذين نقلوا مقر حكمهم إلى بيزنطة (إستانبول الحالية).

أتباعها في العراق يُعرفون باسم «العباديين» وكان رئيسهم الديني يسمى (الجاثليق)، وهو ما يعادل في الكنائس الأخرى ما يُسمى (الأسقف العام أو البطرك أو البابا).

والرسالة إلى المقوقس تصف رعاياه بغير صفة الدين، فهم (القبط) أي المصريون، أيًّا كانت ديانتهم. بينما تخص رسالة هرقل رعاياه باسم (الأرس) الذين يُرجَّح أنهم «أتباع آريوس» ومن ثَمَّ، فهم أتباع مذهب معين من مذاهب المسيحية. لكن هرقل لم يكن (عظيم) الآريوسيين، وإنما كان يمثل الدولة المسيحية الأرثوذكسية بحسب المذهب الخلقيدوني، أو مذهب (الملكانيين) الذين تسمَّوا بذلك نسبةً إلى (الملك) وهي نسبةٌ على غير قياس، وإلا كان اسمهم (الملكيين) وليس الملكانيين. ولكن جرى الاصطلاح على أن أتباع المذهب الأرثوذكسي الخلقيدوني (سوف نشرح معناه في الفصل القادم) الذي يدين به الإمبراطور البيزنطي، ولو شكليًّا، يُعرفون باسم «الملكانيين» تمييزًا لهم عن أتباع المذهب الأرثوذكسي الذي استمسك به الآباء المصريون. أما الآريوسية، فهي مذهبٌ قديمٌ ظهر في بداية القرن الرابع الميلادي، انطلاقًا من فكرة آريوس المستقاة من فكرة رجال الدين بالشام، المستقاة من التصوُّر (العربي) للمسيح على أنه رسول الله، وليس الإله! وأنه يوصف بابن الإله، نظرًا إلى صيغة أو مبدأ (التبني) الذي لا يجعل المسيح معادلًا لله تعالى.

إذن، صفة الحكام والمحكومين في هذه الرسائل الأربعة، مجتمعةً، غير دقيقة. وقد اجتهد بعض المؤرِّخين المتأخرين وبعض اللغويين العرب، في تأويل كلمة «الأرس» فقالوا إن المقصود بها (المزارعون) وهو تأويل يصعب قبوله، لأن الروم لم يكن العمل بالزراعة يميزهم عن الفرس وعن المصريين.

وقد تمادى بعض الرواة وقالوا إن المقوقس ردَّ على النبي محمد ﷺ برسالةٍ جاء نصُّها على زعمهم، كالتالي:

> «لمحمد بن عبد الله من المقوقس، سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي، وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوةٍ، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها».

وقد جاء نص (رد المقوقس) هذا، عند جماعة من المؤرخين منهم: القلقشندي والقزويني والزيلعي وابن الجوزي، وغيرهم.. بينما جاء نص رسالة النبي للمقوقس، عند الواقدي وابن حديدة (وغيرهما) على النحو التالي:

«من محمد رسول الله، إلى صاحب مصر والإسكندرية، أما بعد، فإن الله تعالى أرسلني رسولًا وأنزل عليَّ قرآنًا، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني، ويدخل الناس في مِلَّتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، فإن فعلتَ سعدتَ، وإن أبيتَ شقيتَ».

فكان رَدُّ المقوقس كما سبق، أو كان حسبما جاء في كتاب «فتوح مصر» للواقدي، وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي؛ على النحو التالي:

«باسمك اللهم، من المقوقس إلى محمد. أما بعد، فقد بلغني كتابك، وقرأته وفهمتُ ما فيه، أنت تقول إن الله تعالى أرسلك رسولًا، وفضَّلك تفضيلًا، وأنزل عليك قُرآنًا مُبينًا. فكشفنا يا محمد في عِلْمنا عن خبرك، فوجدناك أقربَ داعٍ إلى الله، وأصدق مَنْ تكلَّم بالصدق، ولولا أني ملكتُ ملكًا عظيمًا، لكنتُ أول مَنْ سار إليك، لعلمي أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وإمام المتقين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين».

وبعد.. فإن الرأي عندي، أن رسالة النبي محمد ﷺ إلى المقوقس التي هي إحدى الوثائق المهمة المتعلِّقة بالفتح العربي/ الإسلامي لمصر، إنما هي مثل بقية الرسائل الأربعة قد جاءت إلينا من باب الاختلاق (الفبركة) والروايات المتأخرة التي أعادت بناء الوقائع المبكرة في تاريخ الإسلام، بعدما صار المسلمون هم أصحاب الأمر والنهي. وسواءٌ كان الأمر يتعلَّق بالرسائل نفسها، أو بنصِّها المذكور بصيغ مختلفة في مصادرنا التاريخية، فإن القولَ فيها هو ما قاله العلامة ابن النفيس: «وأما الأخبار التي بأيدينا الآن، فإنما نتَّبع فيها غالب الظن، لا العلم المحقَّق».

بشاعةُ المقوقس

عرفت مصرُ خلال تاريخها الطويل، ما لا حصر له من أنواع الحكام الذين تعاقبوا على عرشها بالتراضي في مراتٍ قليلة، أو خلعَ بعضُهم بعضًا وانتزع العرش في

معظم المرات المريرة. وفي تطوافه ببلادنا، مَرَّ التاريخُ على كثيرين من حكام السوء، وعلى بعض الجيِّدين! فقد حَكَمَنا من قبلُ، الإماءُ من النساء (الجواري) مثل شجرة الدر، وحَكَمتنا الحرائرُ من الملكات البديعات من مثيلات كليوباترا وحتشبسوت وزنوبيا (ملكة تدمر العربية، التي امتد سلطانها شرقًا حتى شمل الإسكندرية ودلتا النيل). وعرفنا من الحكام الرجال عقلاءَ من أمثال المنصور قلاوون، ومهووسين من أمثال الظاهر بيبرس (وكلاهما لم يعرف الناسُ له أبًا)، وعرفنا مَنْ اشتهر عنهم الولع بالنساء كالملك فاروق، وعرفنا الممنوعين عن الزواج وعن المرأة عمومًا كالحاكم الشهير «كافور» الذي كان خَصِيًّا أو بتعبير عامي «مخصِيًّا». لكن (العرش) في بلادنا لم يشهد خلال تاريخه الطويل، فيما أعتقد، رجلًا أسوأ من «المقوقس» ولا أكثر منه بشاعةً ووضاعة. ودعونا أولًا نتعرف معنى كلمة (مقوقس) لنحسم بذلك خلافًا طالما اضطرب فيه المؤرِّخون، وظنَّ فيه الباحثون الظنون، لأن أحدًا منهم لم ينتبه إلى النقاط المهمة الآتي ذكرها:

هناك طرقٌ مختلفة للنسبة في مختلف اللغات، ففي اللغة العربية إذا أردنا أن ننسب شخصًا إلى بلدةٍ ما، أو إلى أيِّ شيءٍ آخر نريد أن ننسبه إليه، نأتي بالحرف المسمَّى (ياء النسبة) ونلحقه بآخر المنسوب إليه، فنقول مثلًا: فلان «القاهريّ» وفلان «السكندريّ أو الإسكندرانيّ» وفلان «الدمشقيّ» أو «الحلبيّ» أو مثل ذلك. وقد ننسب بهذه الياء إلى جماعة، فنقول: العباسيّ، القرشيّ، الأمويّ، العثمانيّ، أو مثل ذلك. وقد ننسب بها إلى مذهبٍ فقهيٍّ أو عقائديٍّ، فنقول: الحنبليّ، الشافعيّ، المالكيّ، الشيعيّ، السنيّ، الإباضيّ.. إلخ.

وفي اللغة التركية، تلحق بالمنسوب إليه لفظةُ (جي) فإذا أرادوا نسبة الرجل إلى عربة (الكارو) قالوا عربجي، وإذا كان مسئولًا عن قلعة فهو قلعجي، وإذا كان يعمل في بيتٍ للدعارة فهو كَرَخَانجي (قَرَا خان= المحل الأسود) وإذا كان هذا الشخص يقوم بالحملات الأَمْنية ويُلقي البلاء على البسطاء، فهو حَمْلجي (حملة جي) وإذا كان يصنع الحلوى فهو حلوجي.. وقد ينسبون بإلحاق اللام والياء بآخر الكلمة، فيقولون: شربتلي (صانع الشراب) قوَّتلي، غُندقلي.. إلخ.

أما في اللغة المصرية القديمة، التي تطورت كثيرًا حتى وصلت إلى المرحلة التاريخية التي سبقت، وتزامنت، مع (دخول) المسلمين إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص. وهي اللغة المسمَّاة اليوم بشكلٍ سبهلليٍّ غير دقيق: اللغة القبطية (بالمناسبة، سبهللة كلمةٌ عربيةٌ فصيحةٌ) فإن النسبة في هذه اللغة تأتي على نحوٍ خاص، هو إلحاق لفظة «امْ» بأول الكلمة المنسوب إليها. ومن هنا، صار اسم هذا الرجل الذي وفد إلى مصر من الجهة المسماة بالعربية «القوقاز» وهي الجهة التي يُنطق اسمها باليونانية واللاتينية «قَوْقس» صار اسمه في اللغة الدارجة بمصر آنذاك (امّقَوْقس) ونطقه العرب (المقوقس) أي القوقازي. ومن لهجات العرب، خصوصًا أهل اليمن الذين فتحوا مصر مع عمرو بن العاص، التعريف بالألف والميم بدلًا من الألف واللام. وقد خاطب النبيُّ جماعةً من أهل حِمْـيَر، وفدوا عليه وهم صائمون أثناء سفرهم قائلًا: ليس من امْبرِّ امْصيام في امْسفر (ليس من البر الصيام في السفر) وهو حديثٌ نبوي صحيحٌ.. ومن ذلك أيضًا، تسمية الحيِّ القاهري الشهير «إمبابة» وهي لهجة يمنية تُنطق بها كلمة «الباب» و «البوابة» لأن واحدة من بوابات القاهرة كانت بتلك المنطقة وعلى هذا النحو، توافقت لفظًا أداة التعريف (أل) في اللغتين اللتين كانتا سائدتين بمصر.

إذن، لفظ «المقوقس» هو النطق العربيُّ للكلمة المصرية القديمة، القبطية تجاوزًا، التي شاعت في زمن الدخول الإسلامي مصر كلقبٍ أو نسبة لهذا الأسقف/ الحاكم، لأنه في الأصل من بلدة «فاسيس» بالقوقاز. وأما اسمه الأصلي فهو «كيرس» أو «قيرُس» وقد ينطق أيضًا «سيروس» وهو اسم كان شائعًا في العالم المسيحي في ذاك الزمان.. فما الذي جاء بهذا الرجل ليحكم مصر؟ القصةُ طويلةٌ، ولسوف نوجزها فيما يلي بقدر المستطاع:

«ما كاد الحكم في مصر والشام يستقر بيد «هرقل» الذي انتزع عرش الروم سنة ٦١٠ ميلادية (١٣ قبل الهجرة) من الإمبراطور البيزنطي فوكاس، حتى اجتاح الفرسُ هذه النواحي وانتزعوها من قبضة «هرقل» وسلطانه سنة ٦١٦ ميلادية، الموافقة للسنة السابعة قبل الهجرة. وهو الحدث الجلل الذي أشارت إليه الآيات الأولى من سورة الروم في القرآن الكريم، حيث قالت: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾. وكان مما يؤلم

المسيحيين آنذاك، بالإضافة إلى وقوعهم تحت سلطان الفرس (عَبَدَة النار، أصحاب الأفيال، البابيلون) أن هؤلاء الغزاة بعدما استولوا على العاصمة الروحية للمسيحيين آنذاك، وهي مدينة إيلياء التي كانت تسمى قديمًا «أورشليم» وصارت تسمى لاحقًا، بالعربية «بيت المقدس» وهي ترجمة للكلمة العبرية بيت هميقداش. ولما استولى الفرس على المدينة، قاموا بانتزاع الخشبة المسماة في المصطلح المسيحي القديم صليب الصلبوت. وهي قطعةٌ من الخشب، استخرجتها في بداية القرن الرابع الميلادي من تحت التراب «هيلانة» أمُّ الإمبراطور قسطنطين، وهي امرأةٌ قيل إنها كانت في بداية أمرها تعمل ساقيةً في ماخورٍ من مواخير مدينة «الرُّها»[1] العراقية، وهناك أنجبت طفلاً غير شرعي لم يُعرف له أبٌ، غير أن هذا الطفل (قسطنطين) صار من بعد ذلك رجلًا عسكريًّا ماهرًا، استطاع أن يقضي على منافسيه من رفقاء السلاح، وأصبح إمبراطورًا فصارت أمُّه بعون الربِّ «قديسة» لأنها اكتشفت (الصليب) الذي صُلب عليه السيد المسيح في اعتقاد أهل الديانة، وأقامت فوقه قُبة كنيسة القيامة التي صارت قبلةً للحج المسيحي، خلال القرون التالية.

ولما انتزع الفرسُ صليبَ الصلبوت، انخلعتْ قلوبُ أهل الديانة على اختلاف مذاهبهم، وانفطرتْ حزنًا.. لكن الروم استطاعوا بقيادة قوَّاد هرقل، أن ينتصروا على الفرس بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على احتلالهم لمصر والشام، وهو الأمر الذي كانت سورة الروم قد تنبَّأتْ به، في قوله تعالى بعد الآيات السابق ذكرها: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾.

ولما انتصر الروم، استعادوا قطعة الخشب (التي اختفت ثانيةً بعد ذلك بقرون) وعادوا بها من عاصمة الفرس «المدائن» فدخل بها هرقل سنة ٦٢٨ ميلادية إلى إيلياء «القدس، أورشليم» في حفلٍ مهيبٍ، أسال دموع المؤمنين في أنحاء دولة الروم (المسيحية) على اختلاف مذاهبهم. واختلاف المذاهب كان آنذاك سببًا في اهتراء الدولة، فالمصريون

---

(١) اليوم، تقع هذه المدينة التي كانت قديمًا ضمن حدود «العراق» داخل حدود تركيا. وهي مدينة عريقة، في الجزيرة الفراتية، وكانت قديمًا مركزًا علميًّا للآداب السريانية واليونانية، ومدرسة شهيرة للطب. وفيها تمت الترجمات السريانية للتوراة، في نهاية القرن الثاني للميلاد.

المسيحيون قلوبهم شَتَّى. فيهم الأرثوذكس الروم (الملكانيون) والأرثوذكس السُّريان (الشوام) والأرثوذكس اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الجامعة بين الله والمسيح). وأما سكانُ العراق المسيحيون وأغلبهم آنذاك من العرب، فكان معظمهم نساطرة يتبعون هذه الكنيسة الكبيرة (النسطورية، العبادية) التي امتدت آنذاك من أطراف الشام إلى قلب آسيا. وأما الشام المسيحي، فكانت مذاهبه العقائدية خليطًا من النسطورية والآريوسية والأرثوذكسية.. وقد كان لهذا التنازع المذهبي، كما سنذكر بعد قليل، أثرٌ هائل في الأحداث الكبرى آنذاك وفي السِّجال العسكري بين الفرس والروم.

ولما استقر صليب الصلبوت في مكانه السابق، اجتمع الأساقفةُ في المدينة المهد (أورشليم، إيليا، القدس) وتحلَّقوا حول هرقل الذي سألهم عن مخرجٍ عقائديٍّ يحلُّ الإشكال القائم بين الكنائس في مصر، حتى يضمن (مناخ الاستقرار) بالبلاد، فلا يتفرَّق الناسُ بسبب العقيدة ويلجأ المغلوبون منهم إلى أعداء الدولة، مثلما فعل اليهود. وبالمناسبة، فقد أعقبت هذه الزيارة التاريخية لهرقل، مذبحةٌ هائلةٌ لليهود في عدة أنحاء من العالم المسيحي، قُتل فيها عشرات الآلاف من «أبناء الرب» عقابًا لهم على مساعدتهم للفرس، وتنفيسًا لكراهية «أبناء يسوع» لهم. وبالمناسبة أيضًا، فإن رسالة النبي محمد ﷺ أو بعثته إلى هرقل كانت في تلك الأثناء، ولذلك انشغل هرقل عن الردِّ على الرسالة التي جاءته من قلب جزيرة العرب، وهو الموضع الذي لم يكن هرقل يهتم به (لكنه سوف يهتم به لاحقًا، وينهزم أمامه) وقد جرى هذا الاتصال الأول في السنة السابعة للهجرة أو بعدها بشهور، وهو ما يوافق سنة ٦٢٨ أو ٦٢٩ ميلادية.

ولما استقر الرأيُ في «إيليا» على ضرورة توحيد المذاهب المسيحية، حفاظًا على استقرار «الديانة» وتثبيت كرسي الحكم السياسي. اخترع الأساقفة لهرقل مذهبًا تلفيقيًا أسموه (المونوثيلية) أو مذهب الإرادة الواحدة لله، واقترحوا عليه تعميم المذهب الجديد في مصر، لئلا يختلف أهل الديانة هناك فيما بينهم[١]. وكان هرقل بطبيعة الحال، يشجِّع اتفاق رعاياه على مذهبٍ واحدٍ، فلا تثور بينهم المشكلات وتُراق بسبب العقيدة

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتابي: اللاهوت العربي.

ندماء، ولكي يضمن الولاء من الجميع، لا سيما أنه كان على المستوى الإنساني يريد أن يرتاح من حروبه الطويلة، ويسعد بزواجه من «مرتينا» ابنة أخته، باهرة الجمال.. وبعد شدٍّ وجذب، تزوَّجها.

ولما كان من المعروف عن المسيحيين المصريين (اليعاقبة، المونوفيست، الأقباط) عنادهم العقائدي، فقد كان من المهم أن يُعهد بتعميم المذهب الجديد إلى شخصٍ حازم وقويٍّ بإمكانه تحقيق هذا المطلب، وإلزام المصريين بمذهبٍ دينيٍّ واحد. فاقترح البعضُ على هرقل أن يأتي من بلاد القوقاز (قَوْقس) بأسقف بلدة «فاسيس» الواقعة حاليًا بجمهورية جورجيا، وهو رجلٌ معروف بقسوته ليكون لأول مرة في تاريخ مصر، ولآخر مرة، هو الحاكم الديني والدنيوي للبلاد، والجامع في قبضته بين مفاتيح الأرض والسماء.. وتمت صياغة المذهب (المونوثيلي) على عجل، وعلى عجلٍ استدعى هرقل الأسقف القوقازي «قيرس» فدرس هذا الرجلُ المذهبَ (المختَرَع) بسرعة، وذهب به إلى مصر ليخلف الأسقف جورجيوس بن مينا، الذي يسمِّيه العرب «جريج بن مينا» وليكون أيضًا قائدًا عامًّا للجيش، وملكًا أو أميرًا يحكم مصر لصالح هرقل. وكان وصول هذا الأسقف القوقازي (المقوقس) إلى الإسكندرية عاصمة مصر آنذاك، في خريف سنة ٦٣١ ميلادية. وهو الأمر الذي أكَّدته معظم المصادر التاريخية[١]. ولنلاحظ هنا، أن وفاة النبي محمد ﷺ كانت في ربيع سنة ٦٣٢ ميلادية، أي بعد عدة شهورٍ من وصول المقوقس إلى مصر، ومن ثم فلا صحة لما توهَّمه عديدٌ من القراء الذين ظنوا أن هناك خطأً في الأحداث التاريخية المذكورة عَرَضًا في روايتي «النبطي» فيما يتعلق بمجيء السيدة (مارية القبطية، أم المؤمنين).. فالخطأ التاريخي ليس في الرواية، وإنما في الأذهان.

وفي الوقت الذي جاء فيه المقوقس إلى مصر، كان للمسيحيين المصريين «الملكانيين» كبيرٌ منهم اسمه الأنبا صفرونيوس، وللمسيحيين المصريين «اليعاقبة» كبيرٌ اسمه الأنبا بنيامين. وفور وصوله، عرض الأسقف الجديد قيرس (كيروس، سيروس)

---

(١) يمكن مراجعة تفاصيل هذه النقطة المهمة، في كتاب «ألفريد بتلر» عن فتح مصر.

الذي أسماه المصريون «المُقَوْقس» المذهب المونوثيلي الجديد على الملكانيين، فارتمى صفرونيوس تحت أقدامه، ونزفت عيناه دمًا (بحسب تعبير ساويرس بن المقفع) وصرخ متألمًا، راجيًا من الأسقف المقوقس أن يصرف النظر عن نيَّته إلزامَ الجميع بالمذهب الجديد. فأهانه المقوقس، لكنه لم يستطع أن يبالغ في إيذائه لأن الملكانيين كانوا آنذاك هم «أصحاب البلد» وكان بأيديهم المال والاقتصاد والتبعية المباشرة لكنيسة العاصمة الإمبراطورية «بيزنطة». أما الكبيرُ الآخر، الأنبا بنيامين، فإنه لم يذهب إلى المقوقس ليفاوضه أو يرجوه، أو يتحدَّاه ساعيًا للشهادة، وإنما هرب من الإسكندرية بعدما أوصى أتباعه أن يصمدوا هم في وجه الحاكم الرهيب ومذهبه الغريب، مهما أدى ذلك بهم إلى الموت (الشهادة) فداءً للعقيدة الوحيدة الصحيحة.

وقد قبض المقوقس على (مينا) ذلك المسكين الذي هو الأخ الأصغر للأنبا بنيامين، أملًا في أن يعود أخوه الأنبا الهارب (بنيامين) فيلزمه المقوقسُ بالمذهب الجديد المخترَع. لكن الأنبا (الأب) بنيامين لم يرجع إلى الإسكندرية، واختفى عن الأنظار في صحراء هبيب (وادي النطرون) ثم في الصعيد، فاكتوى أخوه (مينا) بنار المقوقس وأتباعه الذين تفننوا في تعذيبه بدنيًا، ثم علَّقه المقوقس من ذراعيه وأوقد حوله نارًا حامية أذابت شحم جسمه، ثم أخذه إلى مركب وعلَّق بقدميه أثقالًا، وعرض عليه أن يقبل المذهب الجديد أو يُلقى به في البحر. وفضَّل «مينا» الموت فأغرقوه في البحر، فصار شهيد المذهب اليعقوبي، بينما آثر بنيامين البقاء هاربًا مختفيًا. وظل كذلك طيلة الثلاث عشرة سنة التالية، حتى جاءه من قلب الصحراء الفاتحُ البديع «عمرو بن العاص» فأعاده إلى الإسكندرية بعدما أعطاه «الأمان» الشهير وأوكل إليه رعاية أهل مِلَّته، حسبما سيأتي في الفصل الخامس من كتابنا هذا، عند الكلام عن التاريخ المطوي في «البرديات».

لم يهدأ المقوقس بعد مقتل «مينا» وإنما قام وفقًا لما ذكرته المصادرُ المسيحية، بتهديد الناس وسرقة الكنائس اليعقوبية وإحراقها. وجمع من هؤلاء الناس «اليعاقبة» عشرين ألف شخص في ميدان بوكاليا بالإسكندرية، وهو المسمى اليوم: محطة الرمل، وعرض عليهم المذهب الجديد فرفضوا قبوله لأن الأب بنيامين أوصاهم قبل هروبه بالثبات على العقيدة القويمة، حتى لو دفعوا حياتهم ثمنًا لها، وقد دفعوا

بفعل حياتهم ثمنًا لها. فقد قتلهم المقوقس جميعًا، وجرت دماؤهم في شوارع الإسكندرية كالأنهار[1].

وتفنَّن المقوقس في إيذاء الناس بمصر حتى يقبلوا مذهبه، وقام بفظائع يطول ذكرها، حتى إن القَسَّ البريطاني والباحث المتميز «ألفريد بتلر» جعل في كتابه عن «فتح مصر» فصلًا بعنوان: الاضطهاد الأعظم للمصريين على يد قيرس (المقوقس) فمن أراد معرفة تفاصيل ذلك أو الاطلاع على المزيد من شناعة المقوقس وبشاعته، فليرجع إلى ذلك الفصل الدامي. وليرجع أيضًا مَنْ أراد ذلك، إلى ما كتبه ساويرس بن المقفع عن الأهوال التي فعلها المقوقس، في كتابه الذي اشتهر بعنوان (تاريخ الآباء البطاركة) وإلى ما كتبه حنا النقيوسي الذي كان معاصرًا لهذه الفترة، في كتابه الذي فُقد أصله المكتوب باللغة المصرية واكتُشف حديثًا نصُّه المترجم إلى اللغة الحبشية، ونُشرت مؤخرًا ترجمته العربية تحت عنوان: تاريخ مصر.

ولم يفلح المقوقس (قيرس) في تعميم المذهب، واكتسب عداوة المصريين وكراهيتهم جميعًا، ملكانيين ويَعَاقبة. وكان هرقل قد انشغل عنه وعن أمور مصر، بما كان غارقًا فيه من اهتراءٍ سلطويٍّ وتفسُّخٍ أُسَرِيّ وصراعٍ بين الزوجات والأبناء والقُوَّاد. حتى إن هرقل فكَّر في الهروب من العاصمة، وجهَّز سفينة لتبحر به إلى ساحل إفريقية (تونس) ليقضي هناك بقية عمره الذي كان قد آل إلى خطِّ الزوال، بعيدًا عن صراعات العرش.

وفي ذاك الوقت المدلهمِّ، بدأ دينُ الإسلام ينتشر بقوة ويملأ جزيرة العرب، ويهدِّد سلطان الروم والفرس في حوافِّ الشام والعراق. ومعروفٌ أن للمسلمين آنذاك طريقتهم الخاصة في تسيير الأمور، وفي صدق النية، وفي الصبر على الحرب، وفي الحيلة. وكان المسلمون في زمن الخليفة أبي بكر الصديق، قد عاهدوا حاكم اليمن الذي كان تابعًا لدولة الفرس، على أن يكون تابعًا للمسلمين فلا يضطروا لقتاله، في مقابل أن يتركه المسلمون يحكم البلاد حتى وفاته.

---

(١) راجع تفاصيل هذه المذبحة في كتاب «تاريخ البطاركة» لساويرس بن المقفع.

وكان أبو بكر الصديق أثناء خلافته، بعد وفاة النبي ﷺ قد أرسل الصحابي «حاطب بن أبي بلتعة» إلى المقوقس، فأبرم سرًّا عهدًا مثل ذلك الذي أُبرم مع حاكم اليمن. ولم يُعلن المقوقس هذا العهد، ولم تُشِر إليه المصادر الإسلامية بشكل واضح؛ لكنني أدركته من العبارات التي أشرتُ إليها سابقًا، أعني تلك التي أوردها «ابن عبد الحكم» حين ذكر أن عمرو بن العاص ألحَّ على الخليفة عمر بن الخطاب حتى سمح له بالخروج إلى مصر غازيًا «فنقض الصلح وفتحها» وقال ابنُ عبد الحكم في موضعٍ آخر، إن الخليفة عمر (الفاروق) رَدَّ الأسرى المصريين الذين أرسلهم إليه عمرو بن العاص مقيدين بالسلاسل (عددهم ثلاثة آلاف) بعد أول صدامٍ عسكري وقع بيد المسلمين والروم في الفرما (بيلوز، البرمون) فلم يقبل عمر بن الخطاب بهم كأسرى، فأطلقهم وردَّهم إلى مصر «لعهدٍ كان قد سبق لهم».

وهناك الكثير من تلك العبارات الدالة و«الإشارات» المهمة التي ذكرتها المصادر التاريخية المبكرة، لكن المؤرِّخين لم يتوقفوا أمامها بما يليق بأهميتها، فظلت عالقةً في فضاء الأوهام والخرافات المتعلقة بالدخول العربي/ الإسلامي لمصر، سواء أسميناه فتحًا أو غزوًا. غير أن إعادة تركيب الصورة في أذهاننا على ضوء ما نطرحه من تصورات، من شأنه تبديد ما في أذهاننا من توهُّمات، ومن شأنه تحديد صورة الماضي (والحاضر) على نحوٍ أكثر منطقيةً وعقلانية.

ولم تتوقف بشاعة المقوقس على الفِعال والفظاعات الدموية التي اقترفها في حق البسطاء من الناس وفي حق الآباء الكبار، ولا على الوضاعة التي تصرَّف بها حين خرَّب الكنائس وسلب الأواني المقدسة. ولم تقتصر بشاعته على مخالفته أوامر سيِّده المسيح وتعاليمه، ليرضي سيده هرقل. فقد زاد على ذلك كله خيانته لسيده هرقل باتفاقه مع العرب المسلمين سرًّا، وهو الأمر الذي تجلَّى بوضوحٍ في الدور الهزلي الذي لعبه المقوقس عند حصار حصن بابليون[1]. حتى إنه طلب من المسلمين مفاوضًا آخر غير

---

(١) هو الحصن الموجود اليوم بالمنطقة المسماة «مصر القديمة» بجوار المتحف القبطي. وكان في وقت مجيء المسلمين لمصر، معروف عند عوام المصريين باسم «القصر» أو قصر البابليون.. والكلمة الأخيرة تشير إلى الفرس (أهل بابل) الذين قاموا ببنائه وتحصَّنوا فيه أيام احتلالهم لمصر، قبيل مجيء المسلمين.

عُبادة بن الصامت، لأنه وجد هذا الصحابي الجليل غير مناسب للتفاوض معه لأنه كان «طويلًا وأسود» فطلب مفاوضًا أفضل منظرًا، وهو الطلب الذي رفضه عمرو بن العاص.

وبعد تسليم حصن بابليون للمسلمين، قام جند المقوقس (جيش الروم) بتقطيع أيادي عدة آلافٍ من الرجال المصريين، كانوا يعتقلونهم في هذا الحصن/ المدينة، كيلا يساعدوا المسلمين في بناء الجسور لاستكمال الفتح. ولا أظن أن المقوقس هو الذي أمر بذلك، فقد كان آنذاك أضعف من أن يفعل، لكنه وافق على الأمر وأسرع بالهروب من مصر إلى بيزنطة كي يقنع هرقل بتسليم البلاد إلى المسلمين.. ورفض هرقل العرض، وأهان المقوقس، فظل مهانًا إلى أن مات هرقل، فاستطاع المقوقس أن يقنع خلفاءه بالتسليم وعاد بسرعة إلى مصر ليزفَّ لعمرو بن العاص خبر تسليم مصر، ويطلب منه في المقابل أن يُبقيه في الإسكندرية آمنًا حتى وفاته.. وقد وافق عمرو بن العاص على ذلك الطلب، فقضى المقوقس بقية أيامه بالمدينة حتى مات بها، ودُفن، ولم يُعرف له من بعد ذلك قبرٌ ولا قَدْر».

صراعُ الكنائس المصرية

لا يمكن فهم الواقعة الكبرى المسمَّاة فتح مصر أو غزو مصر، وآثارها الممتدة حتى يومنا هذا، من دون الوقوف عند الجوانب المختلفة والعوامل المتفاعلة التي أنتجت هذا «النبأ العظيم» بأبعاده التاريخية والمعاصرة. وقد أشرنا فيما سبق إلى تلك الجوانب والعوامل المتساندة فيما بينها، مع أنها تبدو للوهلة الأولى متباعدة، ومن بينها حالةُ الصراع الكنسي الذي كان دائرًا في مصر أثناء قدوم الفاتح عمرو بن العاص بجيشه سنة ٢٠ هجرية الموافقة سنة ٦٣٩ ميلادية، بل كان دائرًا من قبل ذلك بعشرات السنين. وهو صراعٌ طويلٌ مرير يطول شرح تفاصيله، ولذلك سوف أكتفي فيما يلي بتقديم ملخَّص بيانه، وعلى القرَّاء تأمُّله وتبيانه:

في القرنين الأول والثاني الميلاديين، ظهرت المسيحيةُ في أنحاء العالم القديم (الهلال الخصيب وحوض البحر المتوسط) كَلَهَبٍ سماويٍّ انتشر في هشيم المهمَّشين

من الناس، لأنه يزفُّ إليهم بشرى «الخلاص» الذي كان حُلمًا يهوديًا قديمًا ظل يراود أجيالًا من اليهود العبرانيين الذين طالما انتظروا «الماشيح» الذي سيحقِّق وعدَ (عهد) الربِّ لإبراهيم، ويصير ملكًا لليهود في الأرض الممتدة من النهر إلى النهر، أو من النيل إلى الفرات، وهما الخطان الأزرقان المرسومان اليوم في العَلَم الأبيض لدولة إسرائيل، وبينهما نجمة «داود» السُّداسية الشهيرة، التي يقولون إنها كانت شعار (داود) الذي هو عند اليهود ملكٌ عظيم، وعند المسلمين نبيٌّ كريم.. وما لبث حلم «الخلاص» أن صار أملًا عامًّا عند عوام الناس، سواء كانوا يهودًا أو غير يهود، لأن الاضطراب العام والتعسف السلطوي البيزنطي صار قاسيًا على شعوب العالم القديم، فباتوا يحلمون بخلاصٍ يأتيهم من السماء.

وكان للمسيحية عند ابتداء انتشارها أشكالٌ كثيرة، ترسم للسيد المسيح صورًا متعددة تتفاوت فيما بينها. فهو عند أولئك فيلسوفٌ غنوصيٌّ يصل بالتطهُّر إلى الحقائق السماوية، وعند هؤلاء رسولٌ من عند الله، وعند آخرين «ابن الله» الذي جاء ليفتدي البشر ويخلِّصهم من خطيئة أبيهم آدم الذي عصى الربَّ وأكل من شجرة (المعرفة) المحرَّمة على الإنسان، وكاد يأكل من شجرة الخلود فيصير كالآلهة. وهو ما أشير إليه في الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين، حيث قال «سِفر التكوين» ما نصُّه: «وقال الربُّ الإله، ها هو الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفًا الخير والشرَّ، والآن لعله يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضًا (شجرة الخلود) ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها. فطرد (الله) الإنسان وأقام شرقيَّ جنة عدن، الكروبيم (الملائكة الحرَّاس) ولهيبَ سيفٍ متقلبٍ، لحراسة طريق شجرة الحيوة[١].

ورأى المسيحيون، وهم أولئك الذين آمنوا بالدين الجديد على اختلاف صوره المبكرة، أن «يسوع» هو المسيح المخلِّص من الخطيئة الأولى. فآمنوا به وتناقلوا الأناجيل الكثيرة[٢]، وراحوا بكل حماس يدعون الناس للإيمان به، وهو ما يُعرف

---

(١) الكتاب المقدس، سِفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآيات ٢٢ وما بعدها.

(٢) إنجيل كلمة يونانية الأصل، تعني: البشارة.

في المصطلح الكنسي بالكرازة[1]، لكن اليهود لم يقتنعوا بأنه «الماشيح» فحاكموه وسلَّموه إلى الرومان ليقتلوه. فصلبوه حسبما يعتقد المسيحيون، أو شُبِّه لهم حسبما يعتقد المسلمون.

وفي القرن الثالث الميلادي، انتشرت بأيدى الناس نسخٌ كثيرة من الأناجيل، منها الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم «متى، مرقس، لوقا، يوحنا» وأناجيل أخرى مثل إنجيل (يهوذا) وإنجيل (المصريين) وإنجيل (الطفولة) وغيرها. وقد أدى اختلاف هذه النصوص، إلى فهمٍ مختلفٍ ومتباينٍ للديانة التي صار مجموع المؤمنين بها في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، قُرابة عشرة بالمائة من مجموع سكان الإمبراطورية الرومانية الواسعة.

وفي الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، انتشرت آراء المفكر الكنسي الشهير «آريوس» الذي وفد إلى الإسكندرية من ليبيا (المدن الخمس الغربية) ثم أذاع أفكاره في الشام، فآمن بها كثيرون.. وتتلخص أفكاره في أن المسيح ليس إلهًا، وليس ابنًا لله بالمعنى الحقيقي، وإنما بشكل مجازي في إطار نظرية (التبنِّي) التي تطورت بعد ذلك، ولاقت قبولًا عند كثيرين.

وزمجرت كنيسةُ الإسكندرية التي كانت آنذاك يونانية اللغة والطابع، ودعا أسقفها «إسكندر» إلى اجتماع دولي لرؤساء الكنائس الكبرى في العالم، فانعقد المجمع برعاية الإمبراطور قسطنطين ورئاسته سنة ٣٢٥ ميلادية ببلدة نيقية الواقعة حاليًا بتركيا، وهي التي تسمى اليوم «أزنيق». وتم في هذا الاجتماع الكنسي الذي ترأسه الإمبراطور (غير المؤمن بالمسيحية ولا بالكنيسة) طَرْدُ آريوس من حظيرة الإيمان، كما تم إقرار الأناجيل الأربعة وتأكيد أن المسيح يعادل الله وروح القدس، ومن ثم سطعت عقيدة التثليث أو الثالوث المسيحي التي صيغت في عبارة: الآب والابن وروح القدس إلهٌ واحدٌ، آمين (وليس آمون).

(١) كلمة «كرازة» تعني الدعوة إلى الدين الجديد، وهو ما يسمى اليوم: التبشير.

وصارت المسيحية من بعد ذلك «المجمع» فريقين: هراطقةً (كُفَّارًا) من أتباع الآريوسية والمانوية والديصانية، ومؤمنين يسمُّون أنفسهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية الأُرثوذكسية(1). لكن الفريق الأخير انقسم على ذاته في مرحلة تالية، عندما رفض نسطور (أسقف العاصمة الإمبراطورية بيزنطة) اعتبار القديسة مريم العذراء «أم الإله» أو بحسب اللفظ اليوناني: ثيوتوكوس. وبالمناسبة، فإن كل هذه الاعتقادات والاختلافات العقائدية، كانت آنذاك تُصاغ باللغة اليونانية وكانت كنيسة الإسكندرية أيضًا، لا تزال يونانية اللغة والتفكير.

ثم انشقت الكنيسة «الكاثوليكية الأرثوذكسية» على نفسها بسبب انتشار أفكار نسطور في منطقة الشام والعراق، مع أنه طُرد من حظيرة الإيمان في مجمع إفسوس سنة ٤٣١ ميلادية، فصارت الكنائس موصوفة كالتالي: هراطقة، نساطرة، أرثوذكس (كاثوليك).. وبعد الانشطار الذي تم في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح، وهل هو (من) طبيعة إلهية، أم (عن) طبيعة إلهية؟ وهو الخلاف الذي أدى في المجمع المذكور إلى ثورة رؤساء الكنائس على رئيس كنيسة الإسكندرية «الأسقف ديسقوروس» وإهانته بشكلٍ لا يجوز أن أذكره هنا بالتفصيل، احترامًا لذكرى هذا الرجل، صارت الكنيسة الأُرثوذكسية (الكاثوليكية) قسمين متنازعين: أتباع خلقيدونية أو كنيسة اليونان وبيزنطة وروما، وهم المعرفون اليوم باسم: الروم الأرثوذكس. وأتباع ديسقوروس أو كنيسة اليعاقبة نسبةً إلى يعقوب (البرادعي) أو كنيسة الطبيعة الواحدة المسماة «المونوفستية» وهي التي يُشار إليها اليوم مجازًا، بالكنيسة القبطية. وصارت هناك، أيضًا، كنيسة أرثوذكسية في الشام هي المسماة اليوم «كنيسة الأرثوذكس السريان».

وبعد الانشطار الأعظم الذي حدث في حدود سنة ١٠٥٤ ميلادية اختصَّ أتباع كنيسة روما باسم (الكاثوليك) وهم الذين انشطر منهم في القرن السادس عشر الميلادي كنيسة (البروتستانت)، بينما اختصَّ أهل الكنائس المصرية واليونانية والشامية باسم (الأرثوذكس)

---

(١) المجمع كلمة «كاثوليكية» تعني الجامعة أو العالمية، وتعني «الأرثوذكسية» الإيمان القويم.

وتوزَّعوا على ثلاث كنائس: الأرثوذكس السريان، الأرثوذكس الخلقيدونيين (الروم) الأرثوذكس اليعاقبة (المونوفستيين).. وبالمناسبة، فإن في بلادنا اليوم من هذه الكنائس ثلاثًا، أكبرها تلك التي يرأسها البابا المتنيح «شنودة الثالث»[1] بطريرك الكرازة المرقسية. يليها من حيث عدد الأتباع كنيسةُ «الإنجيليين» وهم من البروتستانت الذين وصل عددهم بمصر إلى قرابة المليون شخص، ويقال إنهم يتزايدون رويدًا بسبب انتقال أتباع الكنيسة الأولى، إلى مذهبهم الخالي من تعقيدات الكهنوت وصعوبات الطلاق. ولذلك تقيم الكنيسة القبطية دوريًا، ما يُسَمَّى «مؤتمرات تثبيت العقيدة» للحدِّ من انتقال أتباع هذه الكنيسة إلى تلك.

أما الكنيسة المصرية الثالثة، فهي المسمَّاة كنيسة الروم الأرثوذكس (الخلقيدونيين) وكان السريان والعرب يسمونها كنيسة الملكانية. ولهم اليوم رئيس روحي يعيش في الإسكندرية، هو البابا «ثيوذوروس الثالث» بطريرك الإسكندرية وسائر إفريقيا، وقد التقيتُ به مرارًا فوجدته أنموذجًا لما يجب أن يكون عليه رجال الدين من سماحةٍ وبساطةٍ وتسامحٍ مسيحيٍّ، وإنسانيٍّ. وبالمناسبة، فهذه الكنيسة التي يرأسها اليوم هذا الرجل المبارك، هي الكنيسة المصرية الأكثر عراقةً وامتدادًا في تاريخنا المصري، وهي التي بيدها اليوم أهمُّ وأقدم دير في مصر (دير سانت كاترين) الذي تحتفظ مكتبته بأقدم نسخةٍ كاملة من الأناجيل الأربعة، باللغة العربية، مؤرَّخة بسنة ٢٨٤ هجرية.

..نعود إلى زمن الفتح (الغزو، الدخول) العربي الإسلامي لمصر، فنرى أن الخريطة الروحية للبلاد، كانت تجمع آنذاك بين ثلاث كنائس كبرى (الملكانية، اليعقوبية، السريان) وكانت السلطة الدينية والمدنية بيدِ قيرس (المقوقس) الذي كان يبطش بالمخالفين لمذهبه الساذج «المونوثيلية» سواء كانوا من الملكانيين أو اليعاقبة، لكن بطشه باليعاقبة «الأقباط» كان أنكى وأشنع لأنهم فقراء مساكين، وليس لهم مَنْ يقوم بحمايتهم. ولا نستطيع هنا بل لا يستطيع أحدٌ، تحديد النسبة العددية لأتباع هذه

---

(١) المتنيح في المصطلح المسيحي المصري، تعني المتوفى. ولم يكن البابا شنودة قد توفي (تنيَّح) عند نشر المقالة الأصل، ولذلك قمتُ بتعديل النص عند إعداد هذا الكتاب للنشر.

الكنيسة أو تلك، في زمن مجيء عمرو بن العاص فاتحًا (غازيًا) لمصر. ولكن يمكن القول إجمالًا، إنه في زمن الفتح كانت الكنيسة الملكانية (الروم الأرثوذكس) هي الأقوى والأغنى، بينما كانت كنيسة اليعاقبة (الأقباط الأُرثوذكس) هي الأكثر عددًا من حيث الأتباع.

وبعد الفتح واستقرار الحكم الإسلامي لمصر، تكاثر أتباع الكنيسة الأرثوذكسية اليعقوبية (الأقباط المرقسيون) بسبب الاستقرار الذي أتاحه الحكم الإسلامي للبلاد، بينما تناقص عدد الأرثوذكس الروم بسبب رحيل بعضهم عن الديار إلى اليونان والأناضول، حيث المقر الرئيس لمذهبهم العقائدي، لكن الملكانيين لم يختفوا من مصر بل كان لهم في القرون الإسلامية الأولى بمصر، حضورٌ متميزٌ يتمثل في وقائع كثيرة دالة على أهميتهم في تاريخنا. فمن ذلك نبوغ رجال منهم، من أمثال «سعيد بن البطريق» المؤرِّخ المتوفى سنة ٩٣٩ ميلادية، الذي كان رئيس كنيستهم في زمانه. وكان من أهل كنيستهم أيضًا شخصيات أخرى معروفة مثل زوجة العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي، وهي أمُّ «ست الملك» أخت «الحاكم بأمر الله» ويقال إنها كانت أمَّ «الحاكم» أيضًا.

.. نعود ثانيةً إلى زمن الفتح الإسلامي بمصر، فنشير إلى أن العرب الذين كانوا قد استقروا بمصر من قبل الفتح بقرون، كان منهم يهودٌ مسيحيون. وهؤلاء المسيحيون كان منهم ملكانيون من أمثال الأسقف يوحنا بن رؤبة (حاكم أيلة الذي صالح النبي وفتح أمام المسلمين بوابة سيناء الجنوبية) وكان منهم نساطرة، وهم أتباع المذهب المسيحي الأوسع انتشارًا آنذاك في العراق وأطراف الشام. ومنهم أتباع كنائس أخرى، اضمحلَّت مع الوقت وطواها الزمان.

ولا يجب هنا أن يفوتنا المعنى العميق لعبارة الخليفة عُمر بن الخطاب، التي أمر فيها عمرو بن العاص عند خروجه بالجيش العربي الإسلامي لاستلام الحكم في مصر، أعني العبارة التي أمره فيها بأن يستنفر معه القبائل العربية بمصر، كي تؤازره وتشترك معه في فتح البلاد. وهو الأمر الذي سنعرض له بشيءٍ من التفصيل فيما يأتي.

أرطيون العرب

لا يمكن الكلام عن فتح مصر، من دون الوقوف طويلًا أمام شخصية عمرو بن العاص الذي تحيَّر في وصفه القدماء والمحدثون، وأورد عنه المؤرِّخون ما لا حصر له من أخبار، ثم أفرد له المؤلفون عددًا من الكتب التي لم تستطع فيما أرى، أن تحيط بشخصيته الفريدة المحيِّرة. ولعل العبارة التي قالها ابنُ العاص في مرض موته، تُلقي بعضًا من الضوء على تناقضات (الحيوات) التي عاشها هذا الفاتح البديع، فقد أشار بعبارته إلى أنه مرَّ بمرحلة كان يكره فيها الإسلام ويحقد على النبيِّ حتى يتمنى قتله لو يستطيع إلى ذلك سبيلًا، وفي مرحلةٍ تالية أسلم فصار في قلبه حبٌّ عظيم للدين والنبيّ، لا يعدله حبٌّ مماثل. وفي مرحلةٍ ثالثة دخل في أمورٍ مدخولة الحق والباطل (حرب عليٍّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان) فلم يعد يعرف خيرها من شرِّها، لكنه في المجمل نادمٌ عليها.

لكن هناك مرحلة في حياة عمرو بن العاص، أسبق من (الحيوات) الثلاث المذكورة، أعني مرحلة الطفولة والشباب المبكر. وهي الفترة التي تشكَّلت فيها الملامحُ لشخصية عمرو بن العاص، الذي وصفه معاصروه واللاحقون به بأنه: داهية قريش، أمير الحرب، رجل العالم، أرطيون العرب.. وسوف نتوقف بعد قليل، عند هذا الوصف الأخير.

بدأت حياة «عمرو» في مكة، حيث كانت أمه تعيش في كَنَف أهل مكة «قريش» بين الفقراء، كامرأةٍ من السبايا أو من المعدمين. وكانت تفتح بابها فيغشاها الرجالُ، ولما ولدته نسبته إلى «العاص بن وائل السهمي» فنشأ في حضنه وتزوَّج فور بلوغه بابنة عمه «رائطة بنت الحجَّاج بن منبه السهمية» فقضت معه حياتها كلها، وأنجبت له ولده الذي أسماه «عمرو» باسم أبيه «العاص» غير أن النبيَّ غيَّره لاحقًا، وأعطاه الاسم الذي اشتُهر به، وهو «عبد الله بن عمرو بن العاص» وكان الفارق في السن بين «عمرو» وابنه «عبد الله» في حدود الاثنتي عشرة سنة فقط، مما يعني أن (عمرو بن العاص) تزوَّج ابنة عمه (رائطة) في سن مبكرة من عمريهما، بحسب عادة أهل زمانهما.

وكان نبوغ «عمرو» في مكة، مبكرًا، فقد روت المصادر أنه كان صبيًّا يافعًا حين واجه بكلماته البليغة، رجالَ قريش الذين انتقدوا أباه «العاص بن وائل» لاعتدائه على الحقوق المالية لواحدٍ من تجار اليمن، وهي الواقعة التي انتهت بتأسيس (حزب الفضول) الذي كان يقوم من قبل الإسلام، بنُصرة المظلومين.. والغمَّازون اللمَّازون الكارهون لعمرو بن العاص، يشيرون كثيرًا إلى أمه، ظنًّا منهم أن ذلك يحطُّ من شأنه. لكنه في واقع الأمر كان قد تجاوز هذه المسألة، منذ بدايات حياته، بل كان لا يجد غضاضةً في الإشارة إليها. وهو ما يدل على ثقته الوفيرة بذاته، فعندما مات أخوه «هشام» بكاه بحرقة، وهو آنذاك أميرٌ على جيش المسلمين، فلامه على ذلك كبار قُوَّاده، فقال لهم ما معناه: كيف لا أبكي عليه، وقد كان أفضل مني، وأمه أفضل من أمي.. وفي واقعةٍ تالية أيامَ كان أميرًا لمصر، تراهن بعض الخبثاء مع رجلٍ على مبلغٍ من المال، إذا استطاع أن يسأل «عمرو» يوم الجمعة أثناء خطبته على المنبر، عن أمِّه فسأله الرجل قائلًا: مَنْ أمُّ الأمير؟ فقال له عمرو بن العاص ببساطةٍ وثقة ما فحواه: كانت امرأةً من فقراء قريش، اسمها ليلى، فاذهبْ وخُذْ من أصحابك المال الذي جعلوه لك.

ويتصل بما سبقَ، روايات أخرى لا تتعلقَ بقدرة «عمرو بن العاص» على تجاوز الوقائع القديمة التي لم يكن له يدٌ فيها، فحسب، وإنما تدل أيضًا على قدرته الفائقة على ضبط النفس والثقة المفرطة بذاته. فقد كان أمير الجيش يوم نَهَر بعض جنوده ليقوموا إلى أعمالهم ويتركوا الطعام، فردَّ عليه أحدهم بقوله: مهلًا فإنما نحن لحم وعظم. فقال له عمرو بن العاص «بل أنت كلب» فقال الجندي: فأنت أمير الكلاب! فضحك ومضى عنهم. وكان قد انفعل يومًا حين سبَّه المغيرةُ بن شعبة، فشتم قبيلته قائلًا: «يا آل هصيص، أَيَسُبُّني ابن شعبة» فقال له ابنه عبد الله معترضًا: إنا لله، دعوتَ بدعوى القبائل، وقد نهى النبيُّ عن ذلك.. فاعتذر عمرو، وكفَّر عن ذنبه بأن أعتق ثلاثين عبدًا.

ومعروفٌ عن عمرو بن العاص، أنه ساعد معاوية بن أبي سفيان في نزاعه مع الإمام عليّ بن أبي طالب، وحارب في صفِّه وجعل له الأمر بالخدعة الشهيرة (التحكيم) لكنه حين دخل على «معاوية» المجلس، فوجده يحكي من الوقائع ما يرفع به من شأنه ويحطُّ

من شأن الإمام عليٍّ، صاح فيه عمرو بن العاص: «يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك، أترانا خالفنا عليًّا لفضلٍ منَّا عليه، لا والله، إنما هي الدنيا نتكالب عليها، فإما أن تقطع لي من دنياك، أو أُنابذنَّك».. فأعطاه مصر.

ومع أن «عمرو» هو القائل حين انتقدوه، لأنه يركب بغلةً كبيرة السن وبائسة، وهو الأمير: «لا أملُّ دابتي ما حملتني، ولا أملُّ زوجتي ما أحسنتْ عشرتي، ولا أملُّ ثوبي ما وسعني، فإن الملل من سيئ الأخلاق».. فإن «عمرو» ذاته، هو القائل حين اجتمعت بنو أمية عند كبيرهم «معاوية» ليعاتبوه على تفضيل عمرو بن العاص عليهم، وهم أقرباؤه، فلما أكثروا من هذا الكلام وعمرو بن العاص حاضر، صاح فيهم: «أما والله، ما أنا بالواني ولا الفاني، وإنما أنا الحية الصماء التي لا يسلم سليمُها ولا ينام كليمُها، وأنا الذي إذا همزتُ كسرتُ، وإذا كويتُ أنضجتُ، فمن شاء فليشاورْ ومَنْ شاء فليؤامرْ، وقد علمتم أنني أحسن بلاءً وأعظم غناءً».

إذن، نحن بإزاء شخصية متعدِّدة الأنحاء، ومحيِّرة، لكن فضلها ثابتٌ بوقائع التاريخ وبصحيح الشهادات النبوية في حق عمرو بن العاص. فمن الوقائع الثابتة أنه قاد جيش المسلمين في حياة النبي، عقب إسلامه وكان تحت إمرته كبار الصحابة والشيخان أبو بكر وعمر. وقاد الجيوش التي فتحت بلاد الشام وشمال الجزيرة وفلسطين، فأظهر من الشجاعة والحكمة والمهارة ما يثير الإعجاب. وحين صال القائد العسكري البيزنطي (الرومي) المسمَّى أرطيون (تكتبه بعض المصادر العربية: أرطبون) وأعجز جيش المسلمين، شكا الناسُ أمرَه إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فقال: نضرب أرطيون الروم بأرطيون العرب.. واستدعى له «عمرو بن العاص» وأرسله إليه على رأس جيش، فحاربه «عمرو» حتى أعياه، وهزمه، فاضطر أرطيون إلى الفرار بحفنة من جنوده إلى مصر.

ومن الشهادات النبوية في حق عمرو بن العاص، الحديث الشريف: ابنا العاص مؤمنان، عمرو وهشام (رواه الإمام أحمد والحاكم وابن سعد وابن عساكر) والحديث: أبو عبد الله عمرو بن العاص من صالحي قريش، نِعْمَ أهل البيت أبو عبد الله وأم عبد الله

وعبد الله (أخرجه أحمد والترمذي) والحديث: أسلم الناسُ وآمن عمرو بن العاص (قال الذهبي: حديثٌ حَسَنُ الإسناد).

وفيما يتعلق بفتح مصر، هناك حكاية ذات طابع (مسرحي) ترويها المصادر التاريخية الإسلامية، مفادها أن «عمرو بن العاص» ألح على الخليفة «عمر بن الخطاب» في فتح مصر، فوافقه الخليفة متردِّدًا ثم قال له إنه سيرسل له برسالة يحسم فيها أمر الموافقة، فإن وصلته قبل دخول مصر فليرجع عنها، وإن وصلته بعد دخوله فلا يرجع. فلما جاء المرسل بالرسالة من الخليفة، تأخر «عمرو» عن مقابلته ومعرفة ما بعث به عُمر بن الخطاب حتى وصل إلى العريش. فلما وجد الرسالة تقول له لا تدخلْ مصر، إنْ لم تكن قد دخلتها فعلًا. سأل «عمرو» الذين حوله: هل نحن الآن في مصر؟ فقالوا نعم، فقال: إذن نمضي على بركة الله..

وبطبيعة الحال، ما كانت الأمور تسير على هذا النحو المسرحي. وما كان للخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في الخروج بالجيش في الليلة ذاتها، على أساس (سنكون على اتصال) مثلما يفعل معاصرونا اليوم. وما كان المسلمون بغافلين عن خطورة فتح الشام والعراق، مع بقاء مصر بيدِ هرقل. وما كان من الممكن للمسلمين التغافل عن لجوء «أرطيون» وفلول جيشه إلى مصر، واستعدادهم للكرِّ ثانيةً إذا سنحت لهم الفرصة لجمع الشتات والاستعانة بعشرات الآلاف من المقاتلين البيزنطيين (الروم) الذين كانوا يتحصَّنون بمصر. وما كان لقواد المسلمين أن يتجاهلوا الوضع المزري لهرقل وجيوشه، واضطراب الأحوال في مصر بسبب صراع الكنائس هناك، والقوة العربية الهائلة الساكنة في مصر.. ولذلك كله، كان خروج عمرو بن العاص بالجيش إلى مصر ضرورةً حتمية، تعلو عنْ تلك الحكايات ذات الطابع المسرحيِّ (الهزليّ) التي يرويها بعض المؤرخين.

وهناك روايةٌ شهيرةٌ أكثر من السابقة مسرحيةً، وهزليةً، تقول إن عمرو بن العاص في شبابه، كان قد أنقذ بفلسطين راهبًا سكندريًا كاد يهلك جوعًا، فأعطاه عمرو طعامًا وشرابًا، ثم كاد الراهبُ يهلك من لدغة ثعبان، فقتله عمرو بن العاص بسهم. فأخذه

الراهب إلى الإسكندرية ليعطيه جائزة مالية مكافأةً على إنقاذ حياته، مرتين، وفي الإسكندرية حضر «عمرو» احتفالًا في الملعب (الاستاد) يرمون فيه كرةً على الناس، فمن وقعت في حجره يكون بعد حينٍ ملكًا لمصر! فوقعت الكرةُ في حِجر «عمرو بن العاص» فاستهان الناس بالأمر، لكنهم بعد سنوات وجدوا النبوءة قد تحقَّقت وصار الرجل العربي المجهول بالنسبة إليهم حاكمًا لهم ولمصر.

وبالطبع، فهذه الرواية الهزلية تصل من السذاجة إلى الحدِّ الذي لا يجوز معه مناقشتها. خصوصًا أنه لم يكن من المعروف أن مثل هذه (اللعبة) موجودة آنذاك، وليس معروفًا عن الرهبان ارتياد الملاعب، ولم يكن للعرب من أمثال «عمرو» هذه السطحية التي تدعوه للسفر شهورًا، وترك تجارته، كي يأخذ جائزةً مالية من راهب. ومتى كان الرهبان يملكون أموالًا أصلًا؟.. فلنترك مثل هذه القصص البلهاء جانبًا، وننظر بشيء من الجدية إلى دخول عمرو بن العاص إلى مصر، على رأس جيشٍ خرج من الشام عدَّته ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، وقيل بل أربعة آلاف، كلُّهم من قبيلة «عك» اليمنية. ولنجعل الأمر، حسبما أراه، ملخَّصًا في النقاط التالية:

أولًا: كان المسلمون قد عقدوا اتفاقًا قبل سنوات مع المقوقس، أبرمه «حاطب بن أبي بلتعة» في خلافة أبي بكر الصديق، فلما لجأ «أرطيون» إلى مصر وفيها من جند الروم عشرات الآلاف، صار (العهد) السابق قد انتُقض من جهة المقوقس باستقباله أرطيون، أو بعدم قدرته على طرده من البلاد. فلما صار الأمر كذلك، كان لا بد للعرب المسلمين من تعقُّب أرطيون، خشية أن يرتدَّ عليهم وقد ازداد قوةً. لا سيما أن الأسطول البيزنطي كان يرابض بشواطئ الإسكندرية، وكان من الوارد أن يعود فيضرب سواحل الشام التي لم تكن آنذاك، قد استقرت تمامًا بأيدي المسلمين.

ثانيًا: نقل لنا المقريزي، وهو من المؤرِّخين الكبار المتأخرين (تُوفي سنة ٨٤٥ هجرية) أن الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى «عمرو» رسالةً بعد فتح الشام، يقول له فيها: «اندبْ الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خفَّ معك، فِسرْ به»، وبعث الخليفة بالرسالة مع (شريك بن عبدة) فندبهم عمرو، فأسرعوا إلى الخروج معه.

إذن كان العربُ الساكنون قبل عقودٍ بمصر ينضمون لجيش «عمرو» تباعًا، خاصةً قبائل لخم وراشدة والأنباط وسكان سيناء من البدو، فيتزايد عددُ العربِ مع سير الجيش. وهو ما يفسر كيف انتصر العرب المسلمون على الروم في أول موقعة عسكرية (الفرما، بيلوز، البرمون) بل يأسرون منهم ثلاثة آلاف جندي، يرسلهم عمرو بن العاص كأَسْرَى «مقيَّدين بالسلاسل» إلى المدينة المنوَّرة (يثرب) فيردُّهم الخليفة «لعهدٍ كان قد سبق لهم» هو العهد المبرم بين حاطب بن أبي بلتعة والمقوقس. لأنه لم يكن لجند الروم المتحصِّنين في الفرما، وهي بلدة قريبة من بورسعيد الحالية، ذنبٌ في انتقاض العهد. ومن جهةٍ أخرى، يمكن أن نفهم في ضوء ما سبق، قول المؤرخ المبكر «ابن عبد الحكم» أن عمرو بن العاص خرج بالجيش إلى مصر: «فنقض الصلح وفتحها».

ثالثًا: لا يجب أن يغيب عن أذهاننا، خيانة المقوقس لهرقل بعد (العهد) الذي أبرمه سرًّا مع المسلمين، ولم تُشِرْ إليه الوثائق أو المدوَّنات التاريخية البيزنطية، وهو ما يفسِّر أشياء كثيرة جرت في ابتداء الأمر.. منها أن جيش «عمرو» وجد حدود مصر (العريش) خاليةً من جند الروم. وهو ما لا يتفق مع حالة الاستنفار العسكري، المفترضة في بلدٍ يخضع للإمبراطورية البيزنطية التي تحارب المسلمين في الشام.. ومنها المفاوضات الهزلية التي قام بها المقوقس مع المسلمين أثناء حصار القصر (حصن بابليون) الذي يسمِّيه بعض مؤرِّخينا القدامى «باب إليون» ثم المفاوضات التالية التي قام بها المقوقس مع عمرو، أيام فتح الإسكندرية، بعد وفاة هرقل حسيرًا آسفًا على تداعِي أركان إمبراطوريته. فكان من مطالب المقوقس التي وافق عليها (عمرو) أن يبقى المقوقس في الإسكندرية، وأن يُدفن بعد وفاته في كنيسة يوحنا، التي تسمِّيها المصادر العربية المبكرة «كنيسة أبي يُحنَّس».. فقد كان المقوقس قبل سنوات يسعى إلى امتلاك الحكم الدنيوي، فصار بعد حينٍ يفكر في ختام حياته وفي القبر الذي يستر جسده ومخازيه.

رابعًا: كان عمرو بن العاص يسير بجيشه في حواف الدلتا، وفي الجانب الشرقي من مصر، على هدى الأدلاء من العرب العارفين بتلك النواحي. فلما عبر النيل في موسم

التحاريق» حيث ينكشف قاع النهر في الشتاء بسبب انحسار الفيضان، سار عمرو بجيشه على غير هدى، عبر إلى الضفة الغربية من النيل حتى وصل الفيوم في رحلةٍ ليس تحتها طائل، فوجد هناك قتالًا يدور بين الروم أنفسهم[1]، فعاد بعد حين وحاصر حصن بابليون أو القصر. فلما اجتمع مع عمرو أثناء الحصار أفرادُ وأشتاتُ العرب (المصريون) وجاءه من الخليفة «عُمر» مددٌ قوامه أربعة آلاف جندي مسلم من خيرة المقاتلين، فيهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد. استطاع عمرو الاستيلاء على الحصن، واتجه إلى الإسكندرية عاصمة البلاد التي لا يستقيم (الفتح) إلا بدخولها، فوقف عند أسوارها الشرقية حتى تداعى قلب المدينة واضطربت أحوال الناس فيها، فدخلها، ثم ثارت الإسكندريةُ على المسلمين بعد حين. حين أتاها المددُ من بيزنطة، فعاد إليها «عمرو بن العاص» بتكليف من الخليفة عثمان بن عفَّان (بعد وفاة عمر بن الخطاب) وفتحها ثانيةً، وهرب الرومُ من أمامه بسفنهم.

خامسًا: كان مجيء «عمرو» بن العاص بجيشه إلى مصر، إنما هو في واقع الأمر لاستلام حكم البلاد، وليس للفتح أو الغزو أو الحرب التي من غير المعقول أن ينهزم فيها عشرات الآلاف من جند الروم المتحصِّنين في القلاع (عددهم ما بين أربعين ألفًا ومائة ألف) أمام جيش المسلمين الذي كانت خسائره جميعها، حسبما أشار المؤرِّخون المبكرون «اثنين وعشرين رجلًا» ليس فيهم واحدٌ من مشاهير المسلمين، أو قادة جيشهم.

ما بعد عمرو: ابنُ أبي سَرْح

يعرف معظم الناس أن أبا سفيان بن حرب بن أمية، أجاب يومَ فتح مكة عن سؤال النبي للمشركين: ماذا تظنون أني فاعلٌ بكم؟ بقوله: أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم. فتسامح النبيُّ مع مُشركي قريش يومَها، وقال: مَنْ دخل البيت (الكعبة) فهو آمن، ومَنْ دخل بيته

(١) كان القتال هناك يدور بين حزب الخضر وحزب الزرق، وهما حزبان في الأصل من مشجعي الألعاب الرياضية (الألتراس) ثم صار لهما حضور سياسي كبير، ومعارك فيما بينهما.

(أي التزم بحظر التجوُّل) فهو آمن، ومَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وقد لا ينتبه كثيرٌ من الناس إلى أن أبا سفيان آنذاك كان لا يزال مشركًا، ولا تزال زوجته هي السيدة «هند بنت عُتبة» التي فتكت بالحمزة (عمِّ النبي) وأكلت من كبده ثأرًا وانتقامًا. ولكنَّ أبا سفيان أيضًا، هو حمو النبي (أبو زوجته) وهو أبو «معاوية» الذي يُقال إنه كتب في طفولته شيئًا من الوحي القرآني، وسوف يصير بعد حينٍ أول ملوك الإسلام (السلاطين، الخلفاء) ومؤسس الدولة الأموية التي حكمت العالم الإسلامي الممتد قرابة قرنٍ من الزمان، حتى أزاحها عن الحكم العباسيون.

ويعرف قليلٌ من الناس أن النبي، على الرغم من تسامحه مع أهل قريش وغفرانه لهم يومَ فتح مكة، دعا في ذلك اليوم إلى قتل أربعة رجالٍ وامرأتين، حتى لو تعلَّق أحدهم بأستار الكعبة[1]. فكانت إحدى المرأتين هي «أمُّ سارة» التي تجسَّست على المسلمين قبيل الفتح، وكادت تنقل إلى أهل مكة تحذير «حاطب بن أبي بلتعة» للمشركين بأن النبيَّ قادمٌ إليهم على رأس جيش. وكان أحد الرجال الأربعة المطلوب قتلهم، لأسباب مختلفة، هو الرجل الذي سيرتبط اسمه بعد حينٍ بفتح مصر «عبد الله بن أبي سَرْح».. فلماذا توعَّده النبيُّ ودعا إلى قتله يوم الفتح، وما الذي جرى معه من بعد الوعيد؟

كان «عبد الله» هذا من فقراء قريش، وقد أسلم في وقتٍ مبكر (ولا نعلم ماذا كان اسمه قبل الإسلام) وهاجر مع النبي من مكة إلى المدينة. ولأنه كان يجيد الكتابة والقراءة، فقد اختاره النبيُّ ضمن الذين كانوا يكتبون عنه الوحيَ القرآني. وظل الرجل على تلك الحال زمنًا، حتى فوجئ الجميع يومًا بهروبه من يثرب (المدينة المنورة) إلى مكة (أمِّ القرى) وهناك قال للمشركين إنه كان يكتب «غير» ما يمليه عليه النبيّ، فإذا أملى عليه مثلًا «سميعٌ عليم» كتبها «عليمٌ حكيم» ثم يعرض المكتوب على النبيِّ فيُقرُّه، فافتتن الرجل وقال: «ما يدري محمدٌ ما يقول، وإني لأكتبُ له ما شئت، والذي كتبته يُوحى إليَّ مثلما يُوحى إلى محمد».. وهكذا ارتدَّ «عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح» عن الإسلام، وهرب من المدينة إلى مكة. وقد روت المصادر التاريخية الإسلامية، المبكرة

(١) وقد تعلَّق واحدٌ منهم، فعلًا، بأستار الكعبة آملًا في النجاة من الموت.. فقتله المسلمون.

والمتأخرة، الواقعةَ السابقة مسبوقةً بالرواة الثقات الذين تناقلوها، وزادت بعضُ هذه المصادر أن النبيَّ كان يُملي على «ابن أبي سَرْح» قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ... ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فقال وقد بهرته الآيات ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ فقال له النبي ﷺ: أُكتبْها فإنها نزلت هكذا. لكن بعض المصادر الأخرى ألحقت هذه الحكاية بواحدٍ من كَتَبة الوحي، غير عبد الله بن أبي سرح.

وبحسب الثابت من أقوال المؤرِّخين، فإن «ابن أبي سرح» كاد بما فعله أن يُحدث فتنةً عظيمةً بين الناس، مما دعا النبيَّ إلى إهدار دمه يوم فتح مكة، عقابًا له على ما اقترفه في حقِّ الإسلام والمسلمين. لكنه لم يُقتل، لأنه اختبأ في بيت الصحابي الجليل (والخليفة من بعدُ) عثمان بن عفان، الذي كان أخاه في الرضاعة. وتوسَّط عثمان (ذو النورين) وأخذ «المرتدَّ» إلى مجلس النبي، وألحَّ عليه في قبول توبة عبد الله بن أبي سَرْح، حتى وافق النبيُّ على مَضَضٍ، ثم قال بعدما بايعه: أما كان لهذا الكلب مَنْ يقتله؟ فقال رجلٌ من الأنصار ما معناه: يا رسول الله كنتُ أنظر إليك وعثمان يحاورك، عساك تومئ (تغمز) لي فأقوم وأقتله.. فقال النبي: ما كان لنبيٍّ أن يومئ، وليس في الإسلام إيماءٌ ولا فتك.

وقد تناقل المؤرِّخون أن «ابن أبي سَرْح» كان يفرُّ من النبي كلما رآه، حتى توسَّط عثمانُ ثانيةً وتحدَّث إلى النبي قائلًا: يا رسول الله بأبي أنت وأمِّي، هذا ابن أمِّ عبد الله يفرُّ منك كلَّما رآك. فتبسَّم رسول الله وقال: أولم أُبايعْه وأُؤمنه؟ فقال عثمان: بلى، ولكنه يتذكر عظيم جُرْمه. فقال النبي: الإسلام يجُبُّ ما كان قبله.. (وهي العبارة التي كان النبي قد قالها من قبل لعمرو بن العاص، يوم جاء ليعلن إسلامه ويبايع النبي، مشترطًا أن يُغفر له ما تقدم من ذنبه).

وبعد وساطة «عثمان» الثانية، صار عبد الله بن أبي سَرْح، يجالس النبيَّ ويسلِّم عليه مع بقية المسلمين، وبعد وفاة النبي اشترك الرجل في الفتوحات وأبلى بلاءً حسنًا، وكان في صُحبة عمرو بن العاص حين دخل مصر بجيشه غازيًا، بل كان قائد الميمنة (الجناح الأيمن من الجيش) حتى إذا تمَّ الفتحُ واستقر الأمرُ بيدِ المسلمين، جعله الخليفة عمر بن الخطاب أميرًا على الصعيد، وترك لابن العاص إمارة بقية البلاد.

وسار ابن أبي سرح في زمن ولايته على مصر، على غير ما كان عمرو بن العاص يسير عليه. فقد كان عمرو يترفّق بالمصريين في جمع الجزية (ضريبة الدفاع عن البلاد) ولم يفرض على الناس قدرًا معلومًا من المال، وإنما أجاب ذلك القسَّ الذي سأله عن مقدار المال الواجب سداده سنويًا للمسلمين، بقوله: لو جئتَ لي بملء هذه الكنيسة ذهبًا ما أخذتُه منك، فإنما أنتم خزانة لنا، إن وسَّع اللهُ علينا وسَّعنا عليكم وإن ضيَّق ضيَّقنا (بعبارة معاصرة: نحن في خندق واحد!).. وكان الخليفة عمر بن الخطاب، يشتد في الخطاب مع عمرو بن العاص ليحصِّل من جزية مصر ما كان يحصِّله الروم. وقد كتب إليه ذات مرة رسالة فيها: «من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص، أراك تحصِّل من مصر أقلَّ مما كان يحصِّله الروم، ومن قبلهم الفراعين على كفرهم وعُتوِّهم.. إلخ» فردَّ عليه برسالةٍ جاء فيها: «من عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، لولا مكانتك في المسلمين لرددت عليك بما يناسب كلامك، وهؤلاء الفراعين كانوا على كُفرهم وعتوِّهم يُصلحون الأرض ويعتنون بالبلاد، فيكثر خراجها.. إلخ». وكان عمرو يريد أن يسكن مدينة الإسكندرية لكن الخليفة عمر رفض ذلك، ورفض أن يقتسم الفاتحون بلاد مصر ويجعلوها غنيمةً لهم، لأن لأهلها عهدًا وذمة من قبل الفتح. ومعروف أن الخليفة «عُمر بن الخطاب» هو الذي عنَّف «عمرو بن العاص» حين اشتكى منه واحدٌ من المصريين، وانتهره قائلًا: متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحرارًا.

وتوفي الخليفة «عمر» بعدما اغتاله أحدُ المجوس (اسمه أبو لؤلؤة) فتولَّى من بعده عثمان بن عفان، وعزل عمرو بن العاص عن إمارة مصر وجعل مكانه أخاه في الرضاعة «عبد الله بن أبي سَرْح» فانصاع عمرو بن العاص ونفَّذ أوامر الخليفة بالعزل، من دون أن يفكر في الثورة عليه أو الاستقلال بحكم البلاد، مثلما كانت عادة قوَّاد الروم (البيزنطيين) لمئات السنين. وعاد عمرو إلى المدينة، وظل هناك ساكنًا خاملَ الذِّكْر إلى حين.

ومع أن الخليفة عثمان كان قد أوصى «ابن أبي سَرْح» بالترفُّق في جباية الضرائب من مصر، إلا أن الوالي الجديد أراد أن يثبت أنه أفضل من سابقه «عمرو» في حكم البلاد فأرهق الناس بضرائب كثيرة، فثارت الإسكندريةُ على الحكم الإسلامي. خصوصًا

بعدما جاءها القائد البيزنطي منويل «إيمانويل» بأسطول كبير، فانتزع عاصمة البلاد من يد المسلمين، ونهب القرى المصرية.. ومن هنا احتاج الخليفة «عثمان» إلى عمرو بن العاص، فأرسله إلى مصر على رأس جيشٍ استطاع أن يطرد عنها الروم، ويعيد البلاد لحكمها الإسلامي.

وبينما كان «عمرو» يحتفل بانتصاره وينتظر المكافأة، جاء إليه أهل القرى المصرية المنهوبة على يد البيزنطيين، واشتكوا ما حلَّ بهم عندما عجز المسلمون عن الدفاع عن البلاد والوقوف أمام حملة الروم الأخيرة، فتفهَّم عمرو بن العاص شكواهم وعوَّضهم عن خسائرهم. يقول القسُّ الإنجليزي د. ألفريد بتلر في كتابه عن فتح مصر، ما ترجمته: قالوا لعمرو بن العاص إنهم كانوا موالين للعرب، وكان لا بُدَّ من حمايتهم وقد أصابهم ما أصابهم حين قصَّر المسلمون في صَدِّ الروم. وكانوا على حقٍّ في شكواهم هذه، ولكن قلَّما ترى بين القوَّاد المظفَّرين مَنْ يعبأ بمثل تلك الشكوى، لكنَّ عمرًا أمر بتعويض القبط لما فقدوه، فكان هذا إقرارًا صريحًا من عمرو بما عليه من فرضٍ واجب، فألزم نفسه في صراحةٍ بأن يعوِّضهم عما لحق بهم. وهو الأمر الذي يدل على ما كان عليه عمرو من حُسن الرأي في الحكم، وما كان متصفًا به من نبيل الصفات[1].

ويبدو أن طريقة عمرو بن العاص في حكم البلاد، لم تعجب الخليفة عثمان بن عفان. ولهذا السبب، أو لأسبابٍ أخرى غير معلنة، وصل إلى مصر قرار الخليفة عثمان بأن يتولَّى «ابن أبي سَرْح» إمارة الخراج وجباية الأموال، ويتولَّى «ابن العاص» إمارة الحرب والقتال. وهو الأمر الذي رفضه عمرو بن العاص، وقال: «إذن، فأنا كماسك قرنيْ البقرة، وآخرُ يحلبها» فعزله الخليفة مرةً ثانية، واستدعاه إلى المدينة (يثرب) فظل هناك لعدة سنوات: ساكنًا، خاملًا، مكتئبًا.

وعاد «ابن أبي سَرْح» إلى الاشتداد في جمع الضرائب، وأرسل إلى المدينة مالا أكثر بكثير مما كان يرسله عمرو بن العاص، فلما وصل المال إلى الخليفة «عثمان» استدعى عمرو بن العاص وقال له أمام الحاضرين، ليغيظه: «لقد درَّت اللقاح (أي زاد الحليب)

---

(١) ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر.

من بعدك يا عمرو».. فردَّ عليه عمرو من فوره: لأنكم أعجفتم أولادها، فهزلت (أي سلبتم منها لبن الرضاعة).

والمؤرِّخون مختلفون في شخصية عبد الله بن أبي سَرْح، فبعضهم يصفه بأنه «من أعقل القرشيين وأشرفهم» وبعضهم الآخر، كالطبري، يقول: «لم يكن في وكلاء عثمان، أسوأ من عبد الله بن أبي سَرْح والي مصر».. ومعروف تاريخيًا، أن هذا «السوء» المشار إليه، كان هو السبب المباشر لمقتل عثمان بن عفان، على أيدي المصريين (أي العرب المسلمين الذين كانوا يعيشون بمصر).

وقد ظلَّ عبد الله بن أبي سَرْح حاكمًا لمصر، حتى قُتل الخليفة عثمان سنة ٣٥ هجرية، وكانت ولايته على البلاد قد ابتدأت سنة ٢٧ هجرية، فكانت هذه السنوات حافلة بالوقائع الدالة على صعوبة رسم صورة محدَّدة لابن أبي سَرْح. فهو من جهة الفاتح الذي أدخل الإسلام إلى إفريقية (تونس) وهزم أسقفها العسكري «جورجيوس» ويقال بل قتله، وغنم من هناك غنائم كثيرة. وهو الذي هادن أهل النوبة وصالحهم على العهد الذي سُمِّي لاحقًا: اتفاقية البقط[1]. وهو الذي هزم في موقعة «ذات الصواري» سنة ٣٤ هجرية الأسطول البيزنطي الذي كان قد ظل لمئات السنين مسيطرًا على مياه البحر المتوسط، ويقال إن تعداده في الموقعة بلغ ألف سفينة حربية بينما كان العرب المسلمون قبل هذه الموقعة البحرية بسنوات قليلة، يخشون ركوب البحر.. ومع أن «معاوية» أعان الجيش المصري بسفن أرسلها من الشام فكان لها دورٌ كبيرٌ في المعركة، إلا أن هذا الإنجاز يظل مرتبطًا بعبد الله بن أبي سرح.

ولكن من الجهة المقابلة، هناك مثالب كثيرة لحقت بسيرة الرجل أثناء ولايته على مصر. فالمعروف أن «ابن أبي سَرْح» كان يجهد البلاد في جمع الضرائب، ويغدق على نفسه، حتى أنه بنى دارًا فخمة في «الفسطاط» فقال له المقداد بن الأسود: إن كانت هذه الدار من مالك فقد أسرفتَ، والله لا يحب المسرفين، وإن كانت من مال الله

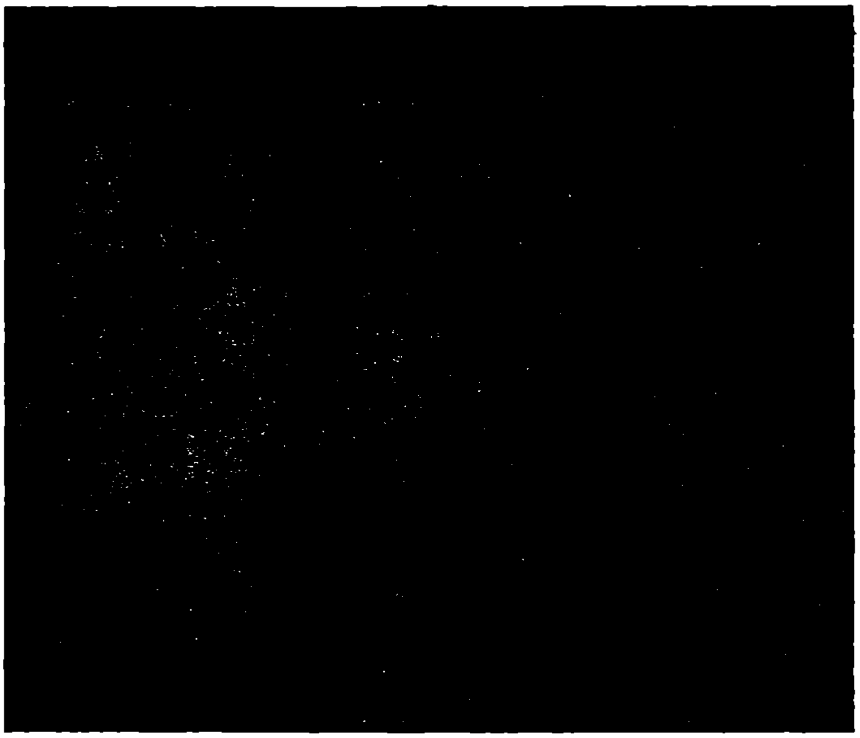
---

(١) هو عهد صلح تم إبرامه سنة ٣١ هجرية، بين عبد الله بن أبي سرح بصفته واليًا لمصر وممثلًا للخليفة عثمان، وملك النوبة المسمى في المصادر العربية «قيلدروث».. وهو صلحٌ بمنزلة هدنة أمان أو اتفاقية عدم اعتداء، وسوف نعود للكلام عنه في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(الخراج) فقد خُنتَ، والله لا يحب الخائنين.. وكانت بمصر فتاة جميلة اسمها «بُسيسة بنت حمزة بن ليشرح» وكانت مخطوبة لشاب من المسلمين، وبين المخطوبَيْن حبٌّ عميق، فلما رأى «ابن أبي سَرْح» الفتاة أعجبته وطلب من خطيبها أن يتركها له (مع أن الحديث الشريف يقول للمسلمين: لا يخطبنَّ أحدُكم على خِطبة أخيه) فتركها حبيبُها مضطرًّا، وتزوَّجها ابنُ أبي سرح. فلما كان قتال المسلمين والروم في «ذات الصواري» وحمى وطيسُ المعركة البحرية بعد التحام السفن، وقع الأمير عبد الله بن أبي سَرْح بين سفينتين، والتفَّت حوله الحبال والسلاسل فكاد يهلك. لولا أن الفتى المحروم من حبيبته «بُسيسة» اقتحم الموضع الذي عَلِق فيه ابن أبي سَرْح، وراح بسيفه يذود عنه ويقطع الحبال والسلاسل، حتى أنقذه من الموت.. وبقيت «بُسيسة» في بيت الأمير حتى عُزل، واعتزل بأرض فلسطين.. ومات هناك، فعادت إلى خاطبها الأول. وتزوَّج الحبيبان، بعدما ضيَّع الزمانُ من عمرهما سنوات الشباب.

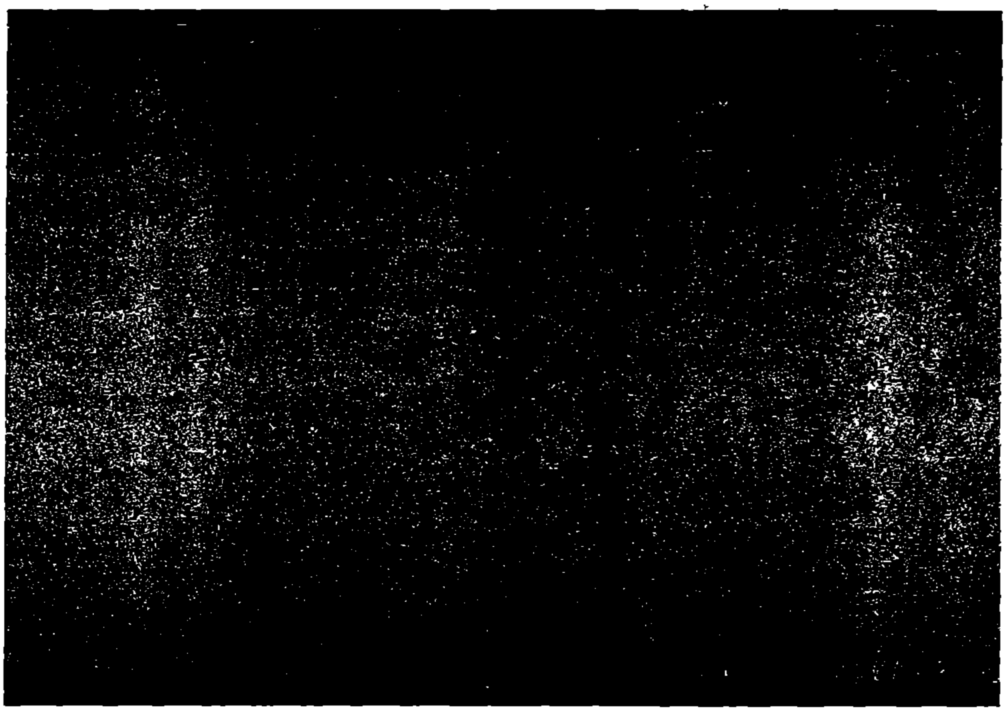
وحسبما ذكرنا سابقًا، فقد انحاز عمرو بن العاص إلى «معاوية بن أبي سفيان» وساعده في صراعه على الخلافة مع الإمام «عليّ بن أبي طالب» حتى استقام الأمر لمعاوية واستقر على العرش، وصار مشغولًا بمسألة (التوريث) وأَخْذِ البيعة لابنه الفاجر، الشاعر «يزيد» وهو الأمر الذي لم يعترض عليه عمرو بن العاص، فكانت مكافأته أنه عاد ليحكم مصر، ويظل أميرًا لها حتى وفاته ودَفْنه بجبل المقطم.

أما أهل مصر، فقد صاروا مع مرور الأيام يدخلون في الإسلام رويدًا، مثلما دخلوا في المسيحية من قبلُ رويدًا. ومثلما تخلَّى المصريون (على اختلاف طوائفهم) عن الديانات القديمة التي اعتنقوها قرونًا من الزمان، لصالح الديانة المسيحية التي وفدت إليهم من شمال الجزيرة العربية (فلسطين) وهو الأمر الذي استغرق ما يقرب من ثلاثمائة عام؛ تخلَّى معظم المصريين عن المسيحية لصالح الديانة الإسلامية التي وفدت إليهم من قلب الجزيرة (مكة) وهو الأمر الذي استغرق أيضًا قرابة الثلاثمائة عام.. فمع القرن الرابع الميلادي كان معظم أهل مصر مسيحيين وكانت اليونانية هي لغة الديانة، ومع القرن الرابع الهجري صار معظم أهل مصر مسلمين وصارت العربية هي لغة الدين والدنيا بالبلاد.



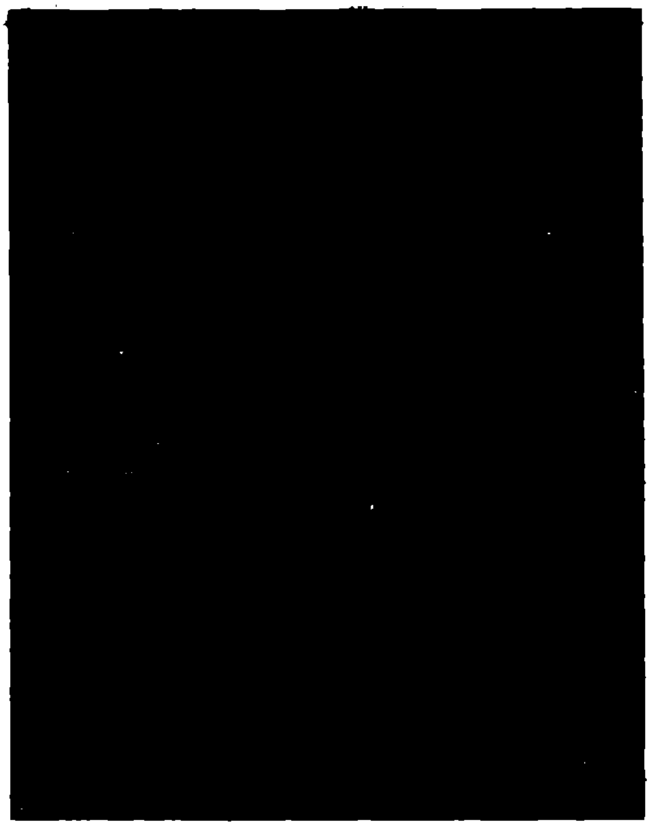
بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوكم بدعاية الإسلام أسلمْ تَسلمْ يؤتك الله أجرَك مرتين، فإن تولَّيت فعليك إثم القبط، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).



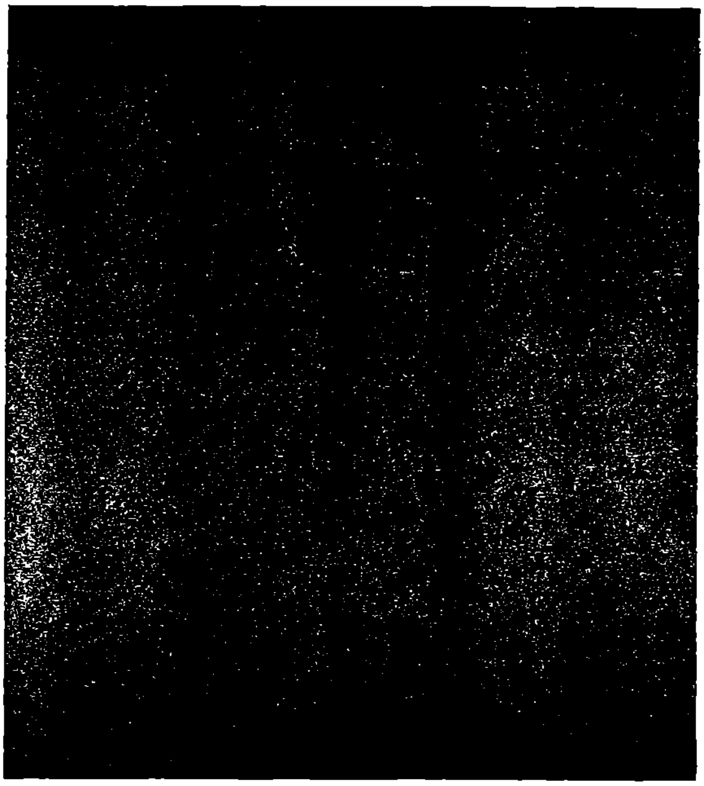
بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلِمْ تَسلَمْ يؤتِك الله أجرَك مرتين، فإن تولَّيت فعليك إثم الأرس (الأريسيِّين) و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون).



بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى كِسرى عظيم فارس: سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلِمْ تسلمْ، فإن أبيتَ فإنما عليك إثم المجوس.



بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد بلَّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى.

الفصل الثالث

بُهتانُ البُهتان فيما توهَّمه المطرانُ

عن أزمة رواية «عزازيل»

زمن المحبة

لم أكن أتوقع من صديقي الأمبا بيشوي (مطران دمياط وكفر الشيخ وبراري بلقاس، رئيس دير الست دميانة للراهبات القبطيات، سكرتير المجمع المقدس لكنيسة الأقباط الأرثوذكس، مسئول المحاكمات الكنسية) أن يبالغ في ثورته، وحملته الشعواء ضد روايتي «عزازيل» التي بلغ غضبه منها مداه، فوصفها بأنها «أبشع كتاب عرفته المسيحية». ومع أن «المطران» عبَّر عن رأيه السلبي في الرواية بين المحيطين به، ثم أصدر ما يُسَمَّى: البيان الرسمي الصادر عن الموقع الرسمي للأنبا بيشوي (تنبيه، الأنبا كتابةٌ خاطئة للكلمة والصواب: الأمبا) ثم وزَّع بيانه الرسمي هذا، الحافل بالتوهمات، على جميع الجرائد والمجلات وتشرته. ثم توعَّد بإصدار كتاب ضد الرواية، وأصدره، ثم تفرغ للإدلاء بالأحاديث الصحفية ليهاجم الرواية بكل ما فيه من قوة. ثم راح مؤخرًا، يكتب المقالات الصحفية اللاهبة ضدي، بل بلغ به الأمرُ أن صار يُطلق النداءات لعلماء المسلمين، ولأهل القبلة التي ينكرها حتمًا، كي يتنبهوا للمؤامرة (الجهنمية) التي يتوهَّمها بسبب قراءته الخاطئة لروايتي.

ولعام كامل تحاشيتُ الاشتباك مع المطران، ظنًّا مني أنه بعد حين سيهدأ ويهدِّئ من ثورته غير المفهومة، فيوقف هذه الحملة الشعواء الشنعاء. لكنني رأيت الأيام تزيد من غضبه اشتعالًا وتأجُّجًا، والتزامي بعدم الرد عليه (توقيرًا له) يزيده حنقًا. فوجدت من الواجب أن أناقشه بهدوء في هذه المقالات[1]، ملقيًا الضوء على بدء الحكاية،

---

(١) نُشرت الساعية في منتصف العام ٢٠٠٩.

لأن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات ولأننا لن نتهي إلى رؤية واضحة، ما لم ننظر في الكيفية التي ابتدأت بها الأمور؛ وهو ما يعيدني إلى زمنٍ جمعتني فيه المحبة مع نيافة المطران الأمبا (هذه الكلمة قبطيةُ الأصل تحرفت فصارت الأنبا، ومعناها الأب أو المعلم).

في صيف العام ٢٠٠٧ كنتُ كعادتي منهمكا في شئونٍ خاصة وأخرى عامة، أتشاغل بها عن الوقوع في دوامات البكاء على الأطلال، ونعي الواقع المعاصر، آملًا في تحقيق أمر نافع يبقى من بعدنا للأجيال القادمة. وكان من شئوني الخاصة الشاغلة آنذاك، الانتهاء من مراجعة البروفات الأخيرة لرواية عزازيل، التي سعيت من خلالها إلى إحياء لونٍ مطمور من الأدب العربي القديم، رأيت آثاره وشواهده في قصص «حيّ بن يقظان» و«سلامان وأبسال» و«رسالة العشق» لابن سينا، ورسالة «الغربة الغربية» للسهروردي، و«طواسين» الحلاج و«منطق الطير» لفريد الدين العطار.. ومن الناحية العامة، كانت تشغلني شئون وأعمال مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، وهي شئون وأعمال يعرف كُلُّ مَنْ يعرفني، أنها غامرةٌ هادرةٌ لا يتوقف شغلها الشاغل طيلة النهار.

وفي يوم من تلك الأيام المزدحمة، أخبروني أن نيافة الأمبا بيشوي يزور متحف المخطوطات، ويطلب مقابلتي على غير موعد. ومع أنني لم أكن آنذاك أعرفه شخصيًّا، لكنني توقيرًا لرتبة المطرانية، أزحتُ شواغلي كلها جانبًا، واستقبلته بمكتبي وامتدَّ بنا اللقاء ثلاث ساعات، ممتعة. وقد دخل المطران مكتبي يحوطه فريقٌ من صحافيي الجريدة التي يُصدرها (نداء الوطن) وعلى رأسهم رئيس تحريرها، فالتقط الصحافيون المصاحبون ما لا حصر له من صورٍ لنا، ثم جلس المطران وهو يقول إنه يعرف أنني مشغولٌ بالتراث المسيحي، قلت له إن ما يشغلني الآن هو نسطور ومشكلته اللاهوتية. ومن هنا انهمكنا في نقاشٍ ممتع استمر لساعتين، عرف المطران خلاله وجهة نظري في نسطور والنسطورية، وعرفتُ منه ما كنتُ أعرفه من موقف (الأقباط) التقليدي، من تلك المشكلات التاريخية التي وقعتْ قبل ألف وخمسمائة عام، وأدَّت إلى حربٍ شعواء بين الكنائس المختلفة، فصارت كل كنيسة منها تتهم الأخريات بالكفر

والهرطقة والضلال المبين. وفي ذاك اللقاء أخبرت المطران بأنني أحرص على إشراك آباء الكنائس المشتغلين بالعلم والمعرفة، في المؤتمرات الدولية التي نعقدها بالمكتبة كل عام لبحث قضايا التراث والمخطوطات، ودعوته للمؤتمر فأعرب عن موافقته المبدئية على المشاركة، وافترقنا بعد اللقاء الأول، وقد ربطت بيننا المحبة برباط وثيق، أو هكذا ظننتُ.

بعد أسابيع من التواصل تلفونيًّا، دعاني المطران إلى إلقاء محاضرة على الراهبات في دير الست دميانة ببراري بلقاس، فاندهشتُ! لم أكن أتصور أن أمرًا مثل ذلك ممكن الحدوث، اتصلت ببعض أصدقائي من آباء الرهبان القاطنين بالأديرة، فقالوا إنهم لم يسمعوا بمثل ذلك من قبل: شخصٌ مسلمٌ يعطي للراهبات محاضرة، هذا عجيب، لكنه يعكس تقديرًا كبيرًا لك. هكذا قالوا، فوافقتُ واخترتُ من الموضوعات ما رأيتُ أنه الأنسب للراهبات، وهو «التصوف الإسلامي» على اعتبار أنني أبحث دومًا عن نقاط الالتقاء والتقارب بين الجماعات، انتصارًا للإنسانية التي تجمعنا. ومعروف أن التصوف كاتجاهٍ روحي في الإسلام، يقترب من الرهبنة التي تُعد أكثر الاتجاهات روحانية في الديانة المسيحية. وقد قصدت في المحاضرة، الإشارة بوضوح إلى توقير صوفية المسلمين للرهبنة والدَّيرية، سواءٌ في عبارات الصوفية الأوائل، أو أشعار أبي الحسن الشُّشتري، أو كلام محيي الدين بن عربي عن الأولياء الذين يستقون من المشرب العيسوي.

كان اللقاءُ (والمحاضرة واليوم كلُّه) بديعًا، وقد قدَّمني المطران للراهبات في ابتداء المحاضرة بشكل جميل، ووصفني لهم بأنني «معجزة ربانية» لأنه على حدِّ قوله «لمْ يقابل من قبل شخصًا مثلي، له هذه القدرة على استدعاء النصوص الكاملة من التراث الإسلامي والمسيحي» وقال كلامًا كثيرًا طيبًا غير ذلك. وفي ذاك اليوم المفعم بالمحبة، طلب مني المطران فحص المخطوطات المحفوظة بالدَّير، ففحصتها وصحَّحت لهم كثيرًا من المعلومات (المتوهَّمة) بشأنها. وقد أرسل لي المطران بعد ذلك ألبوم الصور التي تم التقاطها لنا، مُوقَّعةً منه، ونَشَرَ هو بعضها في عديد من الصحف.

ثم مرت الأيام متسارعة الخطى، حتى جاء وقت انعقاد المؤتمر (مايو ٢٠٠٨) فحضر المطران وشارك بكلمةٍ في اليوم الأخير منه. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن هذا المؤتمر السنوي يشارك فيه كبار الباحثين في العالم، ونخبة ممتازة من الشخصيات الدينية المسيحية من كافة الكنائس: الأرثوذكس السريان (كنيسة أنطاكية)، الأقباط الأرثوذكس (الكنيسة المرقسية) الروم الأرثوذكس، الإنجيليون المصريون (البروتستانت) الكاثوليك. وكان كلام صديقي المطران في المؤتمر غامضًا بعض الشيء، فأردتُ أن أفسح له المجال لمزيدٍ من الإيضاح كي يستفيد الحاضرون من كلامه، فناقشتُه في بعض النقاط وتركتُ له المجال للإفصاح فقال في ردوده كلامًا غريبًا، منه قوله إن الأقباط هم (الموحِّدون) وإن نسطور وأتباع الكنيسة النسطورية مشركون بالله! وقد صخبت بعض الصحف عليه في حينها، فتولَّى الرد عليها وصحَّح للناس ما سمعوه منه. وهذه كلها من الأمور التي تنشأ مع الحوار الحقيقي بين أصحاب الرؤى المختلفة، سعيًا للتفاهم والتعايش بين البشر على اختلاف الدين والمذاهب والمعتقدات.

وامتدت جسورُ الحوار مع صديقي المطران، مثلما كانت وما تزال ممتدةً حتى الآن مع غيره من المطارنة والأساقفة والكهنة والرهبان، سواء من الكنيسة المرقسية التي ينتمي إليها أو من الكنائس الأخرى المخالفة لها والمختلفة معها، مثلما تمتد جسور الحوار بيني وبين الإسلاميين التقليديين وغير التقليديين، ومع اليساريين والعلمانيين، ومع العلماء والمتعلمين والجهال والمتعالمين. لأنني أؤمن بأنه ليس من حق أحدٍ مصادرة فكر الآخرين، وليس من الصواب أن يعتقد شخصٌ أن الجميع مخطئون، وهو وحده على صواب.

ومع أنه لم يحدث قَطُّ، أن كتبتُ في حياتي مقالةً عن شخص من المعاصرين (بل ولا صفحةً واحدة) مع أن مجموع صفحاتي المنشورة كتبًا ودراسات ومقالات، يزيد مجموعها على خمسة وعشرين ألف صفحة. إلا أنني كتبتُ هذه المقالة الوحيدة من نوعها، التي نُشرت بجريدة الوفد ضمن سلسلة «كلمات» وكان نشرها يوم الثلاثاء ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٧ بعنوان (بيشوي) ولسوف أُورد فيما يلي نصها، على النحو المنشور به في حينه، من دون أي تعديل. ليرى القارئ عمق تلك المحبة التي جمعت

بيني وبين المطران، الذي سأرد لاحقًا على ردوده، وأصحِّح له ما يعتقده من توهُّمات.. وهذا نصُّ المقالة:

بيشوي

هذه الكلمة غير عربية، وإنما (قبطية) الأصل أي مصرية، إذ إن (مصر) كانت تُعرف قديمًا باسم جبت (قبط) وهو الاسم الذي اشتُقت منه أسماؤها الغربية التي أشهرها (إجبت Egypt) الإنجليزية، ويقترب منها اسمها في سائر اللغات الأوروبية.. وفي اللغة القبطية أو المصرية القديمة، تعني كلمة بيشوي (العالي، السامي) وهي في الأصل صفة أو لقب، ما لبث أن اختاره كثيرٌ من الرهبان المصريين (الأقباط) اسمًا كنسيًّا لهم، بحسب ما جرت عليه تقاليد الرهبنة، من تغيير اسم الشخص عند انتظامه في سِلك الرهبنة والديرية. وأشهر من يحمل هذا الاسم الكنسي اليوم، هو الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ، رئيس دير القديسة دميانة للراهبات، ووكيل المجمع المقدس للكنيسة المصرية (المرقسية) المعروفة بكنيسة الأقباط. وهذا الأسبوع يحتفلون بمرور خمسٍ وثلاثين سنةً على (رسامة) الأنبا بيشوي، أي اختياره أسقفًا، وهي رتبة كنسية عالية توافق اسمه، اختير لها لما عُرف عنه من سيرة قويمة منذ كان راهبًا في دير السريان بمنطقة وادي النطرون. ولأنني أقضي هذا الأسبوع في مدينة فرايبورج الألمانية، للمشاركة في المؤتمر الدولي الكبير للاستشراق، حيث أُلقي بحثي أمام (ألف) متخصِّص في الدراسات الاستشراقية، فقد حالَ ذلك دون مشاركتي بالاحتفال المقام في ذكرى رسامة الأسقف بيشوي، الذي تجمعني به محبةٌ عميقة وتقديرٌ كبير.

سمعتُ بالأنبا بيشوي من قبل أن ألتقي به بسنوات، وكانت صورته عندي مستقاة مما يُقال عنه من أنه أحد أبرز رجال الكنيسة المصرية المعاصرين، وأكثرهم تُقىً وتمسكًا بالتقاليد الموروثة لكنيسة الإسكندرية، الكنيسة المصرية، الكنيسة المرقسية (كلها تسميات لمسمًّى واحد) وهي تقاليد تم إرساؤها منذ القرن الثاني الميلادي، عبر جهود هائلة وتضحيات لا محدودة من آباء الكنيسة المبكرين الذين ارتقوا إلى مرتبة القدِّيسين والشهداء، منذ زمن الاضطهاد الروماني للمسيحية. ومعروفٌ عن كبار رجال الكنيسة

القبطية المعاصرين، أنهم لا يحبون (مراجعة) التاريخ الكَنَسِي أو الاقتراب من وقائعه القديمة. وقد تأكد ذلك عندي، في أول لقاء جمعني مع قداسة الأنبا بيشوي، حيث انهمكنا ثلاثَ ساعاتٍ كاملة، في مناقشة الخلاف القديم بين الكنيسة المرقسية التي ينتمي إليها ويُعد أحد أقطابها الكبار، والكنيسة الآشورية (الكلدانية) التي تسير على خطى نسطور أسقف القسطنطينية المعزول عن رتبته سنة ٤٣١ ميلادية، بعد خلافه اللاهوتي مع أسقف الإسكندرية آنذاك: كيرلُّس، عمود الدين.

غير أنني كنت أُلقي محاضرة للراهبات في دير القديسة دميانة منذ قرابة شهرين، تلبيةً لدعوة الأنبا بيشوي وبحضوره، فتطرق الكلامُ بنا إلى (العنف) المرتبط بتاريخ الديانات، مع أن المحاضرة كان موضوعها: الرهبنة والتصوف! فذكرت في أثناء كلامي للراهبات (الأخوات، الأمهات) أن العنف لا يرتبط بجوهر الديانة، بقدر ما يرتبط بالظروف التاريخية لأهلها وبالتوجيه المغرض للنصوص الدينية، وإلا فإن المسيحية (ديانة المحبة) عرفت وقائع مريعة، منها ما فعله الإسكندرانيون سنة ٣٦١ ميلادية من قتل أسقف المدينة المفروض عليهم من روما (جورجيوس الكبادوكي) وتمزيقه في الشارع إلى قطع من اللحم والعظم.. وارتجفت بواطن الراهبات، وعلَّق الأسقف الجليل (الأنبا بيشوي) على ذلك بقوله: «إن كان ذلك قد حدث، فهو خطأ!» وكانت تلك بالنسبة لي، هي المرة الأولى التي أجد عند أسقف مرموق، القدرة على النظر إلى تاريخ كنيسته باعتباره تاريخًا إنسانيًّا يحتمل الصواب والخطأ، وليس تاريخًا مقدسًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولولا الروح اليسوعي (العيسوي) المرفرف في قلب الأنبا بيشوي، ما كان بإمكانه أن يعيد النظر في واقعة مثل تلك، ويرى أنها «إن حدثت فهي خطأ» من دون الدفاع التلقائي والردود الجاهزة والتأويلات المفرطة التي تقوم عند الكثيرين منا، ومنهم، على قاعدة: ليس في الإمكان أبدع مما كان.. فتأمَّل.

البيانُ من دون تبيان

بدأت الهجمةُ المريعةُ التي شنَّها مطران دمياط «الأمبا بيشوي» على رواية عزازيل وصاحبها، بعد إصدار الرواية بشهور، وصدور الطبعة الثانية منها بعد أسابيع من ظهور

طبعتها الأولى. وقد مرت هجمة المطران بمنحنيات كثيرة في الأشهر الأولى التي ظل خلالها (يجرِّب) عددًا من الاتهامات وكثيرًا من حيثيات الإدانة، سعيًا للنيل من مؤلف الرواية وأملًا في بلوغ مُناه الذي ما أظنه سيناله أبدًا، لا في هذه الحياة ولا في الآخرة (إثبات أن «عزازيل» هي أبشع كتاب عرفته المسيحية) لأن الرواية ببساطة شديدة، ليس فيها أصلًا ما يتوهمه المطران من عداءٍ للمسيحية.

وقد بدأت الحملةُ الشعواءُ ببيانٍ رسمي، نشره الموقع الرسمي للمطران على شبكة الإنترنت، تحت عنوان (بيان حول رواية عزازيل للدكتور يوسف زيدان) وبالطبع فوجئ مؤلف الرواية بالبيان، لأنه كان يظن أن رابطًا من المحبة والصداقة يجمعه مع المطران. ثم فوجئ بأن المطران يرسل له البيان، على الفاكس. ثم فوجئ في اليوم التالي بأن البيان، الذي جاء كما سنرى من غير تبيان، منشور فيما لا حصر له من جرائد ومواقع إلكترونية.. غير أن تلك المفاجآت لم تروِّع مؤلف الرواية، لأنه عرف منذ اللحظة الأولى أن سهم المطران طاش، وأنه لن يبلغ يومًا مرماه ولن يصل إلى مبتغاه، بل رأى أن (عنوان) البيان ذاته، خانه التوفيق ودقة التعبير؛ لأنه بحسب ما يقول المطران: حول رواية عزازيل! هو إذن ليس (عن) الرواية، وليس (في) الرواية، وليس (بصدد) الرواية أو بشأنها. وإنما هو بيان (حولها) أي إنه في حقيقة الأمر، يدور ويلف (حول) الرواية ولا يقترب منها. فلا حول ولا قوة إلا بالله!

يبدأ البيان بقول المطران: «لم نكن نتوقع من صديقنا سابقًا، الدكتور يوسف زيدان رئيس قسم المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، أن يهاجم القديس كيرلُّس».. هذا كلامه، وهو دالٌّ بوضوح على أننا لم نعد أصدقاء، وهو ما نبَّهني بطريقة غير مباشرة إلى حقيقة أننا لم نكن يومًا أصدقاء، حسبما ظننتُ سابقًا.

والبيانُ يتكلم فيه المطران بصيغة الجمع، مستعملًا تعبيراتٍ من مثل «لم نكن نتوقع.. صديقنا سابقًا.. وسوف نرد.. إلخ» فهل تراه يقصد أن يتكلَّم عن مفردٍ بصيغة الجمع، لتعظيم نفسه؟ لا أظن، فقد دعاه السيد المسيح إلى التواضع مثلما يدعونا الإسلام إلى التواضع أيضًا. أو لعله يشير بذلك إلى أن مؤلف الرواية سوف يقف في

(المعركة القادمة) وحده، بينما المطران يستند إلى مؤسسة كامنة يتحدث باسمها، وبذلك يقع الرعب في قلب مؤلف الرواية.. لكن المطران لا يدرك أن المؤلِّف يستند إلى خلفيةٍ صوفيةٍ تجعله لا يفزع من تلك التهاويل، ولا يرتجف مع رجفة المرجفين؛ لأن أهل الأرض جميعًا لو اجتمعوا فلن يؤذوه بشيء، ولن ينفعوه بشيء، إلا بما كتبه الله عليه.

والمطرانُ يلمِّح في بيانه إلى وظيفة المؤلِّف في مكتبة الإسكندرية، مستعديًا عليه، ظنًّا من المطران بأنه سوف ينال من المؤلف من هذا الطريق. وهو ما يظهر جليًّا بعد سطور قليلة من بيانه الذي جاء خاليًا من التبيان، ثم يتجلَّى ثانيةً، في كثير من «حواراته» الصحفية المنشورة (حول) عزازيل، حيث يتأكَّد نزوع المطران إلى تهييج مكتبة الإسكندرية على مؤلِّف عزازيل، ومن بعد ذلك يستعدي الحكومة المصرية ملوحًا إليها بخطر عظيم، هو أن رواية عزازيل سوف تُحدث فتنة بين المسلمين والمسيحيين! ولو على المدى البعيد! بحسب كلامه. ثم يستعدي لجنة التحكيم في جائزة البوكر، ويدعوها لمراعاة شعور الأقباط! كي يضمن عدم حصول الرواية على هذه الجائزة.. ثم نراه يستعدي النقاد والكتاب، مثلما فعل الشهر الماضي مع الأستاذ بهاء جاهين الذي كتب مقالة بديعة عن الرواية في الأهرام، فأرسل له المطران ردًّا فيه تهويل وتخويف وإفزاع، فتراجع بهاء جاهين عن مقاله واعتذر عنه! مؤثرًا السلامة ومؤكِّدًا أنه «لم يقصد».. ثم يستعدي المطران في (حواراته) علماء الإسلام ويهيِّجهم ضد مؤلِّف الرواية، لأنها حسبما يزعم المطران تريد أن تهدم كل الأديان! وكأنه حريص على الديانة الإسلامية.. وأخيرًا، يستعدي المطران دار النشر (الشروق) التي أصدرت الرواية! ففي حواره المنشور في جريدة المصري اليوم (١٨/ ٧/ ٢٠٠٩) يرد على السؤال: هل حزنتم لحصول الدكتور زيدان على جائزة البوكر العربية عن الرواية ذاتها؟ بقوله: «بالتأكيد، ولكننا حزنًّا أكثر على مَنْ رشَّحه لهذه الجائزة، لأنهم أثبتوا عدم غيرتهم على الكنيسة المصرية الوطنية».. قاصدًا بذلك الإشارة إلى أن جائزة البوكر (الجائزة العالمية للرواية العربية) لا يتقدم إليها المؤلِّفون، وإنما تقوم دور النشر بترشيح الأعمال التي تراها تستحق الجائزة.

لكن محاولات المطران هذه كلها لم تفلح، ولم يجد معينًا له في الحرب الوهمية التي يتخيل أنه بطلها، وذلك لأن مكتبة الإسكندرية منارة لكل الاتجاهات الفكرية ولن تقمع أحد مؤسسيها لإرضاء المطران، والحكومة المصرية تُدرك أن الفتن الطائفية لا تأتي من الروايات وإنما من ظالمي القلوب ومظلمي العقول، فضلًا عن أن (عزازيل) أضافت للرصيد الأدبي لهذا البلد جائزةً دوليةً جديدة، في زمن يقول فيه كثيرون إن مكانة مصر الثقافية تتراجع. ولجنة تحكيم البوكر لم يكن يشغلها إلا المستوى الأدبي للأعمال المرشَّحة، ومن ثم لم تلتفت إلى كلام المطران ومنحت الجائزة لعزازيل بإجماع لجنة التحكيم. والنقاد والكتاب لم يلتفتوا إلى ما فعله المطران مع بهاء جاهين، وما زالت أقلامهم تفيض بالكتابات النقدية عن الرواية حتى بلغ مجموع ما كُتب عن (عزازيل) حتى الآن، قرابة ألفي صفحة[١]. والعلماء المسلمون يعرفون أن المطران ليس غيورًا على الإسلام، بل هو لا يعترف به أصلًا، ولذلك لم يصدقوا تنبيهاته إلى «خطر» الرواية على الإسلام وعلى كل الديانات. والناشر لن ترعبه تخويفات المطران لأن الرواية ليس فيها ما يعادي المسيحية في واقع الأمر، بينما حققت في مدة صدورها القصيرة نسبيًا، أعلى توزيع في تاريخ الأدب العربي، فصدر منها في أربعة عشر شهرًا أربع عشرة طبعة (الطبعة لا تقل عن خمسة آلاف نسخة) وتم تحميل ما يقرب من مائة ألف نسخة إلكترونية منها عبر الإنترنت، فضلًا عن إضافة (عزازيل) لرصيد الناشر جائزةً دولية هي البوكر العربية[٢].

وعلى هذا النحو، خاب مسعى المطران في إيجاد شريك له في الحرب الوهمية التي يشنُّها ضد الرواية، ولم يستطع تكوين «فريق الأعداء» الذي كان يحلم بأنهم سوف يحقِّقون له مراده، نيابةً عنه. وعلى كل حال، فإنني أميل لمسامحة المطران وأرجو أن يأتي يوم، يسامح فيه المطران نفسه على المضيِّ قُدُمًا في هذا الطريق الذي لا أرضاه

(١) بالإضافة إلى ذلك، صدرت سبعة كتب ورقية وإلكترونية، عن رواية عزازيل (معها أو ضدها).

(٢) بلغت طبعات «عزازيل» قرابة الثلاثين، مع عشرين طبعة مزوَّرة، وأكثر من مليون عملية تحميل من مواقع الإنترنت.. هذا في اللغة العربية وحدها، وهناك ترجمات لها في أكثر من سبع عشرة لغة (منها الترجمة الإيطالية التي صدرت منها عدة طبعات في عام واحد).

له، نظرًا لمكانته الروحية المتميزة التي كانت تقتضي أن ينأى بنفسه عن سلوك مثل تلك الطرق غير الخليقة بأمثاله.

ثم يقول بيان المطران، إن المؤلف: «يهاجم القديس كيرلُّس عمود الدين، بطريرك الإسكندرية الرابع والعشرين، بمثل هذا العنف، في روايته العجيبة عزازيل، التي حاول أن يأخذ فيها منحى دان براون في روايته شفرة دافنشي».. هذا كلامه، وهو دال على أنه يربط بين روايتين لا أظن أنه قرأهما قطُّ، أو هو على الأقل لم يقرأهما قراءة صحيحة. صحيح أن الروايتين تمسّان التاريخ المسيحي، وتتماسان معه، لكن رواية دان براون في النهاية عملٌ بوليسيٌّ مشوقٌ، وعزازيل عمل فلسفي مُشقٍ! الأولى مغامرات والأخرى قلقٌ وحيرة، الأولى فيلمٌ سينمائيٌّ ينتهي بفوز البطل بالبطلة، والأخرى حنينٌ وجوديٌّ للحقيقة للإنسانية ضد العنف المتوسِّل بسلطة الدين. شفرة دافنشي تنطلق من فكرة لم تثبت تاريخيًّا عن زواج عيسى عليه السلام بمريم المجدلية وإنجابه ذرية منها، بينما عزازيل تستند إلى وقائع تاريخية فعلية وحقائق لا يمكن إنكارها، وليس فيها خطأ تاريخي.

ثم يقول المطران في بيانه: «وسوف نردُّ بمشيئة الربِّ على كل ما نوى به د.يوسف زيدان تدمير العقيدة المسيحية الأصيلة».. وهذا بالطبع من عجيب الكلام. فمن أين أتى المطران بأن أحدًا يريد تدمير العقيدة المسيحية الأصيلة؟ فضلًا عن عدم توفيقه في صياغة العبارة (ما نوى به تدمير!) ومن أين أتى المطران بأن رواية ما، من شأنها تدمير عقيدة ؟ وما الذي يقصده المطران بالعقيدة المسيحية الأصيلة؟ هل هي عقيدة أهل خلقيدونية وكنيسة الروم الأرثوذكس، أم عقيدة اليعاقبة الذين ينتمي المطران إليهم، أم عقيدة النساطرة الذين قدموا خلال قرون طوال خدمات جليلة للإنسانية بسبب اشتغالهم بالعلوم وترجمتهم للنصوص العلمية من اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية في الزمن العباسي المبكر.. أم تراه يقصد عقيدة الفاتيكان وهؤلاء الكاثوليك الذين يرى المطران أنهم كفار؟ أم يقصد عقيدة الإنجيليين الذين قال المطران عنهم إن عليهم هجر كنيستهم والمعمودية من جديد في كنيسته هو، وإلا صاروا جميعا «أولاد زنا» لأن زواجهم الحالي غير شرعي من وجهة النظر المسيحية. وهكذا صار

ما يقرب من سبعمائة ألف مسيحي مصري، عند المطران، أولاد حرام.. حرام عليك يا نيافة المطران! وإذا كانت هذه هي نظرتك لزواج مسيحيين مثلك هم أخوةٌ لك في الدين، لأنهم اختلفوا معك في العقيدة؛ فكيف ترى قياسًا على ذلك، زواج المسلمين المختلفين معك في الدين والعقيدة معًا؟

لماذا ربط المطران بين عزازيل وشفرة دافنشي؟ لأنه سبق له أن كتب كتابًا بالإنجليزية للردِّ على دان براون، وينوي أن يردّ بكتابٍ آخر على رواية عزازيل.. إذن، هو متخصِّصٌ في الردِّ على الروايات التي تشتهر! ومع ذلك، فإنه لم يدرس النقد الأدبي ولا يقرأ أيَّ رواية بشكلٍ كامل، كما سوف يصرِّح بنفسه، مبرِّرًا ذلك بأن هناك عشرات الصفحات لا يستطيع أن يقرأها، لأنها تشتمل على مشاهد عشق لا يقدر على قراءتها، ولا يجوز له ذلك. ولكنه من ناحية أخرى، يرى من الواجب عليه أن يرد على الروايات التي تروج، بكتبٍ ليس فيها صفحة «نقد» واحدة مستغلًا جهل الكثيرين بالفارق بين النقد والنقض.

ثم يقول المطران في بيانه الرسمي، ما نصُّه: «ونتعجب من تدخُّله (يقصد مؤلف رواية عزازيل) السافر، بهذه الصورة، في أمور داخلية تخص العقيدة المسيحية.. إلخ»، فكيف يظن المطران أن ما عرضت له الرواية، هو شأنٌ داخلي؟ هل تاريخ مصر في القرن الخامس الميلادي شأنٌ داخلي؟ وهل مقتل هيباتيا التي أظلم من بعدها تاريخ العلم الإنساني لخمسة قرون كاملة، شأنٌ داخلي؟ وهل صراع الكنائس الذي زلزل العالم وأشقى الناس في أنحاء الأرض، وأدى إلى مقتل عشرين ألف قبطي في ميدان محطة الرمل بالإسكندرية (بوكاليا) على يد الحاكم المسيحي المسمَّى المقوقس، هو شأنٌ داخلي؟ وهل البحث عن الحقيقة شأن داخلي؟ وهل الشأنُ الداخلي، عمومًا، هو حقًا شأنٌ داخلي؟

ثم يقع البيانُ الرسمي للمطران في خطأ فادح حين يظن أن الرواية، حسبما يقول: «تتخذ من أحد المخطوطات السريانية سندًا.. ولدينا من المخطوطات أيضًا ما يُسقط الدعاوى الواردة في هذه الرواية» هذا كلامه الأعجب. ولو كان قد ترفَّق أو سأل أو استفسر أو استشار، لعرف أنه لا توجد مخطوطات كي يرد عليها بمخطوطات.

ثم يزيد البيان من طين الخطأ بلةً، حين يقول ما نصه: «من المعروف أن هيبا أسقف الرها في المشرق الأنطاكي، لم يكن راهبًا من صعيد مصر كما تصوِّره الرواية».. هذا كلامه الدال على أنه لم يقرأ الرواية أصلًا، وإلا لعرف أن البطل اختار لنفسه اسم «هيبا» في لحظة درامية، لأنه النصف الأول من شهيدة العلم والمعرفة «هيباتيا» ولا توجد أي صلة بينه وبين أسقف الرها الذي عاش بعد أحداث الرواية بنصف قرن، واسمه: إيباس، هيباس، إيبا (والبعض يكتبه هيبا) ولا توجد أي علاقة يا نيافة المطران، بينه وبين بطل الرواية، فلا تتسرَّع بالحكم فتقع في الخطأ وتتوهَّم أن هناك أخطاء، وتتوهم أنك سوف «تُسقط الدعاوى الواردة في رواية عزازيل» لأن الرواية لا يوجد فيها أي دعاوى.

وينتهي البيان بقول المطران: «ولدينا ما يثبت براءة البابا كيرلُّس أيضًا في مسألة الفيلسوفة الوثنية هيباتيا. وإن غدًا لناظره قريب».. هذا كلامه المتوعِّدُ الناريُّ الذي مضت الشهور طوالًا ولم يقدم المطران شيئًا، حتى في كتابه الذي أصدره بعد طول تبشيرٍ به، ولسوف نرى فيما يأتي أن الكتاب المزعوم في حقيقة أمره، ليس كتابه! لكن الأعجب، هو صيغة التهديد هذه التي استعملها بقوله (وإن غدًا لناظره قريب) فهل صار المطران يستعمل القاموس العربي الإسلامي، أم أنه لا يعرف أصلًا أن هذه العبارة من التعبيرات التي استعملها العرب قبل الإسلام وبعده، فصارت واحدةً من التعبيرات الشهيرة عند المسلمين.. لا بأس.. سوف نتقبل كل ذلك من المطران بنفسٍ سمحةٍ راضية، تغفر له كل ما يقصده وما لا يقصده من أخطاء وتوهمات، ولننظر فيما يلي، في فحوى ذلك الكتاب الطريف ومضمونه، الذي نشره المطران مع مطلع العام ٢٠١٠ تحت عنوان: عزازيل، الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان.

بؤسُ العنوان

متعجِّلًا، نشر الأنبا بيشوي بيانه المسمَّى «الرسمي» ضد رواية عزازيل، فجاء بيانُه الذي صدر من دون تبيانٍ حافلًا بالتوهُّمات وسوء الفهم، ومليئًا بالأخطاء. ولو كان المطران قد اكتفى بذلك، لصار أمره أهون وأسهل عند استدراك الخطأ وتصحيح الشَّطَط، بيدَ أنه بعدها راح يتوعَّدني ويكرِّر وعيده في الصحف المصرية والعربية،

منذرًا بأنه بصدد تأليف كتاب للردِّ على عزازيل ومؤلفها، لأن عزازيل حسبما أكَّد المطرانُ مرارًا، هي «أبشع كتاب عرفته المسيحية» ومؤلِّفها حسبما يتوهَّم ويُوهم الناس «ينشر الأضاليل ليس عن جهل ولكن عن معرفة، وذلك لتشبثه بالرغبة في الطعن في العقيدة المسيحية».. هذا كلامه الذي يجب أن نصحِّحه له، قبل مناقشة كتابه الذي صدر بعد قرابة عشرة شهور من التهديد الدائم والوعيد المستمر، وهو الكتاب الذي تجلَّى بؤسُه مع عنوانه.

وبدايةً، ولتصحيح أوهام المطران عن الرواية نسأله: كيف تكون عزازيل هي الكتاب الأبشع في تاريخ المسيحية.. كيف يا نيافة الأمبا؟ ألا تعرف أن تاريخ المسيحية حافلٌ بما لا حصر له من كتبٍ ضخمة ومؤلَّفاتٍ كبار، كانت تهاجم هذه الديانة منذ ابتدأ ظهورها، خصوصًا في زمنها الأول الذي لم تكن قد اتخذت فيه شكلها الحالي. وهي كتبٌ مشهورةٌ يمكن لأي شخص معرفة قائمتها الطويلة بسؤال أحد المتخصصين، أو حتى بالبحث في شبكة الإنترنت، وعلى هذه الكتب ردودٌ كثيرةٌ كتبها الآباءُ الأوائلُ للكنيسة، والآباءُ المتأخرون أيضًا. ولذلك، كثيرًا ما نجد في التراث المسيحي واعترافات الآباء (أي كتب العقيدة) مؤلَّفات عنوانها: الرد على الوثنيين.. الردّ على الهراطقة.. الردّ على الفلاسفة.. إلخ.

وقد اندهش دارسو التراث المسيحي من قول المطران إن عزازيل هي الأبشع، لأنهم يعرفون تاريخ الجدل الكنسي ومتأكدون من امتلائه بنصوص الهجوم على الديانة، وذلك لأنهم يدرسون فيعلمون. ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. ومن هنا، لا أرى من الجائز عقلًا أن نتوقف طويلًا عند هذا الوصف المجاني «الأبشع» للرواية، أملًا في أن يبادر أحد المقربين من المطران، ممن درسوا تاريخ المسيحية، فيصوِّب له معلوماته ويُخرجه من توهُّماته.

وأما ما يتوهمه المطران من عدائي للمسيحية، فسوف أورد له فيما يلي بعضًا من الوقائع التي لا سبيل أمامه لإنكارها، وهي تدلُّ بوضوح على أنني بعيدٌ تمامًا عن تلك الدواهي التي يتوهَّمها المطرانُ ويكررها كل يوم في الصحف. علمًا بأنني لم أكن أُحب أن أذكر ذلك، لولا حرصي على تصحيح أوهام المطران المؤرِّقة له. وفي ذلك أقولُ:

حين هجَمَتْ الفتن الطائفية على المجتمع المصري وهدَّدت وحدته، كنت واحدًا من المجموعة الصغيرة التي شكَّلت (اللجنة المصرية للوحدة الوطنية) وهي اللجنة التي تكوَّنت في بداية التسعينيات في الإسكندرية، كجهةٍ غير حكومية تسعى لإرساء سبل التعايش بين المسلمين والمسيحيين. وكان معي آنذاك مجموعة مختارة من مثقفي الإسكندرية، منهم: محمد رفيق خليل، أبو العز الحريري، كميل صديق، هشام صادق، أسامة أنور عكاشة، وليم فلتاؤس.. وغيرهم، وكانت بعضُ اجتماعات هذه اللجنة (الوطنية) تتم في منـزلي، وكانت نفقات أنشطتها تغطى من تبرعات أعضائها. وقد كان لهذه اللجنة دور ملموس في طرد شبح الفتنة عبر فعالياتٍ كثيرةٍ على أرض الواقع، لم نكن نعلن عنها في «وسائل الإعلام» إيمانًا منا بأننا نقوم بواجبنا تجاه هذا البلد، ولا يجوز لنا أن نطنطن بما نفعل. وقد قلَّدتْ القاهرةُ الإسكندرية، وتكوَّنت بعد قرابة عامين (لجنة وحدة وطنية) بالقاهرة، للأهداف ذاتها التي كانت لجنة الإسكندرية ترنو إليها. وظلت اللجنتان تعملان معًا لعدة سنوات، حتى هدأ الحال نسبيًّا[1].

والمطرانُ يعرف «جيدًّا» أنني منذ عدة سنوات، أحرص على حفظ التراث المسيحي المخطوط، وأجتهد في الحصول على نسخٍ مصوَّرة من مخطوطاته، وأزوِّد به مكتبة الإسكندرية التي اجتمعت فيها اليوم أكبر مجموعة من المخطوطات المسيحية المصوَّرة، لتكون في خدمة الباحثين. وهذا جهدٌ، جهيد. والمطرانُ يعرف «جيدًا» أنني فتَّشتُ طويلًا عن أقدم إنجيل عربي، حتى اكتشفته. وقد وجدته منسيًّا في دير سانت كاترين (وهو بالمناسبة، دير غير قبطي) فنشرته إلكترونيًّا ليتاح للناس، بسعر التكلفة الزهيد، وقد أصدرته ضمن مجموعة نادرة من المخطوطات المسيحية العربية، عن مكتبة الإسكندرية. وفي المكتبة استضفتُ البابا شنودة مرتين، مثلما استضفت غيره من رموز الكنائس الأخرى. والمطران يعرف «جيدًا» أنني شاركت البابا شنودة في ندوةٍ حاشدة تحدثتُ فيها يومها عن «الإسهام المسيحي في التراث العربي» وتحدث

---

(١) لم نكن آنذاك قد أدركنا الحقيقة المفجعة التي أعلنتُها لاحقًا، مرارًا، بعبارة موجزة: الفتنة الطائفية صناعة حكومية.

البابا عن «تاريخ الكنيسة القبطية في مصر» وكان عدد الحاضرين للندوة يقترب من ألفيْ شخص.. فكيف يستقيم ذلك مع عدائي المتوهَّم للمسيحية؟

والمطرانُ يعرف «جيدًا» أن عددًا من المسيحيين، أقباطًا وغير أقباط، يعملون تحت إدارتي منذ سنين طوال، ولم يحدث يومًا أنهم شعروا بأنني أفرِّق بين مسلم ومسيحي. بل الأكثر من ذلك، أنني حرصتُ على إلحاق عدد منهم بالكلية الإكليريكية، ليدرسوا التراث المسيحي دراسةً نظامية، وطلبتُ من المطران أيامها أن يُساعد في إلحاقهم بهذه الكلية، ففعل.. والمطرانُ يعرف «جيدًا» أنني لأعوامٍ طوالٍ تربطني أواصرُ المحبة مع الآباء القاطنين في الأديرة، ولا تزال هناك صداقاتٌ عميقةٌ تجمعني بهم. وقد قدَّمت لهم كثيرًا من الخدمات والاستشارات المجانية، من أجل الحفاظ على التراث المخطوط المحفوظ في تلك الأديرة.

والمطران يعرف «جيدًا» أنني سعيتُ طويلًا وبذلتُ جهدي لإنقاذ المخطوطات المسيحية المحفوظة بالمتحف القبطي بالقاهرة، التابع لهيئة الآثار، واجتهدتُ للقيام بعملية ترميمٍ كاملٍ لها في مكتبة الإسكندرية، دون أي تكلفة مالية على المتحف. مع أن الترميم باهظُ التكلفة، حسبما يعلم المطران أو لا يعلم، وقد وافق «زاهي حواس» رئيسُ الهيئة على ذلك، وهناك مكاتباتٌ رسميةٌ في هذا الصدد. ثم اجتهدتُ حتى دبَّرتُ الميزانية اللازمة لإتمام هذه الخطوة، دون أن أكلِّف المتحف القبطي أو مكتبة الإسكندرية أي متطلبات مالية. لكن المطران يعلم كيف قامت العراقيل المصطنعة، لتحول دون إتمام هذه الخطوة، ويعلم كثيرون من المتصلين بالأمر أنني صبرتُ طويلًا على سخافات القائمين على هذه المخطوطات بالمتحف القبطي، حتى يئستُ من إصلاح الحال بعد طول محاولة. وها هي المخطوطات المسماة (القبطية) تأكلها العتة والأَرَضة، وتعصف بها ظروف الحفظ السيئة، حتى اليوم، وكان الواجب على المطران أن يعاونني لإتمام هذه الخطوة النافعة للمخطوطات القبطية والمسيحية (المصرية) المحفوظة حاليًا بشكل رديء في المتحف القبطي، لا سيما أنه واحدٌ من أعضاء مجلس إدارته. بدلًا من ذلك الضجيج والصخب الذي لا داعي له، ونَشْر التوهُّمات على الناس

من دون ضابط، اعتقادًا من المطران بأنه في «مواجهة تاريخية» مع رواية عزازيل، وهي الرواية التي اعترف في كتابه بأنه لم يقرأها كاملة!..ويا ليتك أيها المطران المبجَّل، استطعت مواجهة الرواية، بل بالعكس من ذلك، أراك قد أسهمت في رواجها وانتشارها ثم أظهرت بكتابك الذي أصدرته أنك أبعد ما يكون عن التصدِّي (الوهمي) للرواية.. ولماذا تقول للناس علانيةً، وبثقةٍ كاملة، إنني أكره المسيحية وأسعى لتدميرها ولديَّ أغراض ضدها؟ أم تراك تفرح بصورك التي صارت كل يوم تنشر في الصحف المصرية، وكأنك صرت فجأة نجمًا وشهابًا لامعًا، لأنك (المتصدِّي) لعزازيل.. يا نيافة المطران، لا بد أن تعي أن هؤلاء الذين يفسحون لك المساحات في الصحف، من خلف ستار، هم أدباءٌ غاظهم نجاح الرواية فاستخدموك لمهاجمتها، ليبقوا هم في الظل والأمان وتبلِّغهم أنت مرادهم. وعلى كل حالٍ، فإنني تقديرًا لك، لن أنشغل هنا بالرد على كلامك (الصحفي) وسوف أقوم فيما يلي بتصحيح أوهامك وتصويب أخطائك، في كتابك العجيب. وأبدأ ذلك بالكلام عن صفحة الغلاف، فقط، ثم أناقشك بهدوء في محتويات الكتاب، لاحقًا.

من المضحكات المبكيات أن الكتاب الذي (يردُّ) به الأمبا بيشوي، هو ثالث كتاب (قبطي) يصدر للردِّ على عزازيل[1]. كان أول هذه الكتب، روايةً بائسة كتبها مخبولٌ يسمى نفسه باسم مستعار هو «الأب يوتا» ويسمِّى روايته بعنوان أكثر بؤسًا من صاحبها، هو «تيس عزازيل في مكة» وقد أراد، وهو المسكين، أن يهدم الدين الإسلامي كله، بهذه الرواية الهزلية التي لا يمكن أن توصف إلا بالعَبَط، وقد رفضها الأقباط من قبل أن يتقزَّز منها المسلمون. ثم جاء الكتاب الثاني للقمص عبد المسيح بسيط، بعنوان «عزازيل هل هي جهل بالتاريخ أم تزوير للتاريخ» ثم عدَّل القُمُّص العنوان، بأن حذف منه (هل هي) ولما قرأتُ هذا الكتاب، وجدته نصًّا كوميديًّا لا يستوجب إلا الضحك، وقد رد عليه بعض الأقباط قبل أن يهمله الجميع، ويصير نسيًا منسيًّا بعد ثلاثة أشهر من صدوره، كأنه لم يصدر أصلًا.

(١) صدرت بعد ذلك كتب (قبطية) أخرى للرد على رواية عزازيل، منها كتابٌ كوميدي طريف بعنوان: شفرة زيدان.. وكتابٌ آخر للدكتور نبيل لوقا بباوي، سعى لإنصاف الرواية والرد على مهاجميها.

ومن بعد هذين الكتابين أتانا كتابُ المطران بيشوي يختال ضاحكًا، فوجدتُ فيه العجب العجاب ابتداءً من صفحة الغلاف التي تقلِّد غلاف الرواية التي يردُّ عليها، بوضع مخطوطةٍ في المكان ذاته، الذي فيه على غلاف الرواية مخطوطة! ولكننا سنعرف بعد قليل، أن البون شاسع بين المخطوطتين. ولكن أولًا، دعونا ننظر في العنوان البائس الذي اختاره الأمبا، وهو «عزازيل، الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان» وكأن المطران يسعى لاقتحام اللغة التراثية التي أنتمي إليها، ردًّا على ما يعتقده من أنني اقتحمت العالم اللاهوتي الذي ينتمي إليه. وهذا وَهْمٌ مركَّب قاد المطران إلى استخدام هذا العنوان المسجوع، الركيك، الذي لم يتنبه فيه إلى أن (البهتان) لا يصحُّ الرد عليه، وكان الأصوب إذا أراد هذا المعنى، أن يقول في عنوانه تعبيرًا من مثل: «كشف البهتان.. إظهار البهتان.. بيان البهتان.. إلخ» لأن الردَّ على البهتان بهتانٌ (أي كذب كبير) وكان يجب على المطران أن يستعمل عنوان الرواية، في صلب عنوان كتابه الذي يرد عليها، فيقول مثلًا: «بيان البهتان في رواية عزازيل ليوسف زيدان.. هتك أسرار البهتان، المتوارية في عزازيل يوسف زيدان.. فضح خفايا البهتان، المخبوءة في عزازيل زيدان». تلك هي اللغة التي أردت يا نيافة الأمبا استعمالها، وسعيت إلى استخدام سجعها من دون أن تعرف أسرارها وقواعدها ودلالات ألفاظها. ولكن ما علينا من ذلك كله فما مرادي هنا في نهاية الأمر، إلا لفت الأنظار إلى سعي المحتار في ليل الأسرار.

والأطرفُ مما سبق، أن المطران يضع اسمه على غلاف الكتاب بجوار العنوان غير الموفَّق، كالتالي «لنيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي» وهي المرة الأولى في تاريخ الكتابة العربية، التي يمدح فيها المؤلف نفسه على غِلاف كتابه. ولو تابعه في ذلك أيُّ كاتب آخر أو أديب، لجاءت أغلفة الكتب والروايات وهي تسبق اسم مؤلفها بصفات مثل: للمبدع العبقري.. للفيلسوف الألمعي.. للكاتب الأروعِ.. للمفكر الأفظعِ.. وهكذا! لكننا سوف نرى بعد قليل، أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات (نيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي) إنما هو من تأليف مجموعة من الشباب المبتدئين الذين يختلف أسلوبهم في الكتاب، ما بين فصل وآخر.

وعلى غلاف رواية (عزازيل) في طبعاتها الثلاث عشرة[1]، صورةُ برديةٍ أصلها محفوظ اليوم بمتحف فيينا الذي يحتوي على أكبر عدد من البرديات المصرية في العالم (يضم أكثر من خمسين ألف بردية) وقد اخترتها لأنها تصور البطرك القبطي ثيؤفيلوس، وهو يدعو سنة ٣٩١ ميلادية، لهدم السيرابيون «معقل الأدب والفن والعلوم في الإسكندرية القديمة» على رءوس الشعراء والأدباء والفلاسفة، الذين كانوا يعتصمون فيه ليمنعوه من هدمه. وقد انهدم السرابيون على رءوس المعتصمين فيه، في واحدة من أفظع الحوادث في تاريخ الإنسانية، وأفجعها لأهل الزمان القديم ولكل الأزمنة التالية. وبدلًا من أن يفكر المطران في الاعتذار عن هذا الإجرام (الكنسي) في حق الإنسانية جمعاء، نجده في الكتاب المنسوب إليه يرد على هذه «البردية» التي تَوهَّم أنها مجرد مخطوطة، بأن يضع مكانها مخطوطة أخرى هي في واقع الأمر «رَقّ» مكتوب فيه أسماء الأساقفة الذين حضروا الاجتماع الكنسي المسكوني (العالمي) في بلدة نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية. ما الصلة بين هذه وتلك؟ أم أن المطران يظن أن كلها مخطوطات، وكل المخطوطات مثل كل المخطوطات، وكل شيء مثل كل شيء.. فسبحان الله الذي مجده في السماء، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة.

قلقُ المقدمات

بمقدماتٍ كثيرةٍ تعكس بقوةٍ قلقَه مما هو مقبلٌ عليه، بدأ الأمبا المطران كتابه الذي يزعم على صفحة غلافه أنه «بحث وثائقي تاريخي وعقائدي للردِّ على رواية عزازيل» ففي بدء الكتاب تتتالى ثلاثُ صور، ثم تتوالى من بعدها ثلاث مقدمات: تصدير، مقدمة، تمهيد. وكلها ممهورة بتوقيع المطران، بخط يده، كأن ذلك إثباتٌ قويٌّ ودليلٌ دامغ على أنه صاحب الكتاب (الرد) وعلى ظهر الغلاف، كتب المطران وظائفه الكنسية الكثيرة في أربعة أسطر.

(١) كان ذلك يوم نُشرت المقالة، وعند مراجعة هذا الكتاب للطبع، كانت طبعات الرواية قد توالت حتى بلغت قَدْرًا لم تصل إليه أي رواية أخرى في تاريخ الأدب العربي.

وقد ظننتُ أن المطران ابتدأ بدايةً مباركة، مُوفَّقة، حين وضع صورة المسيح في أول صفحة، وكتب تحتها ما نصه «السيد المسيح كلمة الله» وهي عبارة طيبة اعتبرتها بدايةً موفقة، لأنها تشير إلى اتفاق المسلمين والمسيحيين معًا، على أن المسيح هو روح من الله وكلمة منه تعالى. ولبيانِ أهمية هذا (الاتفاق) الذي عبَّرت عنه أولى عبارات الكتاب (الرد) لا بد من الرجوع قليلًا بالزمن إلى الوراء:

كانت الفلسفة اليونانية القديمة، بمثابة ثورة (العقل) ضد الخرافة، ومحاولة دءوب لمواجهة الأساطير التي شاعت عند اليونان، وذاعت بينهم بفضل أشعار هوميروس الملحمية الشهيرة، وهي الأشعار المتفرقة التي جُمعت في الإسكندرية القديمة، بفضل جهود أمناء المكتبة القديمة «زينودوتس، أريستوفانيس البيزنطي، أريستارخوس» الذين جمعوا هذه الأشعار معًا تحت العنوانين الشهيرين: الإلياذة، الأوديسَّة.

وقد أراد الفلاسفة في معرض انتصارهم للعقل الإنساني، أن يقدِّموا تفسيرات عقلية لأصل الوجود وتعليلات منطقية لطبيعة العلاقة بين الله والعالم، وبالطبع فالمقام يضيق هنا عن استعراض الآراء والنظريات الفلسفية التي قَدَّمها حكماءُ اليونان الكبار، ابتداءً من «طاليس» الذي قرَّر أن الماء هو أصل العالم، إلى «أرسطو» الذي قرَّر أن الوجود ينجذب إلى الإله بنوعٍ من العشق بينما الإله الذي أسماه (المحرِّك الأول) هو كيانٌ علويٌّ ساكنٌ يحرِّك الموجودات كلها من حوله، لكنه في الوقت ذاته «عاطل» لا يتحرك. كما يضيق المقام هنا، عن عرض المفاهيم والمصطلحات الفلسفية الكثيرة التي صاغها فلاسفة اليونان، ومن بينها مفهومان شهيران هما «النوس واللوجوس» باعتبارهما من المبادئ التي تفسِّر الوجود. والمفهوم الأول (النوس) هو الذي يقال له في اللغة العربية: العقل، والمفهوم الآخر (اللوجوس) يعبر عنه في العربية بكلمة: الكلمة.

وقد ذهب عديدٌ من الفلاسفة القدامى إلى القول بأن العقل (النوس) والكلمة (اللوجوس) هما المفتاحان الأصليان لوجود الكائنات كلها، والقاعدة التي يمكن من خلالها تفسير نشأة الكون كله، وارتباطه بالإله الأعلى الذي هو «الرياضي الأعظم» عند أفلاطون، و «المحرِّك الأول» عند أرسطو.. وفي العصر اليوناني المتأخر (الهيلينستي)

تم إهمال مفهوم النوس أو العقل، بسبب طغيان النزعات الروحية والاتجاهات الهرمسية، وهي اتجاهات غنوصية (عرفانية) يُنسب أصلها إلى الحكيم هرمس، وهو شخصية خيالية تقابل عند المصريين القدماء «أخنوخ» وعند المسلمين النبي إدريس. ومن هنا قلَّت العنايةُ بالمنطق في الإسكندرية القديمة وأُهمل مفهوم النوس، بسبب الانتشار الواسع للاتجاهات الغنوصية الهرمسية والنزعات الصوفية الروحية، التي تسعى للوصول للحقائق العلوية عن طريق التجرُّد من المتطلبات الحسية بقدر الطاقة.. أما مفهوم اللوجوس (الكلمة) فقد تطور على يد فلاسفة الإسكندرية في الزمن الهيللينستي، وصار مرادفًا لأصل الكون وابتداء الوجود.

وفي أول آيات «سفر التكوين» الذي هو أول أسفار التوراة (أول نصوص العهد القديم) يقول مؤلِّف التوراة أو مؤلِّفوها الذين كتبوها قبل الميلاد بخمسمائة عام، ما نصه «في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة (خاوية) وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة» وفي مبتدأ إنجيل «يوحنا» الذي هو أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة، تقول الآية الأولى «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله»، وقد عَدَّ عديدٌ من آباء الكنائس المختلفة، المتخالفة فيما بينها، أن بداية إنجيل يوحنا ليست من عمل يوحنا، وإنما هي من إملاء الروح القدس. وهو الأمر الذي يؤكِّده بوضوح العلاَّمةُ مَتَّى المسكين في شرحه الضخم لإنجيل يوحنا (في مجلَّدين) وهو الشرح الذي يؤكِّد أيضًا، ما يعتقده المسيحيون من أن يسوع «عيسى» هو كلمة الله.. ومن ناحية أخرى، وبعد عدة قرون، وصف القرآن الكريم المسيح بأنه (كلمة من الله) وورد ذلك مرتين في سورة آل عمران.

إذن، هناك اتفاق (عام) على اقتران المسيح بالكلمة، ولذلك رأيتُ أن الأمبا المطران، كان موفقًا في أولى العبارات التي وردت بأول الكتاب المنسوب إليه، لأنه بقصدٍ أو من غير قصد أشار إلى «الاتفاق» قبل الانهماك في الجدل وخوض غمار الاختلاف. ومع ذلك، فإن الصورة ذاتها التي جاءت فوق العبارة (الموفَّقة) جَانَبَها التوفيق، فقد جاء نيافة الأمبا بصورةٍ للمسيح مرسومةٍ منذ عامين (محفوظة في دير القديس دميانوس) تخالف

ما عرفه من سيرة المسيح وأخباره، وتصوّره على هيئة أباطرة بيزنطة. مع أن المسيح أكد بوضوحٍ على معنى «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله» كما أكد بقوله «مملكتي ليست من هذا العالم» حقيقة أن المؤمنين يطلبون ملكوت السماء لا الأرض. وقد عاش المسيح حياته بحسب الروايات المشهورة، خاويَ اليد من حطام الدنيا، وضاربًا أروع الأمثلة في الزهد والتقشف. ومع ذلك فهو في الصورة ذو ملامحَ أوروبيةٍ صريحةٍ، وليست يهودية مثلما يجب أن يكون. ويرتدي ثلاثة أثواب فخمة مؤطَّرة بالقَصَب وخيوط الذهب، مع أن يسوع معروفٌ عنه هجرانه لزخرف الدنيا الفانية. وألوان الأثواب الثلاثة في هذه الصورة (المفبركة) هي الأُرجوان والذهب والأحمر الملكي، وهي ألوان الزخرف الدنيوي الذي دعا السيد المسيح للابتعاد عنه! وفي اليد اليسري للشخص المصوَّر على أنه المسيح، إنجيلٌ، وفي يده اليمنى عصا ذات رأس أفعواني، وعلى رأسه تاجٌ من طابقين مملوءين بالجواهر. فهل هذا هو المسيح الذي حكت سيرته الأناجيل، أم هو الصورة المضادة تمامًا لما كان المسيح يدعو إليه؟

وفي الكتاب المنسوب للمطران نرى على الصفحة التالية مباشرةً لصورة المسيح، صورةً للبابا «شنودة» الموصوف تحت الصورة بالبابا المعظَّم، وعلى الصفحة الثالثة صورة الأمبا بيشوي وهو يضحك. ولا يجوز لنا هنا أن نسأل عن سر ابتداء الكتاب بهذه الصور، فقد تكون للتبرُّك وهذا حقٌّ للمتبرِّكين، وقد تكون لإخافة المخالفين وهذا حقٌّ للمخوِّفين.. ما علينا الآن من تلك التصاوير، ولندخل إلى الكلام المذكور بالكتاب:

في أول الكتاب فقرةٌ من رسائل الأسقف كيرلُّس عمود الدين، وهي فقرةٌ مُرعبةٌ عنيفةٌ مخيفةٌ، منها قوله: «الله يزعزع بشدة قوة أعدائه ويلاشيها(!) ويبطل خططهم.. من جهة انتقاد عديمي التقوى، ومن جهة شتيمتهم وكراهيتهم السابقة.. لأنهم قد دعوا ربنا ببعلزبول (سيد الزبالة، الشيطان) فليس جديدًا (يقصد: غريبًا عليهم) إن دعوني هكذا، وإن كانوا قد اضطهدوه هو (يقصد: الله) فكيف لا يضطهدونني أيضًا».

وهكذا يبدأ الكتاب المنسوب للأمبا، بإشارة خفية إلى المماثلة بين الماضي والحاضر، على اعتبارٍ توهُّميٍّ لافتٍ مفاده أن نيافته يمثل كيرلس عمود الدين (المتوفى

سنة ٤٤٤ ميلادية) ومؤلف عزازيل يماثل الأسقف نسطور (المتوفى سنة ٤٣١ ميلادية) الذي كان الأسقف كيرلس «عمود الدين» يعاديه. وقد أكد الأمبا المطران دلالة هذه الإشارة بقوله عقب الاقتباس: «لم أجد أعذب من كلمات القديس كيرلس الكبير هذه، لكي أستهلَّ بها كتابي هذا.. لأنه عاش أحداثًا مماثلة لما يجري في زماننا هذا من الافتراء عليه».

والغريب أن المطران الأمبا يؤكِّد أن الكتاب كتابه، لكننا سنرى بعد حين أنه مجموعةُ تهاويل واجتهادات مشوَّشة لمجموعة شباب يعملون تحت إدارة المطران ولا يعرفون كثيرًا عما يكتبون. المهم، أن المطران الأمبا بعد (التصدير) الذي كتبه في صفحةٍ واحدةٍ فقط، ووقَّع عليه بيده، يكتب (مقدمة) في صفحةٍ واحدةٍ أيضًا، جعلها البُنط الكبير المستخدم في الكتابة صفحتين، فنراه يشير فيها إلى أنه كان ضيفًا ببرنامج تلفزيوني! فيقول ما نصه: «قمتُ بالرد على دان براون في برنامج البيت بيتك، مع المذيع الصديق العزيز تامر بسيوني في التلفزيون المصري، وقدَّمنا في تلك الحلقة التلفزيونية الوثائق التي تدحض ادعاءات دان براون في روايته شفرة دافنشي». وطبعًا حدث ذلك منذ سنوات، وفي غياب دان براون الذي لا أظنه عرف شيئًا عن هذا البرنامج التلفزيوني، ولا سمع يومًا اسم المطران.

وبعد هذا المفتتح (التلفزيوني) يقول نيافة الأمبا المطران ما نصه: «وها نحن اليوم نواجه الحجة بالحجة في الردِّ على الأهداف الهدَّامة في رواية الدكتور يوسف زيدان.. ولن يجديه نفعًا الاحتجاج المستمر بأن هذا نوع من الأدب الروائي.. إلخ». إذن، الأمبا يرى أن في رواية عزازيل «أهدافًا هدَّامة» وكأنه يدعو الناس إلى الدعاء الشهير الذي ردَّده المصريون حين ضربهم نابليون بونابرت بالمدافع: «يا خفيَّ الألطاف نجِّنا مما نخاف». والمطران يرى أنني «لن يجديني نفعًا» وكأننا في يوم القيامة، وكأنه هو قاضي الآخرة (الدينونة) الذي يحاسب الناس! يا نيافة الأمبا: حنانيك، اهدأ قليلًا، فالأمرُ أبسط بكثير مما تعتقد.

ومع أنني أرسلت برسائل كثيرة للمطران عبر (الأصدقاء المشتركين) كي يتريَّث في الفهم ولا يبادر برفض الرواية ابتداءً، حتى يهدأ، أو يفكر برويّة في الأمر ولسوف يكتشف

أن المسألة أبسط مما يظن. لكن الأمبا المطران لم يهدأ، ولم يعرف أن الأمر أبسط من ذلك، وبادرني بالخلاف والاختلاف والعداء، وهو ما نراه في الكتاب الذي فيه يكمل كلامه قائلًا: «نحن ننتظر قليل (يقصد: قليلًا) من الخجل عند الدكتور يوسف زيدان أو عند مَنْ منحوه جائزةً في الأدب العربي، أو على الأقل عند القارئ العربي.. إلخ». وبالطبع، فلا مانع عندي إطلاقًا في أن يخجل كلُّ هؤلاء، وأنا معهم، ولكن ما الذي سوف نخجل منه بالضبط.. لا أعرف.. ولا أحد يعرف غير المطران!

وبعد (التصدير) ثم (المقدمة) يأتي (التمهيد) الذي لم يقتصر على صفحة واحدة، كسابقَيْه، بل جاء في عشر صفحات كاملة، ابتدأت من الصفحة الثالثة عشرة. فلماذا أفاض المطران هذه المرة؟.. ليته ما أفاض! فقد ارتبك قلمه تمامًا بسبب قلقه مما هو مقبلٌ عليه، وراح يشير بشكل عشوائي إلى لقاءات تلفزيونية ومقالات صحفية، وخلال ذلك ينعي عليَّ أنني قلتُ ذات يوم، إن الأخلاق في مجتمعنا قد تدهورت (وهو أمر لا يختلف عليه أحد) ثم يقول بعد ذلك مباشرةً، بالحرف الواحد، إنني: «أنشر الفسق والفساد على عشرات الصفحات».. فما هذا يا نيافة المطران؟ كيف ارتضيت لنفسك مثل هذا الزعم، وكيف قادك إليه عقلك؟ ولماذا تنفعل على هذا النحو من دون مبرر مقبول، فتتَّهم الناس تُهمًا خطيرة من دون دليل، وهي تُهم تعاقِب عليها جميعُ الشرائع والقوانين؟ أم تراك تظن نفسك كائنًا فوق جميع الشرائع والقوانين. وكأن من حقك أن تقول ما تريد، على مَنْ تريد «نَشْرُ الفسق والفساد!» لن أرد على كلامك هذا، فهو مما لا يجوز الرد عليه.

ثم يفيض صديقي (القديم) نيافة الحبر الجليل في ذلك التمهيد، لكنه لا يتحدث عن رواية عزازيل وإنما يورد مزيدًا من الاتهامات، فيقول: «ينشر د. زيدان الأضاليل ليس عن جهل ولكن عن معرفة، وذلك لتشبثه بالرغبة في الطعن في العقيدة المسيحية».. وهنا أسأله: لماذا تشنُّ هذه الحروب المُتخَيَّلة أيها الحبر الجليل؟ وأنت تعلم أنني قدمت خدمات كثيرة للتراث المسيحي. ولماذا تزعم ذلك وتنفرد به من دون الذين يعرفونني، وتشذُّ عن الأساقفة والقساوسة والآباء الأجلاء، الذين امتدحوا الرواية؟

هل أذكر لك بعض الأسماء، لأن الذكرى تنفع المؤمنين.. حسنًا: اقرأ ما كتبه القسُّ «نصر الله زكريا» عن الرواية في مجلة الهدى التي تصدرها الكنيسة الإنجيلية، وراجع ما قاله القسُّ «جورج مسوح» مادحًا الرواية في قناة الحرة (موجود على الإنترنت)، وانظر برويَّة في كلام العالم الجليل «المطران يوحنا جريجوريوس» الذي ظلمتَه زورًا وتجنيَّت عليه بهتانًا، حسبما سأوضح لاحقًا.. فهؤلاء، وغيرهم كثيرون من الذين كتبوا عن عزازيل، هم رجال دين لايقلون عنك مكانةً ولا تمسكًا بالديانة. ومع ذلك فقد امتدحوا الرواية التي تعتقد أنت أنك تواجهها، لأنهم قرءوها. بينما تشنُّ أنت حربًا ضارية على نصٍّ روائيٍّ، تعترف في كتابك بأنك لم تقرأ منه قرابة المائة صفحة. فكيف سمحت لنفسك بالرد على كتابٍ لم تقرأه كاملًا؟

والأعجب مما سبق، أن نيافة الحبر الجليل (الأمبا بيشوي) لا يتحدث في التمهيد عن عزازيل، وإنما عن بحثٍ ألقيته في المؤتمر الدولي التاسع للدراسات القبطية، وهو المؤتمر الذي انعقد بالبطريركية القبطية (البطرخانة) بالقاهرة في منتصف سبتمبر ٢٠٠٨ وكان المطران حاضرًا فيه ورفض آنذاك ما قبلته أنا من اقتراح بعض الآباء الأجلاء، أن نجلس سويًّا في ندوة محدودة كي نصفِّي ما يتوهم الأمبا بيشوي أنها خلافات بيننا. ولكن الأمبا المطران يومها رفض الاقتراح بحسمٍ، وعلَّل رفضه بأنه (يؤلف) كتابًا للردِّ على الرواية، وسوف يجلس معي بعد صدور الكتاب! وبعد صدور الكتاب جلس نيافة الحبر الجليل مع الصحفيين ليدلي بالحوارات الكثيرة، ومع المذيعين ليصبَّ جام غضبه عليَّ من جديد، وكأنه لا شاغل له في الحياة إلا رواية عزازيل ومؤلفها. بل بلغ من كرم أخلاق المطران، أن قال كلامًا لم أكن أحب أن يصدر منه، ولا أريده حتى أن يعتذر عنه. فمع أنه يعلم أن هذا المؤتمر الدولي للقبطيات كان سينعقد في فندق سونستا، وقبل يومين فقط من انعقاده تقرر أن تكون جلساته بالبطريركية المرقسية بالعباسية (البطرخانة) وهو يعلم أنني لم أكن متحمسًا للمشاركة في هذا المؤتمر، لولا إلحاح عددٍ من آباء الكنيسة (القبطية) الكبار، الذين أصروا على مشاركتي بالمؤتمر. لكن المطران على الرغم من ذلك كله، يقول للصحفيين بعدها الكلام التالي الذي نشرته عدة جرائد ومواقع إنترنت، وسوف أورده فيما يلي بنصِّه، ولن أعلِّق عليه لأنه كلام

لا يستحق التعليق.. يقول الأمبا المطران، ما نصه: «في المؤتمر كان يمكن أن أقول: لهم طلَّعوا الرجل ده بره، كنت مندوب البابا وكان يمكنني أن أقول لهم طلّعوا الرجل ده بره، أنا لم أُشرف على المؤتمر، صحيح، لكني لو صمَّمت على ذلك، كانوا طلّعوه بره. وكان يجلس على يمينه ويساره أساقفة، ولم أقل لهم قوموا من مكانكم وسيبوا الراجل ده يقعد لوحده».. هكذا تكلم المطران!

ولا بد أن نختتم الكلام عن قلق المطران، بالإشارة إلى أنه بدأ مناقشة بحثي في المؤتمر، قبل الكلام عن عزازيل التي ألّف كتابه للرد عليها، وهو دليلٌ آخر على قلقه. فقد كان بحثي بعنوان «اللاهوت العربي» وهو عنوان كتابي الذي صدر بعد كلامه بفترة وجيزة، وكان يثير قلق المطران من قبل أن يصدر.

مستويات الخلل المنهجي

هناك عدة مستويات من الخلَل المنهجي في الكتاب المنسوب للأمبا بيشوي، وأول مستويات هذا الخلل أن نيافة الأمبا المطران يظن أن «عزازيل» هي وثيقة تاريخية أو محضر رسمي لواقعة أو سيرة فعلية لأحد الرهبان، مع أنها ببساطةٍ شديدة وحسبما هو وارد على غلافها (رواية) ولكن لأنه غير معتاد على قراءة الأدب، فقد انخدع بالإيهام الفني الذي ورد بمقدمة عزازيل، فظنها كتابًا يمكنه الرد عليه بكتاب. ولو كان الأمبا قد استفسر أو سأل لكان قد عرف أن عديدًا من الروايات الأدبية والقصائد الشعرية، المشهورة منها وغير المشهورة، لجأت إلى هذا الإيهام باعتباره تقنية من تقنيات السرد الروائي الحديث. فعلى سبيل المثال، بدأت أشهر رواية في الأدب الإسباني «دون كيشوت» أو «دون كيخوته» بإيهام القارئ بأنها أوراق تركها أحد الموريسكيين، فقام المؤلف «ثربانتس» بنشرها. وبدأت رواية أُمبرتو إكّو المعروفة «اسم الوردة» بأنها: مخطوطة بالطبع! وفي الأدب المصري المعاصر، كثير من الأمثلة على هذه الحيلة الفنية والتقنية السردية التي تسعى لاجتذاب القارئ وإشراكه في النص، فمن ذلك: الزيني بركات، لجمال الغيطاني (رواية) من يوميات المتنبى في مصر، لمحمد جبريل (رواية) ديوان النباحي، للدكتور حامد طاهر (شعر) مقتل هيباتيا الجميلة لمهدي بندق

(مسرحية).. فضلًا عن الديوان الشهير للشاعر أمل دنقل «أقوال جديدة عن حرب البسوس» وهناك كثيرٌ من الأمثلة على هذا النوع من النصوص الأدبية.

وفي الأدب الروائي تحديدًا، لا بد من وجود شخصيات تتصارع وتتحابّ، وتجتمع وتفترق، وتتنوع رؤاها وتتعدَّد مصائرها عبر الأحداث الروائية، التي تتصاعد تدريجيًّا بالوقائع الروائية من المبتدأ إلى المنتهى، عبر لغة أدبية خاصة وصور فنية يرسمها الخيال الروائي، كي يستشفّ القارئ من ذلك كله، ما يسمى «الخطاب الروائي» أو رؤية المؤلف المبثوثة بين حنايا النص الروائي.. ولأن الأمبا المطران غاب عنه ذلك كله، أو بعضه، فقد ظهر مستوى آخر من مستويات الخلل المنهجي في (قراءة) المطران للرواية، وهو ما تجلَّى بوضوح في كتابه الذي يظن هو أنه (رد) على الرواية. إذ يتوهَّم المطران أن الروايات عبارة عن (بيانات) يمكن له أن يتعقَّب عبارةً منها أو فقرة مجتزأة، ويسارع إلى التنديد بها والرد عليها. ولذلك نراه في طول (كتابه) وعرضه، يلتقط جملة حوارية ما، مردودًا عليها بعد حين أو غير مردود، ويثور ضدها باعتبارها تقريرًا يخالف التاريخ الذي يراه نيافة المطران صحيحًا، ولا يرى غيره. ثم يخرج من بعد ذلك كله بنتيجة عجيبة، هي أن الرواية بها أخطاء تاريخية. ومن ثم فهي تزييف للتاريخ، وعلى هذا فهي تهدم العقيدة.. هكذا يفكِّر المطران.

ولا أعتقد من جانبى أن (عزازيل) بحاجة إلى تأكيد روائيتها. لأنها ببساطة شديدة واحدةٌ من الأعمال الأدبية، وقد شهد لها بذلك عشراتٌ من كبار النقاد والكُتَّاب الأقباط والمسيحيين والمسلمين والعلمانيين، وعشرات الآلاف من القراء في مختلف المشارب والاتجاهات، رجالًا ونساءً. ثم جاء قرار لجنة التحكيم الدولية لجائزة البوكر العربية مؤكِّدًا قيمة «عزازيل» الأدبية فارتفعت بعد ثلاث تصفيات، إلى المستوى الأول للرواية العربية العالمية. وقد جاء قرار اللجنة بمنح الجائزة لعزازيل بإجماع الأعضاء، وهؤلاء الأعضاء (الدوليون) فيهم مسلمون ومسيحيون، عرب وأجانب، وليس فيهم ناقدٌ واحد يعيش بمصر المحروسة. فكيف يتوهَّم المطران أن اللجنة الدولية منحت الجائزة لعزازيل، لأنها تهاجم أحد آباء الكنيسة القبطية القدماء؟

ويقع المطران في خطأ منهجي جديد، حين يتصور أن الشخصيات الروائية يجب أن تكون مثل (جوقة) تردِّد الكلام نفسه، فلا تقول أي شخصية أي كلمة مخالفة، أو معبرة عن وجهة نظر أخرى غير تلك التي يعتقدها المطران أو بالأحرى يتوهَّمها، وهذا عجيبٌ جدًّا. ومن هذه الزاوية غاب عن المطران طبيعة الخطاب الروائي في عزازيل، وكيف أنها في النهاية تنتصر للإنسان ضد العنف المقيت الذي يتوَسَّل بالدين. ثم غاب عنه أن الشخصيات لا بد أن تتنوَّع وتتصارع أفكارها ومواقفها، وأننا حين نضع على لسان شخصية روائية قولًا ما، فهذا لا يعني بالضرورة أن ذلك هو رأي المؤلف. وإلا صارت المسألة مهزلة. فقد استعرض الأستاذ نجيب محفوظ شخصية القوَّاد في «القاهرة ٣٠» واستعمل جوته شخصية إبليس في «فاوست» واستعمل نيكوس كازنتزاكس شخصية المسيح في غير واحدةٍ من رواياته، فهل هؤلاء المؤلفون بالضرورة، هم هذه الشخصيات على اختلافها؟.. إنني حزينٌ لاضطراري إلى شرح هذه البديهيات التي انكفأتْ في وعي المطران، فقديمًا قال الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس: إن أخطر الأشياء على العقل الإنساني، انكفاءُ البديهيات.

وهناك مستوى آخر من مستويات الخلل المنهجي في تناول الأمبا لرواية عزازيل، وهو توتره الشديد تجاه شخصيتين بالرواية، الأول هو الراهب الشهير «آريوس» الذي ورد ذكره بشكل عارض مرة واحدة، والآخر هو الأسقف الكبير «نسطور» الذي جاء ذكره عدة مرات، لأنه كان من الشخصيات الأساسية في النصف الثاني من الرواية. ووجه الخلل المنهجي هنا، أن نيافة المطران لم يستطع التفرقة بين رأيه الشخصي في آريوس ونسطور من جهة، ومن الجهة المقابلة «السياق الروائي» الذي ورد ذكرهما خلاله، مما أدى بالمطران إلى ارتباك (شديد) في رد الفعل (الشديد) الذي أبداه ضد الرواية بعد شهور طوال من صدورها في عدة طبعات. إلا أن المطران لا يطيق أن يسمع أو يقرأ اسم «آريوس» واسم «نسطور» لأنهما يختلفان في الاجتهاد اللاهوتي عما يعتقده المطران، أو بالأحرى: كانا قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة، يقولان آراء تخالف ما يعتقده المطران اليوم.. وعلى كل حال، فسوف أعود بعد قليل إلى آريوس

ونسطور، التاريخيين، حتى أوضح لنيافة الأمبا أن هناك وجهة نظر أخرى فيهما، غير وجهة النظر التي يعتقدها هو.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الخللُ المنهجي، بمستوياته المختلفة، إلى لجوء المطران مرارًا إلى الحيلة الشهيرة (لا تقربوا الصلاة) من دون استكمال النص (وأنتم سكارى) ولذا راح يلتقط من حوارات الشخصيات بالرواية فقرات بعينها، أو عبارات مجتزأة، كي يثبت بذلك دعواه التي لم تثبت أبدًا وسوف تظل دومًا مثيرة للاستغراب. أعني دعواه العجيبة الزاعمة أن «رواية عزازيل هي أبشع كتاب عرفته المسيحية».

أبشع كتاب.. لماذا يا نيافة الأمبا؟ ألم تَرَ في عزازيل رِقَّة الترانيم الإيمانية، ولحظات الصفو الديني للراهب هيبا؟ وكيف غاب عنك قلقه من علاقته بأوكتافيا ومرتا، وهو قلق نابع من صراع الدافع الإنساني مع الوازع الديني، أم أنك تظن أن الرهبان ليسوا بشرًا أو أنهم لا يخطئون؟ وكيف غابت عنك ما دُمْتَ قد قرأت الرواية، مشاهد مثل احتضان الراهب هيبا لصورة العذراء وبكائه على صدرها، ولقائه بالقديس خريطون الذي كان (تاريخيًّا) يختلي في مغارات البحر الميت، وهيمان الراهب هيبا روحيًّا عندما حضر القداس ببطريركية أنطاكية؟ وكيف تقول يا نيافة المطران إن الرواية ضد كنيسة الإسكندرية، وضد العقيدة المرقسية، وضد القبطية؟ سوف أعود لاحقًا لمسألة (القبطية) هذه، لكنني الآن سأوضح لك ما يلي، حتى يهدأ بالك قليلًا: هناك عديد من الشخصيات (القبطية) التي ظهرت بشكل إيجابي في الرواية، فمن ذلك عمّ الراهب هيبا الذي تولّى تربيته، والقس الأخميمي، والقس يوأنس الليبي، والثري الدمياطي. وغير هؤلاء كثيرون بالرواية، لكنك يا نيافة المطران تظن أن الأسقف كيرلس هو وحده المرقسي، وهو وحده السكندري، وهو وحده القبطي، وهو وحده الإلهي المقدّس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا مستوى آخر من مستويات الخلل المنهجي، لأن الرواية (عزازيل) لم تقدِّم الأسقف كيرلس بغير ما اشتهر به، ولأن كل إنسان من شأنه أن يخطئ ويصيب. أم تراك تظن أن الأسقف كيرلُس لم يكن إنسانًا؟

وقد قاد الخللُ المنهجي نيافة المطران، إلى جرأةٍ شديدةٍ في تقرير عبارات عجيبة منها قولـه: «بدأ د. يوسف زيدان روايته بخدعة أطلقوا عليها حيلة فنية وإبداع، كان

من الممكن اعتبار الأمر كذلك لو كانت مجـرد رواية أدبية لم تتعرَّض لكنيسة مجيدة ولدين سمـاوي شـوَّه د.يوسف صورته وجرَّده من كل ما هو إلهي، وزيف حقائق تاريخية راسخة على مدى ستة عشر قرنًا من الزمان، وقد تجاهل تمامًا مشاعر الأقباط المسيحيين الذي نشأ وعاش بينهم» وبعد ذلك بصفحتين فقط، يتغير الأسلوب فجأة حين يخاطب المطران قارئه، خاطبًا وُدَّه، بقوله: «عزيزي القارئ.. نَهَجَ زيدان نَهْجَ دان (براون) فهل اسمه مجرد صدفة، زيدان = «زي» «دان»!

وهكذا يقتحم السياق كاتبٌ خفيفُ الظل، حتى إنني ابتسمتُ حين قرأت هذه (القفشة) ورأيتها واحدةً من نكات المطران التي أراد أن يخفِّف بها من كآبة كتابه، لكنني للأسف وجدتُ الفقرة التالية عليها مباشرة، تعود بالسياق إلى حالة الكآبة. ومن الواضح أن هذه الفقرة التالية كتبها شخصٌ آخر من ذلك الفريق الذي صرَّح الأمبا المطران أنهم كانوا (المساعدين) له في الكتاب لكنه لم يذكر أسماءهم، وهو بالقطع شخصٌ مختلفٌ تمامًا في لغته وأسلوبه، عن الشخص الذي (قفش القفشة) السابقة. يظهر لنا ذلك بوضوح، حين نقرأ الفقرة كاملة (صفحة ٣٠٤) حيث يقولون: «فهل اسمه مجرد صدفة، زي دان، يا للعجب، فابهتي أيتها السموات واقشعري أيتها الأرض».

لماذا يا نيافة المطران تريد للسماء أن تبهت؟.. وتعبيرك لا يصحُّ على كل حال من حيث اللغة العربية السليمة، فالبُهت من (البهتان) الذي لا تعرفه السماء، لكنك وافقت على استعمال المعنى العامي في سياق فصيح من دون الانتباه إلى أن السماء لا تبهت. ولماذا يا نيافة المطران تريد من الأرض أن تقشعر فتقوم الزلازل، هل من أجل (قفشة) خفيفة الظل، تشير للتشابه بين لقبي والاسم الأول لمؤلف شفرة دافنشي؟.. ما هذا يا نيافة المطران.

وحسبما يظهر من (أساليب) الكتاب المنسوب للمطران، فإن هناك خمسة أشخاص على الأقل قد كتبوه، ولذلك تخلخل سياق الكتاب واضطرب الأسلوب كثيرًا، بسبب تقلُّب الكاتبين واختلافهم. ففي بعض الصفحات يستمر السياق الوعظي المدرسي متصلًا، حتى يقطعه فجأة أسلوبٌ هجوميٌّ عنيفٌ لا يكف عن التنديد، والتعنيف. وفجأةً

يتغير السياق، فيتدفَّق معتمدًا على حشد نصوص كاملة من تراث الآباء السابقين، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى أسلوب معاصر يتعرَّض بلطفٍ إلى مجريات الأحوال في مجتمعنا المعاصر.. ولو استخلصنا من جملة ذلك، كل ما يخص الرد على رواية عزازيل في كتاب المطران، فلن نجده يزيد على صفحات معدودة، لعلها خمس عشرة (في كتابٍ كبير القطع، يقع في ٣٨٠ صفحة) ظل نيافة المطران يوسِّع بين سطوره ويكبِّر أبناط حروفه، حتى يملأ من الصفحات، العدد ذاته الذي جاءت فيه رواية عزازيل في طبعاتها العديدة[1]. وكان يمكن للمطران ببساطة، أن يرد على الرواية (إن كان لا بد له من ذلك) بمقالة واحدة، ويستغني عن كل هذا الحشو الذي لا داعي له.

ومن أعجب وجوه الخلل، أن المطران في خاتمة (الرد) يستشهد ضدي بنصٍّ من المزامير، يشير إلى خيانة يهوذا الإسخريوطي للسيد المسيح. فيضع في صفحة ٣٧٥ تحت عنوان «صديق سابق» ما ملخصه أنني بعدما كنا أصدقاء، خنتُه وكتبتُ عزازيل! وأقول هنا لنيافة المطران، إن رواية عزازيل كُتبت سنة ٢٠٠٦ وتم التعاقد على نشرها في صيف ٢٠٠٧ وصدرت في بداية سنة ٢٠٠٨ وقد عرفتك يا نيافة المطران بعد انتهائي من كتابة الرواية، وكان أول لقاء بيننا في صيف العام ٢٠٠٧، وقد التقينا بعد صدور الرواية بشهور في مؤتمر المخطوطات (مطلع صيف ٢٠٠٨).. فلا داعي ولا مجال، لما تكرِّره من الدعوى بأنني أخذت منك مصادر الرواية، ولا داعي ولا مجال لتشبيهي بيهوذا الإسخريوطي. لأنك لست المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم يقع نيافة المطران في خلل منهجي جديد، فادح، حين يتَّهمني صراحة بأنني أُمجِّد هيباتيا، العالمة الرياضية الشهيرة التي قتلها المسيحيون بالإسكندرية سنة ٤١٥ ميلادية ثم أظلم العالم كله من بعدها لقرابة خمسة قرون. والغريب هنا أن الأنبا المطران، بحسب ما ذكره على ظهر غلاف كتابه، هو (خريج كلية الهندسة، جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣) فكيف يمكن لخريج كلية الهندسة، أن يجحد فضل العالمة

---

(١) كانت طبعات الرواية عند نشر هذه المقالة قد بلغت أربع عشرة، وعند إعداد هذا الكتاب للنشر وصل العدد إلى سبع وعشرين طبعة (رسمية) عدا الطبعات المزورة وعمليات التحميل من مواقع الإنترنت.

الرياضية الفيثاغورية الشهيرة، هيباتيا ابنة ثيون الرياضي السكندري العظيم.. كيف؟.. وهيباتيا هي التي قدمت صنوفًا من البحوث الرياضية، وشرحت كتاب الجبر لديوفنطس السكندري، وأحيتْ مجد الإسكندرية العلمي الذي انطفأ بموتها.

وكيف طاوعك لسانك وقلمك يا نيافة المطران وأنت خريج كلية الهندسة، إلى اتهام هيباتيا بممارسة السحر.. السحر.. كيف؟ هل عرفت يا نيافة المطران أو عرف غيرك، أن هناك شخصًا واحدًا في التاريخ الإنساني، كان رياضيًّا وفي الوقت ذاته ساحرًا. إن الاشتغال بالرياضيات يا نيافة المطران، يضاد الاشتغال بالسحر والخرافات. بل إن الاشتغال بالرياضيات هو مقدمة لأي تفكير إنساني قويم، ولذلك كتب أفلاطون على باب مدرسته (الأكاديمية) عبارة: «لا يدخل علينا إلا مَنْ درس الهندسة».

فما الذي تحاوله يا نيافة المطران.. أتريد تشويه صورة هيباتيا؟ إنك لن تستطيع النيل من رمز باهر من رموز الإنسانية، مهما حاولت. ولن يجديك نفعًا، أن تستعير حجةً ضعيفةً كتبها رجال دين قدماء من أمثال سوزومين وسقراط المسيحي (بزعم أنهما مؤرِّخان) ضد شهيدة العلم وربة الرقة وأستاذة الزمان «هيباتيا» وقد كتب هؤلاء تبريراتهم البائسة، غير المقنعة، بعد مقتلها بسنوات. لأنها على زعمهم، كانت تشتغل بالسحر! ولا يصحّ أن يقال هذا عن هيباتيا، أبهى امرأة في الزمن القديم كله، وأذكى نساء الإسكندرية في كل العصور.. وكيف ترى يا نيافة المطران، إذن، شهادة سينيسيوس في حق هيباتيا، الذي قال إنها جعلت الإسكندرية منارة العلم في العالم ؟ وهو كما يعرف الجميع، كان رجلًا مسيحيًّا، بل رجل دينٍ، بل أسقفًا للمدن الخمسَ الغربية المسماة اليوم ليبيا.

فيا نيافة المطران، دعنا من الجدال وتعال إلى كلمة سواء. لقد كان مقتل هيباتيا على هذا النحو الفاجع كارثةً إنسانية، ينبغي علينا أن نتذكرها بأسى ونعتذر عنها، ونطلب لمن اقترفوها وتجرَّءوا عليها الغفران والصفح، فلعل الله يستجيب. ولعله تعالى يرحمنا جميعًا، فلا نشهد ثانيةً مثل هذه الفعلة الشنعاء التي مهما حاول مقترفوها والمعجبون بهم تبريرها، فسوف تظل سُبَّة في جبين الإنسانية، ولحظة عار في تاريخ الإسكندرية.. مدينتي.. ومدينتك.. ومدينة الله العظمى (في الزمن القديم).

ظُلم المطران لأخيه المطران

في الكتاب المنسوب غلافه لنيافة الأمبا عجائبُ كثيرة، من أغربها وأكثرها مدعاة للدهشة تلك الإشارة التي وردت في بداية الكتاب، حيث يقول المطران أو أحد (المعاونين) الذين تعاقبوا جميعًا على تجميع هذا الكتاب الأعجوبة، ما نصه بالحرف الواحد: «ما هو الهدف من رواية د.يوسف زيدان؟![1] هل معرفة جزء من تاريخ مصر كما أراده ورآه د.يوسف زيدان، وصديقه في حلب نيافة المطران، الذي نكاد نرى بصماته في كل فصل من فصول الرواية، وربما في أغلب صفحاتها. أم أن الهدف هو تحطيم إيمان النفوس الضعيفة.. إلخ»[2].

وللوهلة الأولى، بدت لي الفقرةُ السابقة كواحدة من السقطات غير المقصودة، أو كواحد من سهام المطران الطائشة التي يمتلئ بها الكتاب المنسوب إليه، خاصةً أنها تأتي بدون مناسبة وبدون معنى، في حق عالم جليل يعترف بفضله الجميع هو الأب الجليل يوحنا إبراهيم (غريغوريوس) مطران السريان الأرثوذكس بسوريا، ورئيس الطائفة في حلب. وهو مطران أبرشية حلب العريقة، الضاربة بجذورها في التاريخ المسيحي، وأحد كبار اللاهوتيين وأكثرهم احترامًا على مستوى العالم أجمع.

ولم أفهم للوهلة الأولى، ما يقصده المطران (بيشوي) من إشارته للمطران (يوحنا) ولماذا يتوهَّم أن «بصماته في أغلب صفحات رواية عزازيل».. فظننتُ أن الأمر فيه خطأ مطبعي، أو فقرة ساقطة، أو اضطراب في ترتيب الكتاب الطافح بالاضطرابات أصلًا. ومن هنا، غضضتُ النظر عن تلك الإشارة غير اللائقة، بل المسيئة لي وللمطران الجليل يوحنا إبراهيم، الذي عرفته أواخر سنة ٢٠٠٧ في الوقت ذاته الذي تعرفت فيه إلى الأمبا بيشوي (أي بعد الانتهاء من كتابتي للرواية) ثم كان لقائي الثاني به في حضور الأمبا بيشوي، حيث دعوتهما معًا إلى مائدة غداء واحدة (شهر مايو ٢٠٠٨) أي بعد صدور رواية عزازيل بفترة، وكان اللقاء بيننا يومها وديًّا للغاية، حسبما توهَّمتُ

(١) علامة الاستفهام من عندهم، وعلامة التعجب من عندي.

(٢) الرد على البهتان، ص ١٣.

آنذاك، بل جرى الكلام أثناء الغداء عن الرواية (عزازيل) فامتدحها المطران (يوحنا) أمام المطران (بيشوي).. ومرَّ اليوم مفعمًا بالمسرَّة والمحبة.

ولما سبق، لم أتوقَّف عند الإشارة السابقة واعتبرتها كأنها سهو أو خطأ غير مقصود، ولكن الفاجعة غير المتوقعة من الأمبا بيشوي، جاءت بعد ثلاثمائة صفحة من كتابه (الأعجوبة) وتحديدًا في الفصل الثالث من الباب الثالث من الكتاب، وهو الفصل الذي جاء بعنوانٍ غامضٍ يبدو للوهلة الأولى كأنه عنوان فيلم سينمائى، هو: سر المطران.. وقد اعتقدتُ في بداية الأمر أن الأمبا يقصد نفسه، أو أن لديه أسرارًا سوف يُفصح عنها في هذا الفصل. لكن الأمر اتضح جليًّا مع ابتداء هذا الفصل الأغرب، الذي يشغل تسع صفحات تبدأ من صفحة (٣١٣) وهي بالمصادفة، سنة إصدار مرسوم ميلان للتسامح الديني مع الديانة المسيحية، والاعتراف بها كواحدةٍ من (الديانات) المسموح بها في الإمبراطورية البيزنطية، إلى جانب الديانات الوثنية المعترف بها آنذاك.

في هذه الصفحة البائسة، رقم ٣١٣، وضع الأمبا بيشوي عنوان الفصل كاملًا كالتالي: سر المطران المسيحي الأرثوذكسي المعجب بشغف بالرواية الهدَّامة للمسيحية الأرثوذكسية! (علامة التعجب من عندي) ثم راح يقول ما نصه: «هذا المطران يُبدي إعجابه الشديد بهذه الرواية.. وهو في هذا لا يمثل إلا نفسه فقط.. ونحن نتعجَّب، كيف وهو راهبٌ يقرأ الأجزاء اللاأخلاقية في الرواية.. ثم بعد ذلك يصفها في الندوة التي أُقيمت في حلب في ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٨ بقوله: قرأت الرواية بشغف رغم كثرة مشاغلي وأسفاري، لكني لم أستطع الكفَّ عن قراءة هذا النص الروائي الممتع، والذي لا يعرف تاريخ المسيحية لن يعرف مراد د. يوسف زيدان من الرواية، فهي رواية لاهوتية بحتة ترتبط بحقائق التاريخ وتخترق الخطوط الحمراء وتخترق أسوار الأديرة، وتقدم لغةً على قدر من الإعجاز البياني، خاصةً أنها تربط بين اللغتين السريانية والعربية، لتوجه الأفكار بقوة إلى أهمية التراث والمخطوطات، وإلى التاريخ الذي يسبق الإسلام، لأن يوسف زيدان يرى أن انتماءه العميق لهذه الأمة يعطيه الحق في النظر في تراثها الإسلامي والمسيحي، فالتاريخ المسيحي ليس ملكًا للمسيحيين وحدهم».

وبعدما قدم المطران (بيشوي) هذا الاقتباس من كلام المطران يوحنا راح يتخبَّط، كمن يبحث عن قطةٍ سوداء في غرفةٍ ظلماء. حتى إنه لم يتورع، مع أنه أهل للورع، عن القول «ماذا يعني نيافة المطران (يوحنا) بهذا الكلام؟ هل هو على غير قصد منه، قد كشف أن صديقه (يوسف زيدان) وضع ما يدور في فكره من تيهٍ، وتشوُّشٍ وحقدٍ على الديانة المسيحية».

وبطبيعة الحال، فلن ننظر في تناقضات المطران هذه على أساس منطقي عقلاني، لأن كلام المطران (بيشوي) لا يخضع للعقل ولا المنطق. وإلا فكيف يقول أولًا إن المطران (يوحنا) تظهر بصماته في أغلب صفحات الرواية، موحيًا للقارئ بأنه كتبها معي، ثم يقول بعدها إنني وضعت في الرواية ما يدور في فكر المطران يوحنا.. وكيف يقال عن الأب الجليل، العلامة (يوحنا إبراهيم) إنه حاقد على الديانة المسيحية؟ وهو الذي قضى عمره كله، ولا يزال يقضيه، في خدمة كنيسته الأنطاكية الوقور التي قدمت للمسيحية تراثًا هائلًا في الفهم والتفهم والتسامح، منذ قديسها البديع يوحنا ذهبي الفم، بل من قبله ومن بعده.

وليت المطران (بيشوي) قد اكتفى بهذا القدر من الهجوم على المطران (يوحنا) وإنما نراه يقول غير عابئ بكل ما أوصى به يسوع المسيح، عيسى عليه السلام، من المحبة حتى مع الأعداء ومن التواضع حتى مع الأقل شأنًا، ومن التسامح حتى مع الذين يلطمون خدودنا.. رحماتك يا أم النور.. يقول المطران بيشوي ما نصه: «أكد نيافة المطران (يوحنا) أنه قرأ الرواية قبل صدورها» (وهذا حقٌّ، لأنني أرسلت له نسخة إلكترونية في شهر ديسمبر ٢٠٠٧ قبل صدورها بشهر، لأنه كان خارج سوريا). وأبدى إعجابه الشديد بها كعمل فني من طراز رفيع، وأن يوسف زيدان كتب بريشة راهب يرسم أحداثًا كنسية حدثت بالفعل.. ثم يقول المطران (بيشوي) بعد ذلك: «السر وراء الموقف الغريب الذي يتخذه نيافة المطران (يوحنا) أنه قدم بحثًا عام ١٩٩٧ بواشنطن دافع فيه عن نسطور، ولكن مَنَعته الرئاساتُ الكنسية من نشره، وقدَّمه لي شخصيًا لكي أعدِّله وأحذف منه.. لذلك استتر وراء الكاتب المسلم، وشجَّعه أن ينشر ما عجز هو

عن نشره.. فعلى ما يظهر أنه (يقصد المطران يوحنا) أمدَّ المؤلف بالمادة المطلوبة، ثم قام بمراجعة الرواية في النهاية». ثم يضيف المطران (بيشوي) وليته ما أضاف: «وفي إطار التحالف المذكور بين د. زيدان ونيافة المطران.. فإنني أشفق على شعب كنيستينا الشقيقتين (الإسكندرية، أنطاكيا) من هذا التضليل الذي يحاول أن يعيد الصراع المفتعل بين مدرستيهما..».

ما هذا الذي يقوله الأمبا بيشوي؟ وعلى أي أساس يطلق هذه الاتهامات العشوائية عن (التحالف.. البصمات.. الحقد على الديانة المسيحية.. الصراع بين الكنائس.. إلخ)، وكيف جاز له أن يظلم المطران الجليل يوحنا إبراهيم، ويتهمه بأنه قدم لي (مادة) الرواية؟ مع أنه قال قبل شهور إنه هو نفسه الذي قدم لي (المادة) التي اعتمدت عليها في الرواية. وهذا كله في حقيقة الأمر، باطل من تحته باطل ومن فوقه باطل. لسببٍ بسيطٍ هو أن هذه (المادة) تطفح بها المصادر والمراجع التي يعرفها المطران (بيشوي) والتي لا يعرفها، ولو كان قد قرأ مثلًا أعمال الباحث المصري د. رأفت عبد الحميد، لكان قد عرف أن الأمر لا يستحق كل هذه التحالفات والاتهامات المتناقضة التي يجرِّبها ضدي واحدةً بعد أخرى. فقد ذكر هذا الباحث المصري في كتبه الكثيرة المتداولة، حقائق أشد وأعتى مما ورد في روايتي.

وعلى كل حال، وتطبيقًا لما دعا إليه السيد المسيح، فسوف أشرح للمطران (بيشوي) موقف المطران (يوحنا) كي يهدأ قليلًا ويرتاح باله، ثم أشرح له «السر» في حملته الشعواء النكراء على المطران الجليل يوحنا، ثم أبين له أخيرًا أن المطران الجليل لم يتدخل من قريبٍ أو بعيدٍ في الرواية، أثناء كتابتها، لأنني لم أكن أصلًا قد عرفته آنذاك.. فأقول أولًا:

أما الذي دعا المطران يوحنا للإعجاب برواية (عزازيل) فهو أنه بالفعل متخصِّص في اللاهوت، وليس في أشياء أخرى، فقد درس هذه الموضوعات المعقدة منذ صغره فحاز دبلوم العلوم اللاهوتية والفلسفية من كلية مار أفرام اللاهوتية بلبنان، ثم التحق بالمعهد الحبري الشرقي في روما وحصل منه على الليسانس، ثم التحق بجامعة برمنجهام

البريطانية.. وبعد حين من الزمان، صار يوحنا إبراهيم (المطران الجليل) مديرًا لكلية مار أفرام اللاهوتية بلبنان، وفي العام ١٩٧٩ تمت سيامته مطرانًا لأبرشية حلب. إذن، فهذا الأب الجليل يعرف اللاهوت حقًّا، وقضى عمره في دراسته. ولم يقض أيامه في اللعب السياسي. وهو لم يُعرف عنه مثلما عُرف عن الأمبا بيشوي، الهجوم على أعلام الكنائس الكبار من أمثال الأب متى المسكين، والأمبا غريغوريوس (القبطي) الذي كان بالفعل واحدًا من أجلَّاء الآباء. ولهذه الأسباب، أدرك المطران الجليل (يوحنا إبراهيم) قيمة الجهد البحثي الجهيد الذي بُذل قبل كتابة الرواية، وقد ظهر هذا الجهد الذي لا يعلمه إلا الله، هامسًا في النص الروائي حسبما يقتضي السياق الروائي.

ولأن الأب الجليل «المطران يوحنا» متخصصٌ في الموسيقى السريانية والترانيم الكنسية، فقد أدرك ما لم يدركه المطران (بيشوي) من الرهافة الروحية والفنية في الرواية. وقد عبر صراحةً عن اندهاشه وإعجابه بها، من دون الوقوع في تلك (الحسابات) السياسية بالمعنى السيئ للكلمة، ومن دون التوغل في متاهة المؤلِّف المسلم والنص المسيحي مثلما فعل الأمبا بيشوي.. فالمؤلف في النهاية إنسانٌ، يكتب عن الإنسان.

وأما الحملة الشعواء للمطران (بيشوي) على المطران (يوحنا) فالسرُّ فيها هو الآتي: يعتقد الأمبا بيشوي في ذاته، أنه امتداد للأسقف (البابا) كيرلس الملقب لاحقًا بعمود الدين، مثلما يلقب الأمبا بيشوي حاليًا بأسد الكنيسة. لا بأس إن كان ذاك عمودًا أو كان هذا أسدًا، فإن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم، وما أنزل الله بها من سلطان. ولكن هذا الاعتقاد بالمماثلة، قاد الأمبا بيشوي إلى سلسلة من المماثلات المرتبطة بهذا الوهم. وقد أشرتُ سابقًا إلى أن الأمبا بيشوي يعتقد أنني أمثل شخص نسطور، وهو لا يكف عن إظهار دهشته مما يعتقده من إعجابي بالأسقف الجليل نسطور (وسوف أشرح له هذا الأمر بعد قليل).. وقد كان من أنصار نسطور، قديمًا، مطران حلب ورئيس أبرشيتها الذي كان اسمه أيضًا (يوحنا) وكان أيضًا تابعًا لكنيسة (أنطاكية) التي يتبعها اليوم المطران يوحنا إبراهيم. ولأن المطران يوحنا

الحلبي الأنطاكي القديم، انتصر لنسطور وحَكَمَ بَحْرم الأسقف كيرلس السكندري (أي إخراجه من نطاق الديانة المسيحية تمامًا) ولأن المطران يوحنا الحلبي الأنطاكي المعاصر، انتصر لرواية عزازيل. فقد تخيل الأمبا بيشوي أننا عدنا إلى سنة ٤٣١ ميلادية، وأننا في أجواء مجمع أفسوس المسكوني، وأن عليه أن يصبَّ اللعنات (الأناثيما) على رءوس المخالفين له في الرأي. ولذلك لم يتورَّع عن اتهام المطران (يوحنا) بهذه الاتهامات التي لو صحَّت، لكانت كفيلةً أن تخرجه عن نطاق الديانة، فهي اتهاماتٌ خطيرةٌ عقائديًّا وشديدة الفداحة.. الحقد على الديانة المسيحية.. معاذ الله..

فيا نيافة الأمبا (بيشوي) حنانيك.. اهدأ قليلًا.. ولا يغرنك من حولك من أهل التهليل والتهويل.. ولا تظنن أنك تشوي المخالفين، فنيرانُك موهومة. وهذه النيران التي يلتهب بها كتابك وتصريحاتك الصحفية، غير محرقةٍ. واتهاماتك التي تجرِّب منها واحدةً بعد أخرى، تظل دومًا غير مقنعة. وثورتك العارمة على رواية عزازيل، مهما بالغت فيها، فهي غير مجدية.. فأنا لست نسطور، وهو ليس يوحنا الأنطاكي، وأنت لست الأسقف كيرلس. أنت الآن مطران أي رئيس أساقفة، وكذلك المطران يوحنا إبراهيم. ولا يجوز أن يعرِّض المطران بالمطران على هذا النحو، ولا يجوز لك أن تظلمه هذا الظلم الفادح. ولسوف نجتمع معًا في ميقات يومٍ معلوم، ويعلم آنذاك الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون.

وأما النقطة الأخيرة هنا، وهي أن المطران يوحنا إبراهيم لم يكن له دخل من قريب أو بعيد في نص (عزازيل) الذي يتوهَّم المطران (بيشوي) أن بصماته تظهر في معظم صفحاتها. فبيان ذلك لن أصرِّح به إلا رمزًا وتلميحًا، واستعارةً لواقعةٍ سابقةٍ مع اختلاف الحال والمقام، وأرجو من الأمبا بيشوي أن يستفهم مرادي من أحد العلماء، ويسأله عن مقصودي باختتام هذا الكلام بالآتي.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

سَوَابِقُ الطَّرَائق ولَوَاحقُ الحقَائِق

مع الصفحات الآتية أكون قد اختتمتُ كلامي مع المطران الأمبا بيشوي، ونفضتُ يدي منه بلا رغبة في المعاودة ولا نية في الاستئناف، خصوصًا أنه خدعني خدعةً كبرى تنمُّ عن ذكاء ودهاءٍ سياسي خطير، حين ظل يزعم أنه (يواجه) رواية عزازيل رأيًا برأي وحجةً بحجة، وأكَّد ذلك مرارًا في بيانه الأول الذي جاء من غير تبيان، وفي كتابه الأعجوبة: الرد على البهتان (وهو الكتاب الذي رأينا أنه يسيلُ وينـزُّ بهتانًا) وفي أحاديثه التلفزيونية المسلِّية وحواراته الصحفية اللذيذة. لكنه فور استجابتي لرغبته في المناقشة، ومع أول مقالةٍ نُشرت من هذه المقالات السبعة؛ توارى فجأةً عن الأنظار واستتر خلف قسيس يسمِّي نفسه «ديسقورس» راح يرد عنه ردودًا لا تعرف الفرق بين الرد والترديد والتردُّد، ويكتب مقالات مهذبة غاية التهذيب، تليق برجل دينٍ مرموقٍ وقورٍ، بنفسه فخور.. يتقنُ إطلاق البخور.. ويكره مثل سيده، الأسقفَ نسطور.

والظاهر أن هذا التواري والاستتار والاختفاء، هو خدعةٌ معتادة ومنهج مألوف. فمن قبل المطران الأمبا بقليل، صَخِبَ عليٌّ القُمُّصُ (عبد المسيح بسيط) الذي صال وجال ودعا للنـزال، حتى أخذه الشطط إلى طريق الأهوال، فاتهمني علانيةً بالإلحاد واللادينية. فاضطرني ذلك إلى اتخاذ الإجراءات القانونية ضده، فاختفى فجأةً عن صفحات الجرائد وقنوات الفضائيات. وهو الذي كان من قبلُ يملأ الأسماع بأعجب الأقاويل وأبدع التهاويل، حتى إنه قال في اليوم الذي اتهمني فيه بما سبق ذكره، أقوالًا أعجب، منها أن المسلمات محجَّبات لأنهن فقيرات! وأن د. محمد سليم العوَّا إرهابي! وأن د. محمد عمارة إرهابي! وأن الفاتح العظيم عمرو بن العاص كان «يلعب بالبيضة والحجر» على حدِّ قول القُمُّص المتحمِّس، الذي اسمه: بسيط!

ومع ذلك، فلأنني أعرف أن هذا القمُّص في الأصل، هو: عبدٌ للمسيح، وبسيط، وطيب. ولأنني كنتُ أحبُّ فيه خفَّة ظلِّه ودعاباته التي لا يكف عن إطلاقها وراء الكاميرات، ولأنني أعتقد أنه لم يكن يقصد ما يقول أو هو لم يضبط ما كان بعقله

اللطيف يجول، أو هو فقط أراد أن يصول ويطرح نفسه على أنه المهول. فلذلك كله، أراني أكثر ميلًا لمسامحة القُمُّص على تطاوله، وأقرب موقفًا لتعذيره. ولذا، فإذا اعتذر عن إساءاته اعتذارًا رسميًّا، فسوف أُسقط فورًا الدعوى القضائية التي رفعتُها ضده، وأتنازل عنها في أول جلسة[1].

وكذلك كان الأمر مع الأمبا بيشوي، الذي صرتُ مؤخرًا أتفهم أسباب هيجانه وصخبه على عزازيل (الرواية) وأتقبَّل طبيعة الدور المنوط به في الدفاع عما يسميه هو: العقيدة القويمة والأمانة المستقيمة والتقاليد المستديمة (الصواب لغةً: المستدامة) ولذلك فسوف أسامحه على ما كان منه، وأغضُّ النظر عن خدعته الأخيرة. بل سأشرح له بإيجاز مقصودي من العنوان الجانبي: سوابق الحقائق ولواحق الطرائق.. حتى لا يحتار.

تعلم يا نيافة المطران أننا، أنت وأنا، لسنا بالطبع أول الناس الذين اختلفوا في أمر نظروا إليه من زاويتين. وتعلم بالتأكيد أن ما اختلفنا فيه مؤخرًا هو بطبيعته أمرٌ خلافيٌّ غير محسوم، وقد يختلف حوله من بعدنا آخرون. فهذه (طرائق) مختلفة للنظر، لها في تاريخنا (سوابق) أدت إلى إقرار (حقائق) معينة يجب أن تكون (لواحق) ملزِمة لمن أراد أن يناقش أمرًا من الأمور، على نحو رشيد. ولذلك فسوف أختتم كلامي معك، بإشارات إلى سوابق الطرائق وما نتج عنها من لواحق الحقائق، وأجعل لك ذلك في نقاط محددة، بيانها كالآتي:

أولًا: لا يجب يا نيافة المطران الأمبا أن نترك عقولنا نهبًا للتوهُّمات، ولا يجب أن ننهمك في الخلاف بلا منهج أو قواعد أو آداب في الاختلاف. انظُرْ مثلًا ما فعله القسيس المسمى ديسقورس، الذي ناب عنك عند اختفائك، وراح يطنطن ويمخرق ويموِّه (ويزعبب) دون ضابط ولا رابط. قل له يا نيافة المطران إنه لم يكن موفقًا، ولا متوافقًا مع تعاليم المحبة التي جاء بها السيد المسيح، سواءٌ كان المسيح إنسانًا

---

(١) تنازلتُ بعد كتابتي هذا الكلام عن الدعوى القضائية المرفوعة ضد القمص «بسيط» فعاد بعد شهور للهجوم عليَّ، فعدت إلى المحكمة وصدر لي حكم ضده بالسجن والغرامة، لكنني لم أتمسَّك بتنفيذه.

نبيًّا كما أعتقد، أو كما تعتقد أنت ربًّا كاملًا وإلهًا لم يفارق لاهوته ناسوته طرفة عين. لا يهم ما نعتقده فيه ولا ضرر من تنوع الاعتقادات، فمن طبيعة البشر التنوع. ولكن تعاليم المسيح معروفة، بصرف النظر عن طبيعته التي طالما اختلف الناس حولها، وكان الواجب على القسيس (القَسّ) النائب عنك، أن يراعيها. ولسوف أعطي لك مثالًا على عدم كماله، من واقع كلامه الذي ظل يغني به من دون أن يُطرب، ويهوِّل فيه ويهلِّل من دون أن يضرب. وهذا المثال ورد في مقالته التي نعى عليَّ فيها أنني سهوتُ عند قراءة المكتوب على صورة المسيح (الآخر) التي وضعتها أنت في صدر الكتاب المنسوب إليك. سهوتُ فقرأتُ دميانا (دميانوس) لأن الخط المكتوبة به العبارة دقيق، لم يكن واضحًا لي بالقدر الكافي. وهذا كل ما في الأمر، فكيف عالج نائبك هذه المسألة الفرعية التافهة؟ بدأ مقالته المنشورة ضدي في جريدة المصري اليوم بقوله: «سوف أفاجئ القراء بإعلان فضيحة كبرى، مؤسسة على براعة (يوسف زيدان) في فن صياغة الكذب..» ثم تلا ذلك بقوله المؤدَّب المهذَّب: «سقط (يوسف زيدان) غير مأسوف عليه، وانتظروا مفاجأتي في السطور المقبلة» وبعدما قدم هذه التقديمات الدالة على أخلاقه القويمة وأمانته المستقيمة، صرَّح بالمفاجأة المنتظرة والفضيحة الكبرى حسب تعبيره، وذكر أنني قرأت دميانا: دميانوس! ثم قال موجِّهًا لي كلامه المحترم الذي تحاشى فيه الفحش في القول، وتجنَّبَ به الفجور في الخصام، ما نصه: «وكان ينبغي قبل السقوط في هذه الهوة العظيمة، أن تسترشد بدارس للغة الإنجليزية، أو يكفيك في هذا الشأن أحد أطفال المدارس الإنجليزية، فالترجمة الصحيحة للعبارة هي: دير القديسة دميانة» ثم يبلغ القس، رقيق الحس، غايةَ أخلاقه السمحة حين يقول عقب ما سبق: «ولذا فإنني أدعو (يوسف زيدان) لتخصيص جزء من قيمة الجائزة المادية التي حصل عليها (البوكر) لتعلُّم اللغة الإنجليزية، ربما يفيده هذا مستقبلًا..».

فيا نيافة الأمبا، قل لمن ناب عنك إن أسلوبكم غير لائق بكم بالمرة، وإن المسألة لا تستحق كل ما تفضل به من الكلام (الطيب) (المهذب) (الفاضل) خاصةً أنه وهو المسكين، لم يعرف أن هذه المسألة التافهة التي توقف عندها مهلِّلًا، لا علاقة لها

أصلًا باللغة الإنجليزية. لأن اللواحق المميزة لأسماء المؤنث والمذكر، بإضافة الألف الأخيرة للاسم المؤنث وإضافة الواو والسين للمذكر، هي مسألة تخص اللغة اليونانية وليس الإنجليزية. ففي لغة اليونان القديمة، كانوا يفرقون بهذه (اللواحق) بين المؤنث والمذكر، فيقولون: دميانا، دميانوس.. أوكتافيا، أوكتافيوس.. بُلخاريا، بُلخاريوس.. وهكذا! فاهدءوا رحمكم الله، وقولوا للناس قولًا سديدًا، وتذكروا أنه من سوابق الطرائق ولواحق الحقائق، قول الشاعر: «وتعظم في عين الصغير صغارها، وتصغر في عين العظيم العظائم».. هكذا تحدث المتنبي.

ثانيًا: اعلمْ يا نيافة المطران، الأمبا، الحبر، الأسد.. إلخ، أنك لم تردّ قَطُّ على رواية عزازيل، ولم تعطِ نفسك الفرصة أصلًا لقراءتها. لأنهم (قالوا لك) أو (نقلوا إليك) أو (أوهموك) بأن الرواية فيها ما يخالف اليقين المتين والحق الأبدي الذي تعتقده أنت، وما هو باليقين ولا بالحق إلا من زاوية واحدة فقط، هي زاويتك وحدك، أنت ومَنْ حولك. ومن «سوابق الطرائق ولواحق الحقائق» التي سأهديها إليك فيما يلي، قولٌ مضى عليه ثمانية قرون من الزمان، وأرجو منك أن تقرأه معي بتمهلٍ حتى تُدرك مبناه وتمسّ معناه:

«وربما أوجبَ استقصاؤنا النظرَ، عُدولًا عن المشهورِ والمتعارف. فمن قَرَعَ سَمْعَهُ خِلافُ ما عَهِدَهُ، فلا يُبادرنا بالإنكار. فذلك طَيْشٌ. فَرُبَّ شَنِعٍ حَقٌّ، ومألوفٍ محمودٍ كاذبٌ. والحقُّ حَقٌّ في نفسه، لا لقول الناس له. ولنذكُرْ دومًا قَوْلَهم: إذا تساوتِ الأذهانُ والهِمَمُ، فمتأخِّرُ كُلِّ صناعةٍ، خيرٌ بالضرورة من متقدِّمها»..هكذا تحدَّث ابن النفيس.

ثالثًا: يا نيافة المطران اعلمْ أن ما هلَّلتَ به وهوَّلتَ، من صخبٍ كثير حول مشاهد العشق في رواية عزازيل (التي لم تقرأها أصلا) كان أمرًا لا أرتضيه لك، بل أترفَّع بك عنه، وأرى أنه ما كان يجب أن يصدر منك. فقد جاء حديثك في هذا الموضوع مشوَّشًا، مؤسفًا، دالًا على أنك معزول عمن حولك وعمن سبقك. فقد أُثير مثل هذا الأمر من قبل حول كتاب (ألف ليلة وليلة) الذي احتوى على مشاهد أفظع كثيرًا مما في رواية

(عزازيل) وتضمن ألفاظًا صريحةً هي أشد على الأسماع مما في الرواية. ولذلك ثار البعض ضد (ألف ليلة وليلة) حتى قال لهم عالمٌ قدير وشيخٌ جليل، هو بالاتفاق واحدٌ من أهم الذين اشتغلوا بالتراث العربي في القرن العشرين، وقد يكون أهمهم على الإطلاق. قال في عبارةٍ أراها من «سوابق الطرائق ولواحق الحقائق» ما نصه:

«الحديثُ هذه الأيام عن كتاب ألف ليلة وليلة، مؤسفٌ ومحزنٌ.. ويكشف عن جوانب سيئةٍ رهيبةٍ مخيفةٍ، تضاف إلى غيرها من الجوانب التي تندرج تحت عنوان: فَسَادُ حياتنا الثقافية.. إنَّ ما يُثار من أن هذا الكتاب فيه من الألفاظ المكشوفة، ما يمكن أن يُفسد عقول شباب وشابات هذه الأمة، يقدم دليلًا جديدًا لهذا السُّخْفِ الذي اخترناه.. فالقضية تتطلب معالجةً أخرى، وبحثًا هادئًا يبدأ بقراءة أجزاء هذا الكتاب، والوقوف طويلًا عند صفحاته، وتأمل عباراته وسطوره. ومن حق بعضنا أن يقرأه أو لا يقرأه، لكن ليس من حقنا جميعًا أن نحكم بإلغائه أو بحرقه! إن اتهامكم لهذا الكتاب بأن به ألفاظًا مكشوفة.. هذه الألفاظ في رأيي لا خوف منها، فهي ألفاظ العلم نفسه؛ وإذا كان لها تأثيرٌ ضارٌ، فكيف يستخدمها علماء اللغة وأصحابها. أقولُ إنها ليست ألفاظًا ضارةً، وإنها ألفاظ طبيعية وعادية، يستخدمها البشر في كل مكان، وليس من مصلحة البشر أن يجهلوا مثل هذه الألفاظ، فهي ضرورةٌ من ضرورات الحياة»..

هكذا تحدَّث محمود شاكر.

رابعًا: إن ما يحيِّرك يا نيافة المطران الأمبا من انحيازي لآريوس ونسطور، وهي الحيرة التي عبَّرتَ عنها عدة مرات في حواراتك الصحفية ولقاءاتك التلفزيونية، فضلًا عن ورودها أكثر من مرة في الكتاب المنسوب إليك. إنما هي حيرةٌ في غير موضوعٍ وفي غير موضعها، وسوف أشير إليها حالًا مُوَضِّحًا لك بإيجاز الأمر الذي تعتقد أنه (سر) فتقول دومًا: ما سرُّ إعجابه بآريوس ونسطور؟.. وليس في الأمر سر، بل رؤية موضوعية لمفكرين كنسيين كبار، تتهمهم أنت بالهرطقة ويتهمك أتباعهم أيضًا بالهرطقة، غير أنني أنظر إلى المسألة بعيدًا عن تلك الاتهامات المتبادلة، فأجد أن الآريوسية قدمت حلولًا عبقرية للمشكلة اللاهوتية المتعلقة بالطبيعتين (الإلهية،

الإنسانية) للسيد المسيح، من خلال مفهوم «التبنِّي» الذي قام عليه هذا المذهب الذي قدَّمه الراهب الجليل، مصري الهوية، ليبـي الأصل، شامي الإقامة، إسباني المنفى، إسطنبولي الاغتيال: آريوس (المتوفى مسمومًا سنة ٣٣٦ ميلادية).

وأما الأسقف الجليل نسطور، فقد قدم تصورًا لاهوتيًّا من وحي أستاذه الأسقف تيودور المصِّيصي، متوافقًا مع طبيعة العقلية العربية العملية التي كانت تسود منطقة الهلال الخصيب، حسبما أوضحت ذلك تفصيلًا في كتابي الأخير: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني.. وبالمناسبة، أرجو منك يا نيافة الأمبا ألا تقرأ هذا الكتاب وألا تكلف نفسك عناء الانشغال به، لأنه لا يناسب أفاضل الرهبان من أمثالك. فهو كما ذكرتُ بالنصِّ في أوَلى صفحاته: «لم يُوضع هذا الكتاب للقارئ الكسول، ولا لأولئك الذين أدمنوا تلقِّي الإجابات الجاهزة عن الأسئلة المعتادة، وهو في نهاية الأمر كتابٌ، قد لا يقدِّم ولا يؤخِّر».

والنسطورية التي تكرهها يا نيافة الأمبا، لا أكرهها. بل أرى فيها كنيسةً عظيمة لا تقلُّ عن غيرها من كبريات الكنائس، وهي التي أدخلت الديانة المسيحية إلى أنحاء قارة آسيا، واشتغل أتباعها بالعلوم والمعرفة والترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية، فكان ذلك مقدمة للنهضة العلمية للعرب المسلمين الذين حملوا مشعل العلم والحضارة خلال القرون الطوال التي ظل العالم فيها مظلمًا، كئيبًا، ممقوتًا. ومن سوابق طريقة نسطور في فهم الديانة، ولواحق حقائقه التي لاحت في سماء اللاهوت العربي، قوله: «لا يجوز تسمية العذراء مريم بأم الله، فهي امرأة قديسة ولدت بمعجزة، لكنها ليست أُمًّا للإله. ولا يجوز لنا الاعتقاد بأن الله كان طفلًا يخرج من بطن أمه بالمخاض، ويبول في فراشه فيحتاج للقماط، ويجوع فيصرخ طالبًا ثدي أمه. الربُّ كاملٌ، كما هو مكتوب. فكيف له أن يتخذ ولدًا، سبحانه، ومريم العذراء إنسانةٌ أنجبتْ من رحمها الطاهر بمعجزة إلهية، وصار ابنها من بعد ذلك مجلى للإله ومخلِّصًا للإنسان، صار كمثل كوةٍ ظهرت لنا من خلال أنوار الله، أو هو مثل خاتمٍ ظهر عليه النقش الإلهي.

وظهور الشمس من كوةٍ لا يجعل الكوة شمسًا، كما أن ظهور النقش على خاتم لا يجعل الخاتم نقشًا».. هكذا روى الراهب هيبا آراء نسطور في رواية عزازيل، متطابقًا مع ما يمكن استخلاصه من الكتب اللاهوتية القديمة.

* * *

وبعد.. فيا نيافة المطران، ما زالتْ لك في نفسي مودةٌ قديمة، وأنت لك أيضًا من وراء ذلك الوظائف الكنسية الكثيرة والمهام الدينية التي لا تنتهي، وعندي كذلك عملٌ كثير وانشغالات. فدعنا نكف عن هذا الجدل، عملًا بقوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وهو قولٌ قد لا تؤمن بسماويته، لكنك لن تنكر سمّوه وأهميته.

الفصل الرابع

أسرارُ الخلاف وأهوالُ الاختلاف(*)

(*) المقالات السبع، أصل هذا الفصل، نُشرت أواخر العام ٢٠٠٩.

شَرَارُ البدءِ وشُرورُ المنتهى

نبتدئ بعون الله (الربّ) في الكلام على أسرار الخلاف وخلفياته، وأهوال الاختلاف وويلاته، سعيًا لإمعان النظر في القنابل (الفكرية) الموقوتة، والحُمِّيَّات (الوجدانية) المزمنة التي يزخر بها واقعنا المعاصر ذو السطح الهادئ والباطن المضطرم. ولا شك في أن كلامنا التالي سيكون شائكًا، وقد يراه بعض الناس شائقًا، وبعضهم الآخر لائقًا. والبعضُ سوف يراه غير لائق ولا شائق ولا مطلوب، استنادًا إلى العبارة التي طالما تناقلتْها الألسنة، وشاعت حتى استعلنت بيننا وكأنها اليقين، وأعني العبارة القائلة: الخلافُ في الرأي لا يُفسد للودِّ قضية.

ولو كانت هذه العبارة أدقَّ، لأُضيفت (قد) وعُدِّلت قليلًا بحيث تصير مثلًا: الخلاف في الرأي قد لا يُفسد قضية للود. ومع ذلك، فإن الخلاف في الرأي هو كالخلاف في أي أمر آخر، من شأنه أن يطيح بكل قضايا الود والتواد والتودُّد والمودَّة، إلى آخر مشتقات هذه الكلمة الطيبة. فالخلافُ والودُّ، والاختلافُ والتوادُّ، كلُّها قضايا متقابلة فيما بينها بالتناقض، وقد قال أرسطو (المعلِّم الأول) قبل قرونٍ طوالٍ إن القضايا المتناقضات متنافرات، فالنقيضان لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا (منطقيًّا).

تلك هي المقدمة «الأولى» من المقدمات الواجب علينا الوقوف عندها قبل الشروع في تفاصيل الموضوع الذي نتعرَّض له في هذا الفصل في كتابنا. وهناك مقدمات أخرى، غيرها، يحسُن الوقوف عندها، لضبط النقاط الجوهرية التي نحن بصددها، فمن ذلك ما يلي:

يعتقد كثيرون أن المشكلات قد تنحلُّ من تلقاء نفسها، وأن (الزمن) كفيلٌ بإنهاء الخلافات الصغيرة والاختلافات المحدودة التي تقع بين الناس. وهذا الاعتقادُ غيرُ

صحيح، لأن تجارب الأمم والشعوب، والتاريخ الطويل للخبرات الإنسانية، والآثار الباقية عن القرون الخالية؛ كلها مؤكِّدات لحقيقةٍ واضحةٍ، تقول إن الخلاف يبدأ عادةً صغيرًا شاحبًا، فإذا طال عليه الزمن كبر واستقوت ملامحه. انظرْ مثلًا إلى أشهر حروب العرب في الجاهلية «حرب البَسُوس» التي امتدت لأكثر من عشرين عامًا، وأَوْدت بحياة كثير من الأبطال المحاربين في قبيلتيْ «تَغْلِب وبَكْر» اللتين اختلفتا أولًا على مقتل ناقةٍ اسمها البسوس أو كانت ناقةً لامرأةٍ تُسمى البسوس، وكان من الممكن أولًا إنهاء الأمر بفديةٍ أو تعويض. لكنَّ الخلاف تطور حتى جرتْ بين القبيلتين الحربُ، فانهمكوا فيها حتى أُنهكوا تمامًا، وفشلوا، وذهبت ريحهم؛ مع أنهم كانوا قبل هذه الحرب بقليل قد حققوا إنجازًا تاريخيًّا مبهرًا، بانتصارهم على الفرس في موقعة «ذي قار» فكانت المرةَ الأولى التي تجتمع فيها القبائلُ العربية ضد (قوة عُظمى) بمقاييس ذاك الزمان، وتحاربها صفًّا وتنتصر عليها.. وقد جرى ذلك قبل الإسلام.

وكذلك الأمر في أبشع فواجع الزمن الإسلامي، أعني الاجتياح المغولي لديار المسلمين. وهو الأمر الذي ابتدأ بشرارةٍ صغيرة، ولم ينتبه الناس آنذاك إلى أن معظم النار من مُستصغَر الشَّرَر. فقد اختلف جنكيز خان (المغولي) مع محمد خوارزمشاه (المسلم) في نظام تسيير القوافل، فوقعت عند بلدة أوترار الحدودية حادثةٌ محدودة مع قافلة أرسلها جنكيز خان من دون إخطارٍ سابق، وكان تجار القافلة مسلمين. فإذا بالحاكم المسلم التابع لمحمد خوارزمشاه يستولي على القافلة ويقتل أفرادها، ثم يتطور الأمر بسرعة بعدما أهان خوارزمشاه رُسل جنكيز خان إهانةً بالغة، فثارت النفوس ودارت رحى الحرب الطاحنة التي امتدت عقودًا من الزمان وقتلت مئات الآلاف، بل ملايين، من البشر.

إذن، فأهوالُ الاختلافات (المرعبة) تَهبُّ رياحها القوية، مع إهمال أسرار الخلافات (الهيِّنة) التي تصير مع الوقت عويصة الحال، خصوصًا إذا توارثتها أجيالٌ من بعد أجيال. فعندئذٍ ترسخ في النفوس آلياتُ التناقض والرفض والنـزاع، فتصير تراثًا عند أولئك وهؤلاء. وكل تراث له، لا محالة، قداسةٌ في النفوس! مما يجعل إعادة النظر فيه أمرًا شائكًا، غير شائق عند الكثيرين وغير مطلوب.

وهناك مقدمة أخرى ضرورية، لا بد من تبيانها. ملخَّصُها أن الخلاف بين الناس أَوَّلُه لذيذ، لأنه يبدو لأول وهلة سبيلًا للتمايز وطريقًا للخصوصية، والإنسان بطبعه يميل إلى ما يؤكد ذاته ويُجَوْهِرُ صفاته، وإدمانُ الخلاف والعكوف عليه، يقود بالضرورة إلى الشعور بالتميُّز والاختلاف. وهو شعور «مُرْضي» لأنه يُريح وجدانيًا، لكنه شعور «مَرَضي» لأنه مع مرور الوقت يقترن بإعلاءٍ وهميٍّ للذات وحطٍّ تلقائيٍّ من شأن المخالفين، خاصةً إن كان الخلاف موروثًا والاختلاف تراثيًا ومقدسًا.

وللخلافات والاختلافات تاريخٌ عجيب، ونهاياتٌ مفجعة مقارنةً بالبدايات الهيِّنة. مهما كان السبب الأول والسرُّ المخفي أو الأمر المعلن، الذي ابتدأ به الأمر أصلًا. انظرْ مثلًا إلى ما كان بمصر قبل الفتح (الغزو) العربي الإسلامي، حيث كان هناك حزبان قويان (حزب الخضر، حزب الزرق) وهما في الأصل من جماعات مشجِّعي فرق الألعاب الأوليمبية، على طريقة «ألتراس» الأهلي والزمالك المعاصرة. لكن أولئك وهؤلاء من أهل الحزبين ظلا يتكتَّلان اقتصاديًا ويتخاصمان سياسيًا، ثم انتهى أمرهما بأن اقتتلا عسكريًا. وانشغلا بذلك عن الجيش الذي دخل بلادهم غازيًا، أو فاتحًا، أو محتلًّا، تحت راية الدين الجديد. وعندما دخل عمرو بن العاص إلى مصر كان الحزبان يتقاتلان فيما بينهما، وكان قتالهما سببًا من أسباب استيلاء المسلمين على مصر.. ضمن عدة أسباب أخرى بالطبع.

إذن، لا يُشترط في الخلافات والاختلافات (المزمنة) أن تكون بالضرورة ذات خلفية دينية. فالخضر والزرق (الحزبان) كانا يعودان في أصل الخلاف بينهما إلى الزمن الوثني الذي تعدَّدت فيه الديانات من دون منازعات بين أصل هذه الديانة أو تلك، ولم يرفع أحدهما ضدَّ الآخر شعارًا دينيًا حتى حين أدركهما الزمنُ المسيحي. وفي الزمن الإسلامي، تظل الواقعة التي هي بالإجماع أكبر (الفواجع) وأفظع الأهوال، سقوطُ بغداد بيدِ المغول سنة ٦٥٦ هجرية، هي نتيجةٌ مباشرةٌ لخلافٍ غير دينيٍّ بالمرة، لأن المغول آنذاك لم يكونوا في معظمهم على أي دين. صحيحٌ أن زوجة هولاكو «طقز خاتون» كانت مسيحية نسطورية تكره المسلمين وتشجِّع زوجها على الفتك بهم،

لكنه أصلًا كان مدفوعًا بالخلاف الذي أشرنا إليه قبل قليل، والاختلاف الذي ورثه عن أعمامه وأبيه وجَدِّه الفاتح الأسطوري جنكيز خان. وقد استباح هولاكو بغداد، التي كانت آنذاك أعظم مدن العالم وأكثرها تحضُّرًا لمدة أربعين يومًا يفعل فيها جنوده ما يشاءون، فكانت النتيجة قتل ما يقرب من مليون مسلم في الأيام الأربعين، بحسب أوسط التقديرات.

وفي زماننا المعاصر، روَّعت العالم مذابح «رواندا» التي لا يبلغ عدد قتلاها الإحصاءُ، ولا يبلغ الوصفُ حقيقة دمويتها. مع أن الخلاف بين جماعتيْ الهوتو والتوتسي، هو خلاف عِرْقي (قَبَلي) لا شأن للدين فيه بشكلٍ مباشر. وهذا الأمر لم يتوقف حدوثه على غياهب إفريقيا (السوداء) بل جرى مؤخرًا نظيرٌ له في قلب أوروبا (البيضاء) التي استيقظت يومًا من سُباتها العقلاني، الحداثي وما بعد الحداثي، على المذابح المروِّعة التي قام بها الصِّربُ ضد الكروات والبوسنويين، على أساسٍ عرقيٍّ وليس دينيًّا. مع أن الكروات مسيحيون والبوسنويون مسلمون، والصِّرب وارثون لتراث الخلاف والاختلاف الذي امتدَّ فيهم جيلًا بعد جيل على أسسٍ (عرقية) مثلما امتدَّ بين الهوتو والتوتسي على أسس (قَبَلية) وامتد بين الخضر والزرق على أسسٍ (رياضية).

وعلى الرغم من ذلك، يبقى الخلاف الديني والاختلاف العقائدي، هو الأدوم والأثقل والأفظع والأفتك بين الناس. لأنه بطبيعته ممتد الأثر في الأجيال، ولأنه يتوسَّل في احتدامه بحجةٍ خطيرة هي امتلاك اليقين وضلال المخالفين، ولأنه يزعم لنفسه قداسةً لا حدود لها، بادِّعائه النطق باسم الإله.. الله.. الربّ.. يهوه.. إلوهيم.. إيل.. أهيه الذي أهيه (أحد أسماء الله في التوراة).

ولأن الاختلاف والتناحر القائمَيْنِ على الخلاف والتنوع المذهبي في الدين، سجَّلا في تاريخ الإنسانية أروع المعدَّلات (الروع في فصيح اللغة تعني الفزع) في أطول الحروب زمنًا، وهي الحروب الصليبية التي إن كانت لها دواعٍ كثيرة، إلا أن شعارها الأعلى ظلَّ دومًا دينيًّا. ومن أفظع حوادث البشرية، ما جرى في غرب أوروبا من قيام الكاثوليك بالسكين على البروتستانت، حتى ذبحوا منهم في يوم واحد (يومٍ واحد)

ثمانمائة ألف شخص.. ثمانمائة ألف إنسان قُتلوا في يوم واحد لأنهم مسيحيون بروتستانت اختلفوا مذهبيًّا مع مسيحيين كاثوليك اعتقدوا أنهم وحدهم على صواب وأن اليقين التام في جانبهم وحدهم، وأن مخالفيهم ضالُّون، فذبحوهم. وقد نسوا معظم كلام السيد المسيح ووصاياه، وتعلَّقوا فقط بما هو مكتوب في الإنجيل من قول المسيح «أتظنون أنني جئت لأضع في الأرض سلامًا، ما جئتُ لأضع في الأرض سلامًا بل سيفًا، جئتُ لأفرِّق بين الابنة وأمها، وبين الابن وأبيه» تعلَّقوا بذلك وفهموه على وجه واحد، ولم يتأوَّلوا الوجوه الأخرى لمعنى العبارة. فهاجتِ الأهوال وأطلَّ العنفُ من تحت الأرض، فالتهم أقدام الناس وارتوى بدمائهم ومضغَ قلوبهم وأطاش عقولهم. لأن العنف الديني أصيلٌ، نظاميٌّ، مقدس، لا يلبث إن لم تُطفأ شرارات ابتدائه، أن تثور شرور نهاياته، فتندفع في أرض الله المرعباتُ العادياتُ ضَبْحًا، وتدقُّ الطرقاتِ سنابكُ الخيل المورياتُ قَدْحًا، وتفزع الناسَ الجحافلُ المغيراتُ صُبْحًا، المثيراتُ به نَقْعًا.

وموضوعات هذا الفصل من الكتاب، هي وقفات عند بعض نقاط الخلاف (الديني) لمعرفة أسرارها، تلافيًا لانقلابها من حالة الشرارات إلى احتدام الشرور بين الناس. والأمرُ هنا يقتضي الإشارة إلى أن الرؤى والأفكار التي نطرحها عبر الصفحات التاليات، لم تُكتب للمبتدئين ولا لأنصاف المتعلمين، ولا للمفتِّشين عن السقطات، ولا للساقطين في مهاوي التعصُّب، ولا للمتاجرين بالدين والراغبين في إذكاء الخلاف ابتغاء منافع شخصية ونزعات دنيوية ونزغات شيطانية.

تحصيلُ الفلوسِ بالجزية أو بالمكوس

طفرت فجأة في واقعنا المصري المعاصر، مسألة «الجزية» التي أطلَّت أولًا على استحياءٍ على لسان بعض المتحدثين وفي سطور بعض الكَتَبة، ولم تؤخذ مأخذ الجد، ثم توالى ظهورها وتكررت في كلام أولئك وهؤلاء، حتى صارت من أكثر الكلمات ذيوعًا هذه الأيام. ومَنْ أراد أن يفاجئ نفسه بهذا الذيوع المفاجئ، عليه أن يترك قراءة هذه المقالة ويبحث في الإنترنت عن السياقات التي تَرِدُ فيها كلمة «جزية» حيث سيجد عشرات الآلاف منها، إما في كلام مباشر أو في إشارات غير مباشرة. والذي يهمنا هنا

من ذلك هو (الفهم) الجديد للجزية عند أولئك وهؤلاء. ومقصودي بأولئك إخواننا من المسلمين المتحمِّسين الغاضبين، الذين يسمِّيهم البعضُ الإسلاميين، والبعضُ الجماعات، والبعضُ المتشدِّدين؛ وهم يرون فيما يرون، أن على المسيحيين في مصر دفع الجزية. ومقصودي بهؤلاء، إخواننا من المسيحيين المتحمِّسين الغاضبين، الذين يسمِّيهم البعضُ الأقباط، والبعضُ بأسماءٍ أخرى (الأرثوذكس المصريين، المرقسيين، المونوفيست، اليعاقبة، اللاخلقيدونيين.. إلخ) وهؤلاء في العادة يتكلم بالنيابة عنهم فريقان: رجالُ الدين، وأهلُ المهجر. ومؤخرًا نشرت الصحف وصفحات الإنترنت، كلامًا عجيبًا لواحدٍ من كبار رجال الدين (القبطي) يقول فيه إن كنيسته تؤيد توريث الحكم (الجمهوري) في مصر، لأن جمال مبارك شخصٌ لطيفٌ وحسني مبارك رجلٌ طيبٌ لا يطالب الأقباط بسداد الجزية. هكذا قال أو بالأحرى تَقَوَّل، فالله المستعان على ما يقولون ويتقوَّلون ويخبطون في عمايةٍ كالمتخبطين، من دون تدبُّر لخطورة انتقال هذا الخبط العشوائي من (كلام غير دقيق) إلى (كلام سخيف) إلى (كلام مكلوم) إلى أفعالٍ قائمةٍ على الكلام الخلافي، منذرةٍ بالعنف الاختلافي المقدَّس.

الجزية.. الخراج.. المكوس.. الضرائب.. الرسوم.. هذه كلها مفردات لا شأن لها في الأصل بالدين، إسلامًا كان أو غير إسلام، لكنها مفاهيم اقتصادية في الأساس يُعبر عنها الآن بصيغة معاصرة هي مصادر الدخل العام، لكنها ارتبطت مؤخرًا في الأذهان زُورًا، بالفتح الإسلامي لمصر. أو الغزو حسبما يطيب لبعض «نابهي» الأقباط المعاصرين تسميته، كنوعٍ من الإدانة له! بينما الأمر من الجهة المقابلة (الإسلامية) لا يتضمن أيَّ إدانة. فالمسلمون طيلة تاريخهم يسمّون الفتوحات من دون حرج «المغازي» ويؤرِّخون في السيرة النبوية لحروب النبي تحت عنوان «غزوات النبي» ويمدحون البطل بأنه «الغازي» ويسمون بعض أطفالهم «غازي» وبعض مدنهم «بني غازي» من دون أيِّ شعور بالإدانة المرادة عند استعمال كلمة (غزو مصر) بدلًا من فتح مصر، وهو ما يرتبط مؤخرًا في الأذهان بمفهوم مضطرب المعنى هو «أهل الذمة» حتى إن بعض الإسلاميين المعاصرين يشير إلى أقباط مصر بأنهم أهل ذمة، ومن ثم فإن عليهم دفع الجزية، ومن ثم فالرئيس (مبارك) رجلٌ طيبٌ لأنه لا يأخذ من الأقباط

الجزية. وهذا بالطبع خلطٌ وتخليطٌ من أولئك وهؤلاء، أخشى إن أهملنا النظر فيه أن ينقلب نزاعًا يؤجِّجه الاحتقان الحالي بين الفريقين. ولذلك نقول:

الذمَّة في اللغة العربية وفي المفهوم الفقهي الإسلامي، تعني (الأمان) وهي لا ترتبط بأيِّ معنى سلبي. بل على العكس، كان العربي يمتدح القوم القريبين منه بأن لهم ذمة، وفي شعر المتنبي «إن المعارف في أهل النُّهى ذمم» وفي كلامنا العاميّ المعاصر إذا استحلفنا شخصًا بأمرٍ عزيز، قلنا: بذمّتك؟.. إذن «الذمة» ليست أمرًا مذمومًا، مهما ظنَّ (المتأسلمون) أنهم يُهينون الأقباط بإطلاق هذا الوصف عليهم. وهي لا تتضمن في أصلها أيَّ انتقاص، مهما ظنَّ (المتأقبطون) أنها تقليل من شأنهم. ولم يكن نبي الإسلام يقصد بها أيَّ معانٍ سلبية حين أوصى بأهل مصر (القبط) خيرًا، لأن لهم حسبما ورد في الحديث الشريف: رَحِمًا وذمةً.. غير أن المتأسلمين المعاصرين والمتأقبطين، كليهما، صاروا يُحيلون كلامهم إلى نَواحٍ تخدم حالة النُّواح المزمن الذي صار الفريقان يلتذَّان به، من دون انتباه إلى أن بقية الناس قد يقعون فريسة لهذا النُّواح الذي سرعانَ ما ينقلب نحيبًا ثم مهارشةً ثم مكافحةً ثم صراعًا، مع أن أساسه وهميٌّ تمامًا.

والعجيب في هذا الأمر أن الذمة (عقدٌ) سنويٌّ لم يعد يعقد منذ قرون طوال، فقد صار المصريون جميعًا يعانون الحرب معًا ولا يدافع بعضهم عن بعض مقابل ضريبة سنوية، هي التي كانت تسمَّى الجزية. ومن ثم فلا معنى أصلًا لطرح هذا الأمر من الأساس، فضلًا عن الاختلاف حوله والاستشهاد به من جهة أولئك وهؤلاء، وما أرى هدفهم من ذلك إلا تحقيق أغراض في نفوسهم لا صلة لها أصلًا بهذا الدين أو ذاك، وإنما هي حذلقات فذلكات يخدعون بها الناس في بلادنا. الناس المساكين ذهنيًّا، الذين يسمِّيهم المتأسلمون (الجمهور) ويسمِّيهم المتأقبطون (الشعب) وكأن هناك تصنيفًا حقيقيًّا للمصريين بناءً على انتمائهم الديني، وكأن «الجمهور» في كلام المتأسلم لا يشمل المسيحيين، وكأن «الشعب» في كلام المتأقبط لا يشمل المسلمين. مع أن المصريين جميعًا، شئنا ذلك أم أبيناه، صاروا مع الأيام كِيانًا واحدًا في ذمة واحدة. هي ذمَّة التخلُّف، وفقر الفكر، وفكر الفقر، وعُصاب التعصُّب وتعصُّب العُصابيين من المستفيدين بالخلاف. سواءً من أولئك أو من هؤلاء.

ولمن أراد التدقيق في معرفة حقيقة «الجزية» وكيف أنها لا ترتبط عقائديًّا بالدين الإسلامي ولا تاريخيًّا بأقباط مصر، نسوق الشواهد المستقاة من المتون (الكتب التاريخية، والحواشي (الشروح) الفقهية، والوقائع (الحوادث) الفعلية التي تؤكِّد أن الناس صاروا اليوم في وهمٍ عظيم.. ولسوف نجمل ذلك في النقاط التاليات:

أولًا: الجزيةُ مفهومٌ عربيٌّ سابق على الإسلام، حيث كانت القبائل والعشائر «تُجير» بعضُها بعضًا، مقابل رسوم معلومة يدفعها الذي لا يرغب في خوض الحروب، لمن يتولَّى الدفاع عنه عند اللزوم. فهي أشبه بما نعرفه اليوم تحت اسم الأحلاف العسكرية بين الدول أو اتفاقيات الدفاع المشترك، أو هي تُشبه على نحوٍ أكثر محدوديةٍ تأجيرُ شركات الأمن والخدمات التأمينية (الحراسة).. ولما جاء الإسلام استخدم المسلمون كثيرًا من التقاليد العربية التي كان معمولًا بها من قبل، ومنها هذا التقليد المسمَّى بمفردات متطابقة الدلالة مثل «إجارة» أو «عقد ذمة» أو «عهد أمان» وغير ذلك. ومن ثم فلا معنى لمخادعة الناس اليوم، بطرح هذا الأمر وكأنه أصل من الأصول الدينية.

ثانيًا: لم يكن الأقباط حين جاء عمرو بن العاص فاتحًا (غازيًا) هم الذين يحكمون مصر، كي يمكن الزعم بأنه أخذها منهم أو احتلَّها من أصحابها الأصليين، فالذي كان يملك مصر هو الإمبراطور هرقل وقبله بسنواتٍ قليلة الفرسُ (البابيلون) وقبلهم بسنوات نيقتاس[1]، وهؤلاء جميعًا ليسوا مصريين أصلاً، ولا أقباطًا أصلاً. بل الأكثر من ذلك، أن مصر طيلة تاريخها لم يحكمها حاكم قبطي (قَطُّ) لا في أيام عمرو بن العاص، ولا قبله ولا بعده. ومن هنا، فإن خرافة (أصحاب البلد) التي بدأت تروَّج مؤخرًا، هي محض خرافةٍ وترويجٍ للأكاذيب. وإلا، فليذكر لنا هؤلاء الزاعمون المروِّجون لذلك الكذب، اسمًا واحدًا لحاكم قبطي تولَّى حكم هذا البلد.

---

(١) قائد بيزنطي كان حاكمًا لمصر بالنيابة عن «هرقل» الذي أسند له تدبير الثورة التي أطاحت بحكم الإمبراطور السابق «فوكاس».. ودخل «نيقتاس» مصر بجيش، وظل يحكمها لصالح هرقل، حتى هرب منها عند غزو الفرس للديار المصرية. وهو الغزو الذي ظلَّ بعده الفرسُ يحكمون مصر لقرابة عشر سنوات، ثم استردَّها هرقل منهم.

ثالثًا: في الزمن الذي كان فيه تقليدُ «الجزية» معمولًا به، كان هناك أيضًا «الخراج» وسيلة من وسائل تمويل الدخل العام الذي يُنفق منه على المنافع العامة ومتطلبات الدفاع. فالجزية والخراج هما (الضرائب العامة) التي يدفعها المسلم تحت اسم الخراج، وغير المسلم باسم الجزية. وكلاهما كان يسمّى قبل مجيء الإسلام لمصر ودخول معظم المصريين فيه، باللفظ اليوناني MAKSO الذي حُرِّف وصار «المكس» ولذلك يُسَمَّى أحد أحياء الإسكندرية إلى اليوم بالمكس، لأن الضرائب كانت تُدفع للروم هناك. ولما جاء المسلمون لاستلام حكم مصر من «المقوقس» حسبما أوضحنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، لم يكن همُّهم تحصيل أعلى قدر من الضرائب العامة، جزيةً أو خراجًا أو مكوسًا. وهو ما يظهر لنا من قول «عمرو بن العاص» لأحد أساقفة مصر المعاصرين له (ولا نعرف إن كان هذا الأسقف قبطيًّا أم بيزنطيًّا) حين سأله الأسقف عن القدر المالي المطلوب دفعه كل عام، فردَّ عليه: «لو جئتَ لي بملء هذه الكنيسة ذهبًا ما أخذته منك، فأنتم خزانة لنا، إن يسَّر الله علينا يسَّرنا عليكم وإن عسَّر عسَّرنا».. وقد اعترض عمرو بن العاص نفسه، على الخليفة عثمان بن عفان حين ضغط نائبه في مصر «عبد الله بن أبي سَرْح» على البلاد، فجمع منها مالًا كثيرًا. وهذه الواقعة مشهورة في التاريخ الإسلامي، ورواها عدد كبير من المؤرخين والإخباريين ورواة السيرة والتراجم.

رابعًا: لم يكن نظام «الجزية» معمولًا به في كل البلاد التي فتحها المسلمون، بل إن النبيَّ نفسه أسقطها عن أهل «نجران» مقابل بعض الأثواب التي كانوا ماهرين في صناعتها، والتعهُّدِ بأن يستضيفوا الذين يمرون عليهم من المسلمين. وقد أسقط عمر بن الخطاب (الخليفة) الجزية عن أهل قبيلة «تغلب» التي كانت من كُبريات القبائل المسيحية في العراق، وعَزَّ على أهلها دفع الجزية. كما أسقطها الخليفةُ عن الشعوب غير المسلمة في آسيا، وعن بعض نواحي أنطاكية، في مقابل بعض التسهيلات (اللوجستية) التي تعهَّدوا بها.

خامسًا: إن عقود الذمة والجزية التي تم إبرامها في بدء الانتشار الإسلامي في العالم، كانت تتضمن نصوصًا مثل ذلك النصّ الذي ورد في عهد خالد بن الوليد مع المسيحيين

من أهل «الحيرة» حيث جاء فيه: أيُّ شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه، طُرِحَتْ عنه الجزية وعِيل (حصل على راتب) من بيت مال المسلمين. وعندما وجد الخليفة عمر بن الخطاب يهوديًا يسأل الناس (شحّاذ) وعرف منه أنه لا يملك شيئًا ولا يستطيع دفع الجزية، أعطاه من ماله الخاص ثم أخذه إلى خازن بيت المال (وزير المالية) وأمره أن يُسقط عنه وعن أمثاله الجزية. وبعد ذلك بزمان، كتب الخليفة «عمر بن عبد العزيز» إلى نوابه في الأقاليم والبلاد، ما نصُّه: إن كان عندكم من أهل الذمة، مَنْ كبر سنه وضعفت قوته وولَّت عنه المكاسب، فأجروا عليه رزقًا (رواتب) من بيت مال المسلمين. وقال القرطبي: الجزية توضع على الرجال الأحرار البالغين الذين لا يقاتلون، ولا تكون على النساء والذرية والعبيد والمجانين والمغلوبين على عقولهم، ولا على الشيخ الفاني (كبير السن).

سادسًا: كانت من وسائل الدخل العام وتحصيل الفلوس: الجزية، المكوس، الخراج، التعشير، الزكاة، فداء الأسرى (الاكتتاب العام) الوقف (المشروعات القومية القائمة على التبرعات).. فليكفَّ مثيرو اللغط من أولئك وهؤلاء، عن الطنطنة الفارغة بحكاية الجزية، رغبةً منهم في تهييج بواطن أهل البلد بعضهم على بعض.

القبطيةُ صناعةٌ عربيةٌ إسلاميةٌ

«أقباط مصر.. أقباط المهجر.. الكنيسة القبطية.. المرحلة القبطية.. الزمن القبطي السابق على الفتح العربي لمصر.. مؤتمر القبطيات.. منظمة أقباط الولايات المتحدة.. موقع الأقباط المتحدون.. صوم القبط.. أعياد الأقباط».. هذه التعبيرات ومثلها كثيرٌ، هي تسميات مشهورة ومفاهيم عامة وعناوين اشتهرت مؤخرًا على الألسنة وتداولتها الأقلام، حتى أنه لم يعد من الممكن الشك، مجرد الشكّ، في مسألة (القبطية) ومشتقاتها الكثيرة، باعتبار أن لها معنًى محددًا ودلالة واضحة تشير إلى جماعة معينة، وصنفٍ مخصوص من المصريين يتميز بالدين (المسيحي) عن أصحاب الدين الإسلامي، فكأن أولئك وهؤلاء منفصلون. غير أننا سنرى فيما يلي أن (القبطية) هي مفهوم معاصر يرتبط بالضرورة بالثقافة العربية منذ زمن «ما قبل الإسلام» ولا يمكن لهذا المفهوم أن

يوجد خارج هذه الثقافة. والأمر يقتضي مِنَّا الرجوع في الزمن إلى الوراء قليلًا، ثم نتقدم منه إلى زمننا الحالي خطوةً خطوة، فنفهم (السِّرَّ) الكامن وراء هذا الخلاف الموهوم بين المصريين، عبر تصنيفهم (السخيف) إلى مسلم وقبطي بناءً على اختلاف ديانة كل منهما، وكأن الديانات صارت أوطانًا لها هويات.

انتشرت المسيحيةُ في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، انتشارًا رتيبًا هادئًا كان لا بد من حدوثه. فالإمبراطورية الرومانية كانت قد سارت آنذاك في سُبل الاضمحلال التدريجي بعدما استطاعت بَسْطَ جناحيها على الشرق والغرب، وأدخلت (مصر) إلى حدود الإمبراطورية التي عاشت زمنًا مجيدًا، ثم بدأ اندثارها مع انتشار مظاهر البذخ والخلاعة، وانغماس سكان روما والمدن الكبرى (التي تؤدي إليها كل الطرق، تؤدي هي إلى روما باعتبارها عاصمة العالم آنذاك) في اللهو والمجون والمتع الحسية، على نحوٍ فاق كل الحدود وتجاوز حدود المعقول إلى آفاق اللامعقول. وحسبما يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، وهي مقدمة «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» فإن التَّرفَ يؤدي بالضرورة إلى انحلال السلطة السياسية. وهو ما حدث فعلًا مع الإمبراطورية الرومانية التي أخذت أوصالها تتفكك، وراح قلبها يهترئ، حتى سقطت أسوارها سنة ٤١٠ ميلادية أمام جحافل القوط (الألمان) ولم تعد من يومها إلى سابق عهدها المجيد قطُّ، مما أفسح مجال المنافسة على زعامة العالم أمام مدنٍ أخرى مثل أنطاكية والإسكندرية. ودخلت حلبة هذه المنافسة، مدينةُ المقر الإمبراطوري: بيزنطة (القسطنطينية، إسطنبول) التي بناها الإمبراطور قسطنطين الكبير الذي تبنَّى المسيحية وتسامح معها باعتبارها إحدى الديانات الكثيرة المعترف بها آنذاك، فضمن بذلك ولاء المسيحيين الذين كان عددهم قد ازداد تدريجيًّا فصاروا في زمانه (بداية القرن الرابع الميلادي) يمثلون عشرة بالمائة من مجموع السكان.

ومن منتصف القرن الرابع الميلادي، وحتى امتلاك المسلمين لأنحاء الإمبراطورية الرومانية في طورها الثاني: البيزنطي (دولة الروم، لا الرومان) وهو ما حدث في النصف الأول من القرن السابع الميلادي؛ مضت سنوات طوال تنافست فيها المدن

الكبرى على زعامة العالم عوضًا عن روما. ومع الانتشار الواسع للديانة المسيحية، كان لا بد أن يكون التنافس دينيًّا، فاتخذت الإسكندرية مذهبًا وأنطاكية مذهبًا آخر وروما مذهبًا ثالثًا وبيزنطة مذهبًا رابعًا، وهكذا. وكانت هناك تقلُّبات في هذه المذاهب التي تشكَّلت وتحددت مواقفها العقائدية، في المؤتمرات الكنسية الدولية التي سُمِّيت اصطلاحًا بالمجامع المسكونية[1]. خاصةً مجامع: نيقية، سنة ٣٢٥ ميلادية، حيث استعلنت الإسكندرية على الجميع. وإفسوس، سنة ٤٣١ ميلادية، حيث انتصرت الإسكندرية بصعوبة على بيزنطة. وخلقيدونية سنة ٤٥١، حيث أُهينت الإسكندرية وخرجت من الساحة العالمية إلى غير رجعة.. وفي مجمع خلقيدونية، هجم الأساقفةُ الممثلون لكُبريات الكنائس العالمية (المسكونية) على أسقف (بابا) الإسكندرية المسكين «ديوسقوروس» ونتفوا شعر لحيته وضربوه بالنعال، فكان من الطبيعي أن يغضب أتباعه في مصر والشام خصوصًا بعدما تبنَّى القسيس (القَسّ) السوري «يعقوب البرادعي» وجهة نظر الإسكندرانيين في العقيدة المسيحية، وهي العقيدة التي أدت إلى اختلاف الكنائس الكبرى الأرثوذكسية (أي أصحاب الإيمان القويم) بسبب الجدل حول طبيعة السيد المسيح: هل (الابن) و(الآب) من طبيعة واحدة، أم عن طبيعة واحدة؟ وما بين «من» و «عن» حدث خلاف عظيم كان السرُّ فيه هو السعي إلى زعامة العالم المسيحي، وهو ما أدى إلى اختلاف مروِّع تسبَّب في جريان أنهار الدم بين أولئك وهؤلاء. لأن الإسكندرانيين لم يرضوا بالأساقفة الذين كانت بيزنطة (العاصمة الإمبراطورية) ترسلهم، فكانوا يختارون من بينهم هم أساقفة آخرين (بابوات) ويقتلون المرسَلين من بيزنطة وروما. وقد حدثت بين الفريقين في الإسكندرية وقائع مروِّعة، وجرى في شوارع المدينة دَمٌ كثير، لأن الإسكندرانيين الذين لم يوافقوا على مجمع خلقيدونية، فصار اسمهم «اللاخلقيدونيين» كانوا يهجمون على الأساقفة الخلقيدونيين فيفتكون بهم فتكا شديدًا، فيفتك بهم الآخرون. ولا أريد هنا

---

(١) هي اجتماعاتٌ كانت تُقام لرؤساء الكنائس (الآباء) لضبط أمور الديانة، على هيئة مؤتمرات غير دورية، منها ما هو محلِّي (مجمع مكاني) وما هو عالمي (مجمع مسكوني).. والعجيبُ، أن هذه الاجتماعات الهادفة أصلًا إلى توحيد الكلمة، كانت سببًا في الانشقاق بين الكنائس الكبرى.

أن أُفزع القارئ بذكر هذه الوقائع المروِّعة، ويكفي أن نذكر أن الأسقف «البابا» الذي اختاره الإسكندرانيون، وهو الأمبا تيموثيوس[1] الملقَّب بالقط أو ابن عرس، قتل الأسقف أو البابا «بروتيروس» المرسَل من بيزنطة. قتله في قلب كنيسة الإسكندرية، بل في مكان المعمودية المقدس. وكما مَرَّ بنا سابقًا، فقد قتل الأسقفُ الشنيع كيرس (قيرس) الملقَّبُ بالمقوقس عشرين ألفًا في ميدان محطة الرمل بالإسكندرية، في يوم واحد، لأنهم لم يوافقوا على المقترَح العقائدي الذي طرحه عليهم لحلِّ مشكلة طبيعة المسيح.

ولم تكن كنيسة الإسكندرية آنذاك تسمى «القبطية» ولا كان أتباعها يعرفون بالأقباط، وإنما كان يقال لهم «اليعاقبة» نسبةً إلى يعقوب البرادعي، و«مونوفيست» نسبة إلى الكلمة اليونانية التي تعني الطبيعة الواحدة، و«الإسكندرانيون» نسبة إلى العاصمة المصرية التي تهيمن على أديرة وادي النطرون الذي كان اسمه آنذاك وادي هبيب. ولم يعترف هؤلاء بهذه التسميات، واختاروا لأنفسهم فيما بعد اسم (المرقسيون) نسبةً إلى مرقس الرسول الذي بشَّر (كرَز) في الإسكندرية وقُتل فيها (استشهد) على أيدي الرومان سنة ٦٨ ميلادية. وهي تسميةٌ لم توافق عليها بقية الكنائس الكبرى في العالم، لأن الكنائس لو حملت أسماء الرسل (الحواريين) لكان هناك الكنيسة اليوحناوية والكنيسة البطرسية والكنيسة المتَّاوية.. إلخ، وهذا غير معمول به.

كانت هناك إذن، مشكلةٌ في تسمية هؤلاء «اللاخلقيدونيين، اليعاقبة، المونوفيست، المرقسيين، الإسكندرانيين» ولم يكن من المعتاد أن يُشار إليهم بالمصريين أو الكنيسة المصرية، لأن مصر آنذاك كان بها كنائس أخرى مثلما هو الحال اليوم، وكانت أهمها وأكثرها أتباعًا آنذاك هي كنيسة الخلقيدونيين «الملكانيين، أتباع الملك، الروم الأرثوذكس».

وكان العرب يشيرون إلى سكان مصر باستعمال وصفين، الوصفُ الأول هو (المصريون) وهم أهل القبائل العربية التي كانت تعيش في مصر من قبل الفتح بقرون

(١) يُكتب أيضًا: تيموثاوس.

طوال، وكان ستون بالمائة من أهل عاصمة الصعيد «قوص» يتكلمون العربية منذ القرن الخامس الميلادي، أو هؤلاء الذين جاءوا لاحقًا مع عمرو بن العاص واستقروا بمصر. هؤلاء جميعًا يسمِّيهم العربُ «المصريين» ولذلك نقرأ في كتب التاريخ الإسلامي، أن الخليفة عثمان بن عفان «قتَله المصريون» والمراد بهم هنا، العرب المسلمون الذين كانوا يعيشون بمصر. والصِّنف الآخر من أهل مصر، بحسب التسمية العربية التي كانت مستعملة آنذاك، هم «القبط» وهم أهل مصر من المسيحيين، بصرف النظر عن مذهبهم العقائدي. وقد استعمل العرب كلمة «قبط» استنادًا إلى الكلمة اليونانية «إجبتوس» بأن نزعوا كعادتهم اللاحقة الأخيرة (الواو والسين) فاستبقوا «إجبت» ونطقوها القبط، تميزًا للمسيحي في مصر عن مسيحي الشام والعراق الذين كانوا يسمُّونهم النصارى. وهي بالمناسبة تسمية غير دقيقة، ولكنها مأخوذة من التعبير القرآني الذي يشير إلى أن الحواريين (تلاميذ المسيح) هم «الأنصار» حسبما ورد في الآية القرآنية: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ...﴾.

كان العرب إذن، من قبل الإسلام ومن بعده، يُسمُّون المسيحين في مصر (القبط) بصرف النظر عن مذهبهم العقائدي. ولذلك نجد الرسالة المنسوبة إلى النبي محمد ﷺ مرسَلة إلى «المقوقس عظيم القبط» مع أن المقوقس كان الأسقف الملكاني (الخلقيدوني) بينما كان للآخرين الذين نعرفهم اليوم باسم الأقباط، أسقفٌ آخر هو بنيامين. وكان بنيامين آنذاك هاربًا من وجه «المقوقس» الذي يجب أن يُسَمَّى عصره بحق «عصر الاستشهاد» لأن الذين قتلهم المقوقسُ ببشاعةٍ مروِّعة، يزيدون بعشرات المرات عن جميع الذين قتلَهم الرومانُ في مصر خلال زمن الاضطهاد الذي امتد قرابة قرنين من الزمان، بسبب إيمانهم بالمسيحية وهروبهم من الزراعة إلى الصحراء، وهو ما سوف يُعرف اصطلاحًا بحركة الرهبنة. وأعتقد أن الكنيسة (القبطية) المعاصرة، يجب عليها أن تتخلى عن التقويم الخاص الذي تعمل به حاليًا، أعني التقويم المسمى «تقويم عصر الشهداء» أو «التقويم القبطي» وهو الذي يبدأ من سنة ٢٨٤ ميلادية، باعتبارها السنة التي تولى فيها دقلديانوس الحكم. ومن الممكن أن يجعلوا إن أرادوا، سنة مجيء المقوقس إلى مصر هي بداية هذا التقويم الخاص بهم، إن كان هناك ضرورة أصلًا

لأن يكون هناك تقويمٌ خاصٌّ بهم، في مقابل التقويم الهجري الذي يحبه الإسلاميون ولا يعرفه اليوم معظم المسلمين. وإنني أقترح ذلك، لأنه في حقيقة الأمر ووفقًا للتاريخ الفعلي، فإن دقلديانوس لم يقتل من (الشهداء) إلا أقل القليل بالقياس إلى المقوقس الذي استشهد على يديه عشرات الآلاف مدفوعين بحبِّ الاستشهاد. وسوف أعود للكلام عن هذا «الجهاد وحبِّ الاستشهاد» بعد قليل.

إذن، فالتسمية ذاتها «القبطية» هي تسميةٌ عربية إسلامية، ولم تكن تفرق بين أتباع الكنائس المصرية. ولما استقرت مصر بيدِ عمرو بن العاص، بعد فتحه (الثاني) لمدينة الإسكندرية التي غاظته كثيرًا بسبب تمردها عليه، حتى أنه أقسم أمام أبوابها بأن يهدم أسوارها، بقوله: والله لئن ملكتها لأجعلنَّها مثل بيت الزانية (أي بلا أبواب، وغير حصينة) وقد قام بذلك فعلًا، فخرَّب سورها ونزع عنها البوابات وعَرَضَ على أهلها الرحيل بما يملكون، إن أرادوا. فكان الأغنياء (الملكانيون) يرحلون عنها بممتلكاتهم بحرًا إلى بيزنطة وبقية أنحاء أوروبا، بينما يمكث فيها الفقراء (اللاخلقيدونيون، اليعاقبة، المونوفيست، المرقسيون) فَرِحين برحيل أعدائهم في المذهب الديني، مهما أخذوا معهم من أموال وممتلكات. ومن هنا، جاء التعبير المصري الشهير الذي لا يزال يتردد على الألسنة إلى اليوم، كلَّما رحل عنا شخص أو جماعة غير مأسوف على رحيلهم يقولون بالعامية: «المركب اللي توَدِّي».

وعلى هذا النحو المشار إليه، قام المسلمون بغير قصدٍ بتفريغ مصر من أتباع المذهب الخلقيدوني، فأسهموا بذلك في استقرار أعدائهم الذين نسمِّيهم اليوم (الأقباط) استنادًا إلى التسمية العربية. وبالطبع، لم يرحل جميع المسيحيين (الملكانيين) بل ظلت لهم كنائس وبِيَعٌ وممتلكات يدفعون عنها الجزية في مقابل الأمن، ولكن هذا الوضع الجديد سمح لإخواننا الذين نسميهم اليوم، ويسمون أنفسهم «الأقباط» بالاستقرار والزيادة العددية. خصوصًا أن عمرو بن العاص أطلق لرئيسهم الديني «الأنبا بنيامين»، أمانًا عامًّا يدعوه فيه للخروج من مخبئه والمجيء بسلامٍ لرعاية أتباعه[1]. وقد استجاب بنيامين

(١) انظر تفصيل ذلك، في الفصل القادم.

(الأسقف، الأمبا، البابا) وجاء إلى عمرو بن العاص الذي التزم بما وعده به، وترك له الحرية التي كان محرومًا منها وسمح له بتجديد الكنائس وتنظيم أمور رعاياه، رغبةً من الفاتح (الغازي) العربي المسلم العظيم، عمرو بن العاص، في استقرار الأحوال بمصر. لأنه كان قد أحبَّ هذه البلاد، ونظر إليها باعتبارها (خزانة الإسلام) ولذلك غضب لاحقًا عندما أرهقها «عبد الله بن أبي سرح» بالمكوس وضغط على أهلها لتحصيل الجزية، وتحسَّر حين عُزل عنها، فظل يتوسَّل السبل حتى حكم مصر وظل يحكمها حتى وفاته. فلما استقرت بيدِه، استقر أهلها من (المصريين) ومن (القبط) على اختلاف كنائسهم.

من هنا، أدعو إخواني (الأقباط) لتصحيح فكرتهم النمطية عن مسألة فتح مصر، وأدعو (المتأسلمين) إلى الكفِّ عن النظر إلى المسيحيين المصريين على أنهم غرباء في وطنهم، وأدعو (المتأقبطين) إلى الكفِّ عن تلك الخرافة التي تقول: إن مصر وطن الأقباط بالمعنى السياسي المعاصر، وإن العرب المسلمين سلبوا البلاد من أيديهم.. فهي لم تكن يومًا بأيديهم.

المتأسلمون والمتأقبطون

التأسلمُ والتأقبطُ، وصفان صارا مؤخرًا يدلان على اللواء الذي ترفعه جماعتان لا قوام لهما ولا مقام، وقد سَمَّيْتُ الجماعة الأولى «المتأسلمين» وسوف أُسمِّي الجماعة الأخرى «المتأقبطين» بناءً على ما سوف نشير إليه من نهج أولئك وهؤلاء. وبالطبع، فإن للأسماء في جذور ثقافتنا المعاصرة حضورًا وحيوية ومحورية، ومقصودي بجذور ثقافتنا هو تلك الأعماق التاريخية التي ابتدأت منها أصول هذه «الثقافة»، بحسب التعريف الشهير لإدوارد تايلور: الثقافة هي نمطٌ من حياة جماعة، بكل ما يشتمل عليه هذا النمط من لغة وعادات وتقاليد وأساليب تفكير.. إلخ.

ومن البديهي أن أعماق ثقافتنا المعاصرة هي المصرية القديمة المسمَّاة التباسًا (الفرعونية) والعربية الإسلامية التي ترسَّخت في مصر عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان. وفي هذين «العُمقين» اعتناءٌ عظيمٌ بالأسماء، ففي مصر القديمة كانت الترنيمة الشهيرة

الواردة في كتاب «الخروج إلى النهار» المسمَّى اعتباطًا «كتاب الموتى» مع أن مصر القديمة لم تعرف لفظ أو معنى (الموت) الذي نقصده الآن! كانت الترنيمة تقول إن كل إنسان سوف يُنادَى يوم البعث، على النحو التالي:

انهضْ،
فلن تفنى،
لقد نُوديتَ باسمِك،
لقد بُعِثتَ!

ولذلك كان تغير الاسم في العقائد المصرية القديمة، يقترن باللعنة، إذا ارتكب الإنسان جُرمًا هائلًا مثل نبش القبور، فعندئذٍ يتغير اسمه. ومن دون ذلك فلا معنى ولا داعيَ لتغيير الأسماء، لأن الاسم الذي كان يقال في اللغة المصرية القديمة «الرِّنّ» هو من الصفات الجوهرية السبعة التي لا بد أن تقترن بالإنسان. وفي الرافد الآخر لثقافتنا المعاصرة، أعني «العربية الإسلامية» يؤدي الاسم دورًا خطيرًا في الدلالة على الإنسان وغير الإنسان، بل ترتبط الأسماء وتقترن بالمعرفة ذاتها. ولذلك قالت الآياتُ القرآنية إن الله حين خلق آدم (الإنسان) ودعا الملائكة للسجود له، فتأفَّفوا أولًا ثم سجدوا، حاشا إبليس الذي التبس عليه الأمر؛ لأنه خلط بين التوحيد والتفرد والتجريد، وبين الأمر والابتلاء.. المهم أن الله ربط ذلك كله بالمعرفة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ وهذه الآيات تدل على ارتباط الاسم بالمعرفة والعلم. ولذلك أرى من المهم تحديد (الأسماء) وضبطها، سواء كانت أسماء ذاتية، أو أسماء صفاتية.

والمتأسلمون اسم صفاتي أطلقه اليسار المصري على أعضاء (الجماعات) الإسلامية، بما يتضمن الإشارة الخفية إلى أن هؤلاء «الإرهابيين» ليسوا مسلمين وإنما مُدَّعون للإسلام، وهو منهم بريء. وهذه التسمية (متأسلم) صارت مع الوقت متداولة بالمعنى المشار إليه، من دون أن يحاول أحدٌ «الغوص» وراء «دلالات» هذه التسمية، أو النظر في آفاق هذه اللفظة الخطيرة. وما تطرحه على الجانب الآخر من

تفعيل مضاد للأسلمة والمتأسلمين، على صعيد الأقبطة والمتأقبطين. ومن دون أن يتنبه أحدٌ إلى «التقابل» بين أولئك وهؤلاء، وذلك «التفاعل» الجارى بينهما، وهو ما سوف نلفت إليه الأنظار عبر النقاط التالية:

أولًا: بدأت جذور التأسلم المعاصر، مبكرًا، مع نهاية القرن التاسع عشر، باعتباره تيارًا إصلاحيًّا يواجه تيارًا إصلاحيًّا آخر هو (العلمانية) بالمعنى الرديء، لهذه الكلمة. وقد أخفق التياران في تأسيس نهضة حقيقية ببلادنا، إذ انتهت العلمانية إلى «طنطنة» فارغة ومواجهة فاشلة مع الأديان، وانتهى التيار الإصلاحي الإسلامي إلى حالة اغترابٍ عن الواقع ويأسٍ تام عن «الإصلاح» بالحسنى، فخاطبوا الناس وجادلوهم بالتي هي أقبح. حتى انسكب عليهم «النفط» الآتي من خارج الحدود المصرية، فجعلوا الحياة في مصر جحيمًا مقيمًا، بدعوى عجيبة هي أن غير المسلم كافرٌ، يحلُّ ماله وعِرْضه ودمه.

وبدأ المتأقبطون دعاواهم العريضة، كردٍّ فعل مباشر على دعاوى المتأسلمين. بل ابتكروا دعوى أعرض وأسخف صاروا يعبِّرون عنها بصيغ كثيرة، منها أن مصر وطن الأقباط، وأن مصر قبطية، وأن الأقباط أصحاب البلد. وهذه الدعاوى، أراها طريقًا مخادعًا لإقناع الناس بالعجب العجاب، وسبيلًا لتمرير هواجس الجهلاء إلى الجهلاء، ووسيلةً تسعى إلى ضرب القلب بالأذناب.

ثانيًا: دخل الفريقان «المتأسلمون والمتأقبطون» مؤخَّرًا، في مواجهات خفية وعلنية. فمن اعتداءات علنية «متأسلمة» على المصريين المتَّشحين بالقبطية، إلى شكوى دولية وعويلٍ عالمي من ضراوة «اضطهاد الأقباط في مصر» ومن مواقع إنترنت «علنية» يهاجم فيها المتأسلمون (المسيحية) من دون تفرقة بين مذاهبها العقائدية، إلى مواقع متأقبطة تهاجم الإسلام والمسلمين وتحتفي بالذين يلتقطون من كتب التراث الإسلامي حكايات مردودًا عليها، فينشرونها على الناس من دون ردودها.

ولعل هذه المواجهة العلنية، هي أهون خطرًا من المواجهات الخفية والأفاعيل الرمزية التي تنزُّ من الطرفين. فالمتأسلمون يطلقون اللّحى وينقِّبون النساء ويحجِّبونهنَّ، كعلامة صريحة تفرق بين المسلم وغير المسلم، من دون اعتبار لحقائق من مثل: أن

كُفَّار قريش كانوا يطلقون لحاهم أيضًا ويرتدون الجلابيب.. وأن النقاب والحجاب كانا في الأصل تقليدًا يهوديًا انسرب من اليهودية التي تكره المرأة، إلى المسيحيين ثم إلى المسلمين.

وفي المقابل من تلك المواجهة الخفية، الرمزية، بالغ المتأقبطون في دَقِّ الصلبان على أيدي أبنائهم، كعلامة على أنهم أقباطٌ للأبد. وتقوقع الشباب (القبطي) على نفسه، ابتداءً من مجموعات مدارس الأحد واجتماعاتها التي تقطر مرارةً وإحساسًا بالظلم والاضطهاد، إلى لقاءات الكنائس أيام الآحاد لاختيار الزيجة المناسبة «المباركة» إلى السؤال التقليدي الذي صار (القبطي) يسأله لأخيه القبطي بعبارة من مثل: متى تناولتَ آخر مرة؟ كم طلب هجرة تقدَّمتَ به؟ هل لك أقارب بالخارج من أقباط المهجر.. أقباط المهجر! إذا صَحَّ ما يدَّعون من أن «قبطي» تعني «مصري» فهل نصحِّح عبارة مصطفى كامل الشهيرة، لتكون: لو لم أكن مصريًا لوددتُ أن أكون قبطيًا بالخارج.

ثالثًا: صار أقطاب المتأسلمين والمتأقبطين، كهنةً يوجِّهون العقول بإطلاق البخور وإهداء المسابح. وبالمناسبة، فالمسبحة تقليدٌ أصله مسيحيٌ وليس إسلاميًا، حسبما يظن معاصرونا المعصورون في مأزق التخلف. وبينما اتخذ المتأسلمون صورة نمطية تقترن إعلاميًا باللحى الشعثاء الدالة على الهدى الإلهي، ادَّعى الكُهَّان المتأقبطون لأنفسهم صورةً تقترن دومًا بالمسكنة والتباكي ونحيب المحبة. لكنك لا تكاد تحك جلد الواحد من أولئك أو هؤلاء، إلا ويظهر الوجه المقيت لكليهما، فما (الهدى) الذي يزعمه المتأسلمون وما (المحبة) التي يزعمها المتأقبطون؛ إلا قشرة تخفي الهول الذي يملأ قلب المتأسلم والمتأقبط على السواء.

رابعًا: صار للمتأسلمين وللمتأقبطين أنظمة مستترة وكيانات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. من ذلك ما يسمِّيه المتأسلمون (الدعوة) ويسميه المتأقبطون (الكرازة) وهي كلمة تعني حرفيًا الدعوة أو التبشير. والعجيب أن أولئك وهؤلاء، يدعون المدعوَّ ويكرِّزون المكرَّز، فالدعوة إلى (الإسلام) لم تعد تستهدف الشعوب والجماعات الوثنية أو البدائية التي لم تبلغها الرسالة السماوية، وإنما صارت تتم في ديار الإسلام

ذاتها، فتدعو للإسلام المسلمين فعلًا، وتُهمل الذين لا دين لهم. وفي المقابل يكرِّز المكرِّزون (يبشِّر المبشِّرون) مَنْ هم بالفعل داخل نطاق كنيستهم، أي مذهبهم العقائدي المسمَّى بأسماء لم يُنزِّل الله بها من سلطان.. ويا لَسعادة أولئك إذا دخل الإسلام شخصٌ كان مسيحيًا، كأن المسلمين يعانون من نقصٍ عددي! وياالسعادة هؤلاء إن وجدوا شخصًا يرتدُّ عن الإسلام إلى المسيحية، وكأنهم بذلك قد أثبتوا أن الدين الإسلامي باطل وأن المسيحية هي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فالله المستعان على أولئك، وعلى هؤلاء.

خامسًا: نسي المتأسلمون والمتأقبطون أنهم يتمون لبلدٍ واحدٍ اسمه مصر، ويتكلمون لغةً واحدةً هي العربية، ويعانون الواقع ذاته. ومع ذلك، نرى المتأسلمين يردِّدون عبارات من مثل «الإسلام وطن» ونرى المتأقبطين يردِّدون ما لا يفهمون، من نوع العبارة: مصر ليست وطنًا نعيش فيه، بل وطن يعيش فينا. وما بين زعم أولئك ووهم هؤلاء، لم تعد مصر وطنًا لأحدٍ وصارت قنبلةً موقوتة قد تنفجر في وجه الجميع.

..وبعدُ، فلا أريد أن أزيد في تفصيل أمر المتأسلمين والمتأقبطين، وفي خطورة مواجهاتهم الخفية التي من شأنها أن تحرق كلَّ أخضر ويابس في هذا البلد الذي ننتمي جميعًا إليه، البلد الذي كان في الماضي السحيق المسمَّى الفرعوني، اسمه كيمي، ثم صار في الزمنين الروماني والبيزنطي يسمى إجبتوس، وأسماه العرب الاسم الذي نستعمله الآن «مصر».. ومن وراء هذه الأسماء، تبقى حقيقة أن مصر هي «الوطن» وهي محل الخلاف وهول الاختلاف بين المتأسلمين والمتأقبطين الذين سوف نَظل نعاني من كليهما، إلى أن يرحمنا الله منهما..

الفرقةُ الأرثوذكسيةُ الناجيةُ

ما معنى الأرثوذكسية؟.. هذا هو السؤال الابتدائي الأول الذي تجب الإجابةُ عنه، قبل الدخول في خضم الموضوع الذي سوف نطرحه عبر السطور التالية (وهناك سؤالٌ ابتدائيٌّ آخر يرتبط به، سوف يأتي بعد قليل) وبخصوص معنى «أرثوذكسية»

فالمتخصِّصون يعرفون أنها يونانية الأصل، وأن لها معانيَ متعددةً أفاضت في شرحها القواميس والموسوعات، لكنها في نهاية الأمر تعني بالمختصر المفيد: السلفية. ولأن كلمة «سلفية» ذات وَقْعٍ إسلامي، وجَرْسٍ عربيٍّ فصيحٍ حين تُفرِّق بين «السَّلَف والخلَف» أو بين الأوائل والأواخر أو بين المتقدمين والمتأخرين، ولأنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ العقائد الإسلامية وحاضرها، باعتبارها اسمًا لفريقٍ من المسلمين عُرِفوا بأهل السلف، ولأنها تُشير إلى «سلفٍ» آخرين كانوا يعيشون من قبل انتشار الإسلام وسيادة اللغة العربية. لهذه الأسباب، ظل المسيحيون العرب يستعملون الكلمة بمنطوقها اليوناني، فيقولون «الروم الأرثوذكس، الأرثوذكس السُّريان، الأقباط الأرثوذكس» وقد تُرجمت الكلمة حرفيًّا إلى اللغة العربية بلفظ «الأمانة المستقيمة».

والسؤال الآخر الابتدائي المرتبط بما سبق، هو: إذا عرفنا أن كلمة «قبطي» لا تعني تمامًا «مصري» اللهم إلا في الوعي اللغوي العربي الإسلامي، وهو الأمر الذي، حين ذكرته في مقالةٍ سابقة، لم يُعجِبْ المتأقبطين (الأقباط المتشدِّدين المستفيدين في الدنيا بالدين) فكيف يمكن تسمية هذه «الكنيسة» المصرية التي يُعدُّ رعاياها «الشعب» بالملايين؟ خاصةً أن بمصر مذاهب أخرى مسيحية «كنائس» لا تقلُّ مصريةً وانتماءً لمصر، عن تلك المسماة اليوم بالكنيسة القبطية. أقصد كنائس الروم الأرثوذكس والكاثوليك والإنجيليين (البروتستانت) علمًا بأن الروم الأرثوذكس كانوا بمصر، من قبل أن تتحدَّد ملامح الكنيسة المسماة الآن بالقبطية، وأن الإنجيليين المعاصرين، هم الجيلُ المصري الخامس أو السادس لأهل هذه الكنيسة، أي إنهم لا يقلُّون مصريةً عن إخوانهم الذين تسمَّوا مؤخرًا بالأقباط وسَمَّيتُ بعضَهم بالمتأقبطين.. بعبارة أخرى: ما هو الاسم الأنسب لهذه الكنيسة؟

إذا دقَّقنا في الأمر فسوف نرى أن أنسب الأسماء لهذه الكنيسة العريقة، هو «الكنيسة المونوفيزية» أو «المونوفستية» لأن إخواننا هؤلاء، أو بالأحرى زعماءهم الدينيين، أصرُّوا دومًا على مذهب الطبيعة الواحدة. وهو المذهب القائل بأن الله (الآب) ويسوع المسيح (الابن) من «طبيعة واحدة» وهو ما يُقال له باليونانية «مونوفيزُس»

ولذلك فهم لا يزالون إلى اليوم يردِّدون عبارة: لاهوتُه لم يُفارق ناسوتَه طرفة عين[1].

وما عدا ذلك من تسميات فإنني أراه غيرَ منطبقٍ عليهم، أو هو غير مميِّز لهم، لأن اسم (القبطية) يردُّهم مباشرةً إلى الإطار الثقافي العربي/ الإسلامي الذي أنتج هذه الكلمة لفظًا ودلالة.. واسم (المرقسية) لا يدل على شيء لأن مرقس الرسول أصله من ليبيا لا مصر، وليس له فكرٌ مميزٌ عن بقية الرسل (الحواريين) بحيث يجوز إطلاق اسمه على أتباع مذهبٍ يعتمد الأناجيل الأربعة مجتمعةً، فضلًا عن أن المذاهب «الكنائس» لا تتسمَّى بأسماء الرسل، أما الاسم (كنيسة الإسكندرية) فهو لم يعد يصحُّ من جهة المكان ولا من جهة الزمان، فمن حيث المكان صارت رئاسة الكنيسة منذ فترة طويلة بالقاهرة، ومن حيث الزمان فإن آباء الكنيسة الأوائل الذين عاشوا بالإسكندرية (مدينة الله العظمى في الزمن البيزنطي) لا يرتبطون فكريًّا بمذهب هذه الكنيسة. فالأب الجليل «كليمان» الذي يسمُّونه «كليماندوس» والأب المفكر الفيلسوف «أوريجين» الذي يسمُّونه «أوريجانوس» وهما أكبر اسمين في تاريخ الكنيسة المبكر بالإسكندرية، ليس بين أفكارهما ومذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) روابط محدَّدة. بل إن هذه الكنيسة المونوفيزية حَرَمَتْ «أوريجين» في حياته وبعد مماته، على يد أسقف زمانه «ديمتريوس الكرَّام» وعلى يد الأسقف القوي الخطير «ثيوفيلوس».

إذن هي الكنيسة (المونوفيزية) أو كنيسة المونوفيست، التي يمكن تسميتها في اللغة العربية بالكنيسة السلفية (الأرثوذكسية) وهو الوصف الذي قد يشاركها فيه كنائس سلفية أخرى، غير مصرية، أهمها كنيسة الأرثوذكس السريان وكنيسة الروم الأرثوذكس. فبأي معنى استعملتُ صفة «الناجية» هنا، وما المراد بنجاة هذه الفرقة الأرثوذكسية أو تلك؟

الفرقةُ الناجيةُ مفهومٌ يبدو من ظاهره أنه إسلاميٌّ خاصٌّ، لكنه في واقع الأمر مفهومٌ دينيٌّ عامٌّ. وهو مشتقٌّ من حديثٍ نبويٍّ شهيرٍ، ومثير، يقول عن أهل الإسلام على لسان نبي الإسلام: ستفترق أُمَّتي على بضع وسبعين فرقة، كلهم في النار، إلا فرقةٌ واحدةٌ (ناجية).

---

(١) ظهر المذهب المونوفيزي (المونوفيستي) في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، كردِّ فعل رافض للنسطورية التي تقول بأن للمسيح طبيعتين (أقنومين) يتميز أحدهما عن الآخر.. وقد مهدت لهذا المذهب، آراءُ الأسقف «أوطيخا» التي رفضها مجمع «خلقيدونية» المسكوني الذي أشرنا إليه فيما سبق.

وقد ورد هذا الحديث بصيغٍ مختلفة ومفرداتٍ متعددة أشهرها ما ذكرناه، وقد أهاج طيلة تاريخ الإسلام لغطًا كثيرًا حول لفظه ومعناه، أو حول ما يُسَمَّى في مصطلح علم الحديث النبوي «السند والمتن» أو «الرواية والدراية» حتى أنه صار من أكثر الأحاديث النبوية إثارةً للجدل بين العلماء، لأن فريقًا من أئمة المشتغلين بعلم الحديث أكَّدوه، وفريقًا آخر انتقدوه وضعَّفوه سندًا ومتنًا. ومن أشهر الذين رفضوه في الماضي القريب، جمالُ الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده (الملقَّب بالأستاذ الإمام).

وقد أدى مفهوم «الفرقة الناجية» المشتق من هذا الحديث، غير المتفق عليه، إلى ويلات كثيرة طيلة تاريخنا. لأن كل جماعة عقائدية كانت تعدُّ نفسها (الفرقة الناجية) ومن ثم فالمخالفون هم أهل الفرق الهالكة. ولم يعتدّ هؤلاء (الناجون) بأن الحديث الشريف لو صَحَّ سنده ومتنه، فهو يتحدث عن الآخرة وليس عن الدنيا، لأن «النار والجنة» أمرٌ أخرويٌّ لا يتعلق بهذا العالم، وإنما بالحياة الآخرة. لكنَّ المتأسلمين القدامى والمحدثين، جعلوا من أنفسهم «الناجين» في الدنيا والآخرة، وجعلوا غيرهم «الهالكين» هنا وهناك. وانطلاقًا من تلك القاعدة وهذا الاعتقاد، قتل الخوارجُ الأوائل، أئمةَ المسلمين وأعلامَ الصَّحابة في عصرهم، غِيلةً وغدرًا. وقتل الشيعةُ الإسماعيليون، وهم «الحشَّاشون» أصحاب قلعة «ألموت»، الحكَّامَ السُّنة في زمانهم غيلةً وغدرًا. وفي زماننا المعاصر، قتل «الناجون من النار» الناسَ من غير تفرقة، عبر ما سُمِّيَ مؤخرًا في أبواق الإعلام ومنابر السياسة «العمليات الإرهابية».. وهناك الكثير من الأمثلة الدالة على إهلاك الناجين للهالكين، بالمروِّع من شنيع الفِعال، لأنهم اعتقدوا بأنه ما دام سواهم من المخالفين هالكًا في الدنيا وفي الآخرة، فلا مانع من إهلاكه مبكرًا. حتى لو كان شيخًا أزهريًّا مثل «الشيخ الذهبي» الذي قتله بمنزله غيلةً وغدرًا، جماعةٌ من المتأسلمين الذين اعتقدوا أنهم وحدهم الفرقةُ الناجية.

ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى تسميات الجماعات الدينية المعاصرة، ولسوف نجدها جميعًا ترتبط على نحوٍ ما بمفهوم الفرقة الناجية، فإخواننا من السُّنَّة الذين يسمُّون أنفسهم «أهل الحق» يجعلون غيرَهم من المسلمين، على نحوٍ غير مباشر «أهل

الباطل». وإخواننا من الشيعة الذين يسمُّون أنفسهم «حزب الله» اختاروا اسمًا يتضمن أن غيرهم ليسوا من الحزب الإلهي، الذي جاء في آي القرآن أنهم (هُمُ الغالبون) أي إن غيرهم صاروا أغيارًا مغلوبين، وقد يكون هؤلاء «الأغيار» هم حزب الشيطان أو حزب الخسران أو حزب الإنسان أو حزب العميان، لكنهم في النهاية ليسوا «حزب الله» ومن ثم ليسوا من أهل الفرقة الناجية.

وعلى المنوال ذاته، يُسَمِّي بعض المتأسلمين أنفسهم «الجماعة الإسلامية» فكأن بقية المجتمع ليسوا بمسلمين، ويُسَمِّي «الإخوان المسلمون» أنفسهم بذلك، كأن بقية الناس الذين حولهم ليسوا إخوانًا وليسوا بمسلمين. وقد نسي هؤلاء أنهم حتى لو كانوا «الفرقة الناجية» يوم القيامة، فإن عليهم الالتزام في الدنيا بما جاء في القرآن، من مثل قوله تعالى ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فلما نسوا ذلك، دفعوا غيرهم للهلاك بالَّتي هي أبشع، وبالَّتي هي أكثر فتكًا من القنابلِ والأفكار.. وما أصلُ القنابل، إلا الأفكارُ.

وعلى الجانب المقابل، أعني جانب التأقبط، جرى الحال على المنوال ذاته. إذ زعم كل واحدٍ من المذاهب العقائدية المسيحية أنه وحدَه يمثل الإيمان القويم أو الأمانة المستقيمة «الأُرثوذكسية» وهي الكلمة التي طالما تنازعت الكنائسُ على الانفراد بها والتفرد باستحقاقها، وهو نزاعٌ مستمرٌ منذ ستة عشر قرنًا من الزمان. وبالمنطق السلفي المسيحي، فإن أيَّ مذهبٍ عقائديٍّ آخر (مخالف) هو بالضرورة غير قويم ولا مستقيم. أي إنه ببساطة فاسدٌ وهرطوقيٌّ وكافر بالإيمان. وفي نهاية هذا الأمر، نجد أنفسنا أمام مذاهب عقائدية «كنائس» كثيرة، يزعم كلٌّ منها لنفسه أنه وحده «الكنيسة الناجية» وأن أتباع بقية الكنائس هالكون لا محالة، وفي النار لا محالة.

وإذا نظرنا في أدبيات مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) فإننا سوف نجد كثيرًا من الدلائل على هذه النظرة الأحادية للحق، أو لاعتقال الحق في مذهب واحد وتخطئة غيره من المذاهب «الكنائس»، وهي طريقةٌ قديمةٌ (بالية) يسلكها المتأقبطون منذ فترة طويلة، فقد عثرتُ قبل عشرين عامًا على مخطوطةٍ تعبِّر بصراحة عن هذا المسلك، كُتِبَت قبل قرابة ثلاثة قرون تحت عنوان: الرد على غلط بابوات رومية (روما) وبيان

فساد مذهبهم. والمخطوطة محفوظة اليوم بالمكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية، وقد كُتبت سنة ١٧٤٠ ميلادية، ونقرأ بأولى صفحاتها ما نصُّه: قصدنا ها هنا، ليس لنعيِّر أتباع البابا على تعدِّيهم الشريعة، وزلات الباباوات وخطئهم وغلطاتهم.. وأفعالهم الرديئة الاغتصابية.. ولا قصدنا أيضًا أن نكتب عن جميع باباوات رومية (روما) الساقطين في وصمة الهرطقة.. إلخ.

وقد يعترض معترضٌ على هذا الجمع بين المتأسلمين والمتأقبطين، على اعتبار أن التأقبط حالةٌ نفسية، تاريخية، ذات صبغة عقائدية. تعود أساسًا إلى رفض الكنائس الكبرى للمذهب المونوفيزي، وإلى رغبة آبائه في السلطة الروحية والزعامة على بقية الكنائس؛ وهو موقفٌ قديم تم اتخاذه منذ مجمع خلقيدونية الذي انعقد قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرن ونصف من الزمان (سنة ٤٥١ ميلادية) وأن المتأسلمين وحدهم هم الذين يلجئون للعنف، بينما التأقبط مسلك لا يخرج من حالة الفكر إلى حالة الفعل، ولا يعرف العنف.

ولهذا المعترض نقول: بل الأمرُ واحدٌ قديمًا وحديثًا، لأن «الإعلاء الوهمي» للمذهب العقائدي، وتخطئة الآخرين ـ مسيحيين كانوا أو مسلمين ـ هو صفةٌ رئيسةٌ للتأقبط. ولا يُعتد هنا بأن المتأسلم عنيفٌ بطبعه بينما المتأقبط يصطنع الوداعة، لأن الانطلاق من فكرة (الفرقة الناجية) واحدٌ عند كليهما، وكلاهما في واقع الحال عنيفٌ على طريقته. وما عنف الفكرة إلا مقدمة لعنف الفعل. وقد عرف تاريخ المذاهب المسيحية عنفًا لا يقلُّ دمويةً عن العنف الذي ظهر في تاريخ المسلمين، وإذا نظرنا في معطيات واقعنا المعاصر وتأملنا مفردات «الخطاب المتأقبط» في أيامنا الحالية، عبر نماذج من نوع (الفتوى القبطية) التي اعتبرت زواج الإنجيليين نوعًا من الزنا، ومن نوع التعبيرات التي انفلتت في بيانات التنديد برواية عزازيل (أعني تعبيرات مثل: لن يجديه نفعًا.. سوف يرى وثبة الأسود.. إلخ) وهو ما يدل على أن بالنفوس غليانًا يُنذر بعنف مماثل لما جرى في الإسكندرية القديمة وأورشليم وغرب أوروبا، من ويلات يعرفها دارسو التاريخ.

وإذا تأملنا ما يجري هذه الأيام على الساحة المصرية لتأكَّد لنا أن الجوهر لم يتغير، فما كاد المتأقبطون من الإكليروس المونوفيزي المسمَّى اصطلاحًا بالكنيسة القبطية، يفرغون من حربهم الوهمية ضد (عزازيل) حتى هَبُّوا هبَّةً مروِّعة ضد الكنيسة الإنجيلية، متهمين قساوستها بالتبشير فيمن يسمونهم (شعب الأقباط) وكأن الدعوة أو الكرازة أو التبشير، صارت تتمُّ باسم المذهب العقائدي لا من أجل الديانة. مع أن هؤلاء جميعًا مسيحيون، ومصريون حتى النخاع. فما معنى هذه الحالة الحالية؟ معناها أن الإكليروس المونوفيزي (القبطي) فيه متأقبطون كثيرون، لا يكفون عن التفزيع والتفجيع والترويع، بالفكرة ثم بالقول ثم بالفعل.. رحماتك يا أمَّ النور.

ولعلَّ معترضًا آخر يقول: فما بال «المتأقبطين» إن صحَّت التسمية، يروِّجون لأنفسهم أنهم أهل المحبة؟ ولماذا تنكر عليهم دفاعهم عن ديانتهم التي يعترف بها الإسلام ؟.. ولهذا المعترض المفترَض نقول: المحبةُ سمةٌ مسيحيةٌ، مثلما هي سمةٌ لكل دين. وفي مقابل أولى عِظات السيد المسيح «موعظة الجبل» التي كان موضوعها المحبة، سوف تجد في القرآن الكريم كثيرًا من آيات المحبة التي دعا إليها الإسلام. لكن الإسلام كدينٍ غيرُ المسلمين، والمسلمون غير المتأسلمين. وكذلك المسيحية كديانةٍ غيرُ المسيحيين، والمسيحيون أكثرهم غير (أقباط) والأقباطُ أكثرهم غير متأقبطين. وهؤلاء المدافعون (المتأقبطون) إنما يذودون عن مذهب عقائدي ولا يعترفون بأن غيرهم على صواب، سواء كان هؤلاء (الأغيار) مسلمين أو مسيحيين أو يهودًا.

إن التأقبط والتأسلم اتجاهان دنيويان يرفعان الدين شعارًا، لاكتساب الأتباع من المسلمين (الجماعة) أو المسيحيين (الشعب) باسم الحق الواحد الذي يزعمه أولئك وهؤلاء. فالمتأسلمون والمتأقبطون سواءً بسواء، هم أصحابُ سياسةٍ دنيويةٍ وليسوا أهل محبة دينية. وما يتمُّ اليوم من المتأقبطين تحت زعم الدفاع عن الديانة المسيحية، هو أمرٌ غير مقنعٍ، وهو مجرد محاولة أخيرة لاستبقاء «الأتباع» أو «الرعايا» الذين يطلقون عليهم (شعب الكنيسة) في داخل الحظيرة التي تبيض فيها الدجاجاتُ للرهبان ذهبًا. وليست الحالة الدفاعية الحالية ضد تبشير الكنيسة الإنجيلية، هي الموقف الوحيد

الدال على أنهم ينافحون عن مذهبهم المونوفيزي. ولسوف أُعطي مثالًا آخر، من ورائه أمثلةٌ كثيرة ودلالاتٌ أكثر:

قبل سنوات قليلة، هاج في مصر متأقبطون، سعوا جهدَهم لكي يمنعوا عرض الفيلم المأخوذ عن رواية (شفرة دافنشي) لدان براون وتكلَّلت جهودهم بالنجاح، واستجابت الحكومة فمُنع عرض الفيلم في دور السينما باعتباره ضد المسيحية. فلما جاء مؤخرًا فيلم «ملائكة وشياطين» المأخوذ عن رواية أخرى للمؤلِّف نفسه، لم يعترض عليه المتأقبطون ولم يشيروا إليه ولو من بعيد. لماذا؟ لأنه يتعرض فقط لكنيسة الفاتيكان! فكأن الكاثوليك ليسوا مسيحيين.. فتأمل.

أغلوطةُ الجهادِ وحدُّوتةُ حبِّ الاستشهاد

كلامنا عن الجهاد وأغاليطه وعن حبِّ الاستشهاد وحواديته، يأتي استكمالًا للكلام عن «الفرقة الأرثوذكسية الناجية» وما جاء قبله من الكلام عن «المتأسلمين والمتأقبطين» وهو ما كان بدوره مرتبطًا بما أعتقده من أن «القبطيةُ صناعةٌ عربيةٌ إسلامية». بعبارةٍ أخرى، فإن وجهات النظر والرؤى التي أطرحها هنا متراتبةٌ، متراكبةٌ، يكملُ بعضها بعضًا. وهي لا تزعم أنها جاءت بالحق الذي لا يأتيه البطلانُ من بين يديه ولا من خلفه، بل هي تصوّرات تتأسَّس على وقائعَ تاريخيةٍ فعلية جدًّا، وجِدّ مجهولةٍ ومُدهشةٍ، ومن ثم فربما أُصيبُ فِيما أراه جانب الصواب وربما أجانبه، مثلما هو الحال مع كل فكر إنساني. وما مرادي الأخير، إلا تبيانُ أسرار الخلاف بين أهل القِبلة وأهل الصليب، تفاديًا لأهوال الاختلاف وويلاته التي من شأنها أن تَعْصِف بالناس، سواء كانوا مسيحيين خلقيدونيين (روم أرثوذكس) أو إنجيليين (بروتستانت) أو مونوفيزيين (أقباطًا) أو كانوا مسلمين من أهل السُّنَّة (وهم أغلبيةُ الناس في مصر) أو كانوا من غير ذلك كله. لأن القنبلة التي تنفجر وسط الحشد، ونحن نعيش في بلد الحشود؛ لا تفرِّق نارها بين مؤمنٍ وملحد، ولا تختار شظاياها القاتلة أتباعَ مذهبٍ معين.

ومن هذه الزاوية، فإن الفكرة الوهمية عن امتلاك اليقين الوحيد وبُطلان أي يقين لدى المخالفين، أعني مفهوم «الفرقة الناجية» الذي هو إسلاميٌّ في ظاهره، ودينيٌّ عامٌّ

في جوهره. هو أمرٌ من شأنه أن يؤجّج الخلاف بين المتعصّبين والمهووسين دينيًّا، من المتأسلمين أو من المتأقبطين. وهما الفريقان، أو بالأحرى رءوس الفريقين، اللذان دلّت مجريات الأمور على أنهما يعملان في الخفاء، ثم لا يلبثان أن يتفاعلا معًا، ويتصاعدا بالخلاف ويصعّداه إلى أفق الجحيم التعصُّبي، العصابي، الذي يكتوي بأهواله المجتمع كله ويزدادُ تخلُّفًا على تخلُّفٍ. وقد اعتقد البعض، بعد قراءة الصفحات السابقة حين نُشرت في مقالات، أنني كُنت ضد (الأقباط) ثم صرت ضد (الإسلاميين) أيضًا، وهو أمرٌ لم يخطر لي ببال. فما كنتُ قَطُّ ولا أظنني سأكون يومًا، ضد أولئك ولا هؤلاء. وليس لديَّ (مُضَادَّة) لأي فريقٍ منهما، وما سعيتُ إلى ذلك قَطُّ، وإنما كانت غايتي دومًا هي كشف الأهوال التي يقدح شرارها المتأسلمون والمتأقبطون.. وأؤكِّدُ هنا، وأكررُ ما سبق أن ذكرته مرارًا من اعتقادي العميق بأنه: ليس كلُّ الإسلاميين والمسلمين متأسلمين، وليس كُلُّ (الأقباط) متأقبطين. لكن النار التي يقدحها كُلُّ متأسلم وكلُّ متأقبط، قد تلتهب وتلتهم الجميع إلا هُم، لأنهم سوف يهربون حين يحتدم اللهب.. مثلما فعلوا في الماضي.

المهم الآن، أن مسألتيْ «الجهاد» و«حبّ الاستشهاد» هما المسألتان اللتان أرى فيهما، دعوى عريضةً يزعمها المتأسلمون والمتأقبطون، وشعارًا منهارًا يرفعونه ويخايلون به الناس، لتبرير غايات خفية لا يعلمها إلا الله والراسخون في أغلال الغلِّ، من أقطاب المتأسلمين والمتأقبطين، على اختلافهما، تحت زعم أنهم وحدهم «أهل الفرقة الناجية» أو «أصحاب العقيدة القويمة».

وقد يتوهَّم كثيرون، أن الدين الإسلامي ينفرد من بين (الأديان الثلاثة) بالدعوة إلى الجهاد، أي الحرب باسم الدين. وقد وضعت «الأديان الثلاثة» بين قوسين، لأنني أرى أنها على الحقيقة دينٌ واحدٌ له ثلاث تجلِّيات كبرى، ولكل منها تجليات فرعية أخرى تسمى: المذاهب العقائدية، الفرق والجماعات، الكنائس، المدارس الدينية. أو غير ذلك من التسميات المختلفة لفظًا، المتفقة في دلالتها على الفرقة والتشرذم وهدم الوحدة، بزعم الحق الواحد.

وفي واقع الأمر، فإن الدعوة إلى الجهاد ليست مقصورة بحالٍ من الأحوال على الدين الإسلامي. ففي اليهودية أنموذجٌ رهيبٌ لها، يُعرف اصطلاحًا لدى دارسي التوراة باسم «حروب الربّ»، وهي الحروب التي قادها «يهوشع بن نون» وأباد خلالها ثلاثين مملكة بفلسطين باسم يهوه، باسم الربِّ، باسم الإله التوراتي الذي أعطى الوعد (العهد) القديم لأبي الأنبياء إبراهيم، في صورته اليهودية. وهناك أنموذجٌ يهوديٌّ رهيبٌ آخر، يشاهده الناس في أيامنا هذه على شاشات التليفزيون، في غزة وجنوب لبنان وقانا وكفر قاسم ودير ياسين وشاتيلا وبحر البقر.. إلخ، وكلها من وجهة النظر اليهودية «حروبٌ مقدسة» وجهادٌ مستميت لإخلاء الأرض الموعودة من ساكنيها. لأن الإله التوراتي منح الأرض لشعبه المختار، من دون أن يتنبه إلى أن أناسًا آخرين، غير مختارين، يسكنونها. وليس ذلك بغريبٍ على (إله التوراة) الذي يحمل أسماءً كثيرة، فهو حسبما يتجلَّى عندهم في التوراة، لا يكفُّ عن إثارة المشكلات بين البشر، مع أنه بحسب الاعتقاد اليهودي العام هو «الرب» الذي خلق البشر. وقد تناولتُ هذه المسألة بالتفصيل في كتابي: اللاهوت العربي وجذور العنف الديني[1].

والديانة المسيحية، بصرف النظر عن المذاهب العقائدية التي صرنا نسمِّيها (الكنائس) تحفل أناجيلها الأربعة والرسائل الملحقة بها (أعمال الرسل) بآيات المحبة المشهورة من مثل: أَحِبُّوا أعداءكم.. إذا لطمك أحدٌ على خَدِّك.. أعطوا ما لقيصر.. الله محبة.. المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام.. إلخ، وهذه النصوص المسماة (العهد الجديد) قياسًا على أن كتب اليهود هي (العهد القديم) فيها الكثير من الوقائع التي لا يمكن أن تحمل على جناح المحبة، وإنما هي في واقع الأمر نوعٌ من الجِهاد. ولا أقصد هنا جهاد يسوع المسيح ضد «الشيطان» وإغواءاته الكثيرة، وإنما أقصد وقائع من نوع صرخة يسوع المسيح في اليهود (الفاسدين) حين قَلَبَ عليهم الطاولات وهو في ثورة عارمة، من أجل الحق الذي جَاَء ليبشِّر به.. تقول الآيات: «ثُمَّ دَخَلَ يسوعُ الهيكلَ وأَخَذَ يطردُ الباعة ويقولُ لهم، جاء في الكتاب بيتي بيتُ الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص.. رأى في الهيكل

(١) انظر: مقدمة الكتاب، الفصل الأول: جذور الإشكال.

باعةَ البقرِ والغنمِ والحمامِ، والصيارفَة جالسين إلى مناضدهم، فجَدَلَ سوطًا من حبالٍ وطردهم كلهم.. ومنع كل مَنْ يحمل بضاعة أن يمرَّ من الهيكل»[1].

ومع أن حياة يسوع المسيح (الإنجيلي) تعدُّ مثالًا للتواضع والوداعة والرحمة الربانية، إلا أن هناك أيضًا في حياته (الإنجيلية) وقائع بعكس ذلك، منها أنه لَعَنَ شجرة تين مُورقة. جاء في الإنجيل، أن المسيح «قَصَدها راجيًا أن يجد عليها بعض الثمر، فلما وصل إليها ما وجد عليها غير الورق، لأن وقت التين ما حان بعد.. فقال لها: لن تثمري إلى الأبد! فيبست التينة التي لعنها» (متى ٢١: ١٨، مرقس ١٨:١١ـ ٢١) ومنها أنه زعق في معلِّمي الشريعة وعلماء اليهود قائلًا: يا أولاد الأفاعي.. أيها الحيات أولاد الأفاعي (متى ١٢:٣٤ ـ ٢٣: ٣٣) ومنها أنه قال بوضوح في إنجيل متى، وإنجيل لوقا: «لا تظنوا أنِّي جئت لأحمل السلام إلى العالم، ما جئتُ لأحملِ سلامًا بل سيفًا، جئتُ لأفرِّق بين الابن وأبيه، والبنت وأمها، والكنَّة وحماتها، ويكون أعداء الإنسان أهل بيته.. جئتُ لألقي نارًا على الأرض، وكم أتمنى أن تكون اشتعلت، وعليَّ أن أقبل معمودية الآلام، وما أضيق صدري حتى تتم. أتظنون أني جئتُ لألقي السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل الخلاف..» (متى ١٠: ٣٤- لوقا ١٢: ٤٩).

ولا أريد أن يتبادر إلى الأذهان هنا، أنني أنقدُ أو أنقضُ النصوص المسيحية المقدَّسة المسيحية، أو أجترئ على ما يعتقده أي إنسان أيًا كان. فما مرادي بإيراد هذه النصوص والوقائع، إلا تبيان أن المسيحية مثلما هو الحال في كل دين، فيها نصوصٌ قد تبرِّر الجلال مثلما تعبِّر عن الجمال، وقد تفيدُ الرحمة والجبروت معًا. وبخصوص الدعوة المسيحية (الكرازة) إلى نَشْر الديانة بين الناس جميعًا، هناك قول المسيح لتلاميذه (الرسل، الحواريين): اذهبوا وبشِّروا جميع الأمم. وقول بولس الرسول في رسالته الثانية إلى تيموثاوس (الإصحاح الثاني): احتمل المشقَّات، كجندي صالح ليسوع المسيح.

---

(١) متى ٢١: ١٢، لوقا: ١٩: ٤٥، يوحنا ٢: ١٣، مرقس ١١: ١٥.

هناك إذن حرصٌ مسيحي على نشر البشارة (الديانة) بل هو تكليفٌ واضح يدعو للمضي قُدُمًا في دعوة الناس جميعًا إلى طريق (الخلاص) ويدعو لاحتمال المشقّات مثلما يحتملها الجنود. ولذلك لم يجد المسيحيون الغربيون بأسًا في حمل السيف باسم الدين، فظل العالم عدة قرون يكتوي بنيران الحروب الصليبية، وبغيرها من الحروب التي قادتها الرغبة في نشر (الديانة) في العالم، مع أن السيد المسيح قال: مملكتي ليست من هذا العالم.

إذن، الجهاد ليس مفهومًا إسلاميًا خاصًا، ولكنه مفهومٌ دينيٌّ أصيلٌ في اليهودية والمسيحية والإسلام. فإذا عرفنا ذلك، فلابد أيضًا من أن نعرف أن الجهاد بحسب الأصول الإسلامية، هو جهادان «أكبر وأصغر» وقد ورد في الحديث الشريف أن الجهاد الأصغر هو القتال، أما جهاد النفس، فهو الجهاد الأكبر. وقد أدَّت التفرقة الإسلامية المبكرة بين هذين الجهادين، الأصغر والأكبر، إلى فروق كبيرة بين تراث هذا الجهاد وذاك. فمن خلال الاجتهادات الفقهية المتوالية، اجتمع تراثٌ ضخم عُرف في مجال الدراسات الإسلامية باسم «فقه الجهاد» وهو الباب الفقهي الذي يؤطِّر السعي الجهادي بالمعنى الحربي، ويحدِّده بضوابط ومعايير كان بعض القادة الفاتحين يلتزم بها، والبعض الآخر يصرف عنها النظر. فمن أمثلة الحالة الأولى، ما نراه في الواقعة التالية التي رواها البلاذري في فتوح البلدان، قال: أتى قتيبة بن مسلم «بُخَارَى» فاحترس أهلُها منه، فقال لهم دعوني أدخلها فأصلي ركعتين فأذنوا له في ذلك، فأكمن لهم قومًا.. وغَدَرَ بأهلها.. فوفد قومٌ من أهل سمرقند على الخليفة عمر بن عبد العزيز، ورفعوا (اشتكوا) إليه أن «قتيبة» دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب الخليفة إلى عامِله «نائبه» يأمره أن يُنصِّب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروه، فإن قضى بإخراج المسلمين، أُخرجوا. فنصب لهم «جُميع ابن حاضر الباجي» قاضيًا، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء (أي يحاربون حربًا عادلة، بعد إنذار) فَكرَهَ أهلُ مدينة سمرقند الحرب، وأقروا المسلمين، فأقاموا بين أظهرهم»..
انتهى النص، ولن ينتهي الدرس.

وتجب الإشارة هنا إلى أن سمرقند وبخارى صارتا في الزمن الإسلامي عاصمتين كبيرتين، واستقرت البلادُ هناك بعد قرون طوال من التقلّبات السلطوية الدموية التي جرت قبل وصول الإسلام إلى هناك، فلما استقر الأمرُ بأيدي المسلمين صارت تلك البلاد حواضر ومراكز حضارية كبرى. ومن سمرقند نقل العرب والمسلمون صناعة الورق وأتاحوها للناس جميعًا، فحدثت على المستوى الحضاري العالمي طفرةً لا تقل أهميةً عن طفرة المعلوماتية المعاصرة. ما علينا من ذلك الآن، ولنعد إلى مفهوميْ الجهاد «الأصغر، الأكبر» وما تراكم حولهما من تراث هائل. فنقول والله (الربّ) المستعان:

أدى مفهوم الجهاد الأصغر إلى النِّتاج الفقهي المسمَّى اصطلاحًا «فقه الجهاد» فما الذي أدَّى إليه مفهوم الجهاد الأكبر في تاريخ الإسلام: جهاد النفس؟.. منذ القرن الهجري الأول، بدأت النشأة الأولى للتصوف الإسلامي كطريقٍ روحيٍّ يهتم اهتمامًا خاصًا بإصلاح عيوب النفس. والنفس الإنسانية حسبما ذكر الصوفية السابقون، جُبِلت على خصال مذمومة كالكسل وحُبِّ الراحة والتنعُّم والجهل والميل إلى الأمور الدنيوية، ولو ترك الإنسان العنان لنفسه لمالت به إلى حيث تشتهي، لكن النفس الإنسانية كما قال الإمام البوصيري في «البردة» هي كالطفل: إن تهمله شبَّ على حبِّ الرضاع، وإن تفطمه ينفطم.. وهذا (الفطام) المشار إليه، هو الجهاد الأكبر الشاقُّ على النفس، ولذلك فالعملُ جهادٌ شاق، وتحصيلُ العلم جهادٌ شاق، ومخالفةُ نوازع الهوى جهادٌ شاق، ومواصلة الجهود جهادٌ شاق.. لكن إخواننا من المسلمين المعاصرين الذين أعطوا لأنفسهم مؤخرًا اسم (المجاهدين) تركوا الجهاد الأكبر هذا، ونذروا أنفسهم للجهاد الأصغر.. الأسهل.. الأَهْوى.. الأَسْيس! بل لم يلتزموا أصلًا بفقه هذا الجهاد الأصغر، فجنحوا إلى إصلاح حال البلاد بقتل العباد، ولجئوا إلى المغارات والكهوف فارِّين من «الحكومات» التي رءوها على اختلافها ظالمة، وهاربين من بلادهم التي صارت بحسب مذهبهم كافرةً فاسدةً. وقد اختاروا الحل الأسهل، كيلا يصبروا ويصابروا ويجاهدوا الجهاد الحقيقي «الأكبر» الذي من شأنه إصلاح أحوال البلاد والعباد، وهو ما يقتضي الاحتمال والكدَّ والجهد من أجل تحصيل العلوم والمعارف، والصبر على العمل المنظم، ومخالفة

أهواء النفوس.. ولأنهم يائسون من الحياة، فهم يطلبون الموت لغيرهم، بل لأنفسهم إن احتكم الأمر، آملين أن يحصِّلوا في الآخرة ما فقدوه في الدنيا.

ومن جهةٍ أخرى، يروِّج المتأقبطون ويردِّدون على مسامع أتباعهم الذين يطلقون عليهم اسم (شعب الكنيسة) الكثير من حواديت حُبِّ الاستشهاد، باعتبارها جزءًا أساسيًّا من تاريخ الكنيسة القبطية فيتغنون أمام المعاصرين بصلابة المستشهدين، الذين رحَّبوا بالموت فداءً للعقيدة القويمة (الأرثوذكسية) فيجعلون منهم نماذج إنسانية مؤهَّلة للاحتذاء. مع أن «عقيدة حب الاستشهاد» لم تكن مخصوصة بجماعة معينة، ولا تختص بها (كنيسة) دون أخرى.

والخطاب المتأقبط يربط دومًا بين القدِّيسين والشهداء، وكأن كل شهيدٍ قديس وكل استشهادٍ قداسة. وهذا عندي عجيب. مع أن الأمر كله جرى في زمن قديم، وكان مرهونًا بظروف تاريخية محددة وليس بصُلب الديانة، وكان الداعي إليه هو اضطهاد بعض أباطرة الرومان لليهود والمسيحيين لأسبابٍ اقتصادية وسياسية في المقام الأول، وليست عقائدية. وفي مواجهة هذا الاضطهاد، ابتكر الآباء الأوائل فكرة «حب الاستشهاد» وعقيدة الترحيب بالموت لتبيان استهانة «المؤمن» بالقتل والتعذيب فداءً للديانة أو العقيدة القويمة.

والمدقِّق في تواصل الماضي بالحاضر، يظهر له أن الظروف التاريخية التي دعت إلى حب الاستشهاد، اختلفت بعد إعلان المسيحية ديانةً رسميةً للإمبراطورية البيزنطية (سنة ٣٩١ ميلادية) وقد مَرَّ على ذلك ستة عشر قرنًا من الزمان. كما يظهر له أنه بعد استقرار الإسلام بمصر، استقرت الكنيسة المونوفيزية (القبطية) ولم نسمع عن مذابح يقوم بها المسلمون ضد المسيحيين. كما يظهر له أنه في زماننا الحالي، توجد مماحكات ومناوشات ومشكلات عقائدية بين الجهَّال من المسلمين والمسيحيين، بسبب الخطاب المتأسلم الذي يتفاعل معه الخطاب المتأقبط. وهذا الحال، وإن كان يحتاج إلى حَلٍّ، فهو لا يجب أن يستدعي تقنيات دفاعية من نوع الترويج لحواديت حُبِّ الاستشهاد، وهي القصص المؤثِّرة الحزينة المؤلمة التي تملأ القلوب حسرةً وتُعلي من قداسة المقدسين.

وقد فات زمانها، وصارت في حُكم التاريخ القديم. لكن المتأقبطين تعجبهم آثار هذه الحكايات المؤنمات، ولذلك فقد ظلُّوا إلى اليوم يَدْعون إلى ما يدَّعون.

والمدقِّق في تواصل الماضي بالحاضر، يظهر له أن الآباء الكبار الذين كانوا يتغنون بحب الاستشهاد، لم يستشهدوا. وإنما كانوا دومًا يشحنون «الشعب» بالحواديت، فيقذفون الناس الممتلئين بهذه الفكرة نحو الهلاك ثم يهربون هم. وتاريخ الآباء مليء بوقائع هذا «الهروب» الذي أدى إلى استشهاد أتباع الكنيسة، حتى إن أحد مشاهير الآباء «أَثَناسيوس» ظل هاربًا قرابة أربعين سنة (في القرن الرابع الميلادي) وهرب غيره «بنيامين» ثلاثة عشر عامًا، حتى أدركه عمرو بن العاص بعهد أمان، فعاد إلى كرسيه سالمًا بعدما كان أخوه «مينا» والألوف من أتباعه قد استشهدوا مدفوعين بحبِّ الاستشهاد دفاعًا عن الديانة.. ولن أزيد في بيان هذه النقطة، ولن أذكر «سجل» أسماء الآباء الذين دفعوا الناس للموت بوَهْم الدفاع عن العقيدة القويمة، وهربوا هم. وكأن على أتباعهم (وليسوا هم) أن يرحِّبوا بالموت في سبيل الرب.. في سبيل المذهب.. في سبيل ما يراه الآباء حقًّا.

التوتُّر والتأجُّج في وَطَنِ التشنُّج

تعقيبًا على ما سبق وعقب نشر المقالات الستة السابقة، تدفَّق سيلٌ من المقالات والتعليقات المنشورة بالجرائد المصرية والمواقع الإلكترونية. وقد جاء الأغلبُ منها قادحًا، صادحًا، فادحًا في دلالته على أننا نحن المصريين قد تغيَّرنا كثيرًا في العقود الماضية، فلم نعد هذه الجماعة التي ظلت لمئات السنين أنموذجًا للطاعة والوداعة، وللخضوع والهوان، وإنما صرنا حسبما وَصَفَنا صلاح عبد الصبور في ديوانه «الناس في بلادي» قائلًا إن المصريين جارحون كالصقور.

وقد أسعدني أن «الانفعالات» وردود الأفعال، جاءت من المسلمين والمسيحيين معًا، وكان فيها الكثير مما يجب الوقوف عنده بمزيدٍ من الإيضاح. فمن ذلك، ما ذكره بعض «الإخوان المصريين» من أن حديث الجهاد الأكبر الذي ذكرته هو حديثٌ نبويٌّ غير

صحيحٍ لم يرد عند البخاري أو مسلم. والحق في ذلك معهم، لكن الإمامين «البخاري ومسلم» لم يجمعا كُلَّ الصِّحَاحِ من الأحاديث، علاوةً على أن القاعدة الحديثية الشهيرة تقول إن من الحديث الشريف، ما هو صحيح في معناه (الدراية) مع ضعف سنده (الرواية).. وقد أوردت الحديث أصلًا، لتبيان الفارق بين «جهادين» يتعيَّن على المسلم عامةً القيام بهما، والأكبر منهما جهاده لنفسه للارتقاء بها. فلا خلاف إذن في هذا الأمر. ومن ناحية أخرى فلا خلاف هذه المرة مع رجال الكنيسة، لأن الذي تولَّى الردَّ عليَّ كلهم من المثقفين المصريين الذين ليسوا في مناصب كنسية، ولذلك جاءت مناقشاتهم أَجْدَى، لولا بعض التعليقات المتشنِّجة وغير اللائقة التي كتبها «متأقبطون» في مواقع الإنترنت. لكنه على أيِّ حالٍ أمرٌ هينٌ، ولم يغضبني لأنني كنت أتوقعه، ولأنني أحبهم حقًّا، ولأنني مدركٌ أنهم يتوهَّمون عدائي للمسيحية (وهو أمر يعلم الله أنه غير صحيح) ولأنهم ينطقون بلسان «التأقبط» الذي ترعرع في مدارس الأحد، وشَجَرَ في النفوس مع عَنَتِ المتأسلمين (لا المسلمين) مع المسيحيين في السنوات الأخيرة، التي ازدهر فيها «التشنج» في بلادنا، وظهر في مناسباتٍ عدةٍ، لا مجال الآن لذكرها.

ويخصوص الأخوة الأفاضل، الذين تولُّوا الردَّ على المقالات بمقالات، خاصةً في صحف ومواقع: الأقباط متحدون، الأقباط الأحرار، المصري اليوم، اليوم السابع. وبالأخص المقالات التي كتبها الأساتذة: لطيف شاكر (خمسة مقالات) وكمال غبريال، ورمزي زقلمة، وياسر يوسف غبريال، وشخصٌ لطيفٌ خفيفُ الظل، اسمه محمد البديـوي.. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن سيل الردود والمقالات الغاضبة لم يخلُ من «خفة الدم» التي صار المصريون مشهورين بها. فمن ذلك ما نراه في مقالة الأستاذ حنا حنا المحامي في (موقع الأقباط متحدون) حين يقول: «البادي أن د. زيدان استهوته جائزة «البوكر» التي ربحها برواية عزازيل، ففكر أن يربح بمقالات المصري اليوم جائزة الكونكان».. أو يقول، بالعامية، د. ياسر يوسف غبريال: «زيدان يدَّعي البطولة وهو عارف اللي جوه الفولة وأفكاره مش معقولة يُطلق بُمبة فكرية هي أن القبطية صناعة عربية إسلامية». وقد كتب المسمَّى (أبو إسكندر) يردُّ عليَّ، فجعل كلامه بعنوان: الدور العدمان لشيخ الدراويش يوسف زيدان! وكتب المسمَّى (غالي):

ما تزعلش، كلنا مجهزين شنطنا لشيراتون المرج، بس ياريت يوسَّعوه حتى يسع ملايين الأقباط.. وعندما حمل المسمَّى «محمد البديوي» على مقالاتي حملةً شنعاء، متشنِّجة، كتب أحدهم معلِّقًا عليه بقوله: يا واد محمد يابديوي، أقصد يا جورج، بطَّل حركات.

طيب، وبعيدًا عن تلك الطرائف اللطيفة السابقة، وبعد هذه الحوارات والتحويرات المصرية «جدًّا» أقول «جَادًّا» إن أهم ما انتقده الإخوة في كلامي السابق، أنني لم أذكر المصادر التي أعتمد عليها خاصةً في نقاطٍ حرجةٍ حاسمةٍ مثل قولي بأن البطرك «البابا» القبطي «المونوفيزي» تيموثيوس، قتل البطرك الملكاني «الخلقيدوني» بروتيريوس، قتلةً بشعة في مكان المعمودية بكنيسة الإسكندرية القديمة. وكثيرٌ من الذين علَّقوا على ذلك اتهموني صراحةً بالكذب، ولهم في ذلك العذرُ لأنهم لا يعلمون. وعلى كل حال، فسوف أورد فيما يلي ترجمةً لما ورد في مصدر معتمد، هو (معجم أكسفورد للكنيسة المسيحية) بصفحة رقم ١٣٦٠ في الطبعة الصادرة عن جامعة أكسفورد البريطانية سنة ١٩٥٧، للباحث الشهير ف.كروس. وكذلك ما ورد في صفحة ٢٥٢ من المجلد الرابع من (الموسوعة الكاثوليكية الجديدة) تحت عنوان «المسيحية القبطية» للباحث المصري إسكندروس حبيب إسكندر مطران أسيوط القبطي، المتوفى (المتنيِّح) سنة ١٩٦٤. حيث نجد فيهما ما ترجمته:

«بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية، رفض الأساقفة الذين اجتمعوا حول البطرك ديسقورُس، الاعتراف بالبطرك الخلقيدوني الملكاني بروتيريوس، وقاموا من بعد وفاة ديسقورُس بانتخاب بطرك آخر من بينهم هو «تيموثيوس» الملَّقب بالقط أو ابن عرس، وهو لقب أطلقه عليه أعداؤه لضآلة حجمه وقصر قامته. وفي اليوم الذي كان البطرك بروتيريوس يحتفل فيه بشعائر الأسبوع المقدس (أسبوع آلام المسيح) في الكاتدرائية بالإسكندرية، هجم تيموثيوس ومعه أتباعه من العوام المتمرِّدين على الكاتدرائية. حتى إن بروتيريوس احتمى بمكان المعمودية المقدس، إلا أن ذلك لم يجدِهِ نفعًا! إذ قام تيموثيوس ومن معه، بذبحه (وفي رواية أخرى، بشنقه) على مرأى ومسمع من الناس. ثم جلس تيموثيوس على كرسي بروتيريوس، وأعلن نفسه بطريركًا

لمصر، إلا أنه تمَّ حَرْمه (طرده من حظيرة الإيمان) كنسيًّا، ثم نفيه إلى الأناضول بمرسوم من الإمبراطور ليو الأول، واستُبدل بروتيريوس ببطرك ملكاني آخر، هو تيموثيوس الأبيض (سلوفاسياكوس) وكان ذلك سنة ٤٦٠ ميلادية».. انتهى النص، مترجمًا عن الإنجليزية.

وبالمناسبة، فلو كان المجال هنا يسمح لذكرتُ الآن واقعة مقتل «الجعد بن درهم» على يد الأمير خالد بن عبد الله القسري (وقد رويتُها بالتفصيل في كتابي: اللاهوت العربي) كي يعرف الذين ينتقدونني أنهم لا يعرفون، وأن التأسلم والتأقبط نَهْجٌ واحدٌ، وأن العنفَ واحدٌ، وسوءَ المآل واحدٌ، والهمَّ واحدٌ.. فيا ربنًا الواحد، ارحمْنا من غلبة نفوسنا.

وفي مقالة الأستاذ رمزي زقلمة، يقول إنه انفعل حتى فكَّر في أن يحرق مكتبته كلها، حين قرأ مقالي (القبطية صناعة عربية إسلامية) ثم رجع بحمد الله عن قراره، وراح بأدبٍ شديدٍ ينتقد كلامي في مقالة بديعة. ولسوف أورد انتقاداته، ثم أردُّ عليها موضحًا بعض الأمور بما أضعه بين القوسين. يقول: كيف قتل المقوقس عشرين ألفًا في ميدان محطة الرمل والميدان لم يكن موجودًا آنذاك (أقول: الميدان كان موجودًا، وقد استخدمتُ الاسم المعاصر ليعرفه الناس. والاسم القديم للميدان هو «بوكاليا» التي تعني حرفيًّا: مرعى البقر. والواقعة مذكورة في المصادر المشهورة، ومنها كتاب تاريخ الآباء البطاركة، لأُسقف الأشمونين ساويرس بن المقفع).. يقول: اللغة القبطية قديمة، وتستخدم حتى اليوم في الكنائس (أقول: لا يوجد لغة اسمها القبطية، وإنما هي اللغة المصرية العامية، وقد تمت كتابتها بالحروف اليونانية، واستخدمها الإكليروس المونوفيزي في مصر نكايةً في البطاركة الملكانيين).. يقول: ماذا تسمي مجيء عمرو بن العاص إلى مصر، فتح أم غزو؟ (أقول: الفتح والغزو واحدٌ في اللغة العربية وعند أهل الإسلام، ولذلك نقول «غزوات النبي» فإذا استقر الدين بأرضٍ بعد غزوها، صار الغزو فتحًا).. يقول: كان يجب أن تذكر كليماندس، كأحد آباء الكنيسة القبطية المبكرين (أقول: لم يكن كليمان السكندري «كليماندس» قبطيًّا، لا بالمعنى العقائدي ولا القومي.

وإنما كان مفكرًا سكندريًّا مسيحيًّا استفاد من الفلسفة اليونانية، وكتب باللغة اليونانية في مدينة الإسكندرية التي كانت آنذاك يونانية الثقافة).. يقول: النبي أرسل كتابه إلى المقوقس (أقول: عندي شكوكٌ كثيرة على هذه القصة، وقد أشرت إلى ذلك في روايتي «النبطي» وسوف أتعرَّض له في سباعية قادمة)[1]..

وأخيرًا، يتعجَّب الأستاذ رمزي زقلمة من إشارتي إلى أن «النصرانية» هي تسميةٌ غير دقيقة للمسيحيين، وقد تلقيت رسائل كثيرة من إخوةٍ مسلمين تعجَّبوا أيضًا من هذه الإشارة. ولتوضيح الأمر لهؤلاء جميعًا، أقول: النصرانية كلمةٌ قرآنيةٌ، وقد استخدمها المسلمون الأوائل في معرض التفرقة بين (الكنائس) المسيحية في زمانهم، فقالوا لمسيحيي مصر «الأقباط» ولمسيحيي الشام والعراق «النصارى» ولمسيحيي بيزنطة وأوروبا «الروم».. ولكن حقيقة الأمر في هذه التسمية ودلالتها، هو ما نراه بوضوح في الطبعة الثانية من (معجم الحضارات السامية) صفحة ٨٤٧ حيث نقرأ ما يلي:

«أُطلق هذا الاسم على المسيحيين الأُوَل نسبةً إلى يسوع الناصري (أي جاء من الناصرة) ثم أصبح له خِلال القرون الميلادية الخمسة الأول، استعمالان مختلفان. حيث كان اليهود يُطلقون اسم «الناصري» على يسوع المسيح عينه، واسم النصارى على الذين يؤمنون به. أما المسيحيّون فكانوا يُطلقون هذا الاسم على جماعة من اليهود المسيحيين، هم أقل ابتعادًا عن الأرثوذكسية اليهودية من الإبيونيين[2]، إلا أن آباء الكنيسة الأول اعتبروهم من الهراطقة. وكان النصارى يتقيَّدون بتعليمات العهد القديم والجديد معًا، ويتمسّكون بالختان والمعمودية، ويُقدّسون يوميْ السبت والأحد، ويقيمون الفصح اليهودي والفصح المسيحي، ويكرّمون موسى والمسيح. وكان المعتدلون منهم يؤمنون بولادة المسيح من البتول مريم وبكلمة الله. أما فيما يتعلق بصلب يسوع، فإنهم يقولون إن الروح القدس حَلَّ عليه فأصبح المسيح، وفارقه

---

(١) نشرت السباعية المعنونة «بشاعة المقوقس» وهي الفصل الثاني من هذا الكتاب، بعد السباعية التي يضمها هذا الفصل.

(٢) الإبيونية، الإبيونيون. فرقةٌ عقائديةٌ يهودية، اشتقت اسمها من الكلمة العبرية (أفيونيم، أبيونيم) التي تعني: الفقراء. وكانت هذه الفرقة ترى أن المسيح محض نبي كبقية الأنبياء، وقد عُدَّت هذه الفكرة لاحقًا «هرطقة» بحسب المفهوم الأرثوذكسي.. راجع تفاصيل هذا الموضوع في كتابي: اللاهوت العربي.

على الصليب فلم يعد مسيحًا، ومات بصفته الإنسانية. ويقول آخرون إن «سمعان» شُبّه بالمسيح وصُلِب بدلًا عنه، بينما ارتفع هو حيًّا إلى الذي أرسله. وكان النصارى يُنكرون ألوهية المسيح وعقيدة الثالوث الأقدس، ويحرِّمون الخمر ولحم الخنـزير والتّبنِّي والصور..».

وأخيرًا، فهناك عشرات الرسائل الاعتراضية المتشنِّجة، راحت تُنكر عليَّ بصخبٍ شديدٍ أنني مشغول بالتراث المسيحي مع أنني مسلم. وأنني تركت مؤخرًا، مجال تخصصي «الفلسفة الإسلامية» وصرتُ مشغولًا بما لم يكن يهمُّني من قبل، وليس يعنيني من قبلُ ولا من بعدُ. ولهؤلاء أقول لتوضيح الأمر، إن فهم التراث الإسلامي لا يستقيم دون إمعان النظر في التراث المسيحي، وإن التراثين متصلان على نحو فعلي. لكن بعض أصحاب (المصالح) حرصوا دومًا على الفصل «الذهني» بينهما لغاياتٍ في نفوسهم. وفي حقيقة الحال، فإن انشغالي بهذه القضايا قديم، لكنَّ طَرْحَه على الناس على هذا النحو الموسَّع، الموثق، كان يقتضي قضاء سنوات في البحث والدراسة، قبل التعرُّض لمثل هذه الأمور الدقيقة. ويمكن لمن أراد التأكد من أن انشغالي بهذه القضية «قديم» أن ينظر مقالي المنشور بصفحة الثقافة من جريدة «الأهرام» اليومية وهي أوسع الصحف المصرية انتشارًا، يوم ١٢/ ٦/ ١٩٩٢ وهو المقال الذي كتبتُه أيام كنت شابًّا مهمومًا بمصر، في مطلع الثلاثينيات من عمري. وقد صرتُ اليوم كهلًا آل عمره إلى خط الزوال.. وها هو نص المقال وعنوانه:

غروب الذات

مع انعدام ثقتي فيما يثار حول حجم «الفتنة الطائفية» في مصر، وشكوكي القوية حول حقيقة الحوادث الداعية إلى الحديث عن هذه الفتنة. فإنني أرى أن ثمة مواقف فعلية، يمكن أن تقود إلى «الطائفية» بصرف النظر عما إذا كانت هذه «الطائفية» هي فتنة أو غير فتنة.

والمواقف الطائفية الفعلية هذه، نراها بكل وضوح في اللحى الكثيفة التي راحت تنمو على وجوه بعض الشباب المصري المسلم. وفي مقابلها نرى القلق البادي على

وجوه المسيحيين، مع كل واقعة يحدثها الملتحون. ومع تمحور كل طرف منهما حول ذاته، تصير لدينا (الطائفية) فإذا حدث صدام بينهما، صارت لدينا الفتنة.

والآن، لنترك الظواهر الخاصة بالفتنة الطائفية هذه، لنبحث في أسبابها العميقة من هذا المنظر الذي وضعناه عنوانًا لهذا المقال «غروب الذات» وما الذات هنا إلا الذات المصرية: لا يوجد مجتمع واحد في العالم، إلا وهو يشتمل على تعددية رأسية وأفقية. فالتعددية الرأسية هي تلك الطبقات المتراكمة تاريخيًّا، طبقات الوعي ومستويات التحضر والدين. وكلما كان المجتمع أكثر عمقًا في الماضي، كان تعدده الرأسي أكثر كثافة وتراكمًا، ومن ثَمَّ كان وعيه المعاصر أكثر تنوعًا في مصادره. أما التعددية الأفقية، فالمقصود بها تنوع الجماعات المؤلفة لهذا المجتمع، والتفاوت النسبي في الثقافة النوعية لتلك الجماعات، ما بين ثقافات الأقليات وسكان المدن وأهل الريف وغير ذلك.

وفي بلدٍ كمصر (المحروسة) تمتد خطوط التعدد الرأسي والأفقي على نحو مثير، فرأسيًّا هي ممتدة في التاريخ لألوف السنين، ومتراكمة في وعيها المعاصر طبقاتٌ فرعونية ويونانية ورومانية (وقبطية) وعربية إسلامية وأوروبية.

والتعددية الأفقية في مصر، تتمثل في توزيع أفرادها ما بين مسلمين ومسيحيين وهي التعددية الدينية، وما بين أهل المدن وصعايدة الوادي وفلاحي الدلتا وبدو الصحراء، وهي تعددية جغرافية في الغالب. وما بين عوام ومثقفين، وجهلة ومتعلمين، وأغنياء وفقراء. وهذه التعددية الرأسية والأفقية تمتزج في النهاية، لتشكيل مفهوم «الذات المصرية» وهو مفهوم يرتبط بطبيعة اندماج ما هو رأسي وأفقي، فكلَّما ازداد الاندماج وانصهرت العناصر وتداخلت، تجلَّت هذه «الذات» وهيمنت على سلوك الأفراد وتصوراتهم العليا للوجود، ومن ثم تقوى الوحدة القائمة على هذا التعدد.

وانصهار العناصر الرأسية والأفقية، أو تمايزها، ينتج من طبيعة الموقف الذي تتخذه الأمة في كل مرحلة. فإن كان الموقف حادًّا وصارمًا اجتمعت العناصر واحتشدت له، وإن كان موقفًا سطحيًّا ومتميِّعًا انفرط عقد هذه العناصر، وتجوهرت الجماعات الفرعية حول محاورها الأصلية.. وهنا تكون ظاهرة اضمحلال الذات وغروبها.

ولقد ظهرت ملامح «الذات» وانصهار عناصرها في المواقف المشهودة كموقف «مقاومة الاستعمار» وموقف حرب أكتوبر، وغير ذلك. فلما تغير الحال، وبدأت عمليات التشتُّت في الرؤى والتشتُّت في الأرض، أعني حين صار العدوُّ صديقًا والإخوان أعداء، وحين صار الهمُّ الأول هو الحصول على التأشيرة النفطية. انفرط عقد الذات، وصار الأمرُ إلى غروبها.

وفي لحظة الغروب هذه، ينتاب الأفراد الهلع والخوف من ظلمة الليل الآتي، فيهرعون إلى كهوفهم الخاصة في محاولةٍ للاحتماء. فيحتمي كل فرد بما هو أقرب إليه من العناصر الأفقية أو الرأسية، ويصير المسلم مسلمًا قبل كونه مصريًّا، وكذلك المسيحي. وينعزل البدوي عن الريفي، وكلاهما ينعزل عن المدني. وتتسع الهوة بين الجاهل العامي والمتعلم المثقف، وتظهر نعرات الاستقلال والتميز داخل المجتمع ومعها تظهر محاولات تأكيد «الذات النوعية» على أنقاض «الذات الكلية».

ولما كان مفهوم «الآخر» يتحدَّد بمفهوم «الأنا» فإن تمحور كل جماعة حول عنصرها الغالب، يبرز مفهومًا خاصًّا بالأنا، ومن ثم يطرح الجماعات غير الشبيهة على أنها هي الآخر. ثم يبدأ الخطر مع غياب مفهوم (العدو الأول للأمة) ليفسح المجال أمام (عداوة الأخوة) فنرى العداء الشديد المتبادل بين أجزاء النسيج الاجتماعي، ليس فقط على مستوى الدين، وإنما على كافة المستويات. وهذا ما نلمحه اليوم وهو يتشكل ببطء ليبرز في النهاية عبر تقابلات عديدة داخل المجتمع المصري، تقابلات تنذر بمواجهات محتملة.

وأخيرًا، فنظرًا إلى وجود بعض التماسك في «الذات المصرية» فإن الظواهر السابقة لا تزال تطل على استحياء. أما الخطر الحقيقي، فهو يتمثل في اشتداد حدة هذا الظواهر مع اكتمال عملية «غروب الذات» وهو اكتمال لا نتمنى أن نشهده، ولا أن يشهده أولادنا. ولذا، فعلينا جميعًا أن نستبصر واقعنا، ونرتفع فوق اللحظة لنستشرف معًا شروق الذات المصرية الواحدة.

(انتهى المقال المنشور قبل عشرين عامًا!)

الفصل الخامس

التَّاريخُ المطويُّ

في لفائف البردي(*)

(*) نُشرت هذه السباعية في منتصف صيف العام ٢٠١٠.

كثيرون منا يعتقدون وبالأحرى يتوهمون، أن الماضي والتاريخ والتراث هي أمورٌ بعيدة عن الواقع الفعلي الذي نعيشه هذه الأيام، ويظنون أن الانشغال بمشكلاتنا الحالية أهمُّ بكثير من معرفة ما كان يوجد سابقًا، ويتخيَّلون أن الحاضر يختلف تمامًا عن الماضي. لكن هذه كلها توهُّماتٌ نتجت عن نظام التعليم الذي خاب مؤخرًا في بلادنا، واستبعد من التاريخ جوهره الحقيقي الذي هو مقدمةٌ لا غنى عنها لفهم الحاضر، وعنصرٌ فاعلٌ في واقعنا المعيش لا يمكن من دونه التعامل مع مفردات الواقع ومشكلاته تعاملًا رشيدًا. وإلا، فكيف نفهم مثلًا سلوك الجماعات المسماة «الإرهابية» من دون التعرف على جذور هذه الظاهرة في تراث الخوارج ومتعصِّبي الحنابلة (وهم بالمناسبة قليلون جدًّا في تراثنا) وكذلك الطريقة التي كان المتأسلمون يستخرجون بها الفتاوى. وكيف نفهم «الغاغة» الحالية الزاعمة أن أقباط مصر مضطهدون، كأن المسلمين المصريين غير مضطهدين. وكيف نفهم ما يجري اليوم من أزمة مياه النيل، لولا اهتمامنا بتاريخ العلاقة بين مصر ودول حوض النيل ومنابعه، فضلًا عن تراث هذه الدول والجماعات التي لا نكاد نعرف عنها شيئًا.

من هنا أقول إن تاريخنا لا ينفصل عن الواقع، لأن التراثَ ممتدٌّ في الحاضر. ومن ثم فالمشكلات الكبرى لن تُحلَّ بطريقة (يوم بيوم) التي يلجأ إليها الجهلةُ، ظنًّا منهم بأنها أسهل وأسرع وأبسط.. وتكون النتيجة، أن تتراكم في حاضرنا المشكلات ويزداد جهلنا بها.

البردياتُ العربية

هناك عدة «مداخل» لمعرفة التاريخ، وعدة «مناهج» لفهمه، فمن المداخل المؤدية إلى استكشاف ما جرى في الماضي: المدوناتُ والكتب التاريخية (المخطوطة منها

والمطبوعة) السِّيَرُ والتراجم، النقوشُ الجدارية، القطعُ الأثرية (العاديات) أدبُ الرحلات القديمة، شهاداتُ السابقين على عصرهم.. وغير ذلك مما يتعلق بطبيعة «الشكل» الذي تتخذه الوثيقة التاريخية، أو «الإطار» الباقي اليوم بين أيدينا من تلك (الآثار الباقية عن القرون الخالية) بحسب عنوان كتاب البيروني الشهير[1].

وأما فَهْمُ التاريخ، أو ما يمكن تسميته «الوعي التاريخي» فهو الجانب المتعلق بمضمون ومعاني وعِبَرِ (الأخبار) واستخلاص القوانين التي يعمل التاريخُ وفقًا لها. وهو الأمر الذي نجده مثلًا في «مقدمة ابن خلدون» وما نراه أيضًا في (المادية التاريخية) عند كارل ماركس، وغير ذلك من الرؤى التي صارت اليوم تسمى «فلسفة التاريخ» بصرف النظر عن الطريقة التي يتم بها ترتيب الوقائع في الأذهان، والقوانين العقلانية التي يتم الاحتكام إليها في استخلاص التصوُّرات النظرية الحاكمة لحركة التاريخ، وفقًا لهذا المنظور أو ذاك.

ومن حيث الشكل والإطار العام، فإن «المدخل» الذي سوف نَلِجُ منه إلى التاريخ، في هذا الفصل، هو «البرديات العربية» وهي اللفائف التي كانت منسية ومطوية، حتى بدأ الأوروبيون الاهتمام بها في النصف الأول من القرن العشرين، وجمعوها من أنحاء مصر وخرجوا بها إلى المكتبات الكبرى في أوروبا، وظلت هناك إلى اليوم. وهي نصوص تبلغ قدرًا هائلًا من حيث عددها وأهميتها، ويكفي أن نشير هنا إلى أن «متحف فيينا» وحده، يقتني حاليًا أكثر من خمسين ألف بردية (مصرية) مكتوبة باللغة العربية، وفي دار الكتب المصرية عددٌ هائل من البرديات لا يعلم مقداره إلا الله.. ولكن ما هو البردي؟

منذ اكتشف الإنسانُ سرَّ الكتابة وعرف أهمية الأبجدية، صار يُدَوِّن ما يريد أن يتركه للأجيال القادمة في (أوعية) تضم النصوص والنقوش والرسم. وكان أول وعاءٍ هو الحجر، الذي نقش الإنسان عليه كلَّ ما أراد أن يبلِّغه للأجيال التالية. وفي حضارات

---

(١) لأبي الريحان البيروني عدة كتب تحمل عناوين بديعة، منها غير ما ذكرته: تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، الجماهر في معرفة الجواهر، جوامع الموجود لخواطر الهنود.. وغيرها.

العراق القديمة، اكتشفوا طريقة بديعة هي المسماة (الكتابة المسمارية) وهي نقوش على ألواحٍ من الطين الطريّ، تجفَّف في أفرانٍ مخصوصة حتى تصير كالصفحات التي تبرز منها الحروف كرءوس المسامير. وفي مصر القديمة ابتكر العباقرة القدماء طريقةً أبدع، هي شقُّ أعواد نبات البردي الذي هو لزج الساق بطبعه، ثم وضعها في شرائح طولية متجاورة، تُلزق عليها شرائح عرضية رقيقةً. فإذا جفَّ الاثنان، صارا كمثل الورقة التي نعرفها اليوم، وصارت وعاءً جيدًا للكتاب.

وقبل اكتشاف العرب لصناعة «الورق» التي برع فيها أهل الصين قديمًا، وجعلوها سرًّا من أسرار حضارتهم، كان البردي هو المستخدم في الكتابة بأنحاء مصر وما حولها، بينما كانت الجلود تستخدم في البلاد المجاورة التي لا ينبت فيها البردي. فإن كانت قطعُ الجلود مكتوبٌ فيها على حالها الطبيعي (بعد الدباغة) فهي الرِّقاع، والمفرد «رُقعة». وإن كانت الجلود مُعَدَّة بشكل جيد، ومرقَّقَة بعد دباغتها لتكون أرقَّ وأقل سمكًا، فهي الرُّقوق، والمفرد «رَقّ».

وقد لفت نظري إلى أهمية النظر في تاريخنا المطوي في لفائف البردي العربية، ذلك الكتاب الذي نشره د. جاسر أبو صفية قبل سنوات، بعنوان «برديات قُرة بن شَريك العبسي» وقبله بقليل، كان د. سعيد مغاوري يكتب كثيرًا عن أهمية البرديات العربية، ولا يكفُّ عن الشكوى من إهمالنا لها. وقبل ذلك بكثير، كان المستشرقون الأوروبيون من أمثال جروهمان، وغيره، يقدمونِ نصوصًا مذهلة من تراثنا المحفوظ في البرديات العربية، مما كان يلفت النظر بشدة إلى أهمية هذا (الشكل) كنافذة مهمة على التاريخ.. وإن كان معظمنا لم يلتفت حتى الآن إلى ذلك.

وبطبيعة الحال، فإن أوراق البردي التي ظلت وعاءً للكتابة لمدة ألفيْ سنة أو أكثر، كانت اللغات المكتوب بها تتغير بحسب المراحل التاريخية. ففي دول مصر القديمة المسماة (الفرعونية) كانت الكتابة على البردي، باللغة المصرية المقدسة المسمَّاة الهيروغليفية. وفي مرحلةٍ تالية، كانت الكتابة على البردي تتم باللغة العامية المصرية المسماة القبطية، وما هي في واقع الأمر إلا مزيج من العامية المصرية (الديموطيقية)

واليونانية القديمة. وباليونانية ظلوا في الزمن البيزنطي يكتبون على البردي، حتى حَكَمَ العرب مصر باسم الإسلام بعدما كانوا يعيشون في مصر في جماعات كبيرة جدًّا، قبل الفتح (الغزو) فصاروا يكتبون على البردي باللغة العربية التي صارت (اللغة الأم) لمصر والمصريين، منذ أكثر من ألف عام.

وأعتقد أن أول نصٍّ مهم كتب على البردي باللغة العربية، وتم توزيعه على نطاق واسع في مصر ليعلم به الجميع، هو «عهد الأمان» الذي أطلقه عمرو بن العاص للأنبا بنيامين، في السنة الأولى من تاريخ مصر العربية (=١٨ هجرية، ٦٤٢ ميلادية، ٣٥٨ للشهداء، ٦٣٤ القبطية الأثيوبية، ٤٤٠٢ لآدم التوراتي).. ولهذا النص قصةٌ ذكرتها تفصيلًا في فصلٍ سابق، ويحسن تذكُّرها قبل قراءة النص الكامل لعهد الأمان:

في الوقت الذي جاء فيه عمرو بن العاص إلى مصر، غازيًا، كان رئيس المسيحيين المصريين اليعاقبة (الغلابة) آنذاك هو الأسقف بنيامين، وكان رئيس المسيحيين المصريين الملكانيين (الأغنياء) هو الأسقف صفرونيوس، فلما جاءت الأخبار تقول إن قيرس (المقوقس) جاء ليضغط على اليعاقبة والملكانيين، ويجعلهم على مذهب مسيحي بائس، مخترع ومفبرك، يسمى «المونوثيلية». صار الأسقفان في مأزق خطير، لأن قيرس «المقوقس» معروف عنه البطش والعنف، وكانت دماء اليهود تملأ العالم بعد المقتلة الهائلة التي قام بها الروم وأساقفة الشام وإيلياء (أورشليم، القدس) عقابًا لهم على ما زعمه البعض من مساعدة اليهود للروم. كانت الأجواء ملتهبة، ومنذرة بالمريع من أمور الشرِّ المستطير.. فماذا فعل الأسقفان؟

هرب الأسقفُ بنيامين واختفى بوادي النطرون أو بالصعيد، وذهب الأسقف صفرونيوس إلى قيرس (المقوقس) ليرجوه أن يصرف نظره عن تعميم المذهب الجديد. رفض المقوقس، فارتمى الأنبا صفرونيوس عند أقدامه وبكى بالدموع والدم (كما يقول ساويرس بن المقفع) ولكن المقوقس رفض. ورفض المصريون المسيحيون، الملكانيون واليعاقبة، المذهبَ الجديد. فقام المقوقس بنشر الرعب في أنحاء البلاد وقتل عشرات الآلاف من الناس، حتى جاء عمرو بن العاص بينما الأنبا

بنيامين لا يزال هاربًا مختفيًا رغم مرور أكثر من عشرة أعوام، عانى فيها أهل مصر من ويلات المقوقس. فلما استقر الأمر بيدِ المسلمين، أراد عمرو بن العاص أن تستقر أحوال الرعية، فأقرَّ الملكانيين على كنائسهم وأديرتهم ومنها أهم وأقدم كنيسة ودير في مصر إلى اليوم (دير سانت كاترين، بسيناء) وأقرَّ اليعاقبة الذين سماهم العرب والمسلمون بعد ذلك بالأقباط، على كنائسهم وأديرتهم. وقالوا لعمرو بن العاص إن رئيس اليعاقبة هاربٌ منذ سنين، ومختفٍ، فكتب ابن العاص الوثيقة التالية وأمر أن تُكتب وتعمَّم على جميع أنحاء البلاد، حتى عاد بعدها بنيامين الأسقف وصارت له بطريركية خاصة به.. وها هو نصُّ الوثيقة أو «عهد الأمان» الذي انتشرت نسخ كثيرة منه آنذاك، وتوزَّعت على عموم البلاد البرديات التي حفظت لنا هذا النصّ، وتناقله المؤرِّخون المسيحيون والمسلمون من أمثال ساويرس بن المقفع والطبري وابن كثير والمقريزي، وقد جاء كالتالي:

> «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم وملَّتهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرِّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص، ولا يُساكنهم (النوب) وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح.. فإن أَبَى أحد منهم أن يجيب، رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة..وأينما كان بطريق (بطرك) القبط بنيامين، نعدُه الحماية والأمان وعهد الله، فليأتِ البطريق إلى هاهنا في أمان واطمئنان، لِيَلِيَ (يتولَّى) أمر ديانته ويرعى أهل ملَّته».

وتعليقًا على هذا النص، يقول القسُّ الباحث د. ألفرد بتلر في كتابه الشهير «فتح العرب لمصر» الذي ترجمه لنا محمد فريد أبو حديد: لم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل إلى الإسكندرية دخول الظافر، وفرح الناس برجوعه بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثة عشر عامًا، منذ هجر (البطرخانة) وهرب إلى الصحراء الغربية عند قدوم قيرس. ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر للأقباط على يد قيرس (المقوقس) والثلاث الباقية كانت في ظل حكم المسلمين، وكان بنيامين في كل هذه المدة يتنقَّل خفيةً بين أصحاب مذهبه، أو يقيم مخبأً في أديرة الصحراء. وإنه لمن الجدير بالالتفات، أن هذا البطرك الطريد، لم يحمله على الخروج من اختفائه.. إلا عهدُ أمان، لا شرط فيه.

لغةُ البرديات المصرية

كنتُ أظن أن الكلام عن (البرديات) لا يهم كثيرين، لكنني فوجئت بتعليقات كثيرة على كلامي السابق عقب نشره في مقالٍ، وفي تعليق منها قال لي صديق (عزيز) أشياءَ تشبه الاتهامات، ملخصها أنني منحاز للثقافة العربية ولذلك لم أذكر البرديات المكتوبة باللغة القبطية، واكتفيتُ بالكلام على مثيلاتها المكتوبة بالعربية مع أنها أقل عددًا وأهمية، وأنني متحامل على التاريخ الحقيقي الموجود في الكتب، ومهتم بنصوص البردي التي لا تدل على شيءٍ مهم وأنني أميلُ إلى عمرو بن العاص وأذكر محاسنه دون مخازيه، مع أن هذا الرجل وصفته المصادر المسيحية العربية بالمفترس ومع أن أمه كانت تلحق بسيرتها المخازِي.. هكذا قال.

ولأن هذا المعترض (عزيز) ويعبِّر عن رأي البعض ممن يتوهمون أنهم يعرفون تاريخ هذا البلد، فلسوف أتوقف عند تعليقاته أو بالأحرى اتهاماته، ثم أتابع كلامي عن نصوص البرديات العربية.. وفي ذلك أقول: أما اتهامي بالانحياز إلى الثقافة العربية فهو أمرٌ أراه غريبًا، لأن هذه (الثقافة) هي التي تجمع في واقع الأمر بين أبناء هذا البلد والبلدان المجاورة له، ولأن «اللغة» هي أول ملمح من الملامح الثقافية، فلا معنى لاتهام شخص بأنه منحاز إلى ثقافته.. يقول محمود درويش في قصيدةٍ له:

ما دلَّني أحدٌ عليَّ، أنا الدليلُ.
أنا الدليلُ إليَّ بين البحر والصحراء،
من أنا؟ هذا سؤال الآخرين،
ولا جواب له.
أنا لُغتي، أنا لُغتي
معلَّقةٌ، معلَّقتانِ، عشرٌ
هذه لُغتي.
من لغتي وُلدت على طريق الهند.

وقد يتوهَّمُ بعضهم أنني ضد ما يسمونه التاريخ القبطي لمصر، وهو أمرٌ أراه مضحكًا ودعائيًّا وغير قويم. صحيح أن هناك خلافًا في الرأي مع بعض رجال الكنيسة المسماة

اليوم بالقبطية، لكن هؤلاء لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليد الواحدة، وإن أردت الدقة فهم بالتحديد ثلاثة أشخاص لا غير. لكنهم يبهرجون على الناس ويدَّعون أنهم (الثلاثة) هم الممثلون للديانة المسيحية، ومن ثم فإن خلافي مع المسيحية ذاتها! وهذا مكرٌ شديد يعلم الله أنه محض ادِّعاء.. وهؤلاء (الثلاثة) الحريصون على تأجيج الاختلاف لأغراضٍ في نفوسهم، يستعملون اللغة العربية في هجومهم الدائم على كتاباتي، بل هددني كبيرهم هذا (المعروف) مستخدمًا في تهديده الصيغ العربية التراثية التي من نوع «إن غدًا لناظره قريب».. والعجيبُ هنا، أن الذين يطرحون أنفسهم كمعارضين للثقافة العربية في مصر، يستعملون في هجومهم أهم ملمح ثقافي عربي «اللغة».

ومن ناحية أخرى، فليس هناك في واقع الأمر شيءٌ اسمه (اللغة القبطية) وإنما هي خرافة تكررت في السنوات الأخيرة على مسامع المساكين، حتى ظنَّ هؤلاء أن هناك حقًّا ما يسمى باللغة القبطية. والأمر صوابه الآتي:

في بدايات مصر القديمة كان الناس يستعملون لغتين، الأولى في الكتابات المقدسة بالمعابد وقد أسماها اليونانيون (اللغة الهيروغليفية) وهي لغة معقدة، عميقة، والأخرى مخففة بسيطة، استعملها الناس والكهنة (كهنة آمون) وسُميت باليونانية: الهيراطيقية. وقد تزامن استعمال اللغتين في مصر القديمة، فكانت الهيروغليفية هي اللغة الرسمية المقدسة التي نقشت على المسلات والجدران، والهيراطيقية هي اللغة المستعملة في الحياة اليومية وهي التي كانت تكتب على أوراق البردي.

وفي حقيقة الأمر، فالهيروغليفية والهيراطيقية ليستا لغتين. وإنما هما طريقتان في الكتابة. ولكن كثيرين ظنوا أنهما لغتان مختلفتان وهذا غير صحيح، لأن اللغة في حقيقة أمرها هي (الأصوات) التي يستعملها الناس، وهناك فرق بين المنطوق (اللغة) والمدوَّن (الكتابة) فقد تتغير طريقة الكتابة، وتبقى اللغة على حالها. مثلما حدث في تركيا بعد ثورة أتاتورك، حيث كان الأتراك يكتبون لغتهم بالحروف العربية ثم صاروا يكتبونها بالحروف اللاتينية، لكن (اللغة التركية) بقيت كما هي على الحالين.

وفي القرن السابع قبل الميلاد، استعمل الناس في مصر طريقة أخرى في الكتابة، هي التي صارت تسمى (الديموطيقية) وفي القرن الثالث قبل الميلاد، تطورت هذه الطريقة وصارت تسمى اعتباطًا (القبطية) وهي تسمية لا دلالة لها، لأن (قبطية) تعني مصرية، وهذه جميعها خطوطٌ مصرية.

وما يجب أن ننتبه إليه هنا، هو أن هذه (اللغة) أو بالأحرى (طريقة الكتابة) ظهرت قبل ظهور المسيحية بثلاثة قرون من الزمان. لكن كثيرين منا اليوم، نحن المصريين، يعتقدون أن هذه (القبطية) هي لغة الكنيسة، ويقوم بعضهم بأمرٍ مضحكٍ هو التكلُّم بها في بيوتهم، ظنًّا بأنهم ما داموا مؤمنين «الإيمان القويم» فإن الواجب عليهم أن يتكلموا هذه اللغة المزعومة! وقد خدعهم بعض رجال الدين وشجَّعوهم على هذا الفعل، وكتموا عنهم أنها (لغة) لا ارتباط لها بالدين. بل هي في حقيقة الأمر، وبحسب مصطلحاتهم، لغةٌ وثنيةٌ بدأت قبل ابتداء (الديانة) بزمن طويل. ولو أراد هؤلاء (المتدينون الجدد) أن يستعملوا لغةً دينية مسيحية، فعليهم التكلم فيما بينهم باللغة الآرامية (السريانية القديمة) لأنها هي اللغة التي تحدث بها السيد المسيح.

والآرامية (السريانية) لغة، واليونانية لغة، والعربية لغة.. أما هذه القبطية المزعومة فهي ليست لغة أصلًا، وإنما هي طريقة في الكتابة لجأ إليها المصريون (الوثنيون) بعد الاحتلال اليوناني لمصر، واستقرار الحكم البطلمي فيها. وهي كنظام كتابة (ملفَّق) يضم أربعة وعشرين حرفًا يونانيًّا، وسبعة أحرف مصرية قديمة.. واستعمل الناس هذه الطريقة في الكتابة حتى مرت عدة قرون، ثم دخل المصريون كغيرهم من الشعوب المجاورة في الديانة المسيحية، وفي الإسكندرية (آهٍ من الإسكندرية) ربط رجال الدين المسيحي في القرن الثالث الميلادي، بين الديانة وهذه الطريقة في الكتابة. وفي منتصف القرن الخامس الميلادي، غضب رجال الكنيسة اليعقوبية (المونوفيزية) في مصر، على كنيسة اليونان الملكانيين (الروم الأرثوذكس) فقرروا أن يستعملوا في الصلوات وكتابة الأدعية الدينية، اللغة القبطية! فتأكد في نفوس الناس ذلك الوهمُ القائل إن هذه المسماة (اللغة القبطية) هي لغة دينية. ومع تكرار الوهم على الأسماع، ظن الناسُ أن

الوهم حقيقة. وفي الحقيقة، فأوراق البردي لا تضم في معظمها نصوصًا قبطية، مثلما توهَّم المعترض. بل أقل القليل من البرديات هو الذي كُتب بالطريقة المسماة (القبطية) فضلًا عن أن المصريين في الزمن المسمَّى اعتباطًا (القبطي) لم يقدموا أي إبداعات أو نصوصًا علمية أو أدبية أو فكرية، حتى تضمها البرديات المصرية المكتوبة في هذه الفترة.. ولذلك لا نكاد نجد في هذا الكمِّ القليل أصلًا والضئيل، إلا الأناجيل (الرسمية والممنوعة) والصلوات والأدعية.

أما قول المعترض إنني متحامل على التاريخ الرسمي، وميَّال إلى عمرو بن العاص؛ فجوابه الآتي:

أما التاريخ (الرسمي) فهو مليء بالأكاذيب والتلوينات التي تخدم مصالح الذين كتبوه والذين يروِّجون له. وأذكر هنا قول العلامة «سليم حسن» في مفتتح موسوعته البديعة (مصر القديمة) حيث يقول ما نصه: «هذه محاولة جريئة أردتُ بها أن أجمع في مؤلَّف واحد، تاريخ شعب عريق قديم له عقيدته وفلسفته في الحياة، وله ثقافته ونظامه وطرائق معيشته، ولم أتخذْ من تاريخ (الفرعون) نموذجًا لتاريخ شعبه، كما جرت العادة بذلك في الكتب. ولم أجعل حياته وعاداته ونظمه وثروته ومعتقداته، مقياسًا للحكم على أحوال رعيته. بل جعلت حال الشعب، أساسًا لما كتبتُ. وفي ذلك ما يقربنا من الحقيقة، ويجنِّبنا مزالق الخطأ والضلال».

إذن، كان سليم حسن يقدِّم لنا (التاريخ الحقيقي) لا الرسمي المزيف، الذي صار هو القاعدة في زماننا الحالي، حيث الوعي العام «البائس» الذي يظنُّ أن صلاح الدين الأيوبي هو الممثل (أحمد مظهر) ويظنُّ أن قطز وبيبرس وسُنقر الأشقر هم (أبطال) عين جالوت! ويظنُّ، ويظنُّ.. والظنُّ لا يغني من الحق شيئًا.

أما الفاتح البديع «عمرو بن العاص» فلا أجد معنى لانتقاده، لأن أمه كانت كذا وكذا. فهو غير مسئول عن ذلك، لكنه كان من الصلابة والقوة بحيث تجاوز ذلك، بل كان يذكره دون أيِّ تحرُّج. ليس هذا فحسب، بل انتقد عمرو بن العاص نفسه وهو أمير مصر، على نحوٍ أشد مما نجده عند منتقديه. علمًا بأن انتقاد هذا الرجل لن يقلل

بحالٍ من مكانته، وقد سبق لي في كتابي «كلمات، التقاط الألماس من كلام الناس» أن انتقدتُ بعض ما قام به عمرو بن العاص، مثل بيع العيال في المدن الخمس الغربية (ليبيا) لسداد الجزية. لكن الموضوعية تقتضي، أيضًا، أن نذكر محاسن هذا الرجل النادر، الذي دخل مصر غازيًا ثم استقر فيها وأقرَّ الأحوال والنظم، فصار فاتحًا عظيمًا.

ولو كان عمرو بن العاص قد احتُقر حقًّا من أسرته (قبيلة بني سهم) ومن معاصريه، كما يتوهَّم المبهرجون، لأن أمه لم تكن من حرائر مكة؛ لما كان قد وقف في وجه أشراف مكة، وهو بعد صبيٌّ يافع، يندِّد بموقفهم من أبيه في حزب الفضول. ولما زوَّجوه من ابنة عمه رائطة (ريطة) السهمية، وهي المرأة العظيمة التي عاشت معه تقلُّبات حياته الفظيعة، وكانت تصحبه في أسفاره وتنقُّلاته وحروبه. ولما كان النبي محمد ﷺ قد أرسله (فور إسلامه المتأخر) ممثلًا له في منطقة البحرين، وقائدًا لحملات عسكرية مثل موقعة (ذات السلاسل) التي حارب في صفوفها كبارُ الصحابة من أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق. ولما كان هذا الرجل البديع قد تحمَّس لدخول مصر مستعينًا في ذلك بقوى كثيرة، غير الجيش الهزيل الذي دخل به! قوى ما كان غيره ينتبه إليها، مثل عشرات الآلاف من الأنباط والعرب الذين كانوا يعيشون بمصر من قبله بزمنٍ طويل، وما كان قد غامر هذه المغامرة الكبرى التي تردَّد بشأنها الخليفة عمر بن الخطاب. لكن عمرو بن العاص تحمَّس، وبادر، ليبدأ عصرًا جديدًا هو الممتد فينا منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، إلى اليوم.. هو عصر مصر العربية الإسلامية[1].

---

(١) ذكرت المصادر التاريخية الإسلامية أن والدة عمرو بن العاص كان اسمها ليلى وتُلقَّبُ «النابغة» وقد كانت أَمَةً حبشية لرجلٍ من قبيلة عَنَزَة، فوقعت في الأسر وبيعت في مكة فاشتراها عبد الله بن جدعان، وصارت بغيًا من أصحاب الرايات (عاهرة) من أرخص بغايا مكة أجرةً، فعاشرها خمسة رجال: أبو لهب وأبو سفيان وأمية الجمحي وهشام بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي، فولدت «عمرو» فأراد كل واحد من هؤلاء أن ينسبه لنفسه، فألحقته أمه بالعاص بن وائل لأنه كان الأقرب شبهًا، ولأنه كان ينفق على بناتها، فنشأ عمرو في بيت العاصي بن وائل.

وبعد الإسلام، كان بعض معاصري «عمرو بن العاص» يعأيرونه بأمه وأخته «أُرينب» لكنه كان يتجاوز عن ذلك.. فلما صار أميرًا لمصر، تراهن بعض الرجال مع واحدٍ منهم على أن «يجعلوا له مالًا (ألف درهم) إذا قدر أن يسأل «عمرو بن العاص» عن أمه، وهو يخطب في الناس على المنبر، وكان الرجل نزقًا، فصاح في عمرو سائلًا: حدِّثنا عن أُمِّ الأمير! فأجاب عمرو بن العاص من فوره: نعم، كانت امرأة من عَنزة، ثم من بني جلان، تسمى ليلى وتلقَّب النابغة، اذهبْ وخُذْ ما جُعل لك..

باسيل وابن شَريك

في سنة ٩٠ هجرية الموافقة لسنة ٧٠٨ ميلادية، عزل الخليفة الأموي «الوليد بن عبد الملك» أخاه «عبد الله» عن حكم مصر وولّى مكانه رجلًا من قبيلة (عبس) العربية، اسمه قُرَّة بن شَريك العبسي. وقد وصل الوالي الجديد إلى الفسطاط في المساء، فدخل المسجد وصلّى وجلس في ركنٍ متميز، فأحسَّ به واحدٌ من رجال الشرطة فجاء إليه يستطلع خبره.. يقول المؤرخون:

قال له الشرطي: إن هذا الركن هو موضع الوالي، فعليك بالجلوس في مكانٍ آخر. فقال له ابن شَريك: وأين الوالي؟ قال إنه في رحلة «نزهة»، فقال له ابن شريك: نادِ خليفتَه.. شعر رجالُ الشرطة أن الأمر فيه شيء، فاستدعوا رئيس الشرطة (وزير الداخلية) الذي ينوب عن الحاكم أثناء غيابه، وكان اسمه «عبد الأعلى بن خالد» فجاء، وسط دهشة الناس من سطوة هذا الرجل الغريب الذي يستدعي إليه رئيس الشرطة، حتى إن رجال الشرطة قالوا لرئيسهم وهم يستدعونه: أرسلْ إليه يأتِك صاغرًا. فقال: ما بعث إليَّ، إلا وله سلطانٌ عليَّ، أسرجوا الخيل.

وجاء رئيس الشرطة على عجلٍ، وسط حاشيته، فدخل على قُرَّة ابن شَريك الذي ابتدره بالسؤال: أنت خليفة الوالي؟ قال: نعم. قال: انطلقْ فاطبعْ (أغلق) الدواوين وبيت المال.. فسأله رئيسُ الشرطة وقد استبعد أن يكون الخليفة «الوليد بن عبد الملك» قد خلع أخاه، إن كان جاء واليًا على الخراج فقط، أم أميرًا على مصر؟ فقال له ابن شريك: انطلقْ كما تؤمر.. فقال عبد الأعلى: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله.

بهذه الواقعة المشهورة في تاريخنا بدأ حكم قُرة بن شريك لمصر، أميرًا عليها، وعاملًا للأمويين. وقد اختلف المؤرخون في شخصية هذا الرجل، ووصفه فريقٌ منهم بأنه كان جبارًا جائرًا، يشرب الخمر بالليل، فاسقًا خليعًا.. إلخ! ولعل ذلك قد تأكد عندهم من هذه الواقعة المعروفة، التي روتها أغلب مصادرنا القديمة:

راجع المزيد من ذلك، في المصادر الآتية: ربيع الأبرار للزمخشري، التذكرة لابن الجوزي، العقد الفريد لابن عبد ربه، الروض الأنف للسهيلي.

«خرج قُرة بن شريك من الفسطاط لزيارة الإسكندرية سنة واحد وتسعين للهجرة، وكان (الخوارج) قد دبَّروا مكيدة لاغتياله، برئاسة واحد منهم هو «المهاجر بن أبي المثنى» وكان عددهم مائة رجل.. مكنوا له عند منارة الإسكندرية (الفنار) حتى إذا وصل هناك هجموا عليه، وفتكوا به. ولكن ابن شريك عرف بالأمر، فأرسل إليهم قوةً من الشرطة اعتقلتهم جميعًا، وحبسهم في المنارة وسألهم هناك فاعترفوا بما كانوا يخططون له، فقتلهم كلهم في ساعةٍ واحدة».

ومثلما حَمَلَ فريقٌ من المؤرخين المسلمين على «قُرَّة» واتهموه بأبشع الصفات، حمل عليه المؤرِّخ المسيحي (اليعقوبي) ساويرس بن المقفع، ووصفه بأنه كان متجبرًا ظالمًا، أنزل بالرهبان بلايا عظيمة.. وأورد عنه القصة التالية:

«لما وصل قُرة إلى مصر، ذهب إليه الأب «ألكسندروس» رئيس اليعاقبة (بطرك الأقباط) ليسلِّم عليه، فألزمه قُرَّة بالجزية التي كان يدفعها للأمير السابق المخلوع، وقدرها ثلاثة آلاف دينار، فاعتذر البطرك بأنه لا يملك هذا المال وأقسم له على أنهم لا يكنـزون الذهب، وطلب يؤذن له في الذهاب إلى الصعيد لجمع المال المطلوب، فوافق قُرَّة، ثم اكتشف أنهم يخبئون في الأبسقوبيون (البطرخانة) خمسة كيزان فيها ذهب. فأمر الأمير بإغلاق البطرخانة، وأَخَذَ ما فيها، وأرسل إلى الصعيد فأحضر البطرك من هناك وهَمَّ بقتله بسبب يمينه (القسم) الكاذب.. فهرب أصحاب البطرك، وأخذ قُرَّة الجزية من الرهبان دينارًا كل عام على كل رأس».

ومن الناحية الأخرى، دافع كثيرٌ من المؤرخين والدارسين عن شخصية قُرَّة بن شَريك، ونقضوا تلك «الحكايات» المروية عنه، وذكروا عديدًا من الوقائع المحددة التي تدل على مكانة هذا الرجل. فهو الذي قام بتوسعة مسجد الفسطاط (جامع عمرو بن العاص) وأصلح موضع القبلة في المحراب القديم الذي بناه عمرو بن العاص قبله بقرابة نصف قرن، وهو الذي استصلح الأرض البور المسماة «بركة الحبش» وزرعها، وهو الذي نظم الإدارة «دوَّن الدواوين» وحَدَّد الجزية والخراج بدقة.

ويؤكد المقريزي، المؤرخ المصري الشهير، أن الذي فرض الجزية على الرهبان وأحصاهم لم يكن قُرة بن شريك العبسي، وإنما كان الأمير عبد العزيز بن مروان الذي:

«أمر بإحصاء الرهبان فأحصوا، وأُخِذت منهم الجزية، عن كل راهبٍ دينار. وهي أول جزية أُخذت من الرهبان».. وللتوضيح: أسقط الولاة اللاحقون هذه الجزية عن الرهبان. وقد أفتى كثيرٌ من الفقهاء بأن الراهب إذا انقطع في صومعةٍ أو دير، فلا جزية عليه، وإن خالط الناس في مساكنهم ومعايشهم، صارت الجزية عليه واجبة.

وبعيدًا عن هذه الروايات التاريخية، التي تناقضت في وصفها لشخصية قُرَّة بن شريك. سوف نرى الرجل فيما يأتي، من واقع النصوص الفعلية والرسائل التي كتبها إلى (باسيل) الذي كان يُكتب في برديات ذاك الزمان، من دون حرف الألف «بَسيل». وأول ما يلفت النظر في برديات قُرة بن شريك، ورسائله إلى باسيل. أن هذا الأخير كان يشغل منصبًا مهمًّا، باعتباره مسئولًا عن منطقة كبيرة (محافظة) تقع في صعيد مصر بين سوهاج الحالية وأسيوط، وكانت عاصمتها «أشقوه» التي ينطق اسمها أحيانًا أيضًا «شقاو» ويقال لها اليوم في الصعيد: شجاو. وكانت تتبعها عدة بلدات كبيرات (مديريات) كما سيظهر ذلك من نصِّ البرديات التي سنقدم فيما يلي نماذج مما جاء فيها.

إذن، كان «بسيل» هذا يشغل منصبًا يقارب ما نسميه اليوم (المحافظ) ليس فقط بمعنى «جامع الجزية» من أهل المنطقة الكبيرة التي يديرها، وإنما كان كالوالي المسئول عن النظام وفضِّ المنازعات وإقرار الأمن ومراقبة الأمور. وسوف يتضح لنا من نص (الرسائل) التي احتفظ بها باسيل حتى وجدها المستشرقون، أن الرجل كان مسيحيًّا يعقوبيًّا أو بحسب المصطلح المعاصر «قبطيًّا» وهي مسألة لا تخلو من الدلالات.

وبرديات (رسائل) قرة بن شريك إلى باسيل، معظمها مكتوب باللغة العربية، وفيها بعض الرسائل باليونانية والقبطية (المصرية القديمة) وهي عشرات من الرسائل المحفوظة حاليًا في أوروبا، والقليل منها محفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة. وقد نشر الباحث الأردني د. جاسر أبو صفية، بعض هذه الرسائل في كتابه الصادر عام ٢٠٠٥ عن مركز الملك فيصل بالرياض، بعنوان: برديات قُرة بن شَريك العبسي.

وفي هذا الكتاب مقدمةٌ يقول فيها ناشر الرسائل: «كثيرًا ما وقع للمؤرخين الغلط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم على مجرد النقل.. ومن هنا تأتي أهمية البرديات

في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، على أسسٍ علمية صحيحة، لا مجال فيها للنقل أو الرواية، لأنها وثائق كُتبت في عصرها، بعيدًا عن الميول والأهواء.. وسنرى لقُرَّة بن شريك، صورةً أخرى تناقضُ صورته في كتب المؤرِّخين المسلمين والنصارى، مناقضةً تامة، وتفضح رواياتهم المزوَّرة المضلِّلة التي لا تتورَّع عن الطعن على رجالات الدولة الأموية».

ولم يكن د. جاسر أبو صفية، هو أول من اهتم ببرديات قُرَّة بن شَريك ورسائله إلى باسيل، فقد كان رائد هذا المجال هو المستشرق النمساوي الشهير «جروهمان» الذي نشر لأول مرة هذه الرسائل، وقال عنها: «لقد تعمَّد المستشرقون تسويد صورة الحكم الأموي، وولاته، خاصة قُرة بن شريك الذي ضُرب به المثل في القسوة والظلم! ولكن لا أثر البتة للظلم أو الاستبداد في البرديات، بل يبدو قُرَّة فيها حريصًا على حماية الناس من ظلم جباة الضرائب، باذلًا أقصى جهده لتحسين الأوضاع الزراعية وزيادة الإنتاج وإنشاء الدواوين والاهتمام بالجيش والأسطول.. كما يبدو قُرة في رسائله، متسامحًا مع القبط (المصريين) شديدًا على عماله (موظفيه) لكنه رقيق مع عامة الناس. وتبدو في رسائله نزاهتهُ وعدالته وتقواه. وهكذا فإن البرديات تثبت أن كل ما قيل عن قُرَّة، هو محض افتراء».

ثم تعرضت الباحثة «نبيهة عبود» إلى رسائل قُرَّة، وعرضت للتهم التي وجَّهها المؤرخون إليه، وأرجعت ذلك إلى تعصُّب المصادر على بني أمية على يد مؤرخي الدولة العباسية ومؤرخي النصارى كساويرس بن المقفع، ثم فنَّدت هذه التهم بأدلةٍ من البرديات التي تُعطي صورةً ناصعةً لقُرَّة بن شريك، وتحدَّثت عن عقليته الإدارية والعسكرية، ونفت عنه الظلم مثلما فعل جروهمان.

وكتب المستشرق «بِل» في مقدمة كتابه عن البرديات المكتوبة باليونانية: «إن قسوة قُرَّة بن شَريك، وعدم تقواه، قد تكون في جملتها محض خرافة. إذ إن الواضح بالدليل (من البرديات) أنه كان واليًا قديرًا نشطًا، وهو في الوقت الذي كان يحذر فيه باسيل (عامله على أشقوه) من فرض جزيةٍ لا يحتملها الفلاحون، كان لا يقبل منه أقل مما هو

مفروض عليهم. ولذلك فمن المحتمل أنه اعتُبر ظالمًا، من القبط، ليس لأنه كان مسيئًا في إدارته ولكن لأنه استطاع أداء واجباته المنوطة به، بكفاية عالية.».. كما دافع عن قرة بن شريك، الأب (القسيس) الفرنسي «هنري لامِنْس» في مقالة له بالفرنسية، أكَّد فيها أن البرديات تدل على أن المؤرخين قاموا بتزوير أخبار قُرَّة بن شَريك.

ولنتعرَّف مبدئيًّا على شخصية «قُرَّة بن شريك» من خلال عباراته التالية التي كتبها إلى «باسيل» ثم نتوقف من بعد ذلك عند مجموعة رسائله. يقول قُرَّة: «إني لا أحب أن يرى أحدٌ في عملك شيئًا تكرهه، من عجزٍ أو تأخير، فإني قد بعثتك على عملك، وأنا أرجو أن يكون عندك أمانة وإجزاء وتنفيذ للعمل، فكن عند حسن ظني بك. فإني والله، لأن تكون محسنًا أمينًا موقَّرًا، أحبُّ إليَّ من أن تكون على غير ذلك».

رسائل قُرَّة

تعدُّ هذه الرسائل، هي النصوص (البِكْر) التي تكشف عن صورة الماضي الحقيقي، وتعكس حياة الناس في مصر بعد عقود من الفتح الإسلامي. ولا حاجة هنا لتأكيد أن البرديات ونصوصها التي كُتبت بطريقة تلقائية، لأغراضٍ حياتية (يومية) إنما تعبر عن إيقاع الحياة اليومية، وعن التاريخ الفعلي الذي كثيرًا ما يخالف (الحواديت) والتوهُّمات التي يقدمها التاريخ المدرسي، المضاد في أحيانٍ كثيرة للعقل والمنطق. فضلًا عن خرافات «التاريخ الرسمي» الذي يُكتب ويشتهر، تلبيةً لأغراضٍ سلطوية تسعى إلى التوجيه النفعي للأحداث الكبرى، وتروِّج لها في صيغة كفيلة بتشويش الوعي العام المعاصر.

ورسائل قرة بن شريك إلى «محافظ» أشقوه المسمَّى باسيل «بسيل» احتفظ الأخير بالعشرات منها، ووصلت إلينا مع غيرها من رسائل ابن شَريك، بالصدفة أو بالتنقيب الأثري أو بجهود المستشرقين. ولسوف أقدم فيما يلي مختارات منها، مع وضع بعض الكلمات الشارحة بين القوسين، ومَنْ أراد أن يقرأها كاملةً فليرجع إلى كتاب (برديات قرة بن شريك العبسي) المشار إليه سابقًا.

رسالة:

من قُرَّة بن شَريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنّ عبادة الله مقدَّمة على جمع الجزية من الكورة (المنطقة) وعلى سياسة الدولة، لأنها السبب في جعل صاحب الكورة (اختياره لهذا المنصب).. دون تهرب من القيام بواجبه، والنظر في الظلامات المقدمة إليه من أهل كورته، ومقدرًا على كل منهم ما يترتب عليه، مراعيًا مخافة الله في ذلك. وأن يتوخى العدل في التقدير في قيمة الضرائب والخدمة العامة. فإذا جاءك كتابي هذا، فابذل نفسك لأهل كورتك، واستمع إليهم، واحكم بينهم بالعدل، ولا تحتجب عنهم ويسِّر لهم أمر لقائك. واجمع مواريت القرى (العُمد) وأمرهم أن يختاروا من يوثق به، والأذكياء من الرجال، وليقسموا، وكلِّفهم تقدير الجزية على كل قرية حسب طاقتها وتعهد ما قبلك، وكن العامل الأمين على كورتك. وأمرهم أن يقدروا القيمة بعد أن يقسموا، فإذا انتهوا من ذلك ارفعه إليَّ، واحتفظ بنسخة منه، واكتب لي أسماء الرجال الذين قدروا قيمة الجزية ونسبهم وقراهم.

واعلم أنني إن وجدت قرية حملت فوق طاقتها، أو فُرِض عليها أكثر مما يتطلبه العدل في التقدير، أو إذا كانت قرية قد عجزت عن دفع القيمة المقررة من قبلهم، فسأصيب المقدِّرين والعريف بعقوبةٍ لا يحتملونها، وأغرمهم قيمة ما عجزت عنه القرية.

فاقرأ عليهم كتابي هذا، وحُثَّهم على أن يجعلوا مخافة الله نصب أعينهم، وأن يتوخوا الأمانة في تقديرهم. ولا ترسل الكتاب إليَّ حتى تنظر فيه، فإذا وجدتهم قد قدَّروا أقلَّ من ذلك أو أزيد، فاكتب إليَّ كيف فعلوا.

رسالة:

من قُرَّة بن شَريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن مرقس بن جريج (جورج) أخبرني أنه كان يسأل نبطيًّا من أهل كورتك (منطقتك) ثلاثة وعشرين دينارًا وثُلث دينار فيزعم أن النبطي مات، وأنه أخذ ماله نبطيٌّ من أهل قريته، وغلبه على حقه. فإذا جاءك كتابي هذا، فإن أقام البينة على ما أخبرني، فانظر مَنْ أخذ ماله، فعليه دينه. ولا يظلمن عندك إلا أن يكون شأنه غير ذلك، فتكتب إليَّ به، ولا تكتب إلا بحق. والسلام على من اتبع الهدى.. في صفر سنة إحدى وتسعين.

رسالة:

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن مرقس بن جريج أخبرني أن له عشرة دنانير ونصف، على نبطيٍّ من أهل كورتك، فيزعم أنه غلبه حقه. فإذا جاءك كتابي هذا فإن أقام البينة على ما أخبرني، فاستخرج له حقه، ولا يظلمن عندك، وإن كان شأنه غير ذلك، فلتكتبْ إليَّ به.
والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن بقطر بن جمول أخبرني أن له أحد عشر دينارًا، على نبطيٍّ من أهل كورتك، فيزعم أنه غلبه على حقه. فإذا جاءك كتابي هذا، فإن أقام البينة على ما أخبرني فاستخرجْ له حقه، ولا يظلم من عندك، إلا أن يكون له شأن غير ذلك فاكتبْ إليَّ به والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، فإن إبشادة بن أبنيلة قد أخبرني أن له على أنباط من أهل كورتك (؟) عشرة دنانير، فيزعم أنهم غلبوه على حقه فإذا جاءك كتابي هذا وأقام البينة على ما أخبرني فاستخرج له حقه، ولا يظلمن عندك إلا أن يكون شأنه غير ذلك، فاكتبْ إليَّ به، والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى زكريا صاحب أشمون العليا، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن يحنس (يوحنا) بن شنودة أخبرني أن له ثمانية عشر دينارًا على أنبا «صلم» من كورته، وغلبه على حقه. فإن كان ما أخبرني حقًّا، وأقام البينة فاجمع بينه وبين صاحبه، فما كان له من حق فاستخرجْه له، ولا يظلمن عندك، والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة إلى بسيل صاحب أشقوه. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن داود بن بداس أخبرني أن ماروت (عمدة) قريته دخل بيته بأسباب له ومتاع ظلمًا بغير حق. فإذا جاءك كتابي هذا فاجمع بينهما، فإن كان ما أخبرني حقًّا، فاستخرجْ له حقه، ولا يظلمن عندك وادحرْ المروت (العُمد) عن بيوت الأنباط دحرًا شديدًا، والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى.. مينا صاحب أهناس، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فاستوصِ بقوستة القسطال، وأعنه على استخراج حق إن كان له. والسلام على محمدٍ النبي ورحمة الله.. في ذي الحجة تمام سنة تسعين.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني قد أمرت بقسمة نواتية سفن مصر وسفن أهل الشام وبأرزاق من يركب فيها من المقاتلة. فإذا جاءك كتابي هذا فَمُرْ أهل أرضك فليتقدموا في صنعة الخبز وليحسنوا صنعته؛ فإنه لا يصلح الجيوش إلا الخبز الطيب. واعلم أنك إن ترسل بخبزٍ غير طيب لا يقبل منك ويصبك فيه ما تكره. فابعث على صنعة هذا الخبز من يتعهده ويحسن صنعته؛ فإني غير مرخص له فيه إن شاء الله. والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن أهل أرضك قد باعوا طعامهم (القمح) إلى التجار، ليحبسوا ما اشتروا بأيديهم (الاحتكار) فلا يبيعون منه شيئًا، تربصًا بالناس

وانتظار غلاء السعر. وأيم الله، لأنبئنَّ برجل حبس طعامه أن يبيعه، إلا أنهبته. فانظر، فمن كان بأرضك من التجار الذين يشترون الأطعمة، ويجمعونها. فَمُرْهُمْ فليبيعوا طعامهم، ومُرْ كل تاجر فليحمل نصف ما عنده من الطعام إلى الفسطاط. واكتبْ إليَّ مع كل تاجر يقدم (يأتي) من قبلك (جهتك) ما حمل حين يقبل. ثم مُرهم فليبيعوه بالفسطاط. فإني قد أمرت صاحب المكس (جابي الضرائب) أن يعلم ما يقدمون به من ذلك، فإن الطعام نافق بالفسطاط، ليس يقدم أحد بطعام، إلا أنفقه. وانظرْ النصف الباقي فليبيعوه في أهل الأرض، فإن لم ينفق في الأرض فليحملْه إلى الفسطاط، ولا تؤخرنَّ ذلك، ومُرْ به حين يأتيك كتابي هذا. وابعثْ على ذلك مَنْ ينفذه، فإني قد أمرت العمال كلهم بذلك. فاكفني ذلك، ولا ألومنك فيه. والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة:

من قرة بن شريك، إلى بسيل صاحب أشقوه. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك قد علمت الذي كتبتُ إليك به، من جمع المال، والذي قد حضر (جاء موعده) من عطاء الجند وعيالهم وغزو الناس. فإذا جاءك كتابي هذا، فخُذْ في جمع المال. فإن أهل الأرض (المزارعين) قد جمعوا منذ أشهر. ثم عجِّل إليَّ بما اجتمع عندك من المال، بالأول فالأول. ولا أعرفنك ما خنستنا بما قِبَلك (تأخيرك للأمر) فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحراثة، وعلموا ما عليهم، وصلحت أفراطهم لبيع ما أرادوا منها. فعجِّلْ عَجِّلْ بما اجتمع عندك من المال، فإنه لو قَدِمَ إليَّ المال، أمرت للجند بعطاياهم إن شاء الله. فلا تكونن آخر العمال بعثًا بما قِبله. ولا ألومنك في ذلك. والسلامُ على من اتبع الهدى.

رسالة:

من قرة بن شريك، إلى بسيل صاحب أشقوه. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن «القاسم بن سيار» صاحب البريد، ذكر لي أنك أخذت قُرًا في أرضك (صادرت ملكية الأرض) بالذي عليهم من الجزية. فإذا جاءك كتابي هذا، فلا تعترضن أحدًا منهم بشيء، حتى أُحدث إليك فيهم، إن شاء الله. والسلام على من اتبع الهدى. في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين.

رسالة:

من قرة بن شريك، إلى بسيل صاحب أشقوه. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فانظر الذي بقي على أهل أرضك، مما كان عبد الله بن عبد الملك، قسَّم عليهم من رزقه، ورزق حاشيته وعماله، فنفذْه واستخرجْه، ثم عجِّلْ إليَّ به مع رسولي حين يأتيك، ورسول من عندك، ولا ترسلنَّ إلا بمال طيب، ولا تؤخرنَّ منه دينارًا واحدًا. والسلام على من اتبع الهدى.. في شهر ربيع الأول من سنة تسعين.

رسائل (أخرى) لابن شَريك

لما أوردت في مقالتي تلك المجموعة المختارة من رسائل قرة بن شريك، ثار اهتمامُ كثيرٍ من القراء. وقد هاتفني مرةً أخرى صديقٌ (عزيز) ليعترض على ما جاء في المقال! قال ما فحواه إنني اخترت رسائل معينة بحيث يظهر ابن شريك بمظهر طيب، ولكن هناك رسائل (أخرى) تظهره على غير ذلك. وإنني نظرت إلى «أشقوه» هذه كأنها تمثل عموم مصر، وما هي إلا قرية صغيرة. فلا عبرة بأن جابي الضرائب فيها (مسيحي) يعمل مع المسلمين، والمعروف أن الحكام المسلمين أنهكوا مصر بالجزية، وعذَّبوا الناس للحصول عليها. هكذا قال.

ولأن صديقي العزيز (عزيز) فقد رأيتُ لزامًا عليَّ، أن أردَّ على ملاحظاته واعتراضاته المهذَّبة، تقديرًا لما يجمع بيننا من محبةٍ لا تشوبها الأغراض التي نعرفها عند رواة الخرافات وأساطين الواهين المتوهِّمين، ومن بعد ذلك نستكمل الكلام عن حياة الناس في مصر، من واقع البرديات التي بين أيدينا اليوم:

هناك بالفعل رسائل (أخرى) لقرة بن شريك، قد يصل عددها إلى المئات، لكنها لا تخرج في مضمونها العام عن الإطار الذي عبَّرتْ عنه الرسائل السابقة. مع مراعاة أن قطع البردي «العربية» التي يصل عدد الباقي منها بين أيدينا اليوم إلى أكثر من مائة ألف ورقة، تعد رسائل ابن شريك التي احتفظ بها (باسيل) من أكمل المجموعات البردية التي نجت من أيدي الزمان.

فإذا نظرنا في رسالة (أخرى) لابن شريك، ظهر لنا أمرٌ طالما استترَ عنَّا؛ وملخصه كما يلي: في العشرين سنة التي سبقت الفتح (الغزو) الإسلامي لمصر، عاشت البلاد أسوأ فترة في تاريخها الطويل. ففي هذه المدة القصيرة نسبيًّا، جاء هرقل بجيوشه التي يقودها «نيقتاس» ليخلع مصر من قبضة الإمبراطور «فوكاس» وما كاد الأمر يستقر بيدِ هرقل، حتى جاء الفرس فاحتلوا البلاد لمدة عشر سنوات، ثم غلب الرومُ الفرسَ فأخرجوهم من الشام ومصر، ودخلت جيوش هرقل ثانيةً. ثم جاء أبشع حاكم في تاريخ بلادنا «المقوقس» ففعل في الناس أسوأ الأفعال. ومن بعد ذلك جاء المسلمون أو جاء الإسلام أو جاء الفتح العربي، فعاشت البلاد قرونًا تاليةً في سلامٍ ولم تعد الحروب تُنهكها كما كان الحال قبل مجيء عمرو بن العاص.

وكان الحكام والأثرياء قبل مجيء المسلمين يعاقبون الناس في مصر بقسوةٍ شديدةٍ، وهناك دلائل كثيرة على هذا الأمر. منها أن الروم «المسيحيين» يوم سلَّموا معسكرهم المسمَّى حصن بابليون (باب إليون) قطعوا أيدي عشرة آلاف رجل من المصريين اليعاقبة (المونوفيست، أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، أتباع الكنيسة المرقسية) والذي ذكر ذلك هم مؤرِّخو الأقباط، لا المسلمين. ومن ذلك، أن أصحاب السلطان كانوا يؤدِّبون الناس (المصريين الفقراء) بلسع العقارب، أو بغمر أطرافهم في الجير المخلوط بالخل! ولنقرأ الرسالة (البردية) التالية:

> «بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك، إلى باسيل صاحب أشقوه. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. وأما بعد، فلا أعرف أسوأ من التعذيب بغبار الجير والخل، فالمعذَّبون به لا يُرجى برؤهم (شفاؤهم) ويجعلهم عاجزين عن العمل. ولذلك، آمرك بكتابي هذا، ألا يعذَّب أحدٌ بغبار الجير والخل بعد اليوم. فإذا جاءك كتابي هذا، فأمُرْ جميع أصحاب القرى، ومَنْ هم في خدمتك من عمالك، ألا يعذِّبوا أحدًا بغبار الجير والخل. وإذا علمت بعد هذا، أن أحدًا قد عذَّب بهذا الخليط، فسأعاقبك أشدَّ العقوبة، وأُغرمك أثقل الغرامة.»

وعلينا أن نلاحظ هنا، أن وصف باسيل بعبارة «صاحب أشقوه» هو الوصف المرادف للحاكم أو صاحب المنصب الأعلى في المكان. بل كان المسلمون يستعملون وصف

(صاحب البلد) للدلالة على الملك والإمبراطور، فيقولون مثلا عن فريدريك الثاني إمبراطور (ملك) صقلية، إنه: صاحب صقلية.. وهكذا. ولم تكن أشقوه بلدة صغيرة، وإنما تشبه ما نسميه اليوم (مديرية) أو (قطاع) وهو ما كان يسمى في المصطلح العربي المبكر: كورة.. وهذا ما تؤكِّده البرديات (الرسائل) التالية، التي بعث بها ابن شريك ليطالب بالمتأخر من الجزية المقررة على القرى، بعد ثلاث سنوات من موعد استحقاقها. ولنقرأ:

«بسم الله.. هذا كتاب من قرة بن شريك، لأهل (بلدة) هروس من كورة أشقوه: إنه أصابكم من جزية سنة ٨٨ (هجرية) ثمانية وعشرون دينارًا، وسدس دينار. كتبه راشد، في صفر سنة ٩١ هجرية»..

«بسم الله.. هذا كتاب من قرة بن شريك، لأهل شبرا بقونس من كورة أشقوه، إنه أصابكم من جزية سنة ٨٨ أربعمائة دينار وثمانية وتسعون دينارًا. ومن ضريبة الطعام (القمح) مائة وثمانية وعشرون إردب قمح ونصف أردب. وكتب راشد، في صفر سنة ٩١ هجرية»..

«هذا كتاب من قرة بن شريك، لأهل شبرا بقونس، من كورة أشقوه. إنه أصابكم من جزية سنة ٨٨ مائة دينار وأحد وثلاثون دينارًا، وثلث دينار»..

«من قرة بن شريك، لأهل شبرا بنان، من كورة أشقوه.. سبعة وأربعون دينارًا، وسُدس دينار، ومن ضريبة الطعام خمسة أرادب قمح»..

«لأهل منية طورين من كورة أشقوه.. خمسة دنانير»..

«لأهل مُنية كنيسة مارية من كورة أشقوه.. ثمانية وتسعون دينارًا»..

«لأهل مُنية فردة من كورة أشقوه.. خمسة دنانير..».

وهناك كثيرٌ من البرديات، على ذلك المنوال الدال على أن «أشقوه» كانت منطقة واسعة جدًّا، تضم بلادًا عديدة. وأن الجزية لم تكن (مهولة) على النحو الذي يصوِّره اليوم المهوِّلون، إذ إن قيمة الدينار آنذاك بلغت ما يساوي اليوم أربعة جرامات ونصف جرام من الذهب. وإذا حسبنا ما يعادل ذلك من عملتنا اليوم، لعرفنا أن الحكومة المصرية الحالية تجبي من الناس، مسلمين ومسيحيين، أضعاف ما كان يدفعه الناس في ذاك الزمان من جزيةٍ وخراج ومكوس، حسبما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

وفي رسائل ابن شريك (الأخرى) يظهر لنا أن «باسيل» لم يكن وحده المسئول الكبير بمصر، من غير المسلمين، فهناك أيضًا: مينا «صاحب أهناس» وبطرس «قبَّال الذهب بمدينة أهناس» وغيرهما كثير. وكان كُتَّاب الديوان الأميري، بحسب ما يظهر من أسمائهم الواردة في نهايات الرسائل، هم من المسلمين والمسيحيين ومن العرب والمصريين.. فأسماؤهم: راشد، عيسى، الصلت بن مسعود، جرير، وادع، عبد الله بن نعمان، بسيل، مرثد، مسلم بن لبنان.. علمًا بأن رسائل ابن شريك كانت تُكتب أحيانًا بالعربية واليونانية والمصرية (القبطية) ويبدو أن هذه اللغات جميعًا كانت سواسية عند أهل هذا الزمان، وهو ما يدل بطريقة غير مباشرة على أن الصورة لم تكن قاتمة على النحو الذي يروِّج له اليوم بعض المروِّجين المتلاعبين بعقول المعاصرين، بهدف إذكاء الكراهية بدلًا من المحبة.. المحبة.. كيف ضاعت معاني هذه الكلمة، وسقطت من بين أصابعنا ؟

وفي رسائل ابن شريك (الأخرى) ترد إشارة إلى أمرٍ مهم، طالما كان يحيِّرني وهو ما يمكن التعبير عنه بالسؤال: كيف استطاع المسلمون بعد سنوات قليلة من فتح مصر، بناء أسطول بحري استطاع عبور المتوسط والالتحام بالأسطول البيزنطي، وهزيمته في معركة «ذات الصواري» التي سميت بذلك من كثرة صواري السفن التي التحمت هناك. والمعروف أن العرب، سكان الجزيرة، لا خبرة لهم في ركوب البحر.

وكان بعض مؤرِّخينا المعاصرين الكبار (في السنِّ) يؤكدون أن اليعاقبة في مصر هم الذين ساعدوا المسلمين في بناء هذا الأسطول، أو هم الذين بنوه لهم. هذا قولهم الذي ظل دومًا يفتقر عندي إلى الدليل، لأن الحكام المسيحيين (الملكانيين) الذين حكموا مصر قبل مجيء العرب المسلمين، لم يكونوا يسمحون للمسيحيين (اليعاقبة) بالاشتراك في الصناعات العسكرية وأمور القتال، لأنهم يرونهم خونةً للبلاد ومخالفين للعقيدة القديمة التي يؤمن بها الروم الأرثوذكس. بعبارة أخرى: كان الحكامُ يرون الأقباط كفرة! فكيف استطاع الأسطول المصري بقيادة عبد الله بن أبي سرح، هزيمة الأسطول البيزنطي بعد حوالي عشر سنوات من فتح مصر؟

وأعتقد من جانبي، أن (العرب) هم الذين صنعوا هذا الأسطول، أعني العرب الذين صاروا من بعد ذلك مسلمين، لكنهم كانوا قبل ذلك يعيشون بمصر والشام في جماعات تصل أعدادها إلى مئات الآلاف. فهؤلاء هم الذين صنعوا بالشام السفن التي جاء بها جناح الأسطول الذي قاده معاوية بن أبي سفيان، وهم الذين صنعوا بمصر الأسطول الذي حارب به، وانتصر، عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح.

وكان البحَّارة يُعرفون في ذلك الزمان، باسم «النواتية» والمفرد نوتي، وهي كلمة يونانية الأصل تعني البحَّار.. ولنقرأ هذه الرسائل، مع مراعاة أن (الأنباط) هم جماعة كبيرة من العرب، سكنت مصر قبل مجيء الإسلام بقرون:

«أما بعد، فإني قد أمرت بقسمة نواتية سفن مصر وسفن أهل الشام وبأرزاق من يركب فيها من المقاتلة»..

«من قرة بن شريك إلى أهل مدينة أشقوه، فأعطوا لصنعة العين والقوادس والسفن في جزيرة باب إليون قِبَل عبد الأعلى بن أبي حكيم سنة تسعين لجيش سنة إحدى وتسعين نبطيًّا نوبجين ونجارًا وجلفاطًا ومعيشتهم لثلاثة أشهر. فإن أعطيتم الأجر فأعطوا في أجر كل نوبج دينارين، وفي أجر كل رجل جلفاط دينارًا ونصفًا، وفي أجر نبطي نجار دينارًا وثلثًا في كل شهر»..

«من قرة بن شريك إلى أهل بندة من مدينة أنصنى (أنصنا) فأعطوا لبعث نواتية سفن أمير المؤمنين إلى إفريقية قِبَل عبد الله بن موسى بن نصير سنة أربع وتسعين، لجيش سنة خمس وتسعين، نوتيين ونصف نوتي. فإن أعطيتم الأجر، فأعطوا في أجر كل نوتي دينارًا وسدس دينار تدفع لهم من بيت المال، وكتب الأثير بن عمبس بن كومناس، سنة أربع وتسعين».

وفي رسائل ابن شريك (الأخرى) مسألة مهمة ومنسية في الآن ذاته، تتعلق بالجوالي (جمع: جالية) وهم جماعات كبيرة من اليهود والمسيحيين الشوام كان العرب قد دفعوا بهم إلى مصر قبيل الفتح، وبعده، تنفيذًا للقاعدة التي استند فيها الفِكر السياسي الإسلامي المبكر إلى حديثٍ نبويٍّ يقول: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب! وهو ما تعرضتُ له في روايتي «النبطي» بحسب ما يسمح به السياق الروائي وتصاعد الأحداث. والمسألة التي تظهر في البرديات، تتعلق بمراوغة هذه

الجاليات (الجوالي) وتهربهم من دفع الضرائب العامة، أو الجزية المفروض عليهم دفعها بدلًا من اشتراكهم في الأعمال العسكرية. يقول ابن شريك لواحد من حكام الكور (بداية سنة ٩٠ هجرية):

«فإذا جاءك كتابي هذا.. ويعامل الذين جلوا من الكور بمقتضى الأوامر المدرجة في حاشية الكتاب. ويُرسل لهم رجال ذوو كفاية وأمانة، ممن يحسنون الكتابة، ومعهم أوامر لرسل بمتابعة الجوالي. وعليهم أن يكتبوا بحضورهم كتابًا فيه اسم كل جالٍ ونسبه، وعن أي القرى جلا، وإلى أي القرى لجأ..ومُرهم أن يباشروا عملهم بهمة ونشاط، وألا يأخذوا من أحد رِشوة. وإذا علمت أن أحد الرجال الذين ترسلهم قد ارتشى، فسيصيبك منّي ما تكره وتُعاقب أنت والمذنب سواء. وعَجِّلْ بإرسال الرجال إلى أصحاب الكور لأجل الجوالي، ولا أعرفنّ أنك قصرت أو أخَّرت إرسال الرجال الذين كتبت إليك فيهم، لئلا يحيق بك خطر».

وهناك رسائل أخرى تتعلق بهذه «الجاليات» لكن المجال لا يسمح بإيرادها كاملةً، مع أنها رسائل بديعة، تدعو إلى العجب من الانضباط الإداري في مصر آنذاك.

مصر والنوبة

هذه البردية النادرة (الخطيرة) تتعلق بناحية «النوبة» الواقعة جنوبي مصر، وتكشف أمورًا مهمة لا بد لنا قبل الخوض فيها، أن نُلقي بعض الضوء على المسألة النوبية عمومًا، فنقول: لم يفتح المسلمون النوبة ولا استطاعوا غزوها، فظلت زمنًا طويلًا بعيدةً عن إطار دولة الإسلام. وقُدامى المؤرِّخين المسلمين، يعلِّلون هذا التأخير في دخول النوبة، بأن النوبَ (النوبيين) كانوا مهرةً في التصويب بالسهام من فوق النخل، حتى أنهم كانوا يصيبون بالنشاب (السهام) العيونَ والأحداق، ولذلك أطلق المسلمون الأوائل على النوب، اسم «رُماة الحدق».

ويحكي لنا «ابن عبد الحكم» في كتابه (فتوح مصر وأخبارها) وهو الكتاب الذي يعد من أوائل المصادر التاريخية التي أرَّخت لدخول المسلمين هذه البلاد، أن الخليفة عثمان بن عفان جعل أخاه في الرضاعة «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» واليًا على مصر،

وخلع عنها «عمرو بن العاص» الذي فتحها. وقد استكمل الوالي الجديد الفتوحات التي بدأها عمرو، وانتصر على أسطول الروم في الموقعة المسماة «ذات الصواري» لكثرة صواري السفن التي اشتركت فيها، ثم أراد التوسُّع بدولة الإسلام جنوبًا، وهو ما يرويه ابن عبد الحكم على النحو التالي:

ثم غزا عبد الله بن سعد الأساودَ، وهم النوبة، سنة إحدى وثلاثين هجرية (٦٥٢ ميلادية) قال يزيد بن حبيب: كان عبد الله عامل (والي) عثمان على مصر، فقاتلتْه النوبة، قال ابن لهيعة: اقتتلوا قتالًا شديدًا، وأصيبتْ يومئذٍ عينُ معاوية بن حُديج، وأبي شمر بن أبرهة، وحَيْويل بن ناشرة. فيومئذ سُمُّوا رماة الحدق، فهادنهم عبد الله بن سعد، إذ لم يُطِقْهُم[1]..

وعندي هنا رأى آخر، يفسِّر عدم دخول المسلمين النوبة، حتى جاء القرن (الرابع) الهجري. إذ إن قصة «رماة الحدق» هذه، حتى إن صحَّت، فهي لا تفسِّر التأخر الطويل في فتح هذه الناحية. فالمسلمون الأوائل واجهوا في فتوحاتهم الأولى ما هو أشد أثرًا من السهام المصوَّبة على الأعين! فقد واجهوا «فيلة» الفرس في العراق و«جحافل» الروم في الشام، والأساطيل البحرية التي لم يكن عندهم خبرة بقتالها. وغير ذلك من المعضلات العسكرية التي ابتكروا لها حلولًا يضيق المقام هنا عن عرضها، لكنهم في نهاية الأمر تغلَّبوا عليها وغلبوا أولئك وهؤلاء، ونزعوا سلطانهم عن البلاد. فلم يكن عصيًّا عليهم أن يجدوا حلًّا للسهام، وهم الذين طالما استعملوا القوس والنشاب، وتفنَّنوا في مواجهة رماة الروم عند حصار دمشق. فالمسألة ليست مهارة (رماة الحدق) في التصويب من فوق النخل.

والرأي عندي، أن نواحي النوبة لم تكن مطروقةً من العرب قبل الإسلام، بشكل جيد. مثلما كان الحال في العراق والشام ومصر. ففي هذه البلاد، كان مئات الآلاف من العرب يستقرون، أو يأتون بقوافل التجارة، أو يندمجون مع الطبقة الحاكمة. حتى صار البعض منهم، وهم العرب، حكامًا. ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك، أن الحاكم

(١) يقصد: لم يقدر عليهم.

الرومي لبادية الشام عند ظهور الإسلام، كان «فروة بن عمرو الجذامي» وحاكم الروم على دمشق كان اسمه منصور.

لكن النوبة لم تكن مقرًّا للعرب ولا مستقرًّا مؤقتًا لقوافلهم، لأنها بلادٌ قاحلة (رغم مرور النيل بها) لا تزرع القمح ولا تنتج ما يمكن أن يجذب العرب للتجارة أو للإقامة. ولأنني أعتقد أن مئات الآلاف الذين استقروا بمصر من قبل «الفتح» بزمان طويل، وكانوا من العرب «الأنباط» وغير الأنباط؛ كان لهم دورٌ رئيسٌ في فتح البلاد. وقد أبالغ وأقول إنه دورٌ أهمُّ منْ ذلك الذي قام به جيش عمرو بن العاص! فإنني أعتقد أن خلوَّ النوبة من العرب، هو السبب الأول في عجز المسلمين عن فتحها.. ولتكن بعد ذلك أسبابٌ أخرى، مثل قصة «رماة الحدق» أو ما قيل عن أن «ملك» النوبة كان رجلًا قويًّا. فمهما تكن قوته أو قوة خلفائه، فإنها لا تدوم مئات السنين في ناحية قاحلة، يقوم اقتصادها على تجارة العبيد المجلوبين من جوف إفريقيا، أو الهاربين من ظروفها الصعبة المهدِّدة في ذاك الزمان لحياة الأفراد، مثلما هو الحال اليوم.

ولا يفوتنا قبل الدخول إلى نص البردية، تلك العبارة القصيرة التي وردت في النص السابق من كتاب (فتوح مصر) حيث ورد قوله «قاتلته النوبة..» مما يعني أن الذي ابتدأ الأمر، لم يكن جيشًا إسلاميًّا بادر بالزحف إلى هناك، مثلما هو الحال في بقية الفتوح الكبرى وإنما كان الأمر مجرد رَدٍّ على تهديد للصعيد، الذي استقر فيه الفتح العربي من غير أن تدخله الجيوش الإسلامية الكبيرة. وما كان هناك داعٍ لدخولها إلى هناك! لأن بلاد الصعيد كان فيها من العرب، المسيحيين وغير المسيحيين، أعدادٌ كبيرة. وقد ذكر المؤرخون اليونانيون القدماء، أن «قفط» وهي من كبريات المدن بالصعيد، كان ستون بالمائة من أهلها في القرن الخامس الميلادي، من العرب.

ومن هنا، نفهم السبب في أن الوالي «عبد الله بن سعد» هادن النوبة ولم يُطقهم، وصالحهم على هدنةٍ أورد المؤرخون (ابن عبد الحكم، وغيره) بنودَها، كالتالي: لا يغزو «النوبيون» المسلمين، ولا يغزوهم المسلمون. ويؤدون في كل سنة عددًا من العبيد (ما بين ثلاثمائة وأربعمائة) الذين كانوا يُسمّون آنذاك «البَقَط» وفي المقابل،

يؤدي لهم المسلمون كلَّ سنة القمح والعدس.. وقد ذكر ابن عبد الحكم، أن (بردية) كانت محفوظة في الفسطاط، قرأها البعض قبل أن تنخرق ـ بحسب تعبيره ـ وحفظ منها التالي:

«إنا عاهدناكم وعاقدناكم، على أن تُوَفُّونا في كل سنة، ثلاثمائة رأس وستين رأسًا (من العبيد) وتدخلون بلادنا (مصر) مجتازين غير مُقيمين، وكذلك ندخل بلادكم. على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلًا، فقد برئتْ منكم الهُدنةُ. وإذا آويتم للمسلمين عبدًا (هاربًا) فقد برئتْ منكم الهُدنة. وعليكم ردُّ أُبَّاق المسلمين (الهاربين) ومن لجأ إليكم من أهل الذمة».

والبردية التي سنقرأ نصَّها بعد قليل، تتعلق بالمسألة النوبية. وهي ترجع إلى منتصف القرن الثاني الهجري، لأن كاتبها (أو بالأحرى: مُرسلها إلى النوبة) هو الوالي العباسي على مصر «موسى بن كعب» الذي تولّى منصبه في الفترة من سنة ١٤١ إلى سنة ١٤٣ هجرية (٧٥٨، ٧٦٠ ميلادية) وكانت النوبة آنذاك مستقلة عن دولة الإسلام، وكان أهلها قد صاروا مسيحيين. ويظهر لنا من النص التالي، الذي نشره د. سعيد مغاوري في كتابه (البرديات العربية في مصر الإسلامية) أن النوبة كانت لا تزال على حالها الأولى، من (مناكفة) المسلمين.. نقرأ:

«بسم الله.. من موسى بن كعب، إلى صاحب نوبة: سلام على أولياء الله وأهل طاعته، وأحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فقد عَرَفْتَ الذي صولحتم عليه، والذي جعلتم على أنفسكم من الوفاء به، فأحرزتم بذلك دماءكم وأموالكم إن أنتم وفَّيتم به، والله تعالى يقول في كتابه ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾. وقد وفينا لكم بالذي جعلنا لكم من الكفِّ عن دمائكم وأموالكم، وعَرَفْتَ أمْنكم في بلادنا، وسكونكم حيث أحببتم منها، وباختلاف (انتقال) تُجَّاركم إلينا، لا يصل إليهم منا ظلمٌ، ولا غُشم.. وأنتم فيما بيننا وبينكم على غير ذلك، لا تؤدون إلينا ما عليكم من البقط الذي صولحتم عليه، ولا تردُّون من أَبَق (هرب) إليكم من أرقَّائنا، ولا يأمن فيكم تُجَّارنا، ولا تعجِّلون تسريح (عودة) رسلنا.

وأنت تعرف أن أهل الأديان كلها، والملل الذين لا يعرفون ربًّا ولا يؤمنون ببعثٍ ولا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، لا يهجمون تاجرًا، ولا يحبسون رسولًا. وأنت تُظهر لأهل مِلَّتك الإيمان بالذى خلق السماوات والأرض وما بينهما، وتؤمن

بعيسى ابن مريم وبكتابه (الإنجيل).. وعملكم فيما بيننا مخالفٌ لما تُظهر، فقد أتاكم تاجر من تجار بلدنا (مصر) يقال له سعد، فحبستموه.. وبعث إليكم رجلٌ من أهل أسوان، يقال له محمد بن زيد، تاجرًا له في تجارة، فاحتبستموه وما كان معه من المال.. وبعث إليكم سالم بن سليمان، عاملي على أسوان، رسولًا له منذ تسعة أشهر، ورسولًا منذ أربعة أشهر، فحبستموهما معًا عندكم.

وقد ذُكر لي أن عليكم بَقطَ سنين، لم تؤدوه، وما بعثتم به من البَقط لا خير فيه، بين أعور أو أعرج أو كبيرٍ ضعيف أو صبيٍّ صغير.. فانظرْ فيما كتبتُ إليك به، وعجِّلْ البعثة (الإرسال) إلينا بما بقي عليكم من البَقط، للسنين التي قبلكم. ولا تبعث بما لا خير فيه، وابعثْ إلينا بالتاجر محمد بن زيد، وبما كان معه من المال، إلا أن يكون قد قُتل، فتبعث بألف دينار، ديَّته، وبما كان معه من مال. وابعثْ إلينا سعد التاجر الذي قِبلكم (عندكم) ولا تؤخِّر من ذلك شيئًا، إن كنتم تحبون أن نَفِي لكم بعهودنا، ونكون على ما كنا عليه من الاستقامة لكم، وعجِّل ذلك ولا تؤخِّره.. كتب (الرسالة) ميمون (كاتب الديوان) يوم الأحد، لاثنتيْ عشرة ليلة بقيتْ من شهر رجب، سنة إحدى وأربعين ومائة».

ويلفت النظر في الرسالة السابقة، ما ورد فيها من إشارة إلى (سالم بن سليمان، العامل على أسوان) وهو ما يؤكد أن المسلمين، كانت لهم سلطة سياسية على ما يقع جنوب النوبة. وهو ما يقودنا إلى النظر في الحدود الجغرافية والتاريخية، لما أسماه العرب والمسلمون بلاد النوبة.

وفي زمن الحكم الشيعي «الفاطمي» لمصر دخلت النوبةُ في الإسلام رويدًا، فعاشت الألف سنة الماضية ضمن النسيج المصري (العربي، الإسلامي) مع احتفاظها بكثير من السمات الثقافية الفرعية التي طالما ميَّزت أهل النوبة.

إغواءُ التَّشَظِّي

كان من المفترض أن أختتم هذا الفصل بعنوان جانبيٍّ هو: رفع الالتباس بشواهد من رسائل الناس، حيث أستعرض بعض البرديات التي احتوت على رسائل «عادية جدًّا» تبادلها المصريون في القرون الأولى التي تلت الفتح العربي الإسلامي لمصر،

باعتبارها شواهد حية تؤكِّد بعيدًا عن النصوص التاريخية الرسمية، ما يمكن أن نسميه «تلقائية» وطبيعة الحياة الاجتماعية بين الناس آنذاك، مسلمين ومسيحيين، رجالًا ونساءً، بسطاء وأغنياء. ففي هذه الرسائل التي يصل عدد الباقي منها إلى عشرات الآلاف، نرى بوضوحٍ أن إيقاع الحياة اليومية وتفاعلات الوقائع الصغيرة الفعلية، كانت تختلف عما يتوهمه بعضُنا اليوم من «ويلات» لقيها «أصحابُ البلد» على يد «البدو الغزاة» وهي الصورة الخيالية التي ملأ بها البعضُ مؤخرًا رءوس البعض، وشاعت على الملأ. مع أنها محضُ تهاويل وخرافات، ينفخ في رمادها أصحابُ المصالح الدنيوية الحالية، الزاعمون بأنهم الناطقون باسم الإله في الأرض.

وفي هذه (الرسائل) التي نُشر بعضها مؤخرًا، ولا يزال الجزء الأكبر منها غير منشور، يظهر كمٌّ كبيرٌ من «المودة» التي جمعت بين أشخاصٍ كثيرين، متنوعين. فهذا عربيٌّ مسلمٌ يستأجر بيتًا من مصريٍّ مسيحي.. وهذه سيدة عربية مسلمة، عجوز، تراسل ناظر مزرعتها المسيحيّ، فتكلمه كأنه واحد من أفراد أسرتها.. وهؤلاء شهودٌ مسلمون ومسيحيون، وقَّعوا على عقود أُبرمت بين مسيحيين ومسلمين.

وبالطبع، فإن هذه الرسائل المتبادلة بين أناس عاديين، لا يمكن الزعم بأنها مصطنعة. كما لا يمكن الشك في كونها تلقائية وطبيعية، لأنها وصلت أصلًا إلينا بطريق الصدفة البحتة، من فترات زمنية متفاوتة دامت خلال القرون الهجرية الأولى من حياة مصر العربية الإسلامية.. مصر الحالية، التي لا تزال تجمع بين النسيج الديني والعرقي، في مزيجٍ عام يصعب معه الفصل بين ما هو إسلامي ومسيحي، وافد وموروث، مستحدث وقديم. اللهم إلا إذا نظرنا بعيون أصحاب النوايا والأحلام، الذين يشيعون في عقول الناس الأوهام.

كان ذلك هو ما نويته أولًا، لكنني وجدتُ الأمر يقتضي الاكتفاء بالإشارات السابقة، وتوجيه الأنظار إلى تلك الرسائل فحسب، نظرًا إلى أهمية الموضوع التالي الذي يمكن تلخيصه فيما يلي:

كنتُ قد عرضتُ لما ظننته ملمحًا من ملامح الحياة المصرية المتعلقة بالصلة بين عموم مصر، ومنطقة النوبة التي استعصت أولَ الأمر على الفاتحين المسلمين، فتأخر بالتالي دخول (النوب) إلى الإسلام قرونًا. فإذا بسيلٍ عارمٍ من الانتقادات والتعليقات يتوالى على مواقع كثيرة على الإنترنت تسمى (المواقع النوبية) وما كنتُ من قبل أعرف أنها بهذه الكثرة، وهذه العصبية، حتى أن بعضها تتصدره شعاراتٌ طَنَّانة، من مثل: النوبة أولًا وأخيرًا.. النوبة قبل أي شيء.. نوبيون للأبد.. إلخ. وقد ذكرتني هذه (الشعارات) بسلسلة مقالات نشرتها في جريدة الأهرام بأواسط التسعينيات، عن طبيعة المعرفة في عصر المعلومات وأشرتُ فيها إلى «المخيالية» التي تمتاز بها شبكة الإنترنت. بمعنى أنه صار بإمكان عدد محدود من الشباب الذين يسمون اليوم «الناشطين» إيهام الناس بأن ما ينشطون له، هو أمرٌ هائل ومهول، مع أنه لا يعدو كونه نوعًا من لعب الصغار. غير أن لعب الصغار، بالنار، قد يؤدي إلى حرائق واسعة الانتشار. ومثال ذلك ما نراه اليوم من المواقع المفجعة التي تحمل عناوين كبيرة على سبيل التهويل: منظمة أقباط المهجر، الأقباط الأحرار، أقباط الولايات المتحدة الأمريكية، أقباط أستراليا.. إلخ، وهي بطبيعة الحال محض أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وبالإمكان معارضتها بمواقع شبيهة، مضادة، يقوم بها بعض المتحمِّسين من الشباب «الآخرين» ويجعلونها بعنوان: منظمة مسلمي المهجر، المسلمون الأحرار، مسلمو الولايات المتحدة الأمريكية، مسلمو أستراليا.. إلخ. ولا شك في أن عدد هؤلاء «المسلمين» يزيد أضعافًا عن عدد أولئك، غير أن هذا «النضال» الإلكتروني البائس من شأنه الانتقال إلى أرض الواقع، وقد يصير مع استدامته فعليًّا وواقعيًّا، فيصير الحماسُ المحدودُ نارًا غير محدودة الانتشار، ويغدو لعب العيال مصيدةً للكبار والصغار، وينقلب الأمر من دائرة الأحلام والتوهُّمات إلى ميادين الصراع الذي هو أصلًا بلا داعٍ.. لكنه يأتي من استسلام الشاعرين بالظلم، لإغواء التشظِّي، ظنًّا منهم بأن هذا «التشظي» يؤكد ذواتهم.

وبالطبع، فإنني لا أنادي هنا بمواجهة أو قمع مثل هذه المواقع الإلكترونية، وما تعبر عنه من نزعات انفصامية. لأن كل قمعٍ عنفٌ، والعنفُ لا يولِّد إلا العنف والحسرة والندم بعد فوات الأوان. وإنما أنادي وأدعو إلى التبصُّر في المصائر، وإدراك أن الصغير

(المخيالي) سوف يظل صغيرًا ما دمنا نعرف حجمه ولا ننساق وراء صورة وهمية، فنعتقد مع دوامها أنها حقيقة فعلية. وانطلاقًا من ذلك، ندرك مثلًا أن «الحياة الفعلية للناس في مصر» طالما عرفت وقائع محدودة، كتلك التي تقوم اليوم بسببها القيامات. فلطالما أحبَّ فتيانٌ مسيحيون فتياتٍ مسلمات، وكثيرًا ما حدث العكس، ولطالما تزوج المسلمُ بالمسيحية في مصر، وتزوَّجت المسلمة مسيحيًّا في سوريا.. فلا الإسلام تأثر بذلك ولا المسيحية انطوت، ولا كان الأمر باعثًا على المناداة بالانفصام والتجوهر حول ما يظنه هؤلاء أنه «الذات».

وفي التعليقات النوبية، الهائجة، ينعي عليَّ بعضهم أنني وصفتُ الدعوة (الدعوى) النوبية بالانفصال عن مصر، بأنها كانت «هوجة» نحمد الله أنها انتهت. فإذا بالمعلِّقين، قليلي التبصُّر، يهتاجون مهلِّلين بأن النوبة كانت دومًا مستقلة، ولسوف تبقى كذلك للأبد. وبالطبع، فسوف تبقى الثقافة النوبية للأبد، جزءًا مميزًا من المركَّب الثقافي المصري العام. ولسوف يبقى ذوو الأصول النوبية، دومًا، مميزين بسُمرتهم الناصعة وقلوبهم الطيبة. ولسوف نسعد دومًا بأغنيات محمد منير (الملقَّب بالملك) وبأهازيج الأفراح النوبية. ولسوف تبقى في المدن المصرية، الأندية النوبية، التي كنتُ في صغري أتردَّد مع الصحب الصغار (المسلمين والمسيحيين) إلى واحد منها، هو الكائن قرب منزل نشأتي بآخر شارع «إيزيس» بالإسكندرية، وهناك كنا نقضي أحلى الأوقات في لعب تنس الطاولة. أو ذلك «النادي النوبي» في منطقة محطة الرمل، حيث حصلتُ منه في شبابي المبكر، على أول شهادة تكريم كمثقف سكندري.

لكن ذلك كله، سيبقى داخل إطار الثقافة المصرية المعاصرة، لا خارجها، وسيبقى المبدعون من الأدباء والشعراء ذوي الأصول النوبية، يكتبون صفحاتهم باللغة العربية لا النوبية، ويتفاعلون مع زملائهم وأقاربهم وقرائهم، داخل بوتقة واحدة هي الثقافة المصرية المعاصرة، بكل ما فيها من مباهج ومآسٍ.

والمعلِّقون الزاعقون بأنهم (الممثلون للنوبة) اليوم، يهوِّلون «ويمخرقون» على الناس عبر صفحات الإنترنت، بعبارات نصُّها: «اللغة النوبية يدرسها اليوم خمسون ألف

شخص.. النوبيون هم حقًّا رماة الحدق الأبطال.. معاهدة «البقط» بين النوبة وحكام المسلمين هي أنموذج للقهر لأنها كانت تلزم النوبة بتقديم أبنائها عبيدًا للمسلمين. لم تكن النوبة يومًا قاحلة مجدبة وإنما كانت دومًا أرض الذهب.. إن تهجير النوبة من منازلها عام ١٩٦٤ سيظل للأبد وصمةً في جبين هذا البلد.. إن البدو الرعاة (العرب) قضوا على حضارة النوبة العظيمة».. هذه طائفةٌ من أهم أقوالهم، ولعلهم يسمحون لي بمناقشتها بحسب ما أراه صوابًا.

فأما كلامهم عن «اللغة النوبية» فإن الذي أعرفه أنها ليست (لغة) واحدة، وإنما لغات عدة، فما التي يتعلمها «الخمسون ألفًا» من بين تلك اللغات؟ وإذا كانت لغة (أو لغات) النوبة غير مدوَّنة، ولم تكن يومًا لغة مكتوبة ذات نصوص، فما المعنى من دراستها؟ اللهم إلا إن كان ذلك على سبيل الحفاظ على التنوع الثقافي المصري المعاصر.. علمًا بأن المفردات النوبية التي نعرفها، هي مفردات لطيفة يحبها المصريون جميعًا، وفيها شعريةٌ بديعة نلمحها في الأغنيات ذات الأصل النوبي، كتلك الأغنية التي منها قولهم في وصف البنت الجميلة، إنها: زقطت بالحليب ما بيِّتتْ له عكارة.

وأما صفة «رماة الحدق» فقد أطلقها المسلمون الأوائل على «النوب» وعلى غيرهم، وفي تاريخ الفتوحات الإسلامية نرى الوصف ذاته وقد أطلق على البعض من أهل الشام، الذين هم في الأصل عربٌ كانوا ينتمون قبل الإسلام إلى الروم، ويدينون بالمسيحية المسماة في المصادر الإسلامية المبكرة: النصرانية. فهذه الصفة غير منكورة على النوب أو غيرهم، وكل ما في الأمر أنني لا أراها سببًا كافيًا لتأخر دخول النوبة في نطاق الدولة المصرية العربية الإسلامية.. ومن التعليقات الطريفة في هذا الصدد، ما كتبه أحد الغاضبين مني، قائلًا: إن النوبة كانت دائمًا أرض الخير، ولم يكن ينقصنا إلا الشاي والملابس!

وأما معاهدة «البَقْط» فهذا اسمٌ مستحدث للمعاهدة التي تمت بعدما استعصى فتح النوبة على المسلمين، أو انصرفوا عن فتحها لقلة مواردها. وهي بحسب المصطلح الإسلامي القديم (عهد صلح) أو (هدنة) يلتزم المسلمون بمقتضاه، تقديمَ القمح الذي

كان آنذاك يسمَّى (الطعام) في مقابل تقديم النوبة للعبيد. وقد كانت النوبة بوابة تطل على إفريقيا التي يأتي منها، آنذاك العبيدُ طوعًا وكراهية، كهاربين من أهوال بلادهم أو مجلوبين على يد التجار. وقد أشرت فيما سبق إلى أن «أسوان» كانت في بداية القرن الثاني الهجري بيدِ المسلمين، ولهم حاكم «عامل» هناك. وقد أشار نص البردية، إلى أن المسلمين كانوا يؤدون التزاماتهم وفقًا للاتفاقية المبرمة، بينما حكام النوبة يماطلون في أداء ما عليهم. وما علينا اليوم من ذلك كله، فتلك أمةٌ قد خلت ولا يصح الاستدلال الآن بمثل هذه الوقائع القديمة، فالمصريون النوبيون منذ مئات السنين هم جزءٌ من المصريين، يقاتلون معهم ويدافعون عن البلاد، ولا يختلفون عنهم إلا بما يدخل في إطار التنوع الثقافي المصري الجامع بين أهل الريف والحضر، وبين البدو وسكان المدن.. وبين المسلمين واليعاقبة (الأقباط الأرثوذكس)، والملكانيين (الروم الأرثوذكس)، والكاثوليك (أتباع بابا روما)، والبروتستانت (الإنجيليين) وكثيرين لا يعلم عقائدهم إلا الله، لكنهم جميعًا مصريون من دون شك.

وأما ظنهم أن النوبة أرض الذهب، لأن المصريين القدماء كانوا يستخرجونه من هناك. فهذا مردود عليه بأن مناجم الذهب ومواضع البلدان، لم تكن محدَّدة بدقةٍ في الكتابات القديمة. وإلا، فأين ذَهَبَ هذا الذهب؟ ولماذا لم يبادل به المسلمون القمح المقدم منهم للنوب؟ ومعروف أن الذهب يشتري العبيد وغير العبيد. فلا داعي من بعد ذلك، أن نُعيد على مسامع الناس التهاويل، لإحياء أحلام هي في واقع الأمر أوهام معاصرة، قائمة على توهمات قديمة.

وأما تهجير أهل النوبة من قُراهم عام ١٩٦٤ فقد كان بالفعل لحظة درامية ذات طابعٍ إنساني حزين. فمن المحزن، والدرامي، أن ينتقل الناسُ من قراهم وبيوتهم التي نشئوا فيها. ولا شك في أنه موضوع ثريٌّ لنصوص أدبية، ذات خصوصية شعرية[1]. لكنه ليس بحالٍ من الأحوال، سببًا مقبولًا للزعم بأنها «كارثة» أو «وصمة» أو «جريمة» أو غير ذلك، لأن هذا التهجير الذي لم يكن منه مهرب، جاء بسبب السد العالي الذي

(١) وهو الأمر الذي قمتُ به لاحقًا، في رواية «محال».

لولاه لجاعت البلاد وعطشت، بمن فيها من المصريين جميعًا نوبيين وغير نوبيين. فهي خطوة لم تأت بدافع القهر والاستبداد، وإنما تمَّت تحت الاضطرار. والذي أعرفه، أن (الحكومة) آنذاك، أوجدت قرى بديلة بالقرب من التي سوف تغمرها المياه، غير أن المهجَّرين هجروا (الإقليم النوبي) بأسره، وعاشوا في المدن المصرية الكبيرة وصاروا من أهلها.

وأخيرًا، ففي سياق هذه الأحلام (المصرية) التي صارت مؤخرًا أوهامًا، وبخصوص هذا الزعم القائل بأن الرعاة البدو (العرب المسلمين) قضوا على حضارة النوبة! فما ذاك إلا تهاويم الغافلين المتأثرين بأوهام الذين يردِّدون مثل هذا الكلام.. ولذلك، فإنني أرجو (الجماعات) التي يتألف منها النسيج المصري العام، أن تهدأ قليلًا ولا تستجيب تحت وطأة الاضطراب الحكومي الحالي، إلى كل ناعق وزاعق ومتاجر بالأحلام ونزعات التشظِّي، التي هي في حقيقة أمرها أوهام.. فهذا البلد أبقى من حكامه، ومن حالميه الواهمين.

الفصل السادس

الـوهــمُ الأنـدلســيُّ

حميمُ الحنينِ السحري(*)

(*) نُشرت مقالات هذه «السباعية» مع مطلع العام ٢٠١١، وتوقَّفت حينًا بسبب اندلاع الثورة المصرية، ثُمَّ تَمَّ استكمالُها.

تمهيداتٌ ضرورية

بانكسارٍ مرير ونبرةٍ ساخرةٍ، ساحرةِ التلويحِ، يشير الشاعر محمود درويش في معلَّقته المعاصرة «مديح الظل العالي» إلى التعلُّق العجيب والوجد الآسر لنفوسنا، بسبب ضياع الأندلس من أيدي ملوك الطوائف المسلمين قبل خمسمائة سنة، كما يُلمح إلى بلاهة الحنين السحري للزمن الأندلسي الفائت، وكيف يفوِّت علينا الانتباه إلى ما يضيع الآن من بين أيدينا.. يقول:

قَصَبٌ هياكلنا، وعروشنا قَصَبُ
في كل مئذنةٍ حاوٍ، ومغتصبُ
يدعو لأندلسٍ،
إن حُوصرت حلبُ

والعجيبُ هنا، أن الشاعر يوم كتب قصيدته هذه المروِّعة (أثناء حصار إسرائيل لبيروت) لم يكن يخطر بالبال أن تُحاصر «حلب» بالفعل مثلما هي محاصرة اليوم تحت أنظار الجميع، ليس بجيش الصليبيين أو الإسرائيليين الجدد، وإنما بجيش سوريا النظامي الذي يأتمر برغبات «الأسد» الذي ينهش منذ شهور طوال فراشات الحرية، ولن يشبع أبدًا.

وبعيدًا عن المأساة السورية الحالية، فإن الحنين العربي الإسلامي للزمن الأندلسي، صار مع الوقت كأنه أيقونةٌ مغلقةٌ الإطار على ذاتها، وجاهزةٌ دومًا للتوظيف الدعائي. وكثيرًا ما تبلغ البلاهة بالبعض منا، إلى الحدِّ الذي يحدو بأحلامهم إلى استرجاع

الفردوس الأندلسي المفقود، واستجلاب الأسى والحسرة على أفول الأفق العربي الإسلامي من سماء الأندلس. من دون معرفةٍ حقَّةٍ بطبيعة هذا «الأفق الأندلسي» وكيف كان ابتداؤه وانزواؤه في تلك الأرض المسماة اليوم «شبه جزيرة أيبيريا» وكان العرب القدماء يعرفونها باسم واحد، هو: الجزيرة.. ولعل هذا الفصل (السباعية) يُلقي أضواءً كاشفةً على هذا الزمن، الحلم، وما جرى مبكرًا من نزوح العرب المسلمين، الفاتحين، إلى تلك النواحي التي استكمل بها المسلمون فتوحات مصر وساحل إفريقية (تونس) وما وقع خلال ذلك من حوادث شائقةٍ، وكاشفةٍ:

زرتُ إسبانيا مرتين. الأولى بدعوةٍ من الملكة «صوفيا» لأشارك معها في افتتاح الجناح الكبير الذي أُقيم في المكتبة الوطنية الإسبانية بمدريد، احتفالًا بافتتاح مكتبة الإسكندرية وعودتها للحياة بعد قرونٍ طوال من اندثارها وتدميرها على يد المتعصِّبين دينيًّا، في بداية القرن الخامس الميلادي. وقد كانت «الملكة صوفيا» من أهمِّ الشخصيات العالمية التي تحمَّسَتْ لبعث المكتبة، لأنها من عُشَّاق مدينة الإسكندرية وتاريخها.. وهي من ناحيةٍ، ابنةُ آخر ملوك اليونان (وللإسكندرية وجهٌ يوناني) ولأنها من ناحيةٍ أخرى، نشأت في هذه المدينة وتخرَّجتْ في مدارسها. في هذه الزيارة الأولى، دُعِيتُ إلى زيارة الدَّير الملكي «الإسكوريال» الذي يحتفظ بثلاثة آلاف مخطوطة عربية نادرة، فكنتُ من القلائل الذين دخلوا دهاليز الدير وخزائن المخطوطات المحفوظة فيه. كما دُعِيتُ في تلك الزيارة، إلى جولةٍ خاصة في المكتبة القومية الإسبانية بمدريد، فكنتُ من المحظوظين الذين أخرجَ لهم مديرُ المكتبة من خزانةٍ عتيقة قصةَ «الأَلِف» بخطِّ مؤلِّفها الشهير، خورخي لويس بورخيس.. وعرفتُ يومها من مدير المكتبة أن النسخة الكاملة من مخطوطات دير الإسكوريال، التي أهدتها الملكة صوفيا لمكتبة الإسكندرية، هي النسخة الوحيدة في العالم حتى إن المكتبة القومية الإسبانية ذاتها، ليس لديها نسخةٌ مما لدينا اليوم بالإسكندرية.

ثم كانت زيارتي الأخرى لإسبانيا بدعوةٍ من عمدة مقاطعة «أليخانتي» الساحرة، لأشارك في افتتاح الميدان الذي أقاموا فيه النصب التذكاري (التمثال الكبير) للعالم

العربي والصيدلاني الشهير «ابن البيطار» الذي ترك لتاريخ العلم الإنساني، مجموعة أعمال في الطب والصيدلة، أشهرها كتابه: الجامع لمفردات الأغذية والأدوية.. وقد كان مولده قبل ثمانمائة عام بتلك الناحية، التي لا تزال تتذكره وتُحيي ذكراه التي نسيها الناس في بلادنا.

وخلال الزيارتين، بدأتُ أعيد النظر في (تصوُّرنا) نحن العرب والمسلمين للمرحلة الأندلسية من تاريخ إسبانيا، ففي المرتين رأيتُ صورةً صادقةً من اعتزاز الإسبان المعاصرين بالزمان العربي الإسلامي في (الأندلس) وشاهدتُ كثيرًا من العمائر والآثار الباقية إلى اليوم من ذاك الزمان، وعرفتُ أشياءَ كثيرة.. خاصةً أن الزيارة الأولى صحبني فيها الدكتور «محمد أبو العطا» الذي كان آنذاك مستشارًا ثقافيًّا لمصر في إسبانيا، وهو خبير باللغة الإسبانية ومترجم بارع لنصوصها إلى اللغة العربية. وفي الزيارة الأخرى، صحبني الدكتور «محمود علي مكي» الذي يعدُّ اليوم، أهمَّ متخصِّص في التاريخ الأندلسي على مستوى العالم.. فكان الصاحبان في المرَّتين، خيرَ مَنْ ينطبق عليهم قولهم: الرفيق قبل الطريق.

وقد لاحظتُ أثناء الزيارتين تشابهًا شديدًا بين العرب والإسبان، خاصةً في الجنوب القريب من المغرب، حتى إنهم يقولون هناك: لو حَكَّ الإسبانيُّ المعاصر جلده، لظهر تحته الجلد العربي.. فإذا لم يتكلَّمْ أحدهُما لغتَه الخاصَّة، فإنك لا تستطيع تمييز الشخص العربيِّ من الإسباني. والتشابُه بينهما لا يقتصر على تلك الملامح الشرقيَّة لكليهما، ولا يتوقَّف عند الصيحة التي يطلقها كلٌّ منهما إذا اشتدَّ انفعالُه، حيث يتنهَّد العربي المعاصر قائلًا (الله) عند مشاهدة لوحةٍ فنيَّة أو منظرٍ جميل، والإسبانُ المعاصرون يتصايحون (أوليه) عند كلِّ حركةٍ لافتة في حلبات مصارعة الثيران، بعد تحريفٍ طفيف للكلمة العربية. لكنَّ الأمرَ لا يقفُ عند هذه التشابهات الظاهريَّة، فالصلة بين العرب والإسبان تتعدَّى ذلك إلى تشابهٍ أعمق، في: الشخصيَّةِ العامة، الروح الباطنة، التكوين الثقافي، التراثِ المشترك.. وغيرِ ذلك من أوجه الشبه الذي ترسَّخ عبر قرونٍ طوالٍ، فلم تستطع القرونُ الخمسة الأخيرة (قرون العُزْلة) أن تفصلَ العرب عن الإسبان، وأن تمحو من بنية الإسباني المعاصر، هذه الجيناتِ الوراثيَّة والثقافيَّة.

ومع أن إسبانيا تقع جغرافيا في نطاق القارة الأوروبيَّة، إلا أنها مع ذلك، تبدو كما لو كانت امتدادًا طبيعيًّا لبلاد المغرب العربي، التي لا يفصلها عنها إلا (مضيقُ) جبل طارق. أو بالعكس، تبدو بلاد المغرب كامتدادٍ للأرض الإسبانيَّة التي فصلتها عنها، في الأزمنة السحيقة، الزلازلُ التي سمحت لمياه المحيط بالدخول إلى المنطقة المسمَّاة اليوم: البحر المتوسط (أي المتوسط بين جماعات وشعوب العالم القديم).

وقد لعب «التاريخُ» كما لعبت «الجغرافيا» دورًا مهمًّا في التقريب بين العرب والإسبان، وهو الأمر الذي نجحت (السياسة) في القضاء عليه. وهي على كلِّ حالٍ، مسألةٌ كثيرة الوقوع، فلطالما نجحت السياسةُ في فصم المتَّصل (الجغرافي/ التاريخي) بين البلادِ والعباد.

وللعرب والإسبان، أو بالأحرى للعرب الإسبان (الأندلسيين) قصةٌ إنسانيَّةٌ مجيدة، استمرت زمنًا طويلًا في نطاق الثقافة البحر أوسطيَّة، وأثَّرت في تاريخ الحضارة الإنسانيَّة أثرًا ملموسًا. وهي أيضًا قصةٌ مليئة بالمزعجات والمبهجات، فقد دخل العربُ المسلمون إلى إسبانيا سابحين في بحارٍ من الدماء، وخرجوا منها يخوضون في أنهارٍ من الدَّم.. وما بين بحار الدم وأنهاره، عاشت إسبانيا زمنًا أندلسيًّا بديعًا، لا تزال أطيافُه تلوحُ في خيال المعاصرين، كما يلوح باقي الوشم في ظاهر اليدِ.

يرتبط دخول العرب المسلمين إلى شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا، البرتغال) بحكاية خرافية لا تخلو من الطرافة، وإن كانت تفتقر إلى المصداقية. وهي الحكاية المشهورة التي تقول إن «طارق بن زياد» عبر من المغرب إلى إسبانيا بجيشٍ إسلاميٍّ قوامه سبعة آلاف مقاتل، سنة ٩٣ هجرية (= ٧١١ ميلادية) وقد أحرق السفن التي عبر بها المضيق الذي سُمِّي باسمه لاحقًا، ثم قال لجنوده: «أين المفرُّ، العدوُّ من أمامكم والبحر من خلفكم» وهي الحكاية الأسطورية اللطيفة التي يهواها معاصرونا، ولا يكفُّون عن ترديدها؛ مع أننا سنرى أنها محض حكايةٍ طريفةٍ لا تصلح إلا لتسلية الأطفال.

وقبل الدخول إلى (الأفق الأندلسي) على أجنحة التأريخ الحقيقي للوقائع، والفهم العقلاني العميق لها. دعونا نتوقف قليلًا، أولًا، عند معاني الكلمات المشهورة المرتبطة

بهذا الموضوع، مثل: أندلس، إسبانيا، قوط، بربر، غزو، فتح.. لبيان دلالاتها المحدَّدة، تلافيًا لفوضى الفهم واضطراب التصورات حول هذه المرحلة المهمة من التاريخ المشترك بين العرب والإسبان.. وفي ذلك نقول:

كلمة «الأندلس» التي أطلقها العربُ على شبة جزيرة أيبيريا، هناك تفسيرات عديدة لها. بعضها خياليٌّ مضحكٌ، مثل قول بعض المؤرِّخين العرب إنها سميت بذلك، نسبةً إلى رجل يسمى (أندلوش) كان يسكنها في الزمن القديم، أو نسبةً إلى أحد أحفاد «نوح» هو: الأندلس بن يافث بن نوح.. ولكن الأرجح، هو أن الكلمة العربية (أندلس) مأخوذة من اللفظ الدال على البلاد آنذاك، وهو «فاندالوسيا» أي بلاد «الوندال» وهو اسم القبائل التي كانت تعيش هناك قبل مجيء العرب المسلمين.

وأما كلمة «إسبانيا» فقيل إنها نسبةً إلى ملك اسمه «أشَبان» وقال بعض المؤرِّخين: بل كان اسمه «أصبهان» فوقع فيه التحريف. وليس عندي قولٌ راجح في سبب هذه التسمية، ولكن الأقرب عندى مأخذًا هو الأصل الفينيقى للتسمية التي تعني حرفيًّا في اللغة الفينيقية «جزيرة الأرانب» لأن المكان كان مليئًا بها أيام اتخذها الفينيقيون مستعمرةً. أما تاريخ وتسمية «القوط» فأمران يعودان إلى زمن مبكر، حيث وقعت حروب بين الرومان وتلك القبائل التي عاشت في جزيرة أيبيريا، واستطاعت في بداية القرن الخامس الميلادي أن تقتحم أسوار روما المنيعة. لكنها ما لبثت أن تراجعت عنها وعادت إلى موطنها الأصلي، وظلت تحكمها حتى جاء إليها العرب المسلمون بدعوةٍ من أحد ملوك القوط، حسبما سنرى لاحقًا. و البربر هو اسم سكان شمال إفريقيا، خاصةً المغرب، عند وصول العرب المسلمين إلى هناك. وهم قبائل كثيرة، من أشهرها قبيلة «زناتة».. أخيرًا، فإن الغزو هو الاقتحام العسكري. أما الفتحُ استقرار الغازي في البلاد، وسكناه فيها جيلًا بعد جيل.

كان الغزو (الفتح) العربي الإسلامي لإفريقيا، امتدادًا لفتح (غزو) مصر. فبعدما استقرت الأمور المصرية بيد عمرو بن العاص، خرج من الإسكندرية غربًا، بجيش قليل العدد والعُدَّة، ليفتح المدن الخمس الغربية (ليبيا) فغزاها، لكنه لم يفتحها ويستقر

فيها.. وبعد خمس سنوات خرج أمير مصر «عبد الله بن أبي سرح» إلى إفريقية (تونس) فاتحًا، على رأس جيش قوامه أربعون ألف محارب. وهنا لا بد لنا من وقفة أمام دلالة هذا العدد، مقارنةً بعدد الجيش الذي خرج مع عمرو بن العاص لفتح مصر، وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة (وقيل، بل أربعة آلاف) إذ يأتي بداهةً هذا السؤالُ: كيف يدخل المسلمون صحراء إفريقيا الخالية نسبيًّا، بالمقارنة مع مصر، بهذا الجيش الجرَّار. بينما كان الجيش الإسلامي الذي خرج إلى مصر غازيًا لا يزيد عدده، على عشرة بالمائة من مجموع الجيش الذاهب لغزو الصحراء الخالية. علمًا بأن جند الروم، كانوا يتحصَّنون بقلاع مصر والإسكندرية، وكان عددهم بحسب التقديرات المختلفة، يتراوح ما بين الأربعين ألفًا والمائة ألف مقاتل! بعبارةٍ أخرى: هل من المنطقيِّ في زمن الفتوح، أن يخرج المسلمون إلى ساحل إفريقيا بجيش قوامه أربعون ألفًا، وهل من المنطقيِّ أن يحاصر المسلمون بلدةَ دمشق بأربعة جيوش كاملة، وهل من المنطقيِّ أن يفتح المسلمون العراق بعد حروبٍ طاحنةٍ قُتل فيها من الجانبين الألوف! ثم يكون من غير المنطقيِّ أن يشرع «عمرو بن العاص» في فتح مصر، بهذا الجيش (القليل) الذي جاء معه؟.. من هنا نقول، إن علينا النظر إلى وقائع فتح مصر، من زاوية أخرى غير تلك التي تقدِّمها لنا الكتبُ المدرسية.

اختلافُ التسمية، وتسمية المخالفين

عندما علَّم الله آدم (الأسماء كلها) بحسب ما جاء في القرآن الكريم، من غير إشارة إلى ماهية «اللغة» التي جاءت منها هذه «الأسماء»، كان ذلك فيما أرى: نوعًا من الانتقال بالأشياء «المعلومة» من حالة الوجود الحرِّ، غير المرتبط بالوعي وغير المقيَّد بالإدراك؛ إلى حالة الحضور في الذهن الإنساني وتقييد «الشيء» بالاسم داخل نطاق الإدراك الإنساني. فالتسمية هي شهادة إثبات للموجود.. ولنقدِّم على ذلك أمثلةً توضيحية:

في السماء أجسامٌ سابحةٌ في الكون اللانهائي، منها ما ندركه ونعطيه اسمًا «القمر. الشمس، عطارد..» فيصير (موجودًا) في الخارج وفي أذهاننا. ومنها ما لا ندركه فلا نعطيه اسمًا محدَّدًا، فيصير كأنه غير موجود أو هو في مرتبةٍ وسطى بين الوجود والعدم.

ولذلك، فإن في سيناء (مثلًا) جبالًا كثيرة، لكننا خصَّصنا جبلًا منها باسم «جبل موسى» وجبلًا آخر باسم «جبل الربَّة» وهكذا، وما لم نعطه اسمًا فهو مجرد جبل ليس له «مستند وجود» في وعينا. حتى نعرفه بذاته ونميِّزه باسمٍ من الأسماء، فنخرجه بذلك من التأرجح بين حالتيْ الحضور الفعلي والانعدام الذهني.

واختلافُ أسماء وصفات المواضع والجماعات، من المشكلات «المشوِّشات» للإدراك التي من شأنها أن تُحدث ارتباكًا في الوعي، سواءً بالنسبة للناظر في التاريخ أو للمتأمل في الواقع. فالكثير منا على سبيل المثال، لا يعرفون أن «بيزنطة» التي تُنسب إليها مرحلة مهمة من التاريخ (العصر البيزنطي) هي ذاتها مدينة «إستانبول» الحالية، وهي أيضًا «الآستانة» و«القسطنطينية» و«إسلام بول» و«إسطنبول». والبلدة المصرية التي وقعت عندها أولى المواجهات العسكرية بين جيش عمرو بن العاص القادم لفتح مصر، والجيش البيزنطي (جيش الروم) لها ثلاثة أسماء مختلفة، فالروم يسمُّونها باسمها اليوناني «بيلوز» والعرب الفاتحون يسمُّونها «الفرما» بينما سكان مصر يعرفونها باسم «البَرَمون». ونهرنا المسمَّى في التوراة «نهر مصر الكبير» اسمه عند العرب «النيل» وهي تسميةٌ مشتقةٌ من اسمه اليوناني «نيلوس» بينما كان سكان مصر القدماء لا يعرفون له إلا اسم «يارو».

في هذه الحالات، ومثيلاتها، إذا غاب عن أذهان بعضنا أن هذه المسميات المتعددة هي لمسمًّى واحد، أدى ذلك إلى تصوُّرٍ وهميٍّ بوجود ما لا يوجد! بمعنى أن هؤلاء سوف يتصورون أن هذه مدينة غير تلك، أو أن ذلك النهر غير ذاك.. وفي هذه الحالات ومثيلاتها، يكون اختلافُ التسميات، بسبب اختلاف اللغات، سببٌ في ظهور أسماءٌ مخايلة وغير دقيقة، مثلما هو الحال حين نسمّي المنطقة الأثرية الواقعة جنوب الأردن (البتراء) وهي كلمة عربية تبدو فصيحة، لكنها في واقع الأمر تعريبٌ للكلمة اليونانية «بترا» التي تعني «الصخر» وهو أنسب الأسماء لهذه المنطقة الصخرية التي حفر فيها الأنباط بطون الجبال، وجعلوها عاصمةً لهم منذ القرن الأول الميلادي. أما اسمها العربي الفصيح، فهو «سَلْع» وهي تسميةٌ أصيلة لكنها غير مشهورة، والبعض من

العرب يسمّيها «الحجَر» ويُقال إنها الموضع المشار إليه في القرآن الكريم باسم: الكهف والرَّقيم.

ومن أسباب اختلاف التسميات، الأسماء الواصفة التي يُطلقها المخالفون على بعضهم البعض. كأن يُسمِّي المسلمون ما سبقهم زمنًا باسم «الجاهلية» ويسمُّون أهل قريش باسمهم الإسلامي «الكُفَّار»، بينما كانت قريش تطلق على النبي وعلى أصحابه، تسميات لا يعرفها الناس اليوم، وليس من اللائق أن نذكرها هنا.. وبالمثل، كان المسيحيون الذين يرون أنهم أصحاب (الإيمان القويم) يسمون مخالفيهم «هراطقة» وكان اليهود يسمون غيرهم «الأمم» بينما يجعلون لأنفسهم أسماء وصفات من نوع «أبناء الله» وهو الأسم الواصف الذي أطلقه المسيحيون، أيضًا، على أنفسهم «أبناء الربّ» وقد رَدَّ القرآن الكريم على كليهما بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾.

وفي حالات كثيرة، يتطابق اسمان أو أكثر للشيء الواحد، في اللغة الواحدة، مثلما هو الحال، في قولنا «المغول» و«التتار» على الجماعة نفسها، أو نقول «الفاطميون» و«العبيديون» على الدولة ذاتها، أو نسمِّي الموضع المشهور الآن بالقاهرة «حصن بابليون» وهو الموضع ذاته الذي كان يسمى «القصر» وكان العرب الفاتحون لمصر يسمونه: باب إليون.

وفي زمن الفتوح، كانت المنطقة المسماة اليوم (ليبيا) تسمى «المدن الخمس الغربية» أي الواقعة غرب الإسكندرية، وكانت (تونس) تُسمَّى «إفريقية»، وكان ما يقع غربها من الأرض الواسعة التي تُسمَّى اليوم (الجزائر) يُشار إليه باسم «المغرب». أما المملكة المغربية التي نعرفها اليوم، فكانت تسمَّى «المغرب الأقصى» لأنها أقصى ما يقع إلى جهة المغرب، أي إلى جهة المغرب من دمشق، عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك. دمشق. وقد ساد الاعتقادُ قديمًا، بأن المغرب الأقصى هو (أقصى) ما يمكن أن يصل إليه الناسُ، ولذلك فإن الفاتح المسلم «عُقبة بن نافع الفهري» بعدما استكمل فتوح المغرب، حتى وصل إلى البحر المحيط دخل بحصانه إلى بحر الظلمات (المحيط

الأطلنطي) حتى بلغ الماء رقبة حصانه، وقال آنذاك هناك: اللهم إني أُشهدك أنه لا مجاز (عبور) ولو وجدتُ مجازًا، لجزتُ.

وكانت النواحي المغاربية الشاسعة، الممتدة من ليبيا إلى تونس إلى الجزائر إلى المغرب؛ مسكنًا لمجموعة من القبائل الكبرى التي من أشهرها: زَنَاتة، هَوَّارة، كُتَامة، غمارة، جَرَاوة، صِنْهاجة. وهي القبائل التي سيدخل أفرادها الإسلام، بعد حين، ويكون لهم دورٌ كبيرٌ في تاريخ الإسلام بإفريقيا، وتاريخ الفاطميين بمصر.. وكانت شبه جزيرة «أيبيريا» المسماة اليوم (إسبانيا، البرتغال) وما يقع إلى الشمال منهما (فرنسا، بلاد غالة) تُسمَّى جميعًا: بلاد القوط، وبلاد الوندال. وكلتاهما «القوط والوندال»، من الجماعات التي نزحت من شمال أوروبا إلى جنوبها واستقرت فيه، ويقال إنهما في الأصل جماعة واحدة. وكان الرومان يسمُّون القوط والوندال «البرابرة» بينما كان العربُ يسمون قبائل شمال إفريقيا «البربر».

وقد استقرَّ «البرابرةُ» في القرون الميلادية الأولى بإسبانيا، واستطاعوا بمعاونة «البربر» أن يدكُّوا حصون المدينة العظمى (روما) في بداية القرن الخامس الميلادي، واقتحموها، ثم عادوا إلى بلادهم وقد صاروا فيها أعزاءً مرهوبي الجانب، مسيحيي الديانة على المذهب الآريوسي (كان آريوس قد نُفي إلى إسبانيا، وطاب له المقام هناك بأحد أديرتها) وهو الأمر الذي سيقرِّب لاحقًا بينهم وبين المسلمين، لأن العقائد الآريوسية قريبة «لاهوتيًّا» من المعتقدات الإسلامية.

ولما ورثت بيزنطة «القسطنطينية، إستانبول» الحكم من روما، وصار الرومان يُسَمَّوْنَ الروم(١)، فرضتْ بيزنطة سلطانها على بلاد غالة (فرنسا) وعلى بلاد الوندال (إسبانيا) وعلى شمال إفريقيا (بلاد المغرب) وبقي الحالُ هناك مستقرًّا إلى حين، حتى ضعف سلطان بيزنطة وتراخت قبضتها على الأطراف البعيدة، فصارت النواحي

---

(١) التميزُ بين أولئك وهؤلاء، زمنيٌّ وعقائدي، ففي الفترة السابقة على استقرار الكرسي الإمبراطوري في العاصمة الجديدة «بيزنطة» سنة ٣٢٨ ثم دخول أهل الأمبراطورية في الديانة المسيحية تباعًا، كان الاسم المشار إليهم هو «الرومان» ثم صار بعد ذلك «الروم».

الإسبانية والبرتغالية بيدِ أمراء وملوك الوندال، الذين سيطروا أيضًا على نواحي الجزائر والمغرب، وعاثوا فيها (حسبما يقول المؤرِّخون) فسادًا وظلمًا وقهرًا لسكانها.

والمتأمل في وقائع ذاك الزمان، يلاحظ أن انتشار المسيحية واستقرارها كان نكبة على اليهود. فالمسيحيون ينظرون إلى اليهودية باعتبارها مقدمةً لديانتهم أو (عهد قديم) لم يعد لها بعد ظهور بشارة المسيح (العهد الجديد) مبرر للوجود، فضلًا عن الاعتقاد المسيحي الجازم بأن اليهود هم الذين سلَّموا السيد المسيح للرومان، ليصلبوه، وبالتالي فهم أسوأ الخلق أجمعين. ومن الناحية الأخرى يرى اليهودُ أن المسيحيين ليسوا على شيء، ويعيشون على الخرافات، لأن المسيح «الماشيح» المنتظر لا يزال منتظرًا، ولم يأتِ بعدُ إلى هذا العالم ليجعل اليهود ملوكًا على الناس (من ألقاب المسيح: ملك اليهود).. وبالتالي توترت العلاقة دومًا بين أولئك وهؤلاء، وكان الحالُ يجري دومًا على المنوال ذاته: كلما قويتْ الدولة المسيحية، واستقوى الأساقفةُ، عانى اليهود من الاضطهاد. وهو الأمر الذي بلغ غايته قبيل انتشار الإسلام، إذ أصدر الإمبراطور البيزنطي «هرقل» في حدود سنة ٦٣٠ ميلادية، مرسومًا إمبراطوريًّا يقضي بإجبار اليهود على اعتناق المسيحية وإلا صارت دماؤهم مباحة لمن يريد قتلهم. وقد قُتل من اليهود آنذاك عشرات الآلاف، وفرَّ الباقون من عاصمة الديانة اليهودية «أوروشليم» التي صار اسمها في القرون الستة الأولى للميلاد «إيليا» وأصبحت عاصمةً روحية للمسيحيين، قبل أن يشتهر اسمها العربي «القدس، بيت المقدس» المأخوذ من صفتها العبرية «بيت همِّيقداش» وتصبح عند المسلمين مدينة مقدسة: أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

وكان كثيرٌ من اليهود قد فرُّوا من هذا العذاب والقتل والقهر الديني، إلى أبعد المواضع من قلب الدولة المسيحية (قبل انتشار الإسلام) فسكنوا من جهةٍ «أواسط آسيا» ومن الجهة المقابلة «أقاصي المغرب» والأندلس. لكنهم لم يسلموا مع ذلك من الاكتواء بالويلات التي يثيرها التعصب الديني، ففي عصر الملك الإسباني «سيزبوت»

جرى ما يقصُّه علينا العلامة د. محمد عبد الله عنان، بعبارة مؤثرة، حين يقول في الفصل الثاني من الجزء الأول من موسوعته (دولة الإسلام في الأندلس) ما نصُّه:

«كان يهود الجزيرة (إسبانيا) كتلة كبيرة، لكنهم كانوا موضع البغض والتعصُّب والتحامل، يعانون أشنع ألوانِ الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ اشتدَّ ساعدها، تحاول تنصير اليهود وتتوسَّل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة. وفي عصر الملك سيزبوت فُرِض التنصير على اليهود أو النفي والمصادرة، فاعتنق النصرانيةَ كثيرٌ منهم كَرْهًا ورياءً سنة ٦١٦ ميلادية، ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها في عهد الملك إجيكا، فقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة، ومرتدين عن النصرانية، فنزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية وضمَّها إلى ممتلكاته، وشرَّدهم وجعلهم عبيدًا للنصارى إلى الأبد، لا يسمح لهم باسترداد حريتهم. وأَمَرَ بتحرير عبيدهم من النصارى، ونَزَعَ أبناءهم منذ السابعة لتربيتهم على دين النصرانية، وقَرَّرَ ألا يتزوَّج عبدٌ يهوديٌّ إلا بجاريةٍ نصرانية، ولا تتزوَّج يهوديةٌ إلا بنصراني. وهكذا عصفت يدُ البطش والمطاردة باليهود أيمًّا عَصْفٍ، فكانوا قُبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلمٍ لا يُطاق، وكانوا كباقي طوائف الشعب المهيضة (البربر، الآريوسيين) يتوقون إلى الخلاص الذي لاح من ناحية المشرق.

وقد بدأت الغزواتُ الإسلامية للشمال الإفريقي عقب فتح المسلمين لمصر، إذ غزا عمرو بن العاص الصحراء الليبية أولًا، ثم غزا «عبد الله بن أبي سرح» تونس وقتل حاكمها الأسقف العسكري جريجوري (جُرجير) وغنم من هناك غنائم كثيرة. وانشغل المسلمون حينًا من الدهر، فيما بينهم، بسبب النزاع بين الإمام عليّ بن أبي طالب والأمير معاوية بن أبي سفيان، ودارت بين المسلمين حروب آل السلطان بعدها لمعاوية بن أبي سفيان، الذي حرص على (توريث الحكم) لأول مرة في تاريخ الإسلام، فأورث العرش لابنه «يزيد» الملقَّب عند بعض المؤرخين: الفاجر.. وقد ورد في الحديث الشريف، أن الله قد ينصر هذا الدين (الإسلام) بالرجل الفاجر!

حربُ الكاهنة وثورات البربر[1]

لا يمكن الكلام عن دخول المسلمين إلى الأندلس، بمعزلٍ عن «السياق التاريخي» والأحداث الكبرى التي جرت على «الساحة الدولية» في ذاك الزمان. وقد أشرنا إلى أن فتوح الشمال الإفريقي، والأندلس من بعد، بدأت بغزوتين للأراضي الليبية والتونسية، قام بهما تباعًا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح، وكان القتال في الغزوتين، يدور بين العرب والروم.. العرب المسلمين، والروم المسيحيين (الملكانيين).. ولم تكن «القبائل» المنتشرة في شمال إفريقيا، قد دخلت بعدُ في المواجهات العسكرية النظامية.

وقد كان من المفترض أن تنشط حركة (الفتوح) بعد سنة ٣٤ هجرية، لأنها السنة التي انتصر فيها المسلمون على الروم في الموقعة البحرية المسماة من كثرة صواري السفن المشاركة في القتال «ذات الصَّواري» غير أن اندلاع الخلاف على خلافة المسلمين بين الإمام عليٍّ بن أبي طالب (رجل الدين) ومعاوية بن أبي سفيان (رجل الدولة) سنة ٣٥ هجرية، أدى إلى توقفٍ تام لحركة الفتوح شرقًا وغربًا، بل أدى إلى ضياع بعض البلاد من يد المسلمين، ومنها (تونس) التي كانوا يسمونها «إفريقية».. وبعد خمس سنوات من مقتل الإمام عليٍّ (سنة ٤٠ هجرية) غدرًا على يد «الخوارج» وفشلهم في اغتيال معاوية بن أبي سفيان الذي صار آنذاك (خليفة) للمسلمين، أو بالأحرى (ملكًا) يتوارث بنوه الحكم من بعده؛ عادت مع سنة ٤٥ هجرية حركةُ الفتوح إلى سابق عهدها، فقام «معاوية بن خديج» بغزو ليبيا وتونس واستطاع أن يهزم جيش الروم هناك. وقام «عبد الله بن الزبير بن العوام» بفتح (سوسة) وما حولها، وصار على المسلمين أن يتقدَّموا لفتح بقية الشمال الإفريقي بحرب الروم والبربر معًا.. وبالمناسبة، يرى بعضُ المؤرِّخين أن «البربر» هم في الأصل، قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية أو هجرتها بسبب الكلأ الشحيح، ونزحت غربًا حتى حطت بها يد الترحال في تلك النواحي النائية. لكن هذا الرأي فيما أرى، يفتقر إلى الدلائل المؤكِّدة له.

---

(١) نُشرت المقالة التي بهذا العنوان، يوم السادس والعشرين من يناير ٢٠١١ ثم قُطعت الاتصالات بمصر، فانقطعت السباعية أسبوعًا لهذا السبب وثلاثة أشهر لانشغالي بالكتابة في «تأصيل الوعي الثوري» أملًا في ترشيد خطى الثورة المصرية، وتقدُّمها، ومن بعد ذلك استكملتُ المنشور هنا.

المهم، أن المسلمين استكملوا فتوحاتهم غربًا. وهو الأمر الذي قام به «عقبة بن نافع» الذي وصل إلى أقصى المغرب الأقصى (المملكة المغربية حاليًا) وأوقفه المحيط الأطلنطي عن التقدم غربًا. وكان البربر قد بدءوا الدخول في دين الله أفواجًا، غير أن زعيمًا منهم اسمه «كُسَيْلَة بن لمزم» ارتدَّ عن الدين الجديد، وجمع جيشًا حارب به المسلمين وانتصر عليهم سنة ٦٢ هجرية، وانتزع من أيديهم (القيروان) وقتل عقبة بن نافع. غير أن الجيش الإسلامي بقيادة «زهير بن قيس» عاد للكرِّ على البربر، وهزمهم سنة ٦٩ هجرية واستردَّ منهم القيروان وقتل كُسَيْلَة بن لمزم.. ومن بعد ذلك، كانت حروبٌ أخرى تنتظر المسلمين في الشمال الإفريقي وبلاد المغرب، أهمها حربُ قرطاجَنَّة وحربُ الكاهنة.

استغل الإمبراطور البيزنطي توغُّل المسلمين غربًا، ودَعَمَ عاملَه الروميّ «حاكم قرطاجَنَّة» بأسطولٍ كبيرٍ من جزيرة صقلية، فاجتاح الجيشُ الرومي منطقة «برقة» وقطع الطريق بين عاصمة الخلافة الإسلامية (دمشق) وجيش المسلمين الذي كان قد توغَّل غربًا.. واضطر القائد المسلم «زهير» للعودة شرقًا للدفاع عن «برقة» لكنه انهزم على يد الروم، وقُتِل (استشهد) ومعه معظم القوَّاد والجند، وبذلك فقد المسلمون الشمال الإفريقي والجيش الذي كان قبل سنوات، يمضي بالفتوح قُدُمًا إلى جهة المغرب.. وعن هذه الهزيمة (النكسة) يقول د. عبد الله عنان في موسوعته (دولة الإسلام في الأندلس) ما معناه:

«كان وقع هذا الخطب شديدًا في حكومة دمشق (الخلافة الأموية) وكانت مشغولة آنذاك بمحاربة ابن الزبير وصَحْبه الخوارج عليها (الثائرين) فمضت أعوامٌ أخرى قبل أن تتمكَّن من العناية بشئون إفريقية (تونس) فلمَّا انتهت الثورة وقُتِل ابن الزبير، وجَّه عبد الملك (ابن مروان) عنايته إلى استعادة إفريقية، فولَّى عليها حسَّان بن النعمان الغساني سنة ٧٣ هجرية (٦٩٢ ميلادية) وسيَّره إليها بجيشٍ ضخمٍ كان أعظم قوة (عسكرية) سيَّرتها الخلافة الأموية إلى إفريقية. فاخترق حَسَّان «برقة» وقصد قرطاجنَّة عاصمة إفريقية الرومانية، التي كانت لا تزال في يد الروم، ولم يغزُها المسلمون

لحصانتها واتصالها بالبحر وقُربها من صقلية، حيث كانت تُرسل إليها الإمدادات البيزنطية بسرعة. وحاصر حَسَّان قرطاجنة (قرطاج) حصارًا محكمًا، ثم اقتحمها واستولى عليها، ولكن إمبراطور الروم (البيزنطيين) سيَّر إليها جيشًا بقيادة حاكمها «يوحنا» يعاونه أسطول من صقلية، وقوة من القوط أرسلها ملك إسبانيا القوطيُّ الذي أزعجه اقتراب العرب من بلاده. فانسحب العربُ وارتدوا إلى القيروان، حتى إذا جاءتهم الإمدادات أعادوا الكرَّة على قرطاجنة، وهزموا الروم والقوط هزيمةً شديدة ففَرُّوا إلى سفنهم، وخُرِّبت قرطاجنة وهُدِّمت حصونها القوية، ثم سار حَسَّان غربًا وهزم الروم والبربر في عدة مواضع، واستعاد الإسلام سلطانه بين برقة والمحيط (= ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)».

وقد نقلتُ الفقرة السابقة على طولها، من هذا المصدر المعتمد، لأنها تشير بوضوح إلى ثلاث نقاطٍ مهمة تتعلق بالفتوح الإسلامية، وفَهْمنا لها نحنُ المعاصرين. النقطة الأولى، أن فتح المسلمين لقرطاجنة (قرطاج) احتاج «أضخم جيش إسلامي دخل إفريقيا» ومعروف أن مدينة الإسكندرية (عاصمة مصر، مدينة الله العظمى) كانت أهم وأكبر وأمنع من قرطاجنة، فكيف استطاع عمرو بن العاص فتحها قبل ذلك بعقودٍ قليلة من الزمان، إذا كان جيشه قليلًا في العدد والعُدة؟ إذن، فإن صورة فتح الإسكندرية (مرتين) في أذهاننا، غير كاملة وغير سليمة. فالجيش الذي «حاصرها» به عمرو بن العاص، لم يكن بهذا العدد القليل الذي نظنه، لأنه ضمَّ معه عشرات الآلاف من العرب الذين كانوا يسكنون مصر من قبل الإسلام. وعمليةُ الفتح ذاتها (في المرتين) تشوبها ظلالٌ قوية نتجت عن العلاقة «الخفية» بين المقوقس والمسلمين، حسبما ذكرتُ سابقًا، ويفسِّر في الوقت ذاته العدد الضئيل جدًّا الذي خسره المسلمون في حرب الإسكندرية (اثنان وعشرون رجلًا) قد يكون بعضهم قد مات أثناء «الحصار» بسبب البرد ونزلات الإنفلونزا، في زمنٍ لم تكن فيه المضادات الحيوية التي نستعملها اليوم قد اكتُشفت بعد.

والنقطة الثانية هي ظهور «القوط» لأول مرة على مسرح الأحداث العسكرية، وبروز دورهم في حرب المسلمين والروم. وقد ظهروا كحلفاء للروم ومعاونين

لهم، لاعتقادهم بأنهم ما عادوا بمنأى عن الأخطار (الإسلامية) التي تجتاح الأقطار الإفريقية الشمالية، ولا بد لها في نهاية الأمر من تهديد سلطانهم بإسبانيا. وهو الأمر الذي وقع بالفعل بعد سنوات قليلة، كما سنرى.. والنقطة الثالثة الأخيرة، هي أن المسلمين خَرَّبوا أسوار قرطاجنة. ونحن نعرف أن عمرو بن العاص، كان من قبلها بعقود قد خرَّب أسوار الإسكندرية. ومن المفترض (نظريًّا) أن هذه الحصون تحمي الجيوش، والغالبُ المنتصرُ إذا كان هدفه عسكريًّا مجردًا، فمن مصلحته أن يحتفظ بهذه الأسوار ليتحصَّن فيها.. لكن المسلمين كانوا يأتون إلى البلاد ليمكثوا، لا ليجنوا خيراتها باعتبارها «مغانم» تحرسها الجيوش التي تحرسها الحصون والقلاع.. فتأمل.

أما حرب «الكاهنة» التي كانت حلقةً من حلقات «ثورات البربر» على الحكم الإسلامي، فقد وقعت في المغرب الأقصى. فهناك اجتمعت قبيلة (جراوة) وقبائل أخرى من البربر، تحت قيادة امرأةٍ قيل إنها كانت تشتغل بالسحر والكهانة، هي: دهيا بنت ماتية بن تيفان. والمصادر البيزنطية (اللاتينية) تسميها «داميا» والمصادر العربية تلقِّبها بالكاهنة، وبعض المصادر تشير إلى أن هذه المرأة الزعيمة كانت تدين باليهودية، وهو الأمر الذي أشكُّ فيه كثيرًا. لأن الديانة اليهودية، في أصلها التوراتي وتطورها التلمودي؛ تنظر إلى المرأة نظرةً لا تسمح لها بالزعامة والقيادة، فضلًا عن «الكهانة» وعن الحكم وعن رئاسة الجيوش.

كانت الكاهنة تحكم المنطقة المسماة «جبل أوراس» فلما جاء حسَّان بن النعمان الغسَّاني بجيشه الجرَّار، خرجت إليه بجيش أشدَّ استطاع أن يهزم جيش العرب المسلمين، ويضطره إلى الفرار شرقًا بعد موقعةٍ هائلة انتصرت فيها الكاهنة وارتد «حسَّان» إلى برقة، فسارت وراءه الكاهنة بجيشها وسيطرت في طريقها على بلاد كثيرة، حتى صارت معظم نواحي تونس والجزائر تحت حكمها.. وظل الحال على ذلك لخمسة أعوام، حتى دَعَم الخليفة عبد الملك بن مروان جيشَ المسلمين بجماعات كبيرة من الجند، فتقهقرت الكاهنة غربًا وأحرقت في طريقها المدن والنواحي، ليصعب على جيش المسلمين استكمال الطريق غربًا، في تلك الصحراوات القاحلة. لكن

المسلمين لم يتوقفوا عن ملاحقتها، حتى التقى الجمعان (الجيشان) عند جبل أوراس فظهر المسلمون على الكاهنة، وقتلوها، وانتصروا على جموعها من قبائل البربر. والظاهر أن نصر المسلمين لم يكن ساحقًا، لأنهم ارتضوا بأن يبقى ابن الكاهنة حاكمًا على منطقة جبل أوراس، على أن يدين للمسلمين بالولاء والطاعة، ويمدَّهم باثني عشر ألف مقاتل، لدعم جيشهم وتحقيق بقية الفتوحات، تعويضًا عَمَّا فقده المسلمون في حروبهم الدامية بشمال إفريقيا.

وهكذا، راحت النواحي المغاربية تدلف تباعًا في دائرة الدولة الإسلامية، ويصير البربر رويدًا من المسلمين. وإن كانوا قد ظلوا يرون في أنفسهم شرفًا ومكانةً، ليست للعرب! وبالمناسبة، فهم لا يزالون إلى اليوم في دول الشمال الإفريقي، يستعلون بأصولهم على العرب (الحاكمين) باعتبار أن قبائل «البربر» في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، هم أصحاب البلاد الأصليون. وهم لا يقبلون فكرة أن البلاد لمن يسكنها ويتوالد فيها جيلًا من بعد جيل، ولا يدركون أن «النقاء العِرْقي» محض خرافة اجتماعية يكذِّبها التاريخُ الطويل، وتدحضها ملامحُ الناس المتشابهة في كل قطر.

وفي الوقت الذي كانت البلاد المغاربية (الشمال الإفريقي) تدخل في نطاق دولة العرب المسلمين، كانت البلاد المشرقية (فارس وأواسط آسيا) تدخل في النطاق ذاته. وفي قلب دولة الإسلام كانت هناك مشكلات كثيرة، وقلاقل، وكان هناك رجلٌ من التابعين (الجيل الثاني بعد الصحابة) اسمه «موسى بن نصير» يقال إن مولده كان سنة ١٩ هجرية، وإن أصله من قبيلة «بكر بن وائل» الذين غلبهم خالد بن الوليد وأخذ منهم أسرى، كان منهم والده «نصير» الذي صار من موالي قبيلة «لخم» وصار لاحقًا واحدًا من حرس معاوية بن أبي سفيان. وقد نشأ ابنه «موسى» في بلاط الأمويين، وخدمهم في عدة وظائف عسكرية ومدنية حتى لاحقته في الشام اتهاماتٌ باختلاس أموال، فكاد «الحجَّاج بن يوسف الثقفي» يفتك به، لولا تدخُّل «عبد العزيز بن مروان» أمير مصر الأُمويّ، الذي أنقذه من بطش الحجَّاج» وجعله حاكمًا على المغرب، فثار عليه البربر من جديد، لكنه غلبهم بعدما اتخذ منهم هناك معاونًا عسكريًا هو طارق بن زياد الليثي، الذي عبر بالجيش الإسلامي إلى الأندلس.

عبورُ المسلمين ومصيرُ الفاتحين

هذه المقالة كتبتها في شهر يناير الماضي (قبل الثورة) وأرسلتها للجريدة كي تُنشر، فلما جرت الوقائع التي نعرفها في مصر، وبقية البلاد المحيطة، رأيتُ الأصوب أن أقطع سُباعية «الأفق الأندلسي» استجابةً لمجريات الأمور، وها نحن اليوم نستكمل الكلام في «الأفق الأندلسي» فنقول:

استخفَّ بعضُ البربر في أقصى الأرض (بلاد المغرب) بالوالي الإسلامي الجديد «موسى بن نصير» الذي تولَّى الأمر هناك سنة ٨٩ هجرية، فثاروا عليه وتجمَّعوا ضده. لكنهم فوجئوا به يضرب (بيدٍ حديديةٍ) جموعَ الثوار من قبائل هوَّارة وزناتة وكتامة وصنهاجة، ويعود بهم قَسْرًا إلى حظيرة الطاعة. وحين اعتصمت فلول الثوار ببلدة «طنجة» المطلة على البحر، عصفتْ بهم قوات المسلمين التي قادها ضابطٌ من البربر الذين صحَّ إسلامهم، هو اليد اليمنى للأمير موسى بن نصير «طارق بن زياد الليثي» الذي استعان بالبربر الموالين للمسلمين، وفَلَّ بالحديدِ الحديدَ، حتى اقتلع بذور الثورة من حوافِّ المغرب.

كما استخفَّ الرومُ بقدرة المسلمين البحرية، فعاثتْ سفنهم فسادًا في المدن الساحلية بشمال إفريقيا. لكنهم فوجئوا بموسى بن نصير، يبني أسطولًا بحريًّا بالقرب من قرطاجنة (قرطاج) ويبحر به غازيًا الجزر القريبة التي ينطلق منها الروم، مثل جزر البليار (الجزائر الشرقية) وصقلية وسردينيا، بالإضافة إلى بعض المدن الساحلية الإسبانية. وبذلك بسط المسلمون سلطانهم في البر والبحر، وصارت بأيديهم بلاد الشمال الإفريقي، كافة، ما عدا موضعًا واحدًا هو بلدة «سبتة» الحصينة، المستعصية على الاقتحام، التي كان يحكمها آنذاك: الكونت يوليان.

وعلى الشاطئ الأندلسي المقابل، كان القوطُ يحكمون البلاد كولاةٍ للروم، أو كامتداد للإمبراطورية البيزنطية التي ورثت دولة (الرومان) الشاسعة، وصارت المسيحية (الملكانية) ديانةً لها. وقبل عبور المسلمين إليها، كان الحال في إسبانيا شبيهًا بحال مصر قبل وصول الإسلام ودخول البلاد تحت رايته. فمثلما كان «المقوقس»

يضطهد المسيحيين اليعاقبة (المونوفيست) كان الملوك الإسبان يضطهدون اليهود ويسومونهم أسوأ ألوان العذاب. ومثلما كان حكم (الروم) في مصر متفسِّخًا لا يدين بالولاء الحقيقي للإمبراطور هرقل، كان أمراء إسبانيا يتنازعون فيما بينهم ويفشلون وتذهب ريحهم.

وكانت النواحي الإسبانية تحت يد الملك «وتيزا» ابن الملك «إجيكا» الذي كان قبلها بأعوامٍ قد بطش بوالد رودريك (اسمه: الكونت تيودوفرد) وسَمَل عينيه، أي قرَّب منهما قضيبًا من الحديد المتَّقد، فجفَّ ماؤهما وأصيب الرجل بالعمى. وهي عقوبةٌ كانت معتادة في أوروبا، في ذاك الزمان البعيد.. وقد انتقم رودريك بعد حينٍ لأبيه، من ابن إجيكا «وتيزا» وخلعه عن العرش، ويُقال إنه سَمَل عينيه ثأرًا لما وقع لأبي هذا، على يد أبي ذاك وقد تولَّى رودريك (الذي سوف يسمِّيه العرب: لزريق) الحكم في إسبانيا، سنة ٩٢ هجرية (٧١١ ميلادية) ويقال بل تولاَّه من قبل ذلك بسنوات قليلة، لأن هذا التاريخ هو بإجماع المؤرِّخين، هو تاريخ عبور المسلمين إلى الأندلس.

عبر المسلمون البحر إلى الجهة المقابلة للمغرب (الأندلس) بدعوةٍ من الكونت يوليان الذي كان حانقًا، حسبما قيل، على ملك إسبانيا الجديد لسببين: الأول، أن الكونت يوليان أرسل ابنته الجميلة «فلورندا» إلى البلاط الملكي في طليطلة، كي تتعلم فنونَ الإتيكيت ومراسم حياة القصور، وهو أمرٌ كان معتادًا هناك آنذاك. غير أن الملك رودريك افتتن بجمال «فلورندا» وطاش عقله بسبب سحر أنوثتها الطاغية، فاغتصبها، ولما علم أبوها بذلك استدعاها من هناك، فلما جاءت ملفوفةً بأردية العار أقسم أبوها على الانتقام.

والسبب الآخر لخلاف الكونت مع الملك، حسبما يقول المؤرِّخون، يرجع إلى أن الكونت يوليان كان يملك من القوة والمال والسفن الكثيرة، ما يؤهِّله لامتلاك الأراضي الإسبانية كلها. وعندما انتصر الملك رودريك، فَرَّ من أمامه الأمراء الموالون للملك المخلوع، ولجئوا إلى «يوليان» للاحتماء به، كما لجأت إليه الأسرة الملكية المطرودة من البلاد. فاستقوى «يوليان» وأراد أن يحقِّق أمنيةً في نفسه، بأن يصير ملكًا للقوط

كلهم. غير أن قواه العسكرية لم تكن تكفي لتحقيق هذا الأمر، ومن هنا لجأ إلى موسى بن نصير وقائده العسكري طارق بن زياد طلبًا لمعونتهم في الأمر واعدًا إياهما بمكافأة إذا تمَّ له مناه (الذي لم يتم قط).

إذن، كان عبور المسلمين إلى الشاطئ الأندلسي في بداية الأمر، هو (مغامرة عسكرية) تمت بدعوةٍ من القوط أنفسهم، في إطار التنازع الواقع بينهم. وهو ما يذكرنا بما وقع بعد قرون، حين تنازع ملوك الطوائف المسلمون فيما بينهم، واستعانوا بأعدائهم، فكانت النتيجة هي خروجهم من الأندلس، مثلما دخلوها أول مرة.. يقول الفيلسوف الألماني الشهير، هيجل: نتعلَّمُ من التاريخ، أن أحدًا لم يتعلَّم من التاريخ.

وكان الاتفاق «السِّرِّي» بين الكونت يوليان والأمير موسى بن نصير (وهو ما يذكرنا بالاتفاقية السرية بين المقوقس وأبي بكر الصديق) يقضي بأن يتنازل يوليان للمسلمين عن منطقة «سبتة» وقلعتها الحصينة، فتصير بأيديهم مدن المغرب وقلاعها كلها، في مقابل أن يدعم المسلمون بجيشهم أطماع الكونت يوليان في عرش إسبانيا (طليطلة تحديدًا) وينالوا بعضًا من الغنائم. ولم يكن بمستطاع موسى بن نصير، أن يُبرم اتفاقًا كهذا من دون استشارة الخليفة الأموي، فأشار الخليفةُ الذي كان آنذاك «الوليد بن عبد الملك بن مروان» بأن يختبر جدوى المسألة بعددٍ محدود من السَّرايا، ولا يغامر بالجيش كله في أرض الإسبان التي لم يعرفها العربُ من قبل. وهكذا ذهب سبعة آلاف جندي مسلم، على رأسهم «طارق بن زياد الليثي» لمعاونة الكونت يوليان في حربه، وكان إبحارهم من شاطئ المغرب إلى ساحل إسبانيا المقابل، بالسفن التي يملكها الكونت يوليان، الذي كان يملك أسطولًا من السفن يتاجر به في البحر المتوسط تجارة واسعة.. وتمَّ «العبور» في شهر رجب سنة ٩٢ هجرية (أبريل سنة ٧١١ ميلادية) ونزل المسلمون الأندلس لأول مرة، في فصل الربيع.. وبالطبع، لم يقم طارق بن زياد بإحراق السفن بعد عبوره، حسبما يعتقد معاصرونا، لأنها (ببساطة) لم تكن ملكًا له أو للمسلمين.

وبحسب ما ورد عن صفاته في المصادر القديمة، فقد كان طارق بن زياد جنديًّا صعب المراس، طويلًا أشقر، في عينيه حَوَل، وبإحدى يديه شلل. وكان يندفع بجنده في

القتال، فيكون مثل «جلمود صَخْر حطَّه السيلُ من علٍ» وهو الأمر الذي جعل الجيشين (الإسلامي والقوطي) يتقدَّمان في الجنوب الإسباني، ويمضيان قُدُمًا إلى طليطلة.. وكان الجيش الإسلامي بقيادة «طارق» هو الذي يتقدَّم أسرع.

وجمع رودريك (لزريق) جيشًا قوطيًّا ضخمًا يقترب عدده من المائة ألف، واتجه إلى الجنوب الإسباني لقتال الغزاة المسلمين. واستمدَّ «طارق» جندًا إضافيًّا من «موسى بن نصير» فأمدَّه بخمسة آلاف، فكان مجموع جيش المسلمين اثني عشر ألفًا، معهم قوات «يوليان» قليلة العدد والعُدَّة.. وفي شهر رمضان التقى الجمعان، قرب نهرٍ كبيرٍ عند وادي لكة (بكة) وكان التفوق العددي لجيش رودريك، ولكن المسلمين كانوا أكثر تنظيمًا وإقدامًا وعنفًا في القتال، خاصةً بعدما خطب فيهم «طارق بن زيادٍ» خطبةً ناريةً تناقلها المؤرِّخون المتأخرون زمنًا (ولا بد أنهم زادوها بلاغةً وتحسينًا لفظيًّا) وهي فيما أرى، سبب انتشار الخرافة الشهيرة القائلة بأن «طارق» أحرق السفن بعد عبوره للأندلس.. ولأن هذه الخطبة من النصوص (الفصوص) فسوف أُوردُ فيما يلي، فقراتٍ كاملةً منها:

«أيها الناسُ، أين المفر؟ البحرُ من خلفكم والعدو أمامكم، وليس لكم واللهِ إلا الصدق والصبرُ. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة (الأندلس) أضيعُ من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة. وأنتم لا وزر (مساعد) لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجزوا لكم أمرًا (تنتصروا) ذهبت ريحكم وتعوَّضت القلوب عن رعبها منكم، الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية (لزريق) فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة (خرج من وراء الأسوار) وإن انتهاز الفرصة فيه لممكنٌ، إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمرًا، أنا عنه بنجوةٍ. ولا حملتكم على خطةٍ، إلا بدأتُ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ، قليلًا، استمتعتم بالأرفه الألذِّ طويلًا.. وقد بلغكم ما بهذه الجزيرة من الحور الحسان، بنات اليونان، الرافلات في الدرِّ والمرجان، والحلل المنسوجة

بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان.. أيها الناس، ما فعلتُ من شيءٍ فافعلوا مثله، إن حملتُ (تقدَّمتُ للقتال) فاحملوا، وإن وقفتُ فقفوا. ثم كونوا كهيئة رجلٍ واحدٍ في القتال. وإني عامدٌ إلى طاغيتهم بحيث لا أُنهيه حتى أخالطه أو أُقتل دونه، فإن قُتِلتُ (فلا تهنوا ولا تحزنوا)، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ وتولُّوا الدُّبر لعدوكم، فتبدوا بين قتيل وأسير. وإياكم، إياكم، أن ترضوا بالدنيَّة.. وها أنا حامل (مندفع) حتى أغشاه (يقصد لزريق) فاحملوا بحملتي».

وانتصر المسلمون، وقتلوا رودريك الملك (لزريق) وهزموا جيشه. وبعدها ساد الرعب من جيش المسلمين في أنحاء أيبيريا، واستكمل «طارق» حروبه في الأنحاء وعبر «موسى بن نصير» بجيش آخر، فسار إلى مدن أخرى غير تلك التي افتتحها «طارق» حتى إذا التقى الجيشان المسلمان أخيرًا، كان معظم أنحاء (الأندلس) قد صارت بين المسلمين.. وتوارى «يوليان» عن الأنظار، رويدًا، وصار الأمر كله بيد المسلمين. وفكَّر «موسى بن نصير» في استكمال الفتوح شمالًا وشرقًا، بغزو فرنسا (بلاد غالة) وإيطاليا، لكن الخليفة الأموي رفض هذا المقترح واستدعى «موسى» إلى دمشق وأمره أن يأتي معه بطارق بن زياد.. وهنا، لا بد لنا أن نتوقف قليلًا لنرى «مصير الفاتحين» ونتبصَّر في هذا الأمر ونتأمَّله.

نسيتُ أن أقصَّ عليكم، قبل قليل، ما رواه معظم المؤرِّخين القدماء والمحدثين عن لحظة اللقاء الأول بين موسى بن نصير وطارق بن زياد، بعدما تمت الفتوحات الإسلامية الأولى في أرض الأندلس.. يقول المؤرِّخون: «وقصد موسى طليطلة، فالتقى بطارق على مقربةٍ منها، وكان قد سار إلى استقباله (والترحيب به) فأنَّبه موسى وبالغ في إهانته (لأنه كان قد تأخر في فتح بلدة اسمها: ماردة) وزجَّه مصفَّدًا إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان، وقيل بل هَمَّ أيضًا بقتله، لكنه ما لبث أن عفا عنه وردَّه إلى منصبه، وزحَفَا معًا نحو الشمال الشرقي حتى نفذ (موسى) إلى مملكة الفرنج، ووصل إلى مدينة ليون (الفرنسية)».

وكما أشرنا سابقًا، فإن موسى بن نصير كان يريد أن يعبر بجيشه إلى بقية بلاد «النصرانية» المطلة على البحر المتوسط، حتى يجعل هذا البحر بحيرةً إسلاميةً تشرف على شواطئها (دولة الإسلام) من الجهات كافة. وهو ما يجمله ابن خلدون في تلك العبارة القوية: «وجمع (نَوَى) أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم مجاهدًا، مستلحمًا لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة في دمشق».. وهو ما يعقِّب عليه د. محمد عبد الله عنان، بقوله: كان موسى يقدر على تنفيذ مشروعه العظيم، بجيش ضخم يقتحم البرنيه (شمال إسبانيا) يؤيِّده من البحر أسطولٌ قويٌّ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد في شمالي إيطاليا، فيخترقها فاتحًا إلى روما قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضي فيها على كرسي النصرانية، ويتابع سيره بعدئذٍ شرقًا إلى سهول الدانوب مثخنًا في القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه، ثم يخترق الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولي عليها، ثم يعبر آسيا الصغرى (الأناضول، تركيا) قاصدًا إلى دمشق. فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب. ولم يكن هناك ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم.

وبعدما أوضح وجاهة هذا (المشروع) والدلائل المؤكِّدة لإمكان نجاحه، اكتفى د.محمد عبد الله عنان بقوله إن: «سياسة الإحجام والتردُّد التي اتبعها بلاط دمشق، أودت بذلك المشروع البديع، إذ كتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نصير يحذِّره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ويأمره بالعودة، فارتدَّ موسى مرغمًا آسفًا».. وهذا الرأي يقرره أيضًا معظم المؤرِّخين، ويكررونه في كتبهم، وكانوا يعلِّمونه لنا في المدارس على اعتبار أنه إحدى حقائق التاريخ. ومع ذلك، فإننا إذا طبَّقنا عليه مقولة ابن خلدون «ينبغي علينا إعمال العقل في الخبر» لظهر لنا وجهٌ آخر للأمر.. على النحو التالي:

إذا كان الخليفة الأموي قد (تردَّد) في فتح بقية البلاد الأوروبية، فلماذا لم (يتردَّد) في البطش بالفاتح «موسى بن نصير» وفي إزاحة الفاتح «طارق بن زياد» عن المشهد

العام، وفي اغتيال الفاتح «عبد العزيز بن موسى بن نصير».. فكيف وهو المتردِّد، أن يصرَّ على الفتك بهؤلاء الأبطال الفاتحين؟

وربما قال البعض، لعلَّ الخليفة قد أراد تأجيل المواجهة مع العالم المسيحي، ولم يتسرَّع في القضاء على العاصمة الدينية «بيزنطة» مراعاةً لمشاعر المسيحيين الذين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية الجديدة. وربما يقول البعض الآخر: بل هي من حكمة الخليفة الأموي، الذي قدَّر الأمور تقديرًا صحيحًا، ولم يشأ أن يدخل بالجيش الإسلامي في مغامرة غير مأمونة العواقب، وقد تُودي بحياة الآلاف من الأبطال..

وفي الردِّ على هذه الأقوال، نقول: أما «المغامرة» فقد ارتضى الخليفة بها حين وافق على عبور المسلمين إلى الأندلس، لمعاونة الأمير يوليان في حربه (القوطية/ القوطية) أملًا في الحصول على نصيب من المغانم. فلا معنى بعدما سيطر المسلمون على الأندلس، لهذا الإحجام عن مغامرة أقل خطرًا. خصوصًا أن المسلمين كانوا آنذاك، يمتلكون أسطولًا بحريًّا قويًّا، بإمكانه أن يدعم حركة الفتوح للنواحي الأوروبية.

وأما الحجة الزاعمة بأن إحجام الحاكم العام (الخليفة الأموي) عن الموافقة على مشروع موسى بن نصير، لأنه يتضمَّن إسقاط عاصمة المسيحية في العالم آنذاك (بيزنطة) وهو ما سوف يثير المسيحيين الذين يعيشون بين جنبات دولة الإسلام. فهي حجة ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها، لأن غالبية المسيحيين في العراق وشرق الشام كانوا نساطرة، وغالبية المسيحيين في مصر كانوا يعاقبة. وأولئك وهؤلاء، بينهم وبين الكنيسة (الملكانية) في بيزنطة خلافات عميقة ومنازعات طويلة، تحول بهم عن التعاطف مع الكنيسة المخالفة لهم في المذهب العقائدي، بل كانوا يتمنون زوالها. بالإضافة إلى أن سقوط العاصمة الدينية السياسية (بيزنطة) لا يعني إسقاط الديانة ذاتها، بل كانت العاصمة الدينية الحقة للمسيحية (إيلياء، أورشليم، بيت المقدس) بيد المسلمين من قبل ذلك بقرابة قرنٍ من الزمان، ولم يثر هذا الأمر حفيظة أهل الديانة المسيحية. وقد سعت الدولة الأموية لإسقاط القسطنطينية، مرتين، من جهة الشرق فلم تفلح. كانت المرة الأُولى سنة ٤٩ هجرية، في عهد معاوية بن أبي سفيان، والمرة

الأخرى سنة ٩٨ هجرية في عهد سليمان بن عبد الملك.. وقد ظل النزاع السياسي الديني قائمًا، ولم تكفَّ محاولات الاقتحام المسيحي (الحروب الصليبية) ومحاولات السيطرة الإسلامية (الجهاد) حتى انتهى الكرُّ والفرُّ بعد قرون، حين أسقط العثمانيون الذين جاءوا بعد الأمويين بقرون طوال، العاصمة الدينية السياسية (القسطنطينية، بيزنطة، إستانبول) وحوَّلوا أكبر كنيسة في العالم «آيا صوفيا» إلى مسجد يصلي فيه المسلمون. ومع ذلك لم تسقط الديانة المسيحية، ولم نعرف أن المسيحيين في العراق ومصر والشام، قد اكترثوا كثيرًا لسقوط (عاصمة الديانة) بيد المسلمين. فقد استقر في الوعي الديني المسيحي منذ زمنٍ طويل، سابقٍ بكثير على ظهور الإسلام، أن «مدينة الله» في السماء وليست على الأرض. وهو المعنى الذي صاغه ببراعة في بدايات القرن الخامس الميلادي، القديس «أوغسطين» الذي كتب إثر سقوط روما أمام هجمات الوندال (البرابرة، الوثنيين) كتابه الشهير الذي صار مرجعًا أساسيًّا من مراجع المسيحية، وكان عنوانه: مدينة الله.

نخرج مما سبق، بأن ما يقال عن «تردُّد» الخليفة الأموي هو محض زعم لا دليل عليه، ولا احتجاج به، خصوصًا أن الخليفة لم يفكِّر أصلًا في الأمر، ولا عرفنا أنه استشار فيه أحدًا. وهو لم يوافق على المقترح ثم يرفضه، مثلما كان الحال مثلًا عند فتح مصر، حيث وافق الخليفة «عمر بن الخطاب» على مقترح «عمرو بن العاص» ثم عاد وأشفق منه وكاد يتراجع، لولا أن سبق السيف العزل وكان من حيلة «عمرو» ما كان.. فما السر في رفض الخليفة الأموي، خُطَّة الفتح الطموحة؟

إن استقراء الوقائع القديمة والمعاصرة، يدلُّ على أن الحكام كانت لهم (حركات) تضمن لهم البقاء متفردين، وتطفئ سطوع غيرهم. حتى لا يكون ذلك مقدمة لإزاحتهم من فوق (الكرسي) أو تهديد استقرارهم في السلطة. وقد كان للفاتحين الكبار صورة زاهية في أذهان الناس، وهو ما يؤهلهم للطمع في الحكم باعتبارهم (نجومًا) يتمتعون بالشعبية والقبول بين الناس، على أساس (أعمالهم العظيمة) وليس على الأساس الوراثي الذي يحكم الخلفاء وفقًا له. ومن هنا، طمس الخليفة الأموي (نجومية) موسى

بن نصير بالإذلال، وقطع سيرة ابنه عبد العزيز بالاغتيال، وحجب سطوع طارق بن زياد بالإزاحة عن المشهد العام. وهذه الغايات السلطوية أو ما أسميه «الحركات» هي حسبما أرى، أهمُّ عند الخليفة من إسقاط عاصمة المسيحية في العالم، ومن دخول المسلمين عاصمة الدولة البيزنطية. إذ الأهمُّ عنده في واقع الأمر، هو بقاؤه على رأس الدولة، وضمان عدم المنازعة أو الاستقلال عنه بالسلطة، وهو الأمر الذي حدث بالفعل بعد ذلك في مصر وفي الأندلس وفي وسط آسيا، عندما حظيت هذه البلاد برجال أقوياء (نجوم) كانوا من القوة بحيث استقلوا بالبلاد عن سلطان الخليفة.. وإذا أمعنا النظر في زماننا الحالي، لوجدنا كثيرًا من الأفعال «الحركات» التي تجمع بين الحكام العرب الذين يتساقطون اليوم تباعًا على الترتيب في تونس ومصر واليمن وليبيا (وهناك مزيد) ومن أهم هذه «الحركات» أنهم ما كانوا خلال عقود حكمهم يسمحون بسطوع نجوم سياسية أو عسكرية أو فكرية في بلدانهم، كي يبقى الحاكم منهم متفرِّدًا باستحقاقه للكرسي. فكأن «الكرسي» عندهم أهمُّ من إسقاط إسرائيل أو بيزنطة، أو غير ذلك من عواصم «الأعداء» الذين يلعب وجودهم في واقع الأمر، دورًا حيويًّا في إبقاء كراسي الحكم سالمةً لأصحابها ولأولادهم من بعدهم.

ومن جملة «حركات» الخلافة الأموية في الأندلس، الحرص على تبديل الولاة الذين يحكمون هناك باسم الخليفة الأموي. حتى إن عدد الولاة الذين أرسلتهم الدولة الأموية لحكم الأندلس باسم «الخليفة الأموي» بلغ في السنوات الخمسة والأربعين الأولى من حياة الإسلام في الأندلس، خمسة وعشرين واليًا، أي أن متوسط حكم الوالي منهم، كان يقل في المتوسط العام عن عامين. مع أن تأسيس الحكم واستقرار أوضاع (الأرض الجديدة) كان يتطلب بقاء الوالي لفترة كافية حتى يتمكَّن من إرساء قواعد الدولة، لكن حرص الخليفة على عدم استقلال الولاة بالأندلس، كان أهمَّ عنده من استقرار هذه النواحي البعيدة، وبقائها في حدود دولة الإسلام.. ولذلك، فقد التهم «عبد الرحمن الداخل» بلاد الأندلس، حسبما سنذكر بعد قليل، لأن هذه البلاد كانت تفتقر لأنظمة حكم مستقرة وموحَّدة، بسبب السياسات الأموية التي وضعت مهمة

الحفاظ على سلطانها ببلاد الأندلس، في مرتبةٍ أعلى من المهام المؤدية إلى استقرار هذه النواحي وضمان سلامتها.

غير أن تأسيس دولة الإسلام في الأندلس، وإن كان قد افتقر إلى رعاية الخلفاء ودعمهم، إلا أنه نجح بفضل أفعال الأفراد من المسلمين الذين مَدُّوا جسور التعايش مع أهل البلاد، وأمَّنوهم، وغرسوا بذور الوصل في أرض الأندلس. فهؤلاء الذين عبروا إلى الأندلس اختاروا البقاء فيها كفاتحين، لا غزاة، وهو الأمر الذي تجلَّى مبكرًا في معاهدة الصلح (العادلة) التي أبرمها عبد العزيز بن موسى بن نصير، مع الملك القوطي (تيودمير) الذي يسمِّيه العرب «تُدمير» وكان نصها كالآتي:

«نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير.. أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته بأن لا ينـزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه. وأنهم لا يُقتلون ولا يُسْبَوْنَ، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم.. وأن الذي اشتُرط عليه، أنه صَالَحَ على سبع مدائن.. وأنه لا يأوي لنا عدوًّا، ولا يخون لنا أمنًا، ولا يكتم خبرًا علمه. وأنه عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير.. كُتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة».

ولم تكن هذه المواثيق والاتفاقيات، هي القاعدة الوحيدة التي قام عليها (الوصل) في دولة الإسلام بالأندلس، إذ دعمت ذلك قواعد أخرى وسلوكيات إنسانية (طيبة) من جهة الفاتحين المسلمين، إلى سكَّان الأندلس من المسيحيين واليهود. وقد مَرَّ بنا أن أفراد الجيش الإسلامي، كانوا قد عبروا إلى الأندلس من دون زوجاتهم السابقات (الصحراويات) فلما وجدوا نساء الأرض الخضراء الجديدة، جميلات، لم يفكروا في قضاء الوطر منهن باعتبارهنَّ سبايا أو غنائم حرب، بل تزوَّجوا منهن.. فأنجبوا جيلًا جديدًا، إسبانيَّ الأمومة، عربيَّ النسب، إسلامي الديانة.

وكان «عبد العزيز بن موسى بن نصير» هو أول مَنْ تزوج هناك. فقد اقترن بالملكة «إيجلونا» أرملة الملك رودريك، وشجَّع المسلمين على الزواج من الأندلسيات، فتشجَّعوا. ولو كان الدين الإسلامي يسمح للنساء المسلمات بالزواج من غير المسلمين،

لكان معدَّل التزاوج الذي تم في الأندلس، قد صار أعلى. وقد أشار كثيرٌ من المؤرخين إلى هذا التشجيع والإقبال الكبير لزواج الرجال المسلمين بالنساء الأندلسيات، المسيحيات، عقب الفتح وطيلة «زمان الوصل بالأندلس».

ومن بعد فتح الأندلس بأربعين سنة، أو نحو ذلك، كانت الحياة هناك قد صارت أفضل للجميع. يهودًا ومسيحيين ومسلمين. فجيش الإسلام يحمي البلاد ويحصل على الضريبة (الجزية) في مقابل ذلك، والجيل الجديد من المولَّدين (أبناء المسلمين والمسيحيات) ينتشر في المدن والنواحي، ويمارس الأنشطة العامة بلا حساسية دينية، واليهود الذين كانوا مقموعين صاروا آمنين في ظل الحكم الإسلامي الذي لا يرى فرقًا بين المسيحيين واليهود، وينظر إليهما معًا على اعتبار أنهما «أهل ذمة».. وازدهر النشاط التجاري والزراعي كثمرة للاستقرار، بعد عقود من تطاحن أمراء القوط وفتكهم ببعضهم، وبعموم الناس. وكاد الأمر يستقيم، فيصنع مع الوقت زمنًا أندلسيًّا بديعًا (أجمل مما نعرفه) لولا جاء الأميرُ الفاتكُ السفَّاحُ المسمَّى «عبد الرحمن الداخل» الملقَّب بصقر قريش.

السفَّاح الثاني

يرى كثيرٌ من المؤرِّخين أن «الدولة الأموية» التي فتحتْ الأرض شرقًا وغربًا باسم الإسلام، قد سقطت في أوج قوتها (فجأة) سنة ١٣٢ هجرية. بعد عقود من الزمان، حافلة، امتدت بهذه الدولة من بعد قيامها على يد معاوية بن أبي سفيان، السلطويِّ الماهر الماكر (صاحب مقولة: لو كان بيني وبين الناس شعرةٌ، ما قطعتها) وتحويلها للحكم إلى «مُلْكٍ عَضُوض» يتوارثه بنو أمية دون غيرهم، ثم انهيارها في السنة المذكورة واستيلاء العباسيين على ممتلكاتها.. وقد يرى كثيرٌ من المعاصرين، أيضًا، أن دولة الرئيس السابق «مبارك» قد سقطت مؤخرًا (فجأة) في أوج قوتها واستقرارها واستعدادها لتوريث الحكم، ليكون مُلكًا عضوضًا ضمن إطارٍ سياسيٍّ لا هو بالملكي ولا بالجمهوري.

وفي واقع الأمر، فإن شواهد التاريخ والزمن المعاصر لا تعرف هذا الحدوث (المفاجئ) للوقائع، لأن الأحداث مهما صغرت أو كبرت، فلا بد من اجتماع عدة عناصر لوقوعها. وكلما كان الحدث أكبر، كانت مسبباته ودواعي وقوعه أكثر. غير أن كثيرًا من الناس ينظرون للوقائع على نحوٍ (قَدَرِيٍّ) يرتضي بالاندهاش وتقليب الأَكُفِّ وترديد عبارات من مثل: سبحان من له الدوام، ما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع، الدنيا فانية.. إلى آخر هذه الأقاويل التي تُعفي الأذهان من الغوص وراء أسباب وقوع الحوادث الكبرى.

وبالطبع، فلن نخوض هنا في بحث الانهيار (المفاجئ) لدولة الرئيس مبارك، لبيان أنه لم يكن مفاجئًا ولا قَدَرِيًّا. فهذا أمرٌ يخرج عن نطاق كلامنا هنا، وقد نعود إليه في مناسبة أخرى. أما الآن، فإن الأهمَّ هو بيان الأسباب التي اجتمعت، فأسقطت الدولة الأموية في دمشق (عاصمة الخلافة) ثم انبعاث فرع منها، مرةً أخرى، في الأندلس. وفي ذلك نقول:

نعرف أن معاوية بن أبي سفيان (بن حرب بن أمية) كان قد أَسَّس دولة بني أمية بعدما انتصر على الإمام عليِّ بن أبي طالب، بالخديعة الشهيرة «رفع المصاحف فوق أَسِنَّة الرماح» ثم كان ما كان من (التحكيم) الذي راوغ فيه عمرو بن العاص، لصالح معاوية، فانتهت مقاليد الحكم الإسلامي إلى معاوية الذي أورث الحكم ابنه «يزيد» ومن بعدهما صارت الخلافة متداولة بين «بني أمية» دون غيرهم.

ونعرف أن دولة الأمويين شهدت خلال عقود حُكمها أفعالًا لا يرضى عنها عموم المسلمين، منها التنكيلُ بآل بيت النبوة وقتل كثيرين منهم كالإمام الحسين الذي قتلوه في كربلاء سنة ٦١ هجرية، والاستخفافُ بحرمة مكة والمدينة، ومعاقبة الساكنين هناك على عدم طاعتهم للأمويين بإرسال جيشٍ عاث فسادًا في المدينة المنورة (يثرب) واستباح الحرم النبوي، وبعدها قصف الكعبة وبيوت مكة بقذائف المنجنيق (الأحجار المشتعلة) وجرت أمور لا يمكن وصفها بأقل من الفساد والفسوق والعصيان.

ونعرف مما قاله ابن خلدون، من بعد، أن الانغماس السلطوي في التَّرف والملذَّات والفساد المستهتر برأي الناس المحكومين، هو مقدمة لإسقاط الحاكمين وتفكك

دولتهم. وقد شهد الزمن الأموي كثيرًا من هذه المقدمات المنذرة بالسقوط، عبر كثير من ألوان الترف والفسق والفساد، اصطبغ بها كثيرٌ من الخلفاء الأمويين والأمراء الذين ارتبطوا معهم برابطة القرابة. وحتى الاستثناء الوحيد (عمر بن عبد العزيز) لم يكن إلا استثناءً عابرًا، سرعان ما اتخذ الأمويون التدابير المؤدية إلى إزاحته عن الحكم، وعن الحياة كلها، ليعودوا من بعده سيرتهم الأولى التي يستقبحها عموم المسلمين.

ونعرف أن آل بيت النبوة وأقارب النبي ﷺ خصوصًا أبناء عمه «العباس بن عبد المطلب» كانوا قد هربوا من الجزيرة والشام والعراق، إلى النواحي الشرقية (الفارسية) فاجتمع حولهم مشايعو الإمام عليٍّ، الذين سيُعرفون لاحقًا باسم «الشيعة». وهناك، صار منهم أئمة يلتفُّ الناسُ حولهم ويلتفُّ الأمويون عليهم لقطع شأفتهم. تارةً بأن يدسُّوا عليهم مَنْ يدسُّ لهم السُّمَّ، مثلما حدث مع «أبي هاشم» الذي مات مسمومًا، بتحريض مباشر من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. وتارةً بحرب مَنْ خرج منهم طالبًا العرش، مثلما حدث مع «إبراهيم الإمام» الذي زجَّ به الخليفة الأموي مروان الحمار (حمار الجزيرة) إلى السجن حتى مات فيه سنة ١٣٢ هجرية. وهي السنة التي دعا فيها أبو مسلم الخراساني للإمام أبي العباس عبد الله بن محمد العلوي الطالبي، الملقَّب بالسفاح، وجمع جيشًا بلغ قوامه عشرين ألفًا غلب به جيش الأمويين البالغ مائةً وعشرين ألفًا. لأن جيش الشيعة العباسيين الانتحاري، كان أكثر إقدامًا وجرأةً وحماسةً من جيش الأمويين، الذي كان يدافع برخاوة عن دولة الترف والتفسُّخ والفساد.

وانتزع العباسيون الخلافة من الأمويين، ودخلوا عاصمتهم «دمشق» ثم جعلوا لأنفسهم لاحقًا، عاصمةً أخرى هي بغداد. والعجيب أن العباسيين الذين يُفترض فيهم التُّقى والصلاح (على الأقل من حيث انتسابهم لبيت النبوة) مارسوا عنفًا أفظع بكثير من ذاك العنف الذي اقترفه الأمويون، وتراكمت آثاره في النفوس حتى سقطت دولة بني أمية. فقد سار الخلفاء العباسيون الأوائل على النهج الذي رأوه مناسبًا لاحتفاظهم بالعرش، فكان أول هؤلاء الخلفاء «أبو العباس السفاح» جديرًا بالفعل

بلقب السفاح. فقد سفح دماء الأمويين الذين وقعوا في يده، وراح يفتش عن أقاربهم في كل مكان والسيف في يده جاهزٌ للذبح، فقضى على معظم المتسبين للبيت الأموي بمن فيهم الأطفال والنساء، بلغ به الإمعانُ في القتل والخسيس والوحشية، أنه أعطى أمانًا للأمويين فظهروا، فذبحهم وألقى بجثثهم إلى الكلاب! وأخرج رفات الخلفاء الأمويين السابقين من المقابر ومزَّقها وشنَّع بها.. لكنَّ شابًا من بني أمية، استطاع أن يفرَّ إلى بلاد المغرب والأندلس.

وقبل الحديث عن الشاب الأموي الذي فرَّ من (السفاح العباسي) ليصير بدوره سفاحًا أمويًا في الأندلس، لا بد أولًا من الإشارة إلى أن البطل الذي قاد جيش العباسيين ودخل بهم إلى دمشق «أبو مسلم الخراساني» كان جزاؤه القتل على يد العباسيين أنفسهم، فقد قتله الخليفة أبو جعفر المنصور (أخو أبي العباس السفاح، ووريثه) سنة ١٣٧ هجرية. تمامًا، مثلما كان مصير الأبطال الفاتحين للأندلس على يد الأمويين: التجريد والتشريد لموسى بن نصير، الحجب والإخفاء التام لطارق بن زياد، الاغتيال وحَزُّ الرأس لعبد العزيز بن موسى بن نصير! وقد أشرنا سابقًا إلى الطبيعة السلطوية التي تدعو الحكام والخلفاء والرؤساء إلى إطفاء (النجوم) التي تلمع في دولتهم، خشية المزاحمة على العرش.. فما سِرُّك أيها العرشْ،

أتُراك عندهم أبقى من أي فرشْ،
أو أنت أطهرْ؟
أم هي المخايلة، ومُخاتلةُ المظهرْ ؟
وما ذاك الكرسيُّ الذي، من حوله الدماءُ تُرشّ؟
أهو ذهبيٌّ حقًّا،
أم تراه طلاءٌ فوق قَشّ؟
إنَّ «كرسيًّا» و «سكيرًا»
يُرسمان بالحروف نفسها،
مع اختلاف الترتيب عند النقش

وما الذي يبقى من بعد صاحبه،
العملُ العادل والقول الفاضل،
أم السفكُ والسوطُ والصوتُ الأجشّ؟

في سنة ١٣٨ سنة هجرية دخل الأندلسَ «عبد الرحمن الداخل» الأمير الأموي الملقَّب بصقر قريش، وهو الذي سوف يستحق عندي لقبًا أكثر انطباقًا عليه، هو السفاح الثاني، قياسًا على (السفاح) العباسي الأول أبي العباس.

كان (الداخل) قد تجرَّع في السنوات السابقة على دخوله الأندلس، مراراتٍ طافحةً، ما لبث أن جرَّع مثلها للناس. فقد فرَّ وهو في العشرين من عمره، من بلدته التي فتش فيها العباسيون السفَّاكون عن أي «أُموي» فلجأ مع أخيه الأصغر إلى بلدة على نهر الفرات، فدهمهم العباسيون، فألقى الأخوان نفسيهما في ماء النهر، وسبحا على أمل الوصول إلى الشاطئ المقابل، بينما العباسيون يدعونهما إلى العودة والعفو والنجاة. وانخدع الأخُ الأصغرُ وأشفق على نفسه من عبور النهر، فعاد إلى الذين وعدوه بالحسنى فلم يجد منهم إلا الذبح وحزَّ الرأس، بينما أخوه «عبد الرحمن» يرى الفتك به، من وسط النهر الهادر به.

وخرج «عبد الرحمن» بعد نجاته من الشام والعراق، ورحل من هناك فارًّا، متخفيًا، مملوءًا بالمرارة. فلجأ إلى أخواله (البربر) الساكنين بإفريقية «تونس» فوجد العباسيين هناك يطاردون (فلول) الأمويين ويقتلون مَنْ يمسكونه منهم.. ومجددًّا، نجا عبد الرحمن بعد مغامرات كثيرة، ولاحت له الأندلس مستقَرًّا آمنًا، فأوفد إليها أحد أعوانه ليستميل أقاربه القدامى الذين سكنوا الأندلس من قبل انهيار دولة الأمويين.. ولما وجد منهم قبولًا، عبر إليهم وجمع حوله الرجال، وأسال بيده الدماء من جديد.. فقد كانت الجماعات العربية في الأندلس تعيش في ظل توابع الزلزال السياسي (انهيار الأمويين وترأس العباسيين) وكانت بينهم منازعات متأججة ولمعان سيوف. فدخل عبد الرحمن الداخل، في قلب هذه المعمعة، وسَلَّ سيفه على كل ما يعترضه.

وقضى عبد الرحمن الداخل السنوات الأربع والثلاثين، الممتدة من دخوله الأندلس سنة ١٣٨ هجرية حتى وفاته سنة ١٧٢ ميلادية، في حروب ونزاعات مسلَّحة وكَرٍّ وفرٍّ وفي مؤامرات وإخماد ثورات وقتالٍ مرير، مع آل بيت النبوة (الفاطميين) ومع أتباع الخلفاء الجدد (العباسيين) ومع كل راغب في الإمارة والحكم من العرب والبربر والمولَّدين والقوط والمسلمين والمسيحيين، فكانت حصيلة معاركه هناك هي عشرات الآلاف من القتلى، ومئات الآلاف من الجرحى، وما لا حصر له من الأيتام.

ولم يتوقف تدفُّق أنهار الدم لإعلاء العرش، بوفاة السفاح الثاني «عبد الرحمن الداخل، صقر قريش» وإنما استمر انفجار الدم، فصار بحارًا، على يد أولاده وأحفاده. فقد قتل حفيدُه «الحكم بن هشام بن عبد الرحمن» في موقعة واحدة، ثلاثمائة ألف مسيحي، وقتل من المسلمين المعارضين له بقرطبة أربعين ألفًا (من بينهم أربعة آلاف من علماء الدين) وقتل من المسلمين المعارضين له بطليطلة، قرابة خمسة آلاف رجل.

ولجأ المهزومون والمهدَّدون بالهزيمة من العرب والمسلمين، خصوصًا الخوارج، إلى الاستعانة بالقوات الأجنبية (أجداد حلف الناتو) فجاءت إلى الأندلس قوات التحالف بين الإمبراطور الشهير «شارلمان» والبابا «هادريان» رأس الكنيسة في أوروبا. فسار إلى الأندلس جيشٌ جرار بقيادة شارلمان آملًا في ضمها إلى مملكته، وفي قطع شأفة المسلمين من هناك. لكن ما كان يتوقعه شارلمان من انضمام «الخوارج» إليه، لم يحدث (مع أنهم كانوا الدَّاعين له) وحدث بدلًا من ذلك ما لم يتوقعه، وهو ثورة «السكسون» عليه، مما اضطره إلى الرجوع بجيشه الجرار. وقد لحق به عند جبال البرنيه بشمال الأندلس جيشُ المسلمين الذين قطعوا مؤخرة جيش شارلمان، وقتلوا الجنود، وسلبوا مغانم كثيرة. وقد فعل المسلمون ذلك، بالتعاون مع جماعاتٍ مسيحيةٍ مسلحةٍ كانت تعرف باسم «البشكنس».

والمؤرخون يستغربون موقف «شارلمان» الذي لم يرجع للانتقام ممن أبادوا مؤخرة جيشه، وقنع بالفاجعة التي حلَّت به فاستمر في سيره شمالًا حتى خرج من الأندلس، فبقيت هذه النواحي الأندلسية نهبًا بين القوى المتعارضة والمتصارعة: العرب، البربر،

المولَّدين، المسيحيين، المسلمين الموالين للعباسيين، المسلمين الموالين للفاطميين، كبار رجال القبائل الطامعين في السلطة.. وتوالت الحروب، فخاض منها «عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك» المعروف بعبد الرحمن الثاني، وقائع عسكرية كثيرة استمر فيها من بعده ابنه «محمد» الذي يقال إنه قتل في موقعة واحدة، فقط، ثلاثمائة ألف إنسان.

وبينما الدولةُ العباسية في المشرق منهمكةٌ في ملاحقة أئمة آل البيت الذين خرجوا عليها ثائرين، والدولةُ الأمويةُ الثانيةُ التي قامت في الأندلس منهمكةٌ في حروب المنشقين والثائرين والطامعين في العرش ومثيري الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين؛ بدت في غمرة المشهد الدموي (ويا للعجب) بدايات البدائع الحضارية للدولتين: العباسية في العراق وعاصمتها بغداد، والأموية في الأندلس وعاصمتها قرطبة.. ويومًا من بعد يوم، هدأت الحروب وجفت أنهار الدم التي سالت وتدفقت، وقامت منارات العلم والفن والفكر في الأندلس، وفي بقية أنحاء العالم الإسلامي.

البدائعُ الأندلسية

كنتُ في زمن التلمذة قد اعتدت التردُّد بانتظامٍ مع أقراني على سينما (الهمبرا) بالإسكندرية، لمشاهدة الأفلام الهوليودية التي كانت هذه السينما تعرض مزيدًا منها كلِ أسبوع، فنهرب بذلك من سطوة الأفلام العربية الطافحة تفاهةً في تلك الأيام، أعني في زمن الانفتاح المصري والانفساح القيمي بعد كامب ديفيد. وقد عرفتُ أيامها، أن عديدًا من دور السينما والملاهي في المدن العربية، كانت تحمل أيضًا اسم «الهمبرا» لكنني لم أدرك أن هذا الاسم هو النطق الأوروبي للكلمة العربية التي سُمِّي بها القصر العربي الشهير بالأندلس «الحمراء».

وفي المرة الأولى التي زرتُ فيها «قصر الحمراء» بإسبانيا المعاصرة، كان معي العَلاَّمة الدكتور محمود علي مكي (أطال الله عمره) الذي قعد عند البوابة الخارجية وقال لي إنه سينتظرني هناك، لأنه زار القصر عشرات المرات ويحفظ أنحاءه شبرًا

شبرًا. استغربت كلامه. لكنني بعد الزيارة التي استغرقت ساعات، عرفتُ كم تكون الجولة مجهدةً، وممتعةً، في هذه المنطقة الفسيحة التي تضم مع القصر (العربي، الإسلامي) آثارًا أخرى ومباني (قوطية، مسيحية) ولكن شتَّان ما بين أناقة الأولى ورصانتها الزخرفية، وضخامة الأخرى وقبح طرازها المعماري.

وقد ظننتُ يومها أن قصر الحمراء «الهمبرا» هو أجمل ما تم بناؤه بأيدي العرب والمسلمين في هذه الأرض الأوروبية، ثم ظهر لي أن هذا القصر البديع الزاخر بالزخارف وبتصميمات هندسة (مضاعفة المنظر) عبر انعكاس المباني على صفحة الماء بالأحواض الساحرة، هو محض واحد من البدائع الأندلسية الكثيرة في ميدان البناء. وأن المباني الأخرى (العربية، الإسلامية) لا تقل عنه رونقًا وبهاءً، سواء هذه الباقية منها إلى اليوم أو تلك التي اندثرت وحدَّثنا عنها المؤرِّخون.

وقد سارت خُطى الحضارة والعمارة والإبداع في الأندلس متوازيةً مع دقات طبول الحرب، ولكن بمعدَّل عكسي، فكلما كانت الممالك تستقر وتهدأ كانت آيات الإبداع تتواتر وتزداد. والدليل على ذلك، ما نراه في «مسجد قرطبة» الذي بدأ بناءه مؤسسُ الدولة الأموية هناك، عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش (السفَّاح الثاني) فجعله على سبعة أبهاء، ثم زاد بهوين آخرين حفيدُه الحكم بن هشام الذي قتل ما لا حصر له من مسيحيين ومسلمين، ثم زاد عبد الرحمن بن الحكم (الذي بنى جامعَ وسورِ إشبيليَّة) بهوين آخرين، ثم زاد المنصورُ بنُ أبي عامر ثمانيَة أبهاء.. فصار مسجدُ قرطبة مع هذه الاتساعات، آيةً من آياتِ الفنِّ الإسلاميِّ الخالدة.

ولم تقتصر عمائرُ الإسلام في الأندلس على المساجد البديعة، التي لا تزال آثارُها الباقية تشهد بجلالِ القرونِ الخالية؛ وإنما ملأ المسلمون أرجاءَ الأندلسِ ببدائع العمائر من القصور والقناطر وأسوارِ المدن والنافورات. كما بنوا مدنًا كاملة (٤٤ مدينةً) لا يزال بعضُها قائمًا إلى اليوم وبعضُها الآخر قد اندثر، فكان مما اندثر من مدن الإسلام هناك مدينةُ «الزهراء» التي بناها «الناصرُ عبدُ الرحمنِ بن محمد» في اثنتي عَشْرةَ سنةً، بألف بَـنَّاءٍ (مهندس) في اليوم مع كلِّ بَنَّاءٍ اثنا عشر عاملًا، وساق إليها أنهارًا ونقب لها

الجبل.. يقول المؤرِّخ شمس الدين الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء) عن مدينة الناصر البائدة هذه: «كانت مُدوَّرَةً، وعِدَّة أبراجِها ثلاثمائة برج، وشرفاتها من حجرٍ واحد. وقسَّمها أثلاثًا، فالثُّلُث المسند إلى الجبل قصوره (محلّ سكناه) والثُّلُث الثاني دُور المماليك والخدم وكانوا اثنى عَشرَ ألفًا بمناطق الذهب يركبون لركوبه (يخرجون في موكبه) والثُّلُث الثالث بساتينُ تحت القصور. وعمل مجلسًا مُشرِفًا على البساتين، صَفَّحَ عُمُده بالذهب ورصَّعَه بالياقوت والزمرد واللؤلؤ، وفَرَشه بمنقوشِ الرخام، ووضع قُدَّامه بحيرةً مستديرة ملأها زئبقًا، فكان النور ينعكس منها إلى المجلس».. وهو تطبيق آخر لتقنية المضاعفة الهندسية للمكان، بانعكاس صورته على أحواض الماء أو الزئبق.

وفيما يخصُّ العلومَ والمعارفَ، اعتنى المسلمون في الأندلس بالعلماء حتى برع منهم كثيرون في كلِّ المجالاتِ المعرفيَّة، وأسَّسوا المدارسَ وأوقفوا عليها الأوقافَ. ومن ثَمَّ، امتلأت الأندلس بالمخطوطاتِ العربيَّةِ من كلِّ فنٍّ، ومن كلِّ علمٍ وأدب، حتى إنَّ مكتباتِ قرطبة وحدَها بلغت السبعين مكتبةً، عدا خزائن الكتب الخاصة ومكتبات المساجد.

ومن هنا، لا يمكن التأريخُ لجوانب الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة في الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى العاشرِ الهجري، دون الوقوف عند إسهامات الأندلسيين في هذه الجوانب كافةً. ففي تاريخ الفلسفة الإسلاميَّةِ، تقابلنا في الأندلس أسماءٌ شوامخُ مثل ابنِ باجة، ابنِ طفيل، ابنِ رشد. وفي تاريخ العلم العربيِّ، لا بد من التلبُّثِ طويلًا عند علماءَ أندلسيِّين من أمثال: ابن زُهر، ابن البيطار، موسى بن ميمون. وضمن تاريخ التصوف الإسلامي، تلمع في سماء الأندلس أسماءُ صوفيةٍ عاشوا بنواحي الأندلس أو وفدوا منها، منهم: ابنِ قَسِّي، ابن سبعين، ابن عربي.

ونظرًا لضخامة هذا التراث الأندلسيِّ، تزخر المكتبةُ العربيَّةُ بموسوعاتٍ تؤرِّخ لعلماءِ الأندلس (والمغرب) وفقًا لأزمنتهم أو نوع مشاركتهم في صياغة العقلية العربيَّة الإسلامية على مَرِّ القرون. منها الكتب التاريخية (المطوَّلة) التالية: قُضَاةُ قُرْطُبَةَ وعَلَمَاءُ إفرِيقيَّةَ، للقيروانيِّ (أبي عبد الله، محمد بن حارث بن أسد الخشنيِّ، المتوفَّى ٣٦١ هجريَّة) تاريخُ العلماءِ والرواةِ للعلم بالأندلس، لابن الفرضي (أبي الوليد،

عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي، المتوفَّى ٤٠٣ هجريَّة) جَذْوَةُ المقْتَبِس في ذِكْرِ وُلاةِ الأَنْدَلُسِ، للحميدي (أبي عبد الله، محمد بن فتوح بن عبد الله المتوفَّى ٤٨٨ هجريَّة) المغرِبُ في أَخْبَارِ المغرِبِ، لعبدِ الملك بن سعيد، (المتوفَّى ٥٦٢ هجريَّة) كتابُ الصِّلةِ، لابنِ بشكوال (أبي القاسم، خلف بن عبد الملك بن مسعود، المتوفَّى ٥٧٨ هجريَّة) بُغْيَةُ الملْتَمِسِ في تَاريخِ رِجَالِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ، للضَّبِّي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، المتوفَّى ٥٩٩ هجريَّة) التَّكْمِلَةُ لِكتَابِ الصِّلَةِ، لابن الأبَّار (أبي عبد الله، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، المتوفَّى ٦٥٨ هجريَّة) نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ وذِكْرُ وَزِيرِهَا لِسَانِ الدِّين بنِ الخطيبِ، للمقَّري (أحمد بن محمد التلمساني، المتوفَّى ١٠٤١ هجريَّة).. ولم تقتصر الإسهاماتُ العلميَّة الأندلسيَّة، على السجل الحافلِ لعلمائهم المذكورين في المصادر السابقة، ذلك أنَّ علماءَ أندلسيين في الفروع كافةً، انتقلوا من الأندلسِ إلى مصر والشامِ، وصاروا يُحسبون على علماء المشرق لا المغرب والأندلس، ومن ثَمَّ فقد خلت هذه المصادرُ الأندلسيَّة من تراجمهم.

ومع امتداد العطاءِ العلميِّ الأندلسيِّ قرونًا طوالًا، ومع الموقع الجغرافي الخاص (الواصل، الفاصل) للأندلس؛ كانت للأفق الأندلسي تجليات مزدوجة، سطعت خلالها الأنوارُ الحضاريَّة في سماء الحضارتين العربيَّة الإسلاميَّة والأوروبيَّة، على السواء.. ولا يمكن الحديث بإسهابٍ عن الأثر الأندلسيِّ المزدوج، فهو من الاتساع والتعدُّد بحيث لايمكننا إلاَّ الإلماح إليه بهذه الإلماحات الموجزة، ولنبدأ بالأثر الأندلسي في الثقافة والحضارة العربيَّة الإسلاميَّة:

ذكرنا قبل قليلٍ، أنَّ علماءَ أندلسيين وفدوا من الأندلس إلى قلب العالم الإسلامي وصار لهم أعمقُ الأثر، فكان منهم على سبيل المثال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، المتوفَّى ٦٣٨ هجريَّة (١٢٤٠ ميلاديَّة) الذي استكمل تعليمه وبدأ حياته الروحيَّة بالأندلس والتقى هناك بابن رشد، ثم تجلَّت أعماله الصوفية في مصر والشام والحجاز. وهي الأعمال التي جعلت منه بحقٍّ: شيخ الصوفية الأكبر، وأكبر مؤلِّف صوفيٍّ في تاريخ الإسلام، وأشهر صوفيَّةِ الإسلام على الإطلاق.

وعلى منوال ابن عربي، جاء من الأندلس الفيلسوف الصوفي العظيم، محمد بن عبد الحقِّ الملقَّبُ بابن سبعين، المتوفَّى ٦٦٩ هجريَّة (١٢٧٠ ميلادية) وهو صاحب المعالجة الفلسفيَّة العميقة لقضايا الفكر الصوفي ذي النـزعة الإنسانية عاليةِ المستوى، وصاحب الرسالة البديعة المعروفة بعنوان «الكلامُ على المسائل الصِّقليَّة» وهي التي أجاب فيها عن الأسئلة الفلسفيَّة التي أرسلها فريدريك الثاني إمبراطور صِقليَّة لعلماء المسلمين في المشرق والمغرب، وسخر فيها ابنُ سبعين من الإمبراطور وأسئلته الفلسفية التقليدية، البائسة قبل أن يردَّ عليها. ولو كان المقام يسمح هنا، لذكرتُ القصة الطريفة لهذه المسائل (الأسئلة) والأسلوب البديع الذي رَدَّ به ابن سبعين عليها.

وعلى المنوال السابق، وفَد من المغرب والأندلس إلى مصر، مؤسِّسو الطريقة الشاذليَّة: الشيخ أبو الحسن الشاذلي، الذي انتسب إلى «شاذُلة» مع أنه ليس منها! وأبو العباس المرسيُّ (نسبةً إلى مُرْسِيَةَ الأندلسيَّةِ) فصارت طريقتُهم بعد سنواتٍ، واحدةً من أوسع الطرق الصوفيَّة انتشارًا بمصر والعالم الإسلامي.. ولا يزال الناسُ في صعيد مصر، إلى اليوم، يعتقدون أن «الولي» الراسخ في العلم، يكون في العادة مغربيًّا..

وفي ميدان الفلسفة والطبِّ، يحتل موسى بنُ ميمون مكانةً خاصة. وكان قد وفد إلى مصر من الأندلس، وترقَّى في المكانة العلميَّة والمهارة الطبيَّة حتى صار طبيبًا خاصًّا لصلاحِ الدين الأيوبيِّ وهو الذي ترك المؤلفات الشهيرة في الطب، وفي الفلسفة الدينية (اليهودية) حتى صار اليهود يلقبونه: موسى الثاني.. وابنُ البيطارِ المالقيُّ الذي يُعَدُّ أشهر عَشَّابٍ (صيدلاني) في تاريخ الإسلام، وكان قد وفد هو الآخر من الأندلس إلى مصر والشام، وأقام هناك زمنًا تعدَّدت فيه إسهاماتُه العلمِّية في مجال الصيدلة، مثل كتابه الأشهر «المغني في الأدوية المفردة» الذي ظل المرجعَ الصيدلانيَّ الأولَ لزمنٍ طويل، وتُرجم إلى اللغات الأوروبيَّة منذ زمنٍ مبكِّر.

ومن علماءِ الأندلس، مَنْ وصلت أعمالُهم إلى أرجاءِ العالم الإسلامي وهم مُكُوثٌ في الأندلس، فأثرَّت أعمالُهم في مسار العلم أثرًا كبيرًا. منهم الجراح الأشهر: أبو القاسمِ الزهراويُّ الذي يُعَدُّ كتابُه «التصريفُ لمن عجز عن التأليف» أهمَّ مصدرٍ

عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي، المتوفَّى ٤٠٣ هجريَّة) جَذْوَةُ المقْتَبِس في ذِكْرِ وُلاَةِ الأَنْدَلُسِ. للحميدي (أبي عبد الله، محمد بن فتوح بن عبد الله المتوفَّى ٤٨٨ هجريَّة) المغربُ في أَخْبَارِ المغرِبِ، لعبدِ الملك بن سعيد، (المتوفَّى ٥٦٢ هجريَّة) كتابُ الصِّلةِ، لابنِ بشكوال (أبي القاسم، خلف بن عبد الملك بن مسعود، المتوفَّى ٥٧٨ هجريَّة) بُغْيَةُ الملْتَمِسِ في تَاريخِ رِجَالِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ، للضَّبِّي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، المتوفَّى ٥٩٩ هجريَّة) التَّكْمِلَةُ لِكتَابِ الصِّلَةِ، لابن الأبَّار (أبي عبد الله، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، المتوفَّى ٦٥٨ هجريَّة) نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ وذِكْرُ وَزِيرِهَا لِسَانِ الدِّين بنِ الخطيبِ، للمقَّري (أحمد بن محمد التلمساني، المتوفَّى ١٠٤١ هجريَّة).. ولم تقتصر الإسهاماتُ العلميَّة الأندلسيَّة، على السجل الحافلِ لعلمائهم المذكورين في المصادر السابقة، ذلك أنَّ علماءَ أندلسيين في الفروع كافةً، انتقلوا من الأندلسِ إلى مصر والشامِ، وصاروا يُحسبون على علماء المشرق لا المغرب والأندلس، ومن ثَمَّ فقد خلت هذه المصادرُ الأندلسيَّة من تراجمهم.

ومع امتداد العطاءِ العلميِّ الأندلسيِّ قرونًا طوالًا، ومع الموقع الجغرافي الخاص (الواصل، الفاصل) للأندلس؛ كانت للأفق الأندلسي تجليات مزدوجة، سطعت خلالها الأنوارُ الحضاريَّة في سماء الحضارتين العربيَّة الإسلاميَّة والأوروبيَّة، على السواء.. ولا يمكن الحديث بإسهابٍ عن الأثر الأندلسيِّ المزودج، فهو من الاتساع والتعدُّد بحيث لايمكننا إلاَّ الإلماح إليه بهذه الإلماحات الموجزة، ولنبدأ بالأثر الأندلسي في الثقافة والحضارة العربيَّة الإسلاميَّة:

ذكرنا قبل قليلٍ، أنَّ علماءَ أندلسيين وفدوا من الأندلس إلى قلب العالم الإسلامي وصار لهم أعمقُ الأثر، فكان منهم على سبيل المثال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، المتوفَّى ٦٣٨ هجريَّة (١٢٤٠ ميلاديَّة) الذي استكمل تعليمه وبدأ حياته الروحيَّة بالأندلس والتقى هناك بابن رشد، ثم تجلَّت أعماله الصوفية في مصر والشام والحجاز. وهي الأعمال التي جعلت منه بحقٍّ: شيخ الصوفية الأكبر، وأكبر مؤلِّف صوفيٍّ في تاريخ الإسلام، وأشهر صوفيَّةِ الإسلام على الإطلاق.

وعلى منوال ابن عربي، جاء من الأندلس الفيلسوف الصوفي العظيم، محمد بن عبد الحقِّ الملقَّبُ بابن سبعين، المتوفَّى ٦٦٩ هجريَّة (١٢٧٠ ميلادية) وهو صاحب المعالجة الفلسفيَّة العميقة لقضايا الفكر الصوفي ذي النـزعة الإنسانية عاليةِ المستوى، وصاحب الرسالة البديعة المعروفة بعنوان «الكلامُ على المسائل الصِّقليَّة» وهي التي أجاب فيها عن الأسئلة الفلسفيَّة التي أرسلها فريدريك الثاني إمبراطور صِقليَّة لعلماء المسلمين في المشرق والمغرب، وسخر فيها ابنُ سبعين من الإمبراطور وأسئلته الفلسفية التقليدية، البائسة قبل أن يردَّ عليها. ولو كان المقام يسمح هنا، لذكرتُ القصة الطريفة لهذه المسائل (الأسئلة) والأسلوب البديع الذي رَدَّ به ابن سبعين عليها.

وعلى المنوال السابق، وفَد من المغرب والأندلس إلى مصر، مؤسِّسو الطريقة الشاذليَّة: الشيخ أبو الحسن الشاذلي، الذي انتسب إلى «شاذُلة» مع أنه ليس منها! وأبو العباس المرسيُّ (نسبةً إلى مُرْسِيَةَ الأندلسيَّةِ) فصارت طريقتُهم بعد سنواتٍ، واحدةً من أوسع الطرق الصوفيَّة انتشارًا بمصر والعالم الإسلامي.. ولا يزال الناسُ في صعيد مصر، إلى اليوم، يعتقدون أن «الولي» الراسخ في العلم، يكون في العادة مغربيًّا..

وفي ميدان الفلسفة والطبِّ، يحتل موسى بنُ ميمون مكانةً خاصة. وكان قد وفد إلى مصر من الأندلس، وترقَّى في المكانة العلميَّة والمهارة الطبيَّة حتى صار طبيبًا خاصًّا لصلاحِ الدين الأيوبيِّ وهو الذي ترك المؤلفات الشهيرة في الطب، وفي الفلسفة الدينية (اليهودية) حتى صار اليهود يلقبونه: موسى الثاني.. وابنُ البيطارِ المالقيُّ الذي يُعَدُّ أشهر عَشَّابٍ (صيدلاني) في تاريخ الإسلام، وكان قد وفد هو الآخر من الأندلس إلى مصر والشام، وأقام هناك زمنًا تعدَّدت فيه إسهاماتُه العلمَّية في مجال الصيدلة، مثل كتابه الأشهر «المغني في الأدوية المفردة» الذي ظل المرجعَ الصيدلانيَّ الأولَ لزمنٍ طويل، وتُرجم إلى اللغات الأوروبيَّة منذ زمنٍ مبكِّر.

ومن علماءِ الأندلس، مَنْ وصلت أعمالُهم إلى أرجاءِ العالم الإسلامي وهم مُكُوثٌ في الأندلس، فأثرَّت أعمالُهم في مسار العلم أثرًا كبيرًا. منهم الجراح الأشهر: أبو القاسمِ الزهراويُّ الذي يُعَدُّ كتابُه «التصريفُ لمن عجز عن التأليف» أهمَّ مصدرٍ

جراحيٍّ في القرون الممتدة من الأول حتى السابع الهجريِّ (القرن السابع إلى الثالث عشر الميلادي).. ومنهم المؤرِّخ الشهير ابنُ جُلْجُل صاحبُ كتاب «طبقات الأطبَّاء» الذي يُعَدُّ أهم المصادر التاريخيَّة لترجمات نوابغ الأندلس في الطبِّ والصيدلة.. ومنهم الفقيه الشهير، صاحبُ المذهب (الظاهريِّ) في الفقه «ابنُ حَزْم» الذي كتب في الفقه وعلوم الدين كُتبًا كثيرة، وكتب في الحب: طوق الحمامة في الأُلْفة والأُلَّاف.

وبالإضافة إلى إسهامات العلماء، كان للأفقِ الأندلسيِّ تجليَّاتٌ في سماء الأدب العربيِّ الذي حفل بنوعٍ أدبيٍّ خاصٍ، هو إبداعٌ أندلسيٌّ خالصٌ «الموشَّحات». كما ابتكر شعراءُ الأندلسِ بحورًا عروضيَّةً، غيرَ تلك البحورِ الستةَ عَشَرَ المعروفةِ في الشعرِ العربيِّ، منها بحر (السلسلة) الذي أبدع الأندلسيُّون على قاعدته أشعارًا وموشَّحاتٍ كثيرة.. وفي الشعر العربيِّ التقليديِّ، هناك إبداعاتٌ أندلسيَّة لا يمكن لدارسِ الأدبِ العربيِّ أن يمرَّ عليها مرورَ الكرام. إذ لا بدَّ لمن يدرس الأدبَ العربيَّ، من الوقوف طويلًا أمام ابن زيدون (صاحب القصيدة النونيَّة) وابن عبدون الإشبيليِّ (صاحب قصيدة: الدهر يفجع بعد العين بالأثر) وابن فرح الإشبيلي (صاحب القصيدة الشهيرة في أصول الحديث).

وبالطبع، فما هذه إلا إلماحاتٌ إلى النقوش الأندلسيَّة، في نسيج الحضارة العربيَّةِ الإسلاميَّةِ. وعلاوة على ذلك، تأتي مع الآثار الأندلسيَّة الإسهاماتُ المهمة في تطوير الحضارةِ الأوروبيَّةِ. وهذه بعضُ الإلماحاتِ إلى تلك الإسهامات:

كانت الأندلسُ واحدةً من أهمِّ (المعابر) التي انتقل منها العلم العربيُّ الإسلاميُّ إلى أوروبا في فجر النهضة الحديثة «الرينسانس». ففي مدن الأندلس وعلى يدِ جماعةٍ من التراجمةِ، اليهود خصوصًا، تمت ترجمةُ المتونِ العربيَّةِ إلى اللغة اللاتينيَّةِ لتكونَ في مطلع الرينسانس؛ أهمَّ المراجِع العلميَّةِ في الجامعات الأوروبيَّة.. وعلى ذِكْر التراجمة اليهود، تجدر الإشارة إلى أن المسلمين في الأندلس، كانوا قد خلَّصوا اليهود من العنت الذي تعرضوا له على يد القوط، بل واستعان بهم المسلمون في إدارة المدن الكبرى، حتى

صار بعض اليهود مثل «حسداي بن شبروط»، وزيرًا. ونبغ من يهود الأندلس كثيرون من أمثال: يوسف بن حسداي، ابن جبيرول، موسى بن ميمون (صاحب: دلالة الحائرين).

ومثلما قام اليهود الأندلسيون بترجمة التراث العربي إلى اللغة اللاتينية، واشتهر منهم جماعة مترجمين مثل يوسف قمحي وإبراهام بن حسداي ويهوذا الحريري، قام المسيحيون، بترجمة عددٍ وافر من النصوص العربيَّة التي ما لبثت أن انسربت إلى اللغات الأوروبيَّة المختلفة.

ومن الأندلس إلى أوروبا، عبرت مؤلفات أرسطو محمولةً على أجنحة ابن رشد، وبحسب شروحاته على كتب أرسطو، التي كان الأصل اليوناني لها قد فُقد منذ زمن طويل ولم تعد بأيدي الناس إلا الترجمةُ العربيَّة لها. وقد أثَّر ابن رشد أثرًا بارزًا في الفكر الأوروبي من خلال تلاميذه اللاتين الذين تبنَّوْا أفكاره ونشروها، واضطُهِدوا بسببها، من أوروبا كلها.. ومن العجيب، أن الفيلسوف العربي ابن رشد المتوفَّى ٥٩٥ هجريَّة (١١٩٩ ميلاديَّة) قد أثَّرت أعماله في أوروبا، بأكثر مما أثَّرت في الثقافة العربيَّة خلال القرون التالية له.

ولم تؤثِّر الأندلسُ في أوروبا علميًّا وفلسفيًّا فحسب، وإنما تردَّد الصَّدى الأندلسي في سماوات الأدب الأوروبي، مع انتقال الموشَّحات الأندلسيَّة من إسبانيا إلى فرنسا ثم إلى أنحاء أوروبا، مع الشعراء الجوالين الذين عُرفوا باسم «البتروبادور».. كما تردَّد الصَّدى الأدبي مع احتذاء الأوروبيين لقصة حَيِّ بن يقظان التي كتبها بالعربية ابن سينا وابن طفيل والسُّهروردي وابن النفيس، ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبيَّة فظهرت ثانيةً في قصص أوروبية شهيرة مثل «روبنسون كروزو».

وعن طريق الأندلس، عرف الأدب الغربي (ألف ليلة وليلة) التي تُرجمت إلى اللغات الأوروبيَّة عِدَّةَ ترجماتٍ، وأثَّرت عِدَّةَ تأثيرات لا تزال ممتدةً إلى اليوم، مرفرفةً بين جنبات أدب اللغة الإسبانية المعروف اليوم بالواقعية السحريَّة، حيث تتجلَّى (ألف ليلة) في نصوص معاصرة، نراها في أعمال الروائيين الذين يكتبون بالإسبانية والبرتغالية. من أمثال خورخي لويس بورخيس، جابرييل جارثيا ماركيز، أمادو..

وشيئًا فشيئًا، صارت الأندلس معينًا ينهل منه الأوروبيون العلم العربي، مع اهتمام هناك بإنشاء مراكز علميَّة متخصصة منها ما كان في طليطلة (توليدو) حيث أنشأ رايموندو الأول رئيس الأساقفة سنة ١١٣٠ ميلاديَّة (٥٢٤ هجريَّة) قسمًا خاصًا للمترجمين من العربيَّة، فتُرجمت أعمال كبرى مثل مؤلفات أرسطو بشروح الكندي والفارابي وابن سينا، ومؤلفات أبقراط وأقليدس وبطليموس وجالينوس بشروحها العربيَّة التي لا تكاد تقع تحت الحصر.

وبعد حينٍ من الدهر، آذنت شمس الأندلس بالمغيب؛ فبدأ (الغروب) الأندلسي مع عصر ملوك الطوائف الذين حكموا بقاع الدولة الإسلامية هناك، واقتتلوا فيما بينهم طمعًا في وراثة الدولة الأمويَّة المتشظية. وقد شجر نزاعهم والشجار في أول الأمر، حتى كاد يُذهبُ بريحهم وريحِ المسلمين في الأندلس، لولا أنْ عبر إليهم سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين من ساحل المغرب سنة ٤٧٩ هجريَّة (١٠٨٦ ميلاديَّة) وأحيا الوجودَ الإسلاميَّ من جديد، وأقام دولته التي ورثها بعد ضعف المرابطين ملوكُ الموحِّدين الذيـن تغـلَّبوا على المرابطين في عِدَّةِ مواقعَ عسكريَّةٍ بمدن الساحل الإفريقي (من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٦٠ ميلادية) ثم عبروا إلى الأندلس وورثوا دولة الإسلام هناك بعد انتصارهم على ألفونسو الثامن في موقعة الأرك، سنة ٥٩١ هجريَّة (١١٩٥ ميلاديَّة).

وبعدما توالت دولُ الإسلام على حكم بقاع الأندلس، أَفِلَتْ شمسُ العرب المسلمين من هناك، وضعف الـحُكَّام وتفرَّقت بهم السُّبُلُ. وما أن تزوَّجَ الملك فرديناندو الخامس بالملكة إيزابيلا واتحدا ضد المسلمين، حتى أخرجوا العربَ من الأندلس.. وكان خروج الإسلام من هناك، خاتمةَ قرونٍ حافلةٍ بوقائع الزمان، وجدليَّةِ النصر والهزيمة. ففي سنة ١٤٩٢ ميلاديَّة، سقطت «غرناطة» آخر معقل للمسلمين في يد فردنياندو ملك قشتالة، بعدما تخلَّف المماليكُ في مصر والعثمانيون في البلقان والحفصيون في تونس، عن إغاثة غرناطة.. وخرج آخر الحكام المسلمين «أبو عبد الله الصغير» من آخر مدينة مسلمة في الأندلس «غرناطة» سنة ٨٩٧ هجريَّة (١٤٩٢ ميلاديَّة) وعند صخرة مشرفة على أرجاء غرناطة، بكى طويلًا، ثم مضى بعدما تنهَّد تلك التنهيدة الحرَّى التي عُرفت في التاريخ باسم: «زفرة العربي الأخيرة».

الفصل السابع

الإسلاميون والكرسي

يضم هذا الفصل الختامي، القصير نسبيًّا، شذرات ومقالات مفردة لم تنتظم في «سباعية» مستقلة، وإنما نُشرت متفرقةً على نحوٍ كان يناسب وقائع جارية يصعب إغفالها أو التغافل عن دلالتها. وقد تحيَّرتُ حينًا في تصنيف هذا الفصل وتحديد موقعه الأنسب في الكتب الثلاثة، لأن موضوعه يرتبط بها جميعًا ويتصل بالمحاور الثلاثة التي جعلتها عناوين لهذه الكتب: الوهم، التدين، الثورة.. فالإيهام السياسي بالإسلام، والتوسُّل به من أجل الوصول إلى السلطة، مسألة ترتبط بأوهامٍ من نوع «الخلافة الإسلامية» والاعتقاد بصفاء الزمن النبوي الأول من الشوائب! وترتبطُ أيضًا بتوجيه التدين إلى أغراضٍ سلطوية عبر عمليات توجيه لعوام الناس من خلال ما أسميه «تسييس التدين» أو اللعب السياسي بالمشاعر الدينية المسطَّحة. وهي ترتبط أخيرًا، بما ساد مصر والمنطقة العربية مؤخرًا من مناخ ثوري تفاوتت آثاره من بلد لآخر، وتنوَّعت أشكاله، لكنه في عموم النواحي الثائرة أتاح الفرصة أمام المتحدثين باسم الإله في الأرض، للقفز إلى صدارة المشهد السياسي.

والإيهام السياسي بالإسلام فكرةٌ بسيطة طالما استعملها أصحاب الاتجاهات الدينية في تراثنا العربي الإسلامي، وفي تراثنا الأسبق منه زمنًا. ففي كل عصرٍ كان هناك من الرجال الذين استثمروا الدين للدنيا، مع أنهم كانوا ينطلقون من أن الدين لا الدنيا هو المقصد، وبالتالي يجب على الأمور الدنيوية كلها أن تنتظم وفقًا لما يعتقد هؤلاء التجَّار أنه «الدين القويم» وما كان ذلك منهم إلا خدعة جازت على البسطاء من أهل اليهودية والمسيحية والإسلام، بكل ما في هذه الديانات من مذاهب فرعية وجماعات عقائدية.

وبعيدًا عن تلك التصورات النظرية السابقة، نلقي الضوء فيما يلي على جماعتين تلعبان حاليًا دورًا سياسيًّا ملموسًا، انطلاقًا من أساسٍ دينيٍّ إسلامي. وهما بالطبع، الجماعتان الإسلاميتان الأشهر والأكثر أثرًا في واقعنا المعاصر: السلفيون، والإخوان.

مستقبل السلفية في مصر

لو تغيَّرت كلمة واحدة في هذا العنوان الجانبي، لصار مطابقًا لعنوان الكتاب الشهير للدكتور طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» وأعتقدُ أن «عميد الأدب العربي» لو كان اليوم حيًّا، ورأى هذا التغيير في العنوان لأغمي عليه غمًّا وحسرةً، أو تنغَّص يومه. فقد نشر هذا المفكر المصري اللامع قبل عقود من الزمان، كتابه الشهير (مستقبل الثقافة في مصر) معتقدًا أن بلادنا يجب أن تستشرف مستقبلها «الثقافي» وتطرح الرؤى المتعلقة بالتوجُّهات الفكرية العامة التي ترسم مستقبل مصر. ولعل طه حسين، رحمه الله، كان يتخيل أننا بعد عشرات السنين من صدور كتابه، ومن انتهاء حياته التي ملأها مخالفوه بالويلات (التي يُبتلى بها معظم المفكرين والكتاب) سوف ننشغل على الصعيد الجمعي المصري بقضايا من نوع: مستقبل الفلسفة في مصر، مستقبل الفكر والفن في مصر، مستقبل العلم والمعرفة.. إلخ، فإذا بنا اليوم نتحدث على الساحة المصرية العامة، عن مستقبل الجماعات الدينية، ومستقبل الاضطراب السياسي، ومستقبل الإرهاب الديني، ومستقبل الأمن العام في ظل انتشار الشطار والعيَّارين (البلطجية) إلى آخر هذه القضايا التي تشغلنا اليوم جميعًا، وما كانت قضيةٌ واحدةٌ منها تخطر على بال طه حسين وأمثاله من المفكرين الذين استبشروا بمستقبل مصر، ووهبوا حياتهم لأغنيات الغد. وكأنني أستشعر الآن حسرة الدكتور طه حسين وهو في غمرة غيابه وعتمته، فأراه يردِّد في نفسه أغنيةً للأسف، أقولُ فيها بلسان حاله:

أبَعْدَ ما اتَّسع المدى، يصيرُ السيرُ سُدى،
ثم تسكن أقمارُنا بالمحاق؟
ليتني إذ كتبتُ، مزَّقتُ من بعد التدوين أوراقي
أو بدَّدتُ حُلمي، وأخفيت عن العالمين آفاقي
فأتَّقي يومًا ماحيًا لأحلامي
بيدِ كل أفَّاقٍ، وسرَّاقٍ، وفسَّاقِ.
أبَعْدَ ما سارت بنا ستون سنةً في صحوٍ
وفي نَحْوٍ،

تحبو بنا ستون عامًا في وحلٍ
وفي مَحْوٍ،
يطوِّح بنا بين تفريقٍ وتغريقٍ وإحراقٍ؟

استطاعت الجماعاتُ السلفيةُ المصرية أن تجذب إليها الأنظار بقوةٍ مؤخرًا، وأن تطرح نفسها على الساحة العامة باعتبارها نتاجًا للثورة المصرية التي اندلعت أواخر يناير ٢٠١١ بعدما استعلنت هذه الجماعات بعد الثورة على نحوٍ بدا للكثيرين مفاجئًا، مما دعا عديدًا منا إلى طرح تساؤلات ساذجة من مثل: أين كان هؤلاء؟ ولماذا صاروا اليوم بهذه الكثرة المقلِقة؟ وما السرُّ في نزاعهم مع أتباع الطرق الصوفية؟ وما تنازعهم العتيد مع الكنيسة المونوفستية دفاعًا عن تلك المسماة (الأخت كاميليا) وكيف يقيمون مجالسهم في الشوارع استعلانًا لمذهبهم وملبسهم؟ وإلى أي مدى من بعد ذلك سيذهبون؟

وبطبيعة الحال، فإن الجماعات (السلفية) ليست وليدة الثورة. وإن كان كثيرون ممن ينتمون لهذه الجماعات قد شاركوا في الثورة كأفراد مصريين، ثائرين مع بقية أهل مصر على اختلاف أعمارهم ومعتقداتهم وأطيافهم، وقد جمعهم هَمٌّ واحد وهدفٌ وحيد هو الخلاص من الحالة المزرية التي مرت بها البلاد خلال الثلاثين عامًا المباركية، أو الستين عامًا الضباطية الأحرارية.

وبطبيعة الحال، ففي غمرة الانهماك النفعي الذي أعقب فورة الثورة، وادعاء عديد من الأفراد والجماعات بأنهم أصحاب الفضل في الحركة المصرية التي نجحت فصارت (ثورة) ظهر لها أصحابٌ كثيرون، لكنها لو فشلت لسُمِّيت (فتنة) وكان الكثيرون قد تنصَّلوا منها، هربًا مما يلحق المنهزمين من ويل. فلما نجحت بدايات الثورة وتحققت أغراضها في تونس بهروب الرئيس، وفي مصر بتخلِّيه عن الكرسي، نزع السلفيون إلى إظهار حضورهم في الواقع المعاصر، كردِّ فعل للحالة العامة التي سادت البلاد العربية عمومًا، واجتاحت مصر خصوصًا. فقد تتابعت عدة ادعاءات ما أنزل الله بها من سلطان، وتتالت مزاعمُ عريضة تسعى لاستلاب الثورة وتتسارع لقطف ثمارها

(التي لم تظهر بعدُ) وتستبق إلى بيان الاستحقاق بقطف الثمر إن ظهر. ومن هنا، صرنا نرى العجب من الأفراد والجماعات، فهذا الشخص يصف نفسه بأنه «المتنبئ» بالثورة أو هو «المبشِّر» بها والمستشرف لها، بينما ذاك الشخص الآخر لا يتورَّع عن وصف نفسه بمفكر الثورة، أومفجِّر الثورة، أو شاعرها الأول.. ومن الجماعات مدَّعون بأنهم (أساس) الثورة وطليعتها الأولى المبكرة التي أطلقت الشرارة، وزاعمون بأنهم أنقذوا الثورة منذ يومها الأول. وحتى الذين اتخذوا من ثورة المصريين مواقف مخزية ودعوا الناس باسم سلطتهم الروحية (الإسلامية والمسيحية) إلى عدم المشاركة مع الجموع، عادوا بعد ذلك لتأكيد أنهم مع الثورة (المباركة) وكأن شيئًا لم يكن، مُراهنين في تبديل المواقف على ضعف الذاكرة العامة، وعلى أنهم (المبارِكون) لكل منتصر، وعلى أنهم رجال كل العصور. ومن اللافت للنظر في هذا السياق موقف «الإخوان المسلمين» الذين أخذوا يؤكِّدون ليل نهار أنهم ليسوا أصحاب الثورة، وليسوا قادتها، وليسوا الرائدين. ومعروف أن تكرار تأكيد النفي إثباتٌ، وهو ما يتم في الأذهان بشكل غير مباشر على نحوٍ قريبٍ مما قرَّره الشاعر الفاجر، العبقري (أبو نُوَاس) حين قال: دع عنك لومي فإن اللوم إغراءُ، وداوني بالتى كانت هي الداءُ.

ومن هنا، صار على الجماعات السلفية أن ترى في نفسها صاحبة الثورة، أو هي من أصحابها الأساسيين. لا سيما أن أفرادًا كثيرين من السلفيين شاركوا بالفعل في المظاهرات الأولى، وأن الحكومات التي تعاقبت بعد الثورة للقيام بتسيير الأحوال أخذت تكرِّر أخطاء حكومات ما قبل الثورة. ومن فواحش هذه الأخطاء خلط السياسة بالدين، وإقحام (المادة الثانية) من الدستور المصري في المناقشات اليومية، ثم ادِّعاء قدسيتها، وتدليل رموز الدين في المجتمع ضمانًا للتأييد. حيث «كان رجال الدولة» الذين أداروا البلاد في الفترة الانتقالية الحرجة، يهرولون ابتغاءً لإرضاء البطرخانة من ناحية، فيضطرون لاسترضاء القوى الإسلامية من الناحية المقابلة، أملًا في أن يكون الكل راضيًا وسعيدًا. ولا سبيل في واقع الأمر إلى سعادة الكل وإرضائهم، وقد قالوا قديمًا: رضا الناس غايةٌ لا تدرك.

المهم، أن السلفيين الذين كان كثيرون منهم قد عانوا من اضطهاد (أمن الدولة) وكثيرون منهم وجدوا فيما سبق وسيلة للمهادنة، وكثيرون منهم تم بعد الثورة المصرية تكريمهم والاحتفاء بهم إعلاميًّا، وكثيرون منهم في نفوسهم رغبة لتصدُّر المشهد العام في مصر. وبهذا صار المجال أمامهم قد انفسح للاستعلان، فأعلنوا عن وجودهم بطرق من مثل: إثارة الهياج مع المتصوفة بسبب (قبور الأولياء) واستثارة الاهتياج مع الكنيسة بسبب (غادة الكاميليا) وبقية الأخوات اللواتي يُشاع أنهن قد أسلمن.

وبطبيعة الحال، لا يمكن الكلام عن مستقبل (السلفية) في مصر، من دون التعريف بمفهوم «السلفية» من حيث عموم اللغة ومن حيث معناها الذي صار يتردَّد اليوم كثيرًا على ألسنة الناس، ثم الإشارة من بعد ذلك إلى تطور (الفكر) السلفي خلال القرون الماضية، تمهيدًا للنظر في مستقبل هذا الفكر. علمًا بأن كلمة (الفكر) مذمومة عند بعض المتأسلمين الجدد، وهم يجعلون في موضعها كلمة (التفكر) الممدوحة، باعتبار السياقات التي وردت فيها الكلمتان في القرآن الكريم: إنه فكَّر وقدَّر، فقُتل كيف قدَّر، ثم قُتل كيف قدَّر.. ويتفكرون في خلق السماوات والأرض.. أفلا يتفكرون.

ومن حيث المعنى العام للسلفية، فكلنا نحن المصريين سلفيون. فالكلمة تعني في عموم الدلالة، تقدير الماضي واحترامه والقياس على ما يعتقد الناس (الخلف) أنها كانت أخلاق (السَّلَف) أي السابقين عليهم، وما كانوا عليه من أصول. ومن هنا يقول عموم المصريين، مادحين، إن هذا الشخص هو (ابن أصول) ويقولون في معرض الذم بأن هذا الفعل أو ذاك (ليس من الأصول) كأن كلمة «أصلي» مضاد «مزيف».

ويتصل باللغة، هذا النزوع العام للسلفية. فأجود القصائد عندنا هي المعلَّقات القديمة (الجاهلية) وأصول المفردات في كلامنا الفصيح ترتدُّ دومًا إلى جذور تأتي كلها على صيغة الفعل (الماضي) فيرتد العلم والعلماء والمتعلِّمون والمعلِّمون والعلميّ والمعلومات إلى الجذر (عَلِم) ويرتد الكاتب والكتاب والمكتوب والكتابة والكتاتيب والكَتَبَة والكُتُب إلى الجذر (كَتَبَ) فكأن كل ما يشتق من مفردات العلم والكتابة، هي أمور ماضوية سبق أن جرت أيام السلف لا الخلف.. وقِسْ على هذا، بقية المفردات والاشتقاقات.

ويرتبط المعنى الاصطلاحي للسلفية على نحوٍ وثيق، بهذا المعنى العام للكلمة. فالسلفية عند أصحابها هي الطريقة المثلى التي سار عليها (السلف) ابتداءً من عصر النبوة ثم عصر الصحابة والتابعين ثم عصر تابعي التابعين، حتى نهاية القرن الثالث الهجري. وكأنهم في ذلك ينطلقون من معنى الحديث الشريف (خير القرون قرني هذا، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه) وبالأحرى، من مفهومٍ محدد لهذا الحديث النبوي الشريف.

ولا يجب أن يفوتنا هنا، أن غالبية المسيحيين في مصر هم من (الأرثوذكس) سواء كانوا من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، أي أن الله والمسيح (من) طبيعة واحدة، وهؤلاء هم «المونوفيست» الذين صار اسمهم مؤخرًا: الأقباط الأرثوذكس. أو كانوا من أصحاب مذهب خلقيدونية، القائلين بأن الله والمسيح (عن) طبيعة واحدة، وأولئك هم أتباع كنيسة الإسكندرية «الأخرى» الذين صار اسمهم مؤخرًا: الروم الأرثوذكس.. وكلاهما في النهاية «أرثوذكس» وهي الكلمة التي تعني في معناها اللغوي العام (اليوناني) مذهب الإيمان القويم، وفي معناها الاصطلاحى (العربي) مذهب السلفية.

وأصحاب المذاهب السلفية (المسلمون) يرون أن مفهوم السلفية يطابق مفهوم الإسلام، فمن خرج عن اتِّباع السلف فهو خارج عن النطاق الصحيح للدين الإسلامي. وكذلك، فأصحاب المذاهب الأرثوذكسية يرون أن مفهوم الأرثوذكس يطابق مفهوم المسيحية، فمن خرج عن اتِّباع الأرثوذكسية فهو خارج عن النطاق الصحيح للدين المسيحي.. وقد تطور المذهب السلفى (الإسلامي) خلال تاريخ طويل، حتى وصل إلى صورته النهائية الحالية، المتمثلة في الجماعات التي تنتمي إليه اليوم. وقد جاء تطور هذا المذهب بسبب مشكلات عقائدية (كلامية) لا يسمح المقام هنا بشرحها تفصيلًا، نظرًا لكثرة شجونها المعقَّدة. ولذلك فسوف نكتفي ببعض الإشارات إلى «مسيرة» المذهب السلفي عند أعلام الرجال من أمثال الإمام أحمد بن حنبل الذي اختار ما كان عليه السلف من اعتقادات، وخالف بذلك (المعتزلة) الذين كانوا يرون وجوب إعمال العقل في المسائل الدينية، ومع ذلك لم يراعوا أحكام العقل والتعقل في خلافهم مع الإمام ابن حنبل حول مسائل مثل «استواء الرحمن على العرش» حيث كانوا يؤوِّلون

المعنى بحيث يتم نفي (الجسمية) عن الله، أما ابن حنبل فقد كان يقول بقول الإمام مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وحول مسألة «كلام الله» أي القرآن الكريم، وهل هو حادث (جديد) أم قديم (أزليّ).. قال المعتزلة إن القرآن حادث في لغة، وفي مفردات عربية لم تكن موجودة منذ الأزل، بينما قرر الإمام ابن حنبل أن: كل ما بين دفتيْ المصحف قديم.

ومع أن المعتزلة هم أصحاب المنهج العقلاني، عمومًا، إلا أن الذين عاصروا (الإمام ابن حنبل) منهم، استَعْدَوْا عليه الخليفة العباسي. فكانت الويلات التي تعرَّض لها، وهي التي عرضنا لها في فصلٍ سابقٍ، وهو ما يُعرف في تاريخنا القديم بمحنة ابن حنبل. وهي محنة تشابه ما جرى مع عديد من أعلام الأئمة من (محن) أدَّت إلى ظهور وبلورة اتجاه أهل السنة والجماعة، أو أهل الحديث، أو السلف؛ في مقابل الاتجاهات المعتزلية.

ثم لمع المذهب السلفي بعد عدة قرون، مع عالم متبحِّر هو الإمام (تقي الدين ابن تيمية) الذي هو في واقع الأمر أعظم بكثير من الصورة الوهابية التي تم الترويج لها في العقود الأخيرة. وقد كان ابن تيمية أيضًا من أهل المحن والابتلاء، خصوصًا أنه عاش في زمانٍ مضطربٍ نال منه، فأمضى حياته في معاناة وعنت وسجن، حتى مات سجينًا. مع أن ابن تيمية كان يستشهد بقولٍ سابقيه: ستون سنة من إمامٍ جائرٍ (ظالم) أصلحُ من ليلة واحدة بلا سلطان (انفلات أمني).. وهو المبدأ الذي دفع بعض مشايخ السلفية المعاصرين، إلى منع أتباعهم من المشاركة في الثورة المصرية خشية انهيار النظام في البلاد، وتأكيدًا على المبدأ الشرعي/ السياسي الذي أرساه ابن تيمية.

كما كان إمامٌ سلفيٌّ آخر، هو ابن قيم الجوزية (ابن ناظر مدرسة ابن الجوزي) يرى أن الظلم ليس مبررًا للثورة على الحاكم، ما دام هذا الحاكم لم يأمر الناس بمخالفة قواعد الدين. مما جعل الاتجاهات «السلفية» المبكرة كلها، تؤكد أن نزع الشرعية عن الحاكم الظالم، ليس من الشرع. ولو علم الحكام العرب المعاصرون طبيعة الاستدلال بهذه المبادئ (الشرعية) لاستعملوها فورًا ضد الثوار في بلادهم، حتى لو كان إيمان هؤلاء بالشريعة الإسلامية لا يزيد عن إيمان الهندوس بها.

وفي العصر الحديث، أعني في الستين سنة البائسة التي مرت علينا بعد حركة (الأحرار) من الضباط عام ١٩٥٢، اتخذت السلفية وجهًا عنيفًا يخالف ما كان عليه أعلام السلفيين في القرون الماضية. فقد طفرت اتجاهات سُميت مؤخرًا «السلفية الجهادية» في مقابل «السلفية العلمية» التقليدية، وقد روعَّت السلفية «الجهادية» الناس وصار لها زعماء من نوع «صالح سرية» الذي طمح إلى الرئاسة فحدثت المأساة المعروفة في (الكلية الفنية العسكرية)، ومن نوع عبود الزمر الذي أراد التغيير الجذري، فحدثت المأساة المعروفة بحادثة المنصة وراح ضحيتها رئيسُ مصر أنور السادات.

وقد أدى هذا الوجه المتجهِّم للسلفية المعاصرة إلى الربط بينها وبين الوهابية، وهو ارتباط غير منكر على كل حال؛ كما أدى إلى غموض هذا المذهب الذي تفرعت عنه جماعات كثيرة، لم يستطع المفكرون المعاصرون الإحاطة بها، ولذلك وصف محمد عمارة السلفية بأنها: مصطلح غامض.. ووصفها فهمي هويدي بأنها: دعوة للاستقالة من الحاضر.. وكان زكي نجيب محمود يقول: السلفية حركة مضادة للمستقبل.

وفي الواقع المعاصر، تبدو السلفية اليوم على اختلاف الجماعات المندرجة تحت هذا الاسم، مضادة للعُرف العام ولأهل الطرق الصوفية وللأرثوذكس المونوفيست (النصارى) وللغرب الأمريكي والأوروبي (دار الكفر) وللمفكرين غير الإسلاميين (العلمانيين) بل وتبدو الجماعات السلفية أحيانا، مضادةً لبعضها البعض، لأن كل جماعة منها تزعم لنفسها اليقين الوحيد والإيمان القويم.

ومستقبل السلفية في مصر مرهون بالأمور نفسها التي أدت إلى انتشار هذا المذهب. فهو مرهونٌ بكفِّ أصحاب السلطة السياسية عن مغازلة أصحاب الزعامة الدينية، ومرهونٌ بتطوير الواقع المصري في القرى المنسية وفي العشوائيات والمناطق الفقيرة، التي طالما تحيَّزت لصالحها برامج التنمية، ومرهونٌ بوضوح صورة (الوطن) في الأذهان بعيدًا عن ألاعيب الدعاية المجانية التي تكتفي بترديد أجوف لمقولات من مثل: يحيا الهلال مع الصليب، قبطي يعني مصري، بيت العائلة..

* * *

كان ما سبق، هو المنشور بعد مرور ثلاثة شهور على قيام الثورة المصرية وتنحية الرئيس[1]، وبعد ذلك ببضعة شهور جرت أول انتخابات برلمانية حُرَّة، في ظروف غير حُرَّةٍ بالمرة. فقد كان العقل الجمعي المصري مشدوهًا تحت وطأة الاضطرابات التي تعم البلاد، وعيون الشباب التي تُفقأ بالطلقات الحكومية في شارع محمد محمود وحواف ميدان التحرير. وفجأة أُعلن عن «بدء الانتخابات في موعدها» بعد أيام قليلة، فنفض السلفيون والإخوان أيديهم مما يجري في الشارع المصري وسارعوا إلى جني ثمار الثورة بالانضمام إلى المشهد الانتخابي.. وبالفعل، نجح الإسلاميون نجاحًا فاق كل التوقعات، وصارت الأغلبية البرلمانية للإخوان وجاء من بعدهم في الترتيب السلفيون، بحيث صارت جملة الإسلاميين في البرلمان تصل إلى سبعين بالمائة. وأراد السلفيون دعم موقفهم السياسي بالمراهنة على مرشح الرئاسة «الواثق من فوزه» المحامي حازم صلاح أبو إسماعيل.

وراجت في الأجواء شائعةٌ تقول إن السلفيين قادمون للسلطة لا محالة، لا سيما أن الإخوان المسلمين أعلنوا وقتها أنهم لن يتقدموا بمرشح للانتخابات الرئاسية لكنهم عادوا وتقدموا لاحقًا بمرشحين اثنين، استُبعد الأول منهما لأسباب إدارية «خيرت الشاطر» وفاز الثاني «محمد مرسي» بمقعد الرئاسة.. لكن ذلك كان عقب الانتخابات البرلمانية لا يزال مستورًا في الغيب ومسطورًا في اللوح المحفوظ بعيدًا عن أعين المراقبين. وفي تلك الأثناء كان السلفيون ملء السمع والبصر، وقيل إن لهم في الشارع المصري شعبيةً كاسحةً، جعلت البعض منهم يزعم أن الإسكندرية هي معقل السلفية في مصر، والبعض الآخر ينادي بمدينة مرسى مطروح عاصمة للسلفية في مصر.. ولاحقًا، ظهر أن ذلك كله كان محض توهُّمات، إذ انحسر التيار السلفي سياسيًّا، بسرعة، مع تجاوزات الأعضاء (السلفيين) في البرلمان، ثم استبعاد المرشح السلفي من السباق الرئاسي، ثم تصويت غالبية الناخبين الإسكندرانيين لمرشح الرئاسة اليساري (الناصري) حمدين صباحي، ثم حل البرلمان الذي كان موئلًا للإسلاميين

---

(١) المصري اليوم، يوم ١١ مايو ٢٠١١.

(بحكم قضائي) ثم الانخفاض المريع في قبول الشارع المصري للملتحين اللاعبين في مضمار السياسة.

وفي المستقبل القريب، فيما أعتقد، سوف يلحق السلفيون بالإخوان المسلمين لتكوين جبهة موحَّدة (متأسلمة) تكون أقدر على الدخول في اللعبة السياسية بشكلٍ أشد تكتُّلًا، ولكن الإخوان سرعان ما سوف يضحُّون بالسلفيين مراعاة لقواعد اللعبة، لكي يصيروا هم الممثلين لتيار الوسط الديني بينما السلفيون هم المتشدِّدون. وهنا إما أن يتفكك هذا التيار السياسي، أو يتحول إلى حالة العنف الديني.

ويدعونا الموقف الحالي، ونحن الآن في منتصف صيف العام ٢٠١٢ إلى طرح السؤال السابق على نحوٍ أوسع، بحيث يشمل الإسلاميين عمومًا لا السلفيين وحدهم. وهو ما يدعوني لاستعادة ما نُشر قبل انتهاء العام ٢٠١١ بيومين اثنين، أعني المقالة التي كان عنوانها:

هل يكسب الإسلاميون أم يخسرون؟

بعد انتهائي من كتابة سباعية «إجهاض الثورة وإبقاء الفورة» تواردت عليَّ أفكارٌ عديدة عن السباعية الجديدة، وتحيَّرت في اختيار موضوعها، فقد رأيتُ أولًا أن أستكمل ما سبق بسباعية تالية يكون عنوانها «مناورات طريق الثورة» لعرض المفاهيم الأساسية التي من شأنها الإسهام في إنجاح ثورتنا وحفظها من الإجهاض والانقلاب إلى صورة (الفورة) المتهافتة التي يسهل القضاء عليها، مفرِّقًا على سبيل المثال بين التظاهر والثورة، على اعتبار أن «المظاهرة» هي أحد أشكال استعلان الثورة، لكنها ليست بالضرورة مرادفًا لها. غير أنني وجدت سيول الكلام عن الثورة والمظاهرات تجرف أذهان الناس، وصبرهم أيضًا، بحيث صار كثيرون لا يطيقون سماع هذه المفردات: ثورة، اعتصام، مظاهرة، مطالب فئوية، مؤامرات وأجندات خارجية.. إلخ.

ثم بدا لي أن الأنسب هو الخروج من هذا الصخب والزعيق السياسي، إلى آفاق إنسانية ومعرفية. كأن أختار موضوعًا (منسيًّا) كي لا ننسى أكثر، هو «المعلقات الشعرية

المعاصرة» لتصير أمامنا الفرصة لتأمل سبع قصائد بديعات، لا تقلُّ عندي أهميةً وبلاغةً وتبيانًا عن القصائد الجاهلية السبع، المشهورات بالمعلقات (لأنها عُلِّقت قبل الإسلام على جدران الكعبة) غير أن قصيدة «أمل دنقل» التي نويتُ البدء بها، لأنها تعجبني كثيرًا، وهي المعروفة بعنوان «البكاء بين يديْ زرقاء اليمامة» كان سيُفهم منها، أو بالأحرى ستكشف عن الرفض التام لاستدامة بقاء المجلس العسكري في حكم البلاد، بأكثر من الأشهر المعلن عنها كنهايةٍ لفترة ولايتهم الانتقالية. ثم رأيتُ تأجيل الكتابة في ذلك، خصوصًا أن المقالة التالية كان المفترض أن تدور حول رائعة محمود درويش «مديح الظل العالي» وهي مؤهَّلة هي الأخرى لإعطاء الانطباع نفسه.

وقد رأيتُ، آملًا في الخروج من الصخب الدائر حول (الثورة) التي اضطربت في الأذهان صورتها، أن أجعل السباعية حول الأفكار الفلسفية البديعة التي طرحها سبعة من أعمدة الحكمة في تراثنا، من أمثال الشيخ الرئيس (ابن سينا).. غير أن كثرة «المشايخ» الذين صاروا يتصدرون المشهد العام في مصر جعلني أميل إلى تأجيل طرح آيات الحكمة التي قدَّمها هؤلاء السابقون، حتى تصفو عقول القراء قليلًا فتكون مرحِّبة باستقبال حكمة هؤلاء الحكماء.

ولأن القبح صار يتسلل إلى الطرقات وينسرب في عدة مواضع، فقد خطر ببالي أن أخصِّص المقالات السبعة لجماليات التراث العربي/ الإسلامي، وتجلياته في الزخرفة والعمارة وتزيين المصحف. وهو موضوعٌ أثيرٌ عندي، وقضيتُ عدة سنوات قائمًا بتدريسه لطلاب كلية الفنون الجميلة بجامعة الإسكندرية، حتى شغلتني الشواغل قبل عامين عن مواصلة هذا الأمر الذي أحبه كثيرًا.. وفي غمرة انهماكي في التصوُّرات السابقة، وغيرها، أُعلنتْ نتيجة المرحلة الثانية من الانتخابات البرلمانية (بعد الإعادة) وظهرت بين الناجحين وجوهٌ تثير في النفوس الأمل، وتبعث على الطمأنينة، مع مواصلة التيارات المسماة (إسلامية) لتقدُّمها نحو البرلمان المصري القادم. فانحسم عندي الأمر، بضرورة النظر في الوضع السياسي المصري (الملتبس) بطرح السؤال الذي جعلته عنوانًا: هل يكسب الإسلاميون أم يخسرون؟.. وفي ذلك أقولُ:

كثر الكلام مؤخرًا عن المدِّ الديني الذي يجتاح المنطقة التي تقع مصر بقلبها. فالإسلاميون يصعدون إلى قمة المشهد السياسي في «المغرب» ذات النظام (الملكي) وقد تزايد حضورهم عبر سلالم الانتخابات الحرة. مثلما نجحوا قبل سنوات في الجزائر، عبر الصعود على السلم ذاته حتى كادوا يتسلَّمون الحكم (الجمهوري) هناك، لولا أنهم قُمعوا على يد العسكر الحاكمين، فسالت دماءٌ كثيرة في النواحي الجزائرية كلها وكثرت المذابح المروِّعة خلال العشرين سنة الأخيرة.

وفي الشهور الأخيرة صعد الإسلاميون إلى سُدة الحكم في تونس، بعد أول انتخاباتٍ حرةٍ تجري عقب فرار الرئيس المخلوع (زين الهاربين) في الوقت الذي يتصدر الإسلاميون المشهد الليبـي المريع الذي انقضى فيه حكم الطاغية المريع «القذافي» بنضالٍ مروِّع، ودم غزير، ومعارك لعب فيها الإسلاميون (الأفغان العرب) دورًا ملموسًا تحت غطاء الطلعات الجوية لحلف الناتو. وما لبث الإسلاميون أن تصدَّروا المشهد السياسي الليبـي فور إسقاط القذافي وتمزيقه، وقطع أصابع ابنه (سيف الاستسلام) عقابًا له على التلويح بها مهدِّدًا الثائرين على شاشات التلفزيون.

أما السودان والسعودية، فكلاهما بحسب المعلن فيهما منذ سنوات، نظامٌ سياسيٌّ إسلاميٌّ يستمد من الشريعة الإسلامية أصوله وتطبيقاته، الملكية في السعودية، والجمهورية الواحدية في السودان (أعني جمهورية الرئيس الواحد الذي لا يُداول السلطة مع غيره).. وفي الضفة والقطاع، بقايا فلسطين، تصدرت «حماس» المشهد السياسي مع أول انتخابات جرت هناك، وجرت بعدها المنازعات العنيفة بين «فتح» و«حماس» وليس بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وكُلُّ ما سبق ذكره، يمثل المد الديني الإسلامي (السُّني) الذي يتوازى مع المد الديني الإسلامي (الشيعي) في إيران الذي اشتدَّ، واستولى على زمام البلاد عقب الثورة التي أطاحت بالشاه «محمد رضا بهلوي» الإسلاميون المعروفون بالملالي، الطائعون لآيات الله (كبار الفقهاء الشيعة).. وبالمناسبة، فإن إيران التي كانت تعرف دومًا ببلاد فارس، كانت خلال الألف سنة الأولى من إسلامها سُنيةً، ثم حكمها الصفويون الذين

تنازعوا عسكريًّا وسياسيًّا مع العثمانيين (أهل السنة) فرءوا أنه من المفيد لهم أن يكون الصراع مذهبيًّا أيضًا، فنشروا المذهب الشيعي في البلاد.. ومن أيامها صارت فارس (إيران) شيعية.

هناك إذن، وحسبما يعتقد «مراقبون» كثيرون، حركة مدٍّ ديني إسلامي (سُنِّي) يشمل المغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان والسعودية وقطاع غزة، وهي الكيانات السياسية التي تقع مصر بقلبها؛ يتوازى مع حركة المدِّ الديني الإسلامي (الشيعي) في إيران والعراق وسوريا ولبنان وطاجيكستان وبعض مواطن من الخليج العربي.. وفي هذا السياق، يرى هؤلاء «المراقبون» أو هم بالأحرى يتوقعون، أن تكون الغلبة في مصر للإسلاميين. فتصير المنطقة كلها في المستقبل القريب، محلًّا لاستقرار الإسلاميين على الكراسي السلطوية جميعها، وهو ما يمهِّد في نظر المتطرفين من هؤلاء المراقبين، لإمكانية عودة الخلافة الإسلامية من جديد.. وهي الرؤية التي أراها محض خلط وتخليط، أو بتعبير أفصح: خَبط عشواء. وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: لا يوجد أصلًا ما يمكن تسميته «المد الديني» إلا لو كان كلامنا على بلاد لم تعرف الديانات من قبل، ثم انتشرت فجأةً فيها. أما في مصر التي اخترعت التدين قبل آلاف السنين، فمن السخف أن نتحدث عن (مدٍّ ديني) وهي التي كانت دومًا متدينة، بل عميقة التدين بعقائدَ متعاقبةٍ تجلَّت في الأديان المصرية القديمة، ومن بعدها المسيحية في ثوبها المصري الأرثوذكسي، ثم الإسلام السُّني الذي لم يتأثر كثيرًا بالزمن الشيعي الفاطمي.. وبالتالى فإن مصر من يومها الأول، الغابر، متدينة! وإلا، فما هذه الآثار الباقية عن القرون الخالية، وكلها تدل على امتداد التدين: الأهرامات، المعابد، الأعياد، الطقوس الاجتماعية (مثل إحياء ليلة «الأربعين» لأنها الوقت الذي تنتهي فيه عملية التحنيط للمتوفى).

وما سبق ينسحب أيضًا على البلاد العربية المحيطة التي تعيش في ظل الدين (الإسلامي) منذ قرون طوالٍ، بحيث يصعب التصديق بأنها تعيش الحالة المسماة «المد الديني» وهي التي كانت دومًا متدينة، سواء بالإسلام الذي انتشر في ساحل إفريقيا قبل

قرابة ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، أو بالمسيحية التي كانت لها أسقفيات عديدة بتلك النواحي من قبل انتشار الإسلام: أسقفية برقة (ليبيا) أسقفية قرطاج (تونس) أسقفية هيبو، أو مدينة عنابة حاليًا (الجزائر).

ثانيًا: هناك خلط مريع بين ما يسمى اليوم «المد الديني» وبين صعود الإسلاميين إلى المشهد السياسي العام، في بلادٍ كان معظمها يُدار بنظم ديكتاتورية تحجب إرادة الناس لصالح رغبات الحاكم. ومن الطبيعي عند زوال هذا الحاكم المستبد وإزاحته عن الكرسي، بالثورة الدموية أو السلمية أو بأي شكل كان، أن يحدث فراغٌ سياسيٌّ وأن يعبر الناسُ عن ذواتهم عند أول منصة تعبير، وهي الانتخابات، وبالتالي تظهر الرموز الدينية واضحةً.. ليس لأنها لم تكن موجودة ثم ظهرت فجأة، وإنما لأنها كانت محجوبة ثم سنحت لها فرصة الظهور.

تتلخص المسألة إذن، في أن هذه الشعوب ذات الأغلبية المسلمة (السنية والشيعية) لن يعبِّر عنها في أعقاب ثوراتها، إلا أُناسٌ من جنس هذه الغالبية العظمى للسكان. فإن كان «الشعب» على دين فلا بد لنوابه أن يأتوا معبرين عن هذا الدين، بصرف النظر عن درجة التدين لدى هؤلاء النواب. فالجمهور المسيحي لن يختار في الغالب نائبًا بوذيًّا له خصوصًا في شعوب العالم الثالث، والرابع، والأخير.

ثالثًا: إن النتائج السياسية لأي انتخابات حقة (حرة) لا بد لها أن تعكس في المرات الأولى الواقع الاجتماعي السائد. لأن الناس في البلاد التي تكون جديدة العهد بالديمقراطية، لم تتعلم بعدُ عمليات الاستشراف السياسي المستقبلي، وهم لا يختارون إلا الذين كانوا يعرفونهم من قبل (في زمن الاستبداد) ويعتقدون أنهم يختلفون عن الحاكم المستبد الذي سقط.. يختلفون لأنهم في وعي البسطاء، قومٌ يوصفون بالتعبير المصري العامي (يعرفوا ربنا) وبالتالي فهم الأقرب والأنسب للحكم، ولا بأس في اختيارهم نوابًا وحكامًا، على أمل أن يرى الناس جديدًا.

إن فساد نظام مبارك، ومن قبله عوار حكم الضباط الأحرار (جدًّا) أدى إلى تدهور اجتماعي كبير، كان الموصوفون اليوم بالإسلاميين يلعبون دورًا واقعيًّا في ضبطه

والتخفيف من وطأته. فلما جاءت فرصة الانتخابات لأول مرة، حدث خلط في أذهان العوام بين ما هو اجتماعي (معروف لهم) وما هو سياسي (اختيار نائب في البرلمان) وذلك على النحو الذي أبان عنه الصديق مجدي الجلاد في مقالته العجيبة التي نشرها فور الإعلان عن تصدُّر «الإخوان المسلمين» للمشهد الانتخابي، وجعلها بعنوانٍ دالٍّ على أنه (اكتشف أنه إخواني) لأنه كان يوصِّل هو وأصدقاؤه مساعدات للفقراء عن طريق جمعيات خيرية، اكتشف مؤخرًا أنها من المؤسسات الاجتماعية لجماعة الإخوان المسلمين.

لكن هذا الخلط بين الاجتماعي والسياسي لن يطول، فسرعان ما سوف يكتشف العامة من الناس أن أولئك «الطيبين» الذين كانوا يخفِّفون على الفقراء وطأة الظلم الاجتماعي، ليسوا بالضرورة هم الأفضل للحكم السياسي. بل أكثر من ذلك، سوف يطالبونهم بالكثير ثم يكرهونهم، لأن الناس اعتادت أن ترى في (الإسلاميين) بديلًا يسد النقص الناتج عن فشل برامج التنمية الحكومية، فإذا صار هؤلاء البدلاء هم اللاعب الرئيس. طالبهم الناس بإحراز الأهداف ورفع المظالم وإيصال الخير العام على نطاق واسع، مثلما كانوا يفعلون لهم من قبل على نطاق ضيق. ولن يتهاون الناخبون مع الحاكمين الجدد الذين سوف يرتدون عباءة «الحاكم» بكل ما تلقيه هذه العباءة من ظلالٍ على الواقع المؤهَّل تلقائيًّا لكراهية الذين يحكمون.

رابعًا: إن الموصوفين بالإسلاميين لم يتصدروا المشهد الانتخابي على هيئة واحدة، وليسوا جميعًا على قلب رجلٍ واحدٍ حسبما يبدو حالهم من بعيد. فهم أطيافٌ وأمشاجٌ وسبلٌ شتى، ولكل جماعةٍ منهم شرعةٌ ومنهاج. فالسلفيون غير الإخوان، والجماعات السلفية متفرقة الرؤى، وميَّالة بالطبع لإزاحة المختلف عنها، والحذر من المؤتلف معها. وكذلك الحال عند الجماعة المسماة إجمالًا (الإخوان المسلمين) فهم وإن ظهروا للناس بمظهر واحد يتمثل في اللباس الديني واللحية الخفيفة والوجه الهادئ (تمييزًا لهم عن اللحية الكثة والوجه المتجهم لمعظم السلفيين) إلا أنهم في واقع الأمر ذوو مشارب شتى. وقد صدرت قبل الثورة المصرية التي اندلعت في يناير ٢٠١١

ولم تخمد بعد، كتبٌ كثيرة كتبها «الإخوان» ضد «الإخوان». فضلًا عن الخلافات الواضحة بين «شباب الإخوان» من ناحية، ومن ناحية أخرى «شيوخ الإخوان».

ومعروفٌ أن كل اتجاه ديني يلعب دورًا سياسيًّا، فهو يحمل في باطنه بالضرورة بذور انشقاقه على ذاته.. لماذا؟.. لأن المتصدر سياسيًّا باسم الدين، ينظر لذاته على اعتبار أنه الناطق باسم الإله في الأرض، وبالتالي فهو يرى أن الحق واحدٌ ولا يمكن أن يتعدَّد (وهذا نقيض الأساس الديمقراطي) وهو في نهاية المطاف قد «يتحمل» المخالفين لكنه لن يوافقهم أبدًا، لأنه الصورة الواقعية في الأرض للإله (الواحد) والمعبر بشكلٍ تلقائيٍّ عن الحق (الواحد) والأنسب بحسب ما يعتقد لأن يكون الحاكم (الواحد).

فإذا نظرنا للسؤال الذي جعلته عنوانًا، في ضوء ما سبق ذكره؛ خلصنا في النهاية إلى ما يلي: من المنطقي أن يتقدم الموصوفون بالإسلاميين، في أول انتخابات تجري بين جمهور فيه أغلبيةٌ مسلمة. فهم من هذه الزاوية (المؤقتة) يكسبون، لكنهم بعد أول اختبار سوف يخسرون لا محالة للأسباب المذكورة سابقًا، ومن ثم فلا عجب أن (يكتسح) هؤلاء المشهد الانتخابي، فيكون هناك ما يوحي بالتعبير الإعلامي الساذج «المد الإسلامي».. ثم بعد «المد» يأتي «الجزر» لا محالة، وتنحسر الموجةُ بالطريقة السريعة التي تمددت بها، وينعكس الحال بالآلية الديمقراطية ذاتها مع أي انتخابات تجري بعد سنوات. اللهم إلا إن حدث واحد من أمرين لا ثالث لهما. الأمر الأول: أن يتمازج «الإسلاميون» مع بقية النسيج الاجتماعي الذي أبرزَهم وِهو نسيج إسلامي أصلًا، فلا يصيرون من بعدُ مستحقين لهذا الوصف الملتبس: الإسلاميين.. والأمر الآخر، أن يلجأ هؤلاء المتصدِّرون إلى استعمال الحق الإلهي (المتخيَّل) والحق الانتخابي (الفعلي) في هدم الآلية التي تصدروا بها المشهد السياسي، وهي الديمقراطية، كيلا يتفوق عليهم غيرهم مستقبلًا.

أرجو أن يحدث الأمر الأول[1].

---

(١) نشرت هذه المقالة يوم ٢٨/ ١٢/ ٢٠١١.

المحتويات

كتبُ الدكتور يوسف زيدان

- المقدمة في التصوف، لأبي عبد الرحمن السلمي «تقديم وتحقيق»، مكتبة الكليات الأزهرية (القاهرة ١٩٨٧).
- عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية «تأليف»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب) ١٩٨٨.
- الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي «تأليف»، دار النهضة العربية (بيروت ١٩٨٨).
- شرح فصول أبقراط لابن النفيس «دراسة وتحقيق»، دار العلوم العربية (بيروت ١٩٨٨).
- شعراء الصوفية المجهولون «تأليف»، مؤسسة الأخبار (القاهرة ١٩٩١).
- ديوان عبد القادر الجيلاني «دراسة وتحقيق»، مؤسسة الأخبار (القاهرة ١٩٩١).
- ديوان عفيف الدين التلمساني «دراسة وتحقيق»، مؤسسة الأخبار (القاهرة ١٩٩١).
- قصيدة النادرات العينية للجيلي مع شرح النابلسي «دراسة وتحقيق»، دار الجيل (بيروت ١٩٨٨).
- الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر «تأليف»، دار الجيل (بيروت ١٩٩١).
- عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب «تأليف»، دار الجيل (بيروت ١٩٩١).
- رسالة الأعضاء، لابن النفيس «دراسة وتحقيق»، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت ١٩٩١).

- المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس «دراسة وتحقيق»، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت ١٩٩١).
- المختار من الأغذية، لابن النفيس «دراسة وتحقيق»، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت ١٩٩٢).
- شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلي «دراسة وتحقيق»، دار سعاد الصباح (القاهرة ١٩٩٢).
- فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى «دراسة وتحقيق»، دار سعاد الصباح (القاهرة ١٩٩٣).
- التراث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات «تأليف»، دار الأمين (القاهرة ١٩٩٤).
- فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية «الجزء الأول»، معهد المخطوطات العربية (القاهرة ١٩٩٤).
- فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية «الجزء الثاني»، معهد المخطوطات العربية (القاهرة ١٩٩٥).
- نوادر مخطوطات بلدية الإسكندرية «كتالوج مصوَّر»، برنامج الأمم المتحدة للتنمية (مكتبة الإسكندرية ١٩٩٥).
- فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوي «الجزء الأول»، معهد المخطوطات العربية (القاهرة ١٩٩٦).
- فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوي «الجزء الثاني»، معهد المخطوطات العربية (القاهرة ١٩٩٧).
- فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوي «الجزء الثالث»، معهد المخطوطات العربية (القاهرة ١٩٩٨).
- فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المخطوطات العلمية»، مكتبة الإسكندرية ١٩٩٦.

- بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية «كتالوج مصوَّر»، مكتبة الإسكندرية ١٩٩٦.
- التقاء البحرين «نصوص نقدية»، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت ١٩٩٧).
- فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي «التصوف، التفسير، السيرة، الحديث»، مكتبة الإسكندرية ١٩٩٧.
- حَيّ بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها، الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة ١٩٩٧).
- المتواليات «دراسات في التصوف»، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت ١٩٩٨).
- المتواليات (فصول في المتصل التراثي المعاصر)، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت ١٩٩٨).
- فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التصوف وملحقاته»، مكتبة الإسكندرية ١٩٩٨.
- فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور، مؤسسة الفرقان (لندن ١٩٩٨).
- فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التاريخ والجغرافيا»، مكتبة الإسكندرية ١٩٩٩.
- ابن النفيس، إعادة اكتشاف «تأليف»، المجمع الثقافي (أبو ظبي ١٩٩٩).
- فهرس مخطوطات شبين الكوم، مؤسسة الفرقان (لندن ٢٠٠٠).
- فهرس مخطوطات المعهد الديني بسموحة، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٠.
- فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي «أصول الفقه وفروعه»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٠.
- فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المنطق»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠١.
- فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «الحديث الشريف»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠١.
- فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا، معهد المخطوطات العربية (القاهرة ٢٠٠١).
- فهرس مخطوطات دير الإسكوريال، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٢.
- ماهية الأثر الذي في وجه القمر، لابن الهيثم «دراسة وتحقيق»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٢.

ـ مقالة في النقرس، للرازي «دراسة وتحقيق»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٣.

ـ مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٣.

ـ التصوف «تأليف»، الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة ٢٠٠٤).

ـ المخطوطات الألفية «تأليف»، دار الهلال (القاهرة ٢٠٠٤).

ـ الشامل في الصناعة الطبية «دراسة وتحقيق» ثلاثون جزءًا، المجمع الثقافي (أبو ظبي ١٩٩٧ - ٢٠٠٤).

ـ ظل الأفعى «رواية»، دار الهلال (القاهرة ٢٠٠٦).

ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الألفية «تقديم وتحرير»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٦.

ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الموقَّعة «تقديم وتحرير»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٨.

ـ كلمات: التقاط الألماس من كلام الناس «تأليف»، دار نهضة مصر (القاهرة ٢٠٠٨).

ـ عزازيل «رواية»، دار الشروق (القاهرة ٢٠٠٨).

ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الشارحة «تقديم وتحرير»، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٩.

ـ اللاهوت العربي وأصول العنف الديني «تأليف»، دار الشروق (القاهرة ٢٠٠٩).

ـ النبطي «رواية»، دار الشروق (القاهرة ٢٠١٠).

ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المترجمة «تقديم وتحرير»، مكتبة الإسكندرية ٢٠١٠.

ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المطوية «تقديم وتحرير»، مكتبة الإسكندرية ٢٠١٠.

ـ محال «رواية»، دار الشروق (القاهرة ٢٠١١).

ـ متاهات الوهم «تأليف»، دار الشروق، (القاهرة ٢٠١٣).

ـ دوَّامات التديُّن «تأليف»، دار الشروق، (القاهرة ٢٠١٣).

ـ فقه الثورة «تأليف»، دار الشروق، (القاهرة ٢٠١٣).

متاهات الوهم

تدور صفحاتُ هذا الكتاب بقارئه فوق المدارات التي تأخذ بالعقل الجمعي، العربي والمصري، إلى التيه الجماعي المؤدي بالضرورة إلى حالة (الخبَل العام) بسبب اصطخاب أفكارنا حول محاور وهمية واعتقادات خيالية لا يؤكدها إلا التاريخ الرسمي المغلوط.. والفصول السبعة للكتاب، تسعى لتبديد هذه (التوهمات) وتثير شغف القارئ إلى إعادة النظر في خرافات تخايل الأذهان، ويؤسس عليها وعيٌ مغلوط يتوسل بالمغالطات إلى تحقيق الطموحات المرادة من هؤلاء الساعين إلى تجهيل الناس لإحكام القياد حول رقابهم: ومن ثمَّ إلى السيطرة التامة عليهم.

وخلال إعدادي هذا الكتب، كانت ترن في أذني عبارة العماد الأصفهاني وتتردد أصداؤها في أعماق ذاتي، حيث يقول هذا الرجل النابه: «إنه لم يُرَ أحدٌ كتب كتابا وعاد إليه (بعد فترة) إلا وقال: لو غيرت هذا لكان أحسن، ولو عدلت ذلك لكان يُستحسن. وهذا دليل على استيلاء النقص على جملة البشر». وهذا معنى عميق، لو كان كاتبه أفصح لجعل ختام عبارته: « وهذا دليلٌ على طلب الكاتب، للكمال المستحيل».



يوسف زيدان: روائى ومفكر وباحث عربى متخصص في التراث القديم.
كان مولده فى سوهاج، بصعيد مصر، ونشأته بالإسكندرية التى حصل من جامعتها على درجة الدكتوراة. ثم حصل على درجة الأستاذية فى الفلسفة وتاريخ العلوم، عام ١٩٩٩. بلغت مؤلفاته وأعماله الفكرية والتراثية والروائية، قرابة الستين كتابا، ونالت عديدا من الجوائز الدولية المرموقة.
أنشأ مركز المخطوطات ومتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، وظل مديرا لهما حتى هجر المكتبة سنة ٢٠١٢.

أصدرت له دار الشروق رواياته الأربعة «عزازيل» ٢٠٠٨ التي فازت بالجائزة العالمية للرواية العربية في ٢٠٠٩، وجائزة أنوبى لأفضل كتاب مترجم إلى الإنجليزية فى ٢٠١٢، و«ظل الأفعى» ٢٠٠٧، و«النبطي» ٢٠١٠، و«محال» ٢٠١١ وكتاب «اللاهوت العربى» ٢٠٠٩، وتتصدر أعماله قائمة الكتب الأفضل مبيعا، منذ صدورها وحتى الآن.

دار الشروق
www.shorouk.com
9 789770 932131


Exclusive
For
www.ibtesama.com